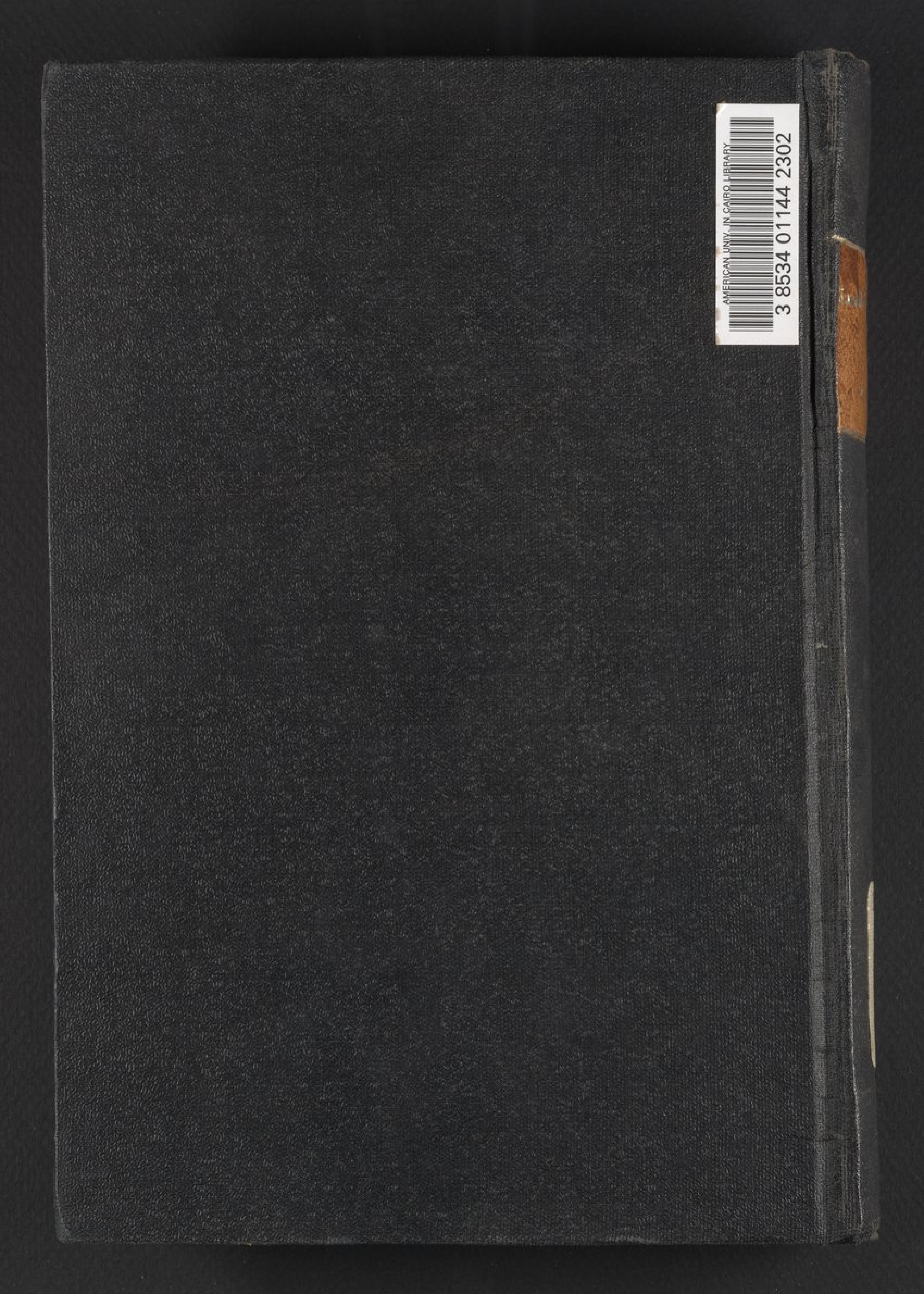
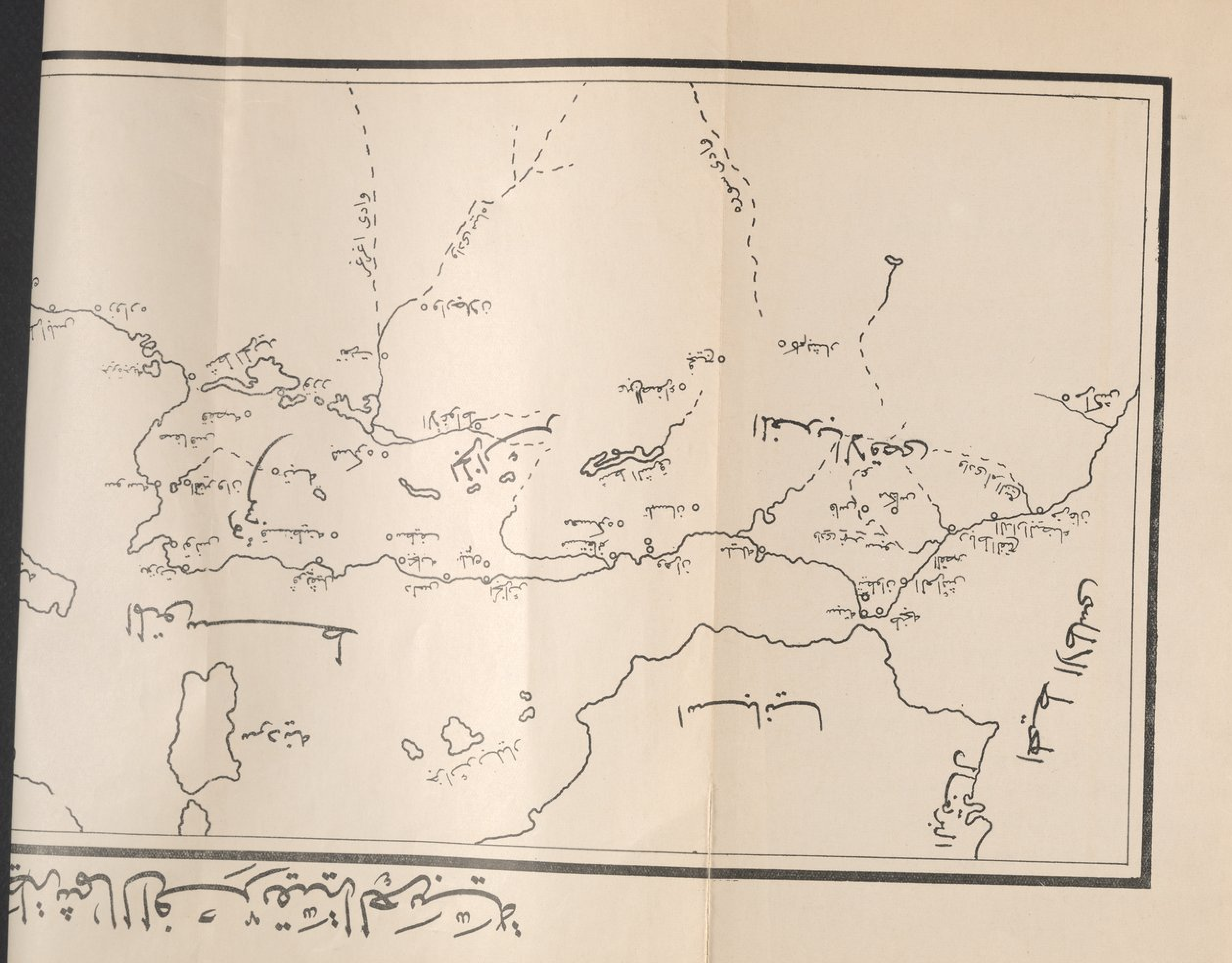
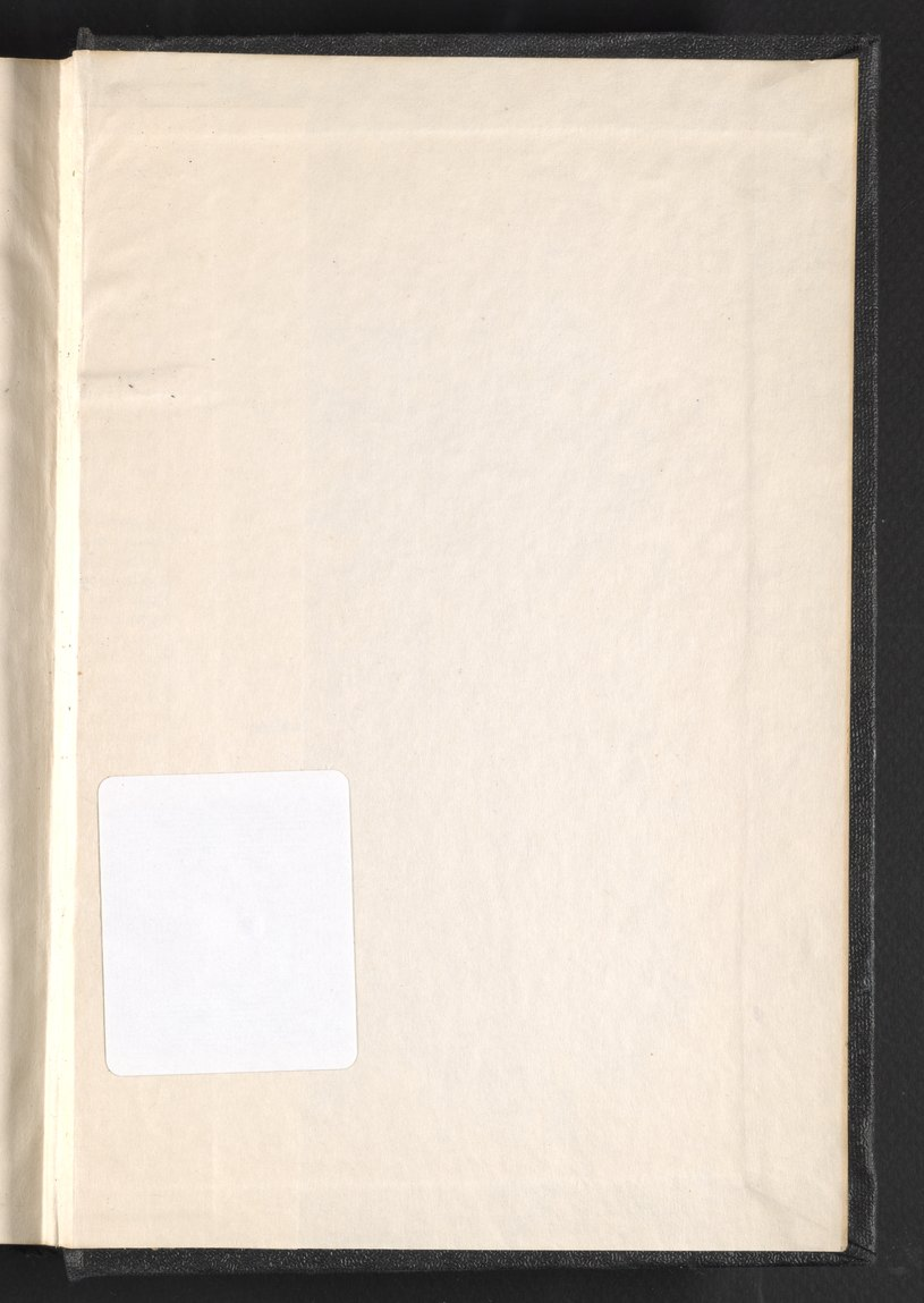
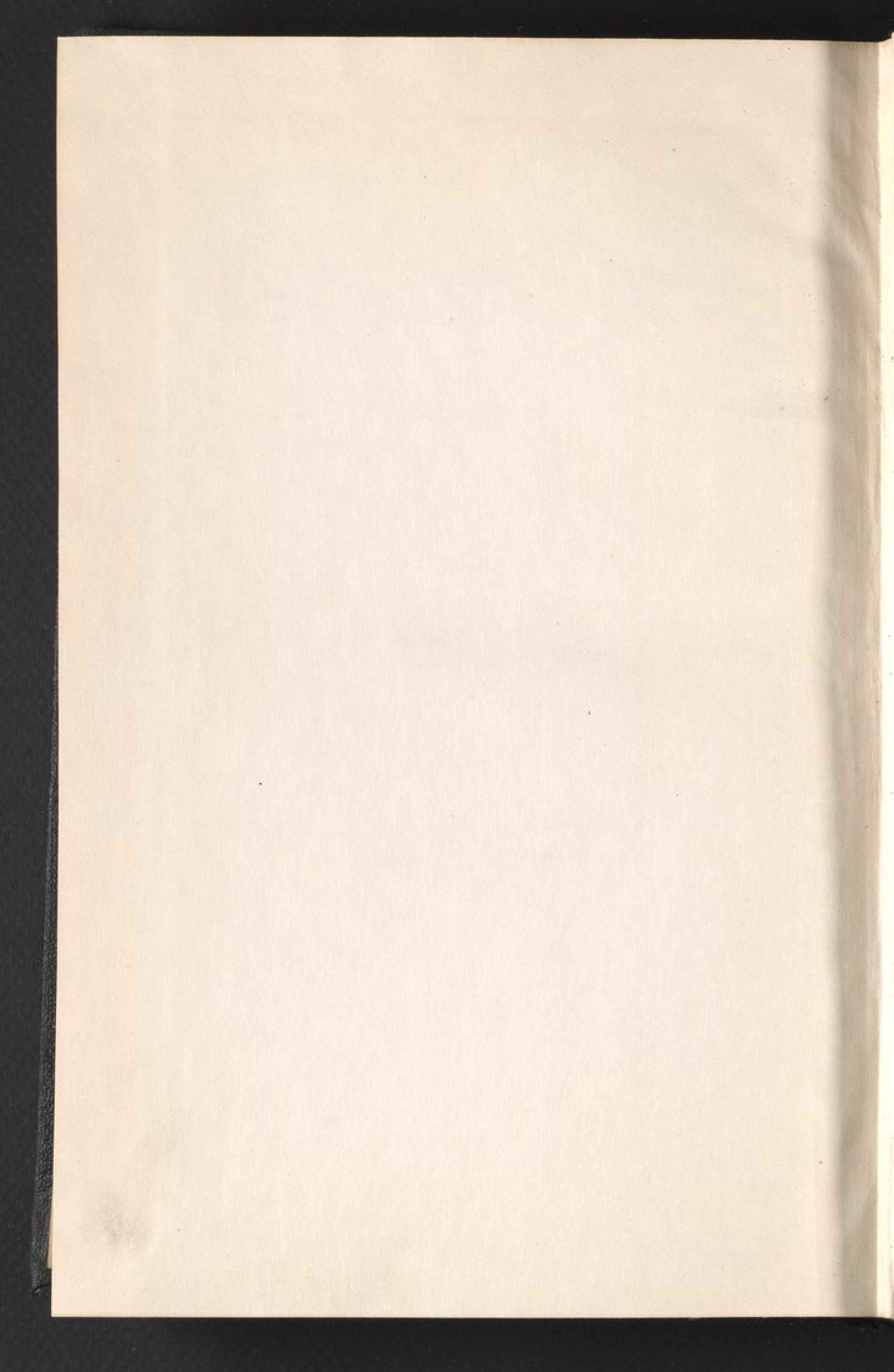
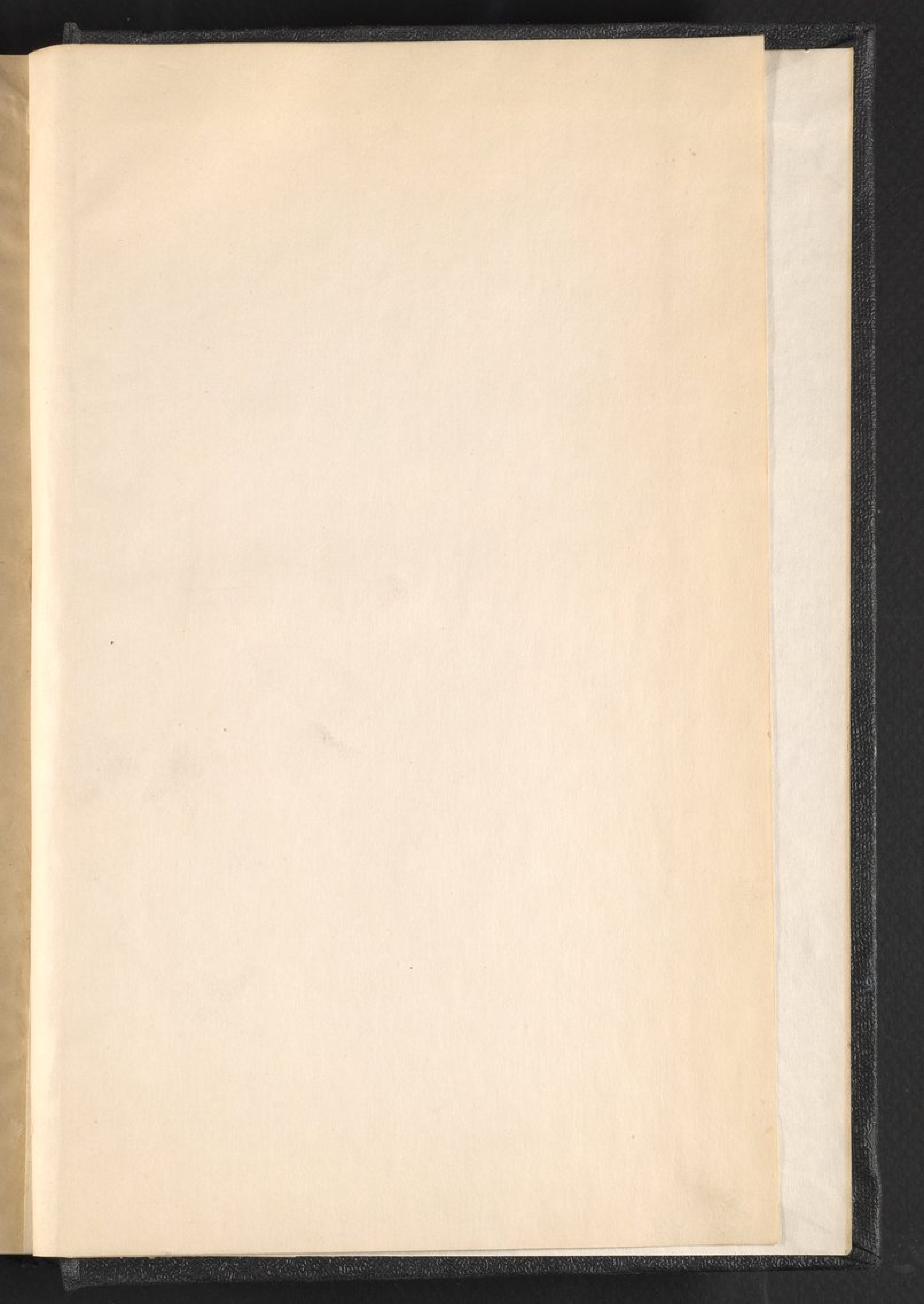










الدولة العربية المتحدة

تاريخ الاستعمار الاوربى فى بلاد العرب
تاريخ اليقظة القومية الجديدة عند العرب
برنامج عملى لانشاء الاتحاد العربى

تأليف

أمين سعيد

الجزء الثانى

تاريخ الاستعمارين الفرنسوى والأيطالى فى بلاد العرب

طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر

للمؤلف

ملوك الاسلام المعاصرون ودولهم

الثورة العربية الكبرى:
- النضال بين العرب والترك
- « « « والفرنسويين والانكليز
- امارة شرقي الاردن وقضية فلسطين وسقوط الدولة الهاشمية وثورة سورية

ايام بغداد

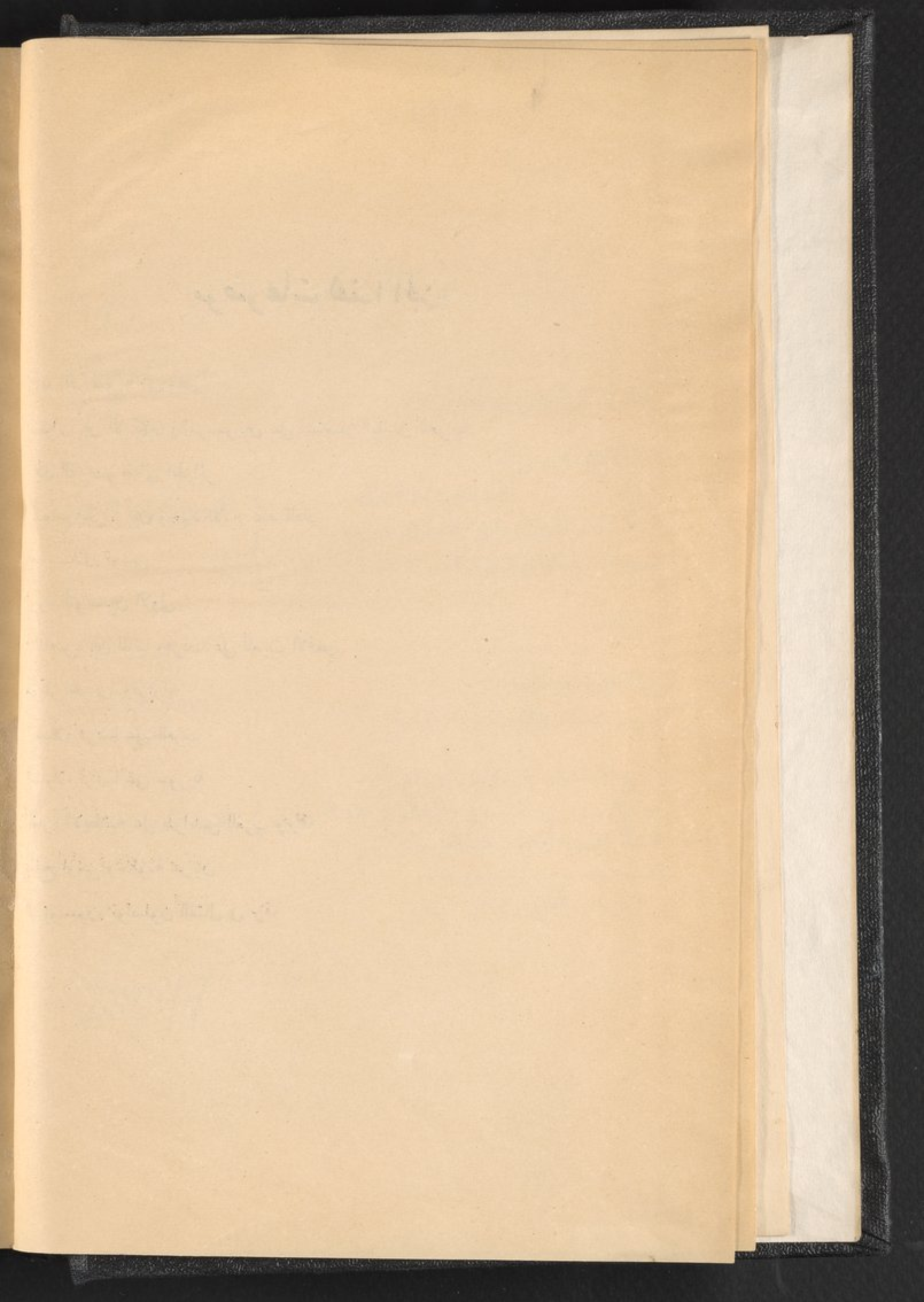
تاريخ الاسلام السياسي:
- نشأة الدولة الاسلامية
- حروب الاسلام والامبراطورية الرومية

الدولة العربية المتحدة:
- تاريخ الاستعمار الانكليزي في بلاد العرب
- تاريخ الاستعمارين الفرنسوي والايطالي في بلاد العرب
- اليقظة القومية الجديدة عند العرب (١)

---

(١) تحت الطبع ويصدر قريبا

موضوعات هذا الجزء

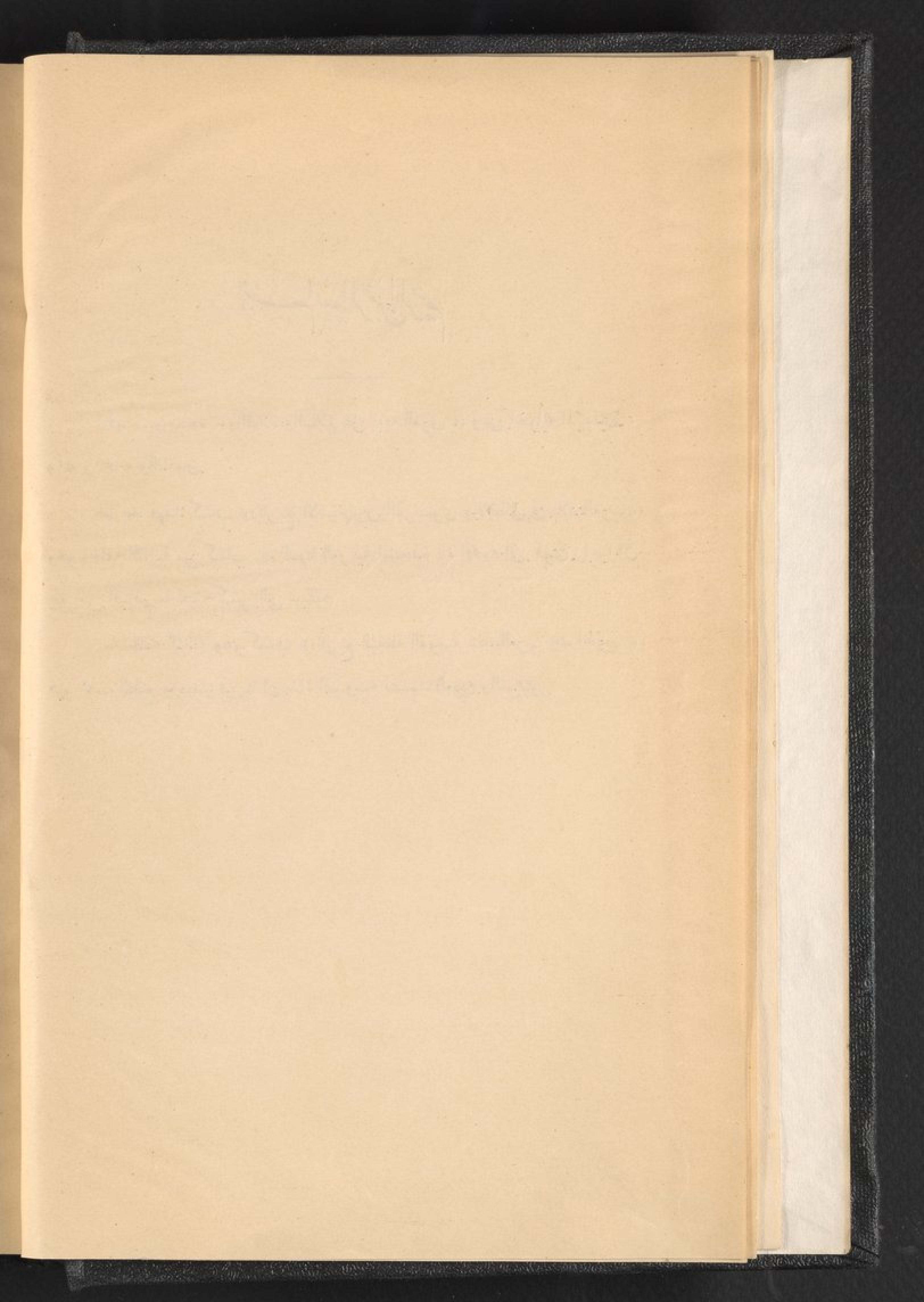


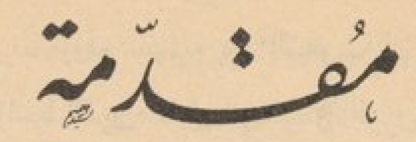
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على نبيه العربى ، وعلى اخوانه المرسلين ، وآله واصحابه والتابعين

اما بعد فهذا كتاب « تاريخ الاستعمارين الفرنسوى والايطالى فى بلاد العرب » وهو الحلقة الثانية من كتاب « الدولة العربية المتحدة » اقدمه الى قومى راجيا ان يلقى من اقبالهم ما لقيته كتبى التى سبقته

اما الحلقة الثالثة وهو كتاب « تاريخ اليقظة القومية عند العرب بعد الحرب » فهو تحت الطبع و يصدر قريبا ان شاء الله ومنه نستمد العون والتوفيق





مقدّمة

موضوع هذا الكتاب - وهو تاريخ الاستعمارين الفرنسوى والايطالى فى بلاد العرب - من الموضوعات الجديدة التى لم يؤلف فيها باللغة العربية ، ولم يعن بدراستها العناية اللازمة ، فقد شغل كتاب العرب المغاربة بالاحداث التى تتالت على بلادهم ، سحابة القرن الماضى ، عن تدوين تاريخ افريقية الشمالية السياسى الحديث ، كما أهمله كتاب العرب المشارقة لضعف الروابط وتراخيها ، ولا يستثنى من ذلك سوى تاريخ الحملة الفرنسوية الى مصر فقد الفت فيه المطولات . وبز الكتاب الاجانب العرب من هذه الناحية ، وتكاد المكتبة الفرنسوية تغص بالمؤلفات المختلفة فى شؤون الجزائر وتونس ، والمغرب الاقصى ، ومثل ذلك المكاتب الالمانية والانكليزية والايطالية

ولقد اضطررت - فى معظم الاحيان - ان اعتمد على المصادر الفرنسوية فى استيفاء بعض المباحث ولا سيما فى الحصول على الوثائق والمعاهدات السياسية ، والمكاتبات الرسمية ، كما اعتمدت على مجموعات الصحف اليومية ولا سيما على مجموعتى المقطم والمؤيد فراجعتها صفحة صفحة من سنة ١٩٠٤ حتى ١٩١٤ واستخرجت منها كثيرا من المعلومات والاخبار واليها استندت فى كتابة معظم ما كتبت وفى استنتاج اكثر ما استنتجت فاذا كان هنالك خطأ او نقص ، فهو غير مقصود ، وارجو ممن يطلع عليه ، ان يتفضل بالكتابة الى لتلافيه وتداركه فى الطبعة المقبلة ، فالكمال لله وحده . وحسبى انى عبدت الطريق امام من يريد التوسع فى هذا الموضوع الخطير الذى لو الفنا فيه مئات الكتب لما استوفيناه فهو فسيح الرحاب ، متسع الجنبات ، وكيف لا يكون كذلك وهو يتناول تاريخ شعوب ما برح النضال مستمرا بينها من قرون طويلة ، لا يخبو الا ليشتد ، ولا يضعف الا ليقوى

والواقع ان ما بين الشعب العربي والشعوب اللاتينية المجاورة له وهي الفرنسوية والايطالية والاسبانية يختلف اختلافا كبيرا عما بينه و بين الشعوب الاوربية الاخرى فلم يقع بين هذه و بين العرب ماوقع بينهم و بين الشعوب اللاتينية التي صيرهم الاستيلاء على افريقية الشمالية في اواسط القرن الاول للهجرة (القرن الثامن المسيحي) جيرانا لها فكان اتصال فاحتكاك فنضال وهو النضال الذي لايزال مستمرا منذ ١٢ قرنا تقريبا . فمرة يكون العرب مهاجمين وفاتحين ومستعمرين ، واخرى يكون اللاتينيون فائزين والدهر حول قلب فيوما يبتسم لهؤلاء ويوما يعبس لاولئك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا

لقد بدأ النضال الحقيقي بين العرب واللاتين منذ ما استقر العرب في المغرب الاقصى وعبروا منه الى البر الاوربي فهاجموا اللاتين في عقر دارهم وقوضوا ممالكهم فاجتاحوا اسبانيا وفرنسا وايطاليا واوغلوا في قلب اوربا واضعين نصب اعينهم اختراقها من غربها الى شرقها فقد كانت الخطة العسكرية التي رسمها موسى بن نصير قائد جيش العرب العام في افريقية تقضي بان يسير من جبل طارق وهو البرزخ المائي الذي يفصل بين اوربا وافريقية حتى القسطنطينية فيعبر البحر الى الضفة الاسيوية و يسير الى دمشق فتدخل اوربا في ملك الدولة العربية الاموية كما دخلت افريقية وآسيا .وحال موت الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان وحلول اخيه سليمان محله في الدست دون تحقيق هذه الخطة فقد استدعى موسى بن نصير من اسبانيا ونكل به وجازاه جزاء سنمار لامور شخصية نقمها عليه

وواصل القواد العرب الذين خلفوا موسى في منصبه الكفاح والنضال عاملين على قهر الشعوب اللاتينية واخضاعها ، فوصلوا في زحفهم الى بوردو كما وصلوا من الجهة الاخرى الى سواسون بفرنسا فاقلق نشاطهم اوربا فتداعى رجالها وقادتها وزعماؤها لجمع الكلمة وتوحيد الصفوف لمقاومة الغزاة العرب وصد تيارهم الجارف فكانت معركة بواتية سنة ٧١٣ آخر معركة دارت في ذلك العهد بين العرب الذين كانوا بقيادة عبد الرحمن الغافقي اليماني و بين الشعوب الاوربية بقيادة شارل مارتيل الالماني اي ان اوربا

كلها وقفت صفا واحدا امام العرب فى تلك المعركة فكان هنالك الفرنسوى الى جانب الالمانى والايطالى الى جانب الاسبانى والسويسرى الى جانب البولونى فقد الف الخطر العربى بينهم وانساهم ما بينهم من فوارق وحزازات وانتهت المعركة باستشهاد القائد العربى العظيم فارتد جيشه فى الظلام الى قواعده فى اسبانيا فكان ذلك خاتمة النضال فى قلب اوربا

وبينما كان قواد الدولة العربيـــة فى غربى اوربا يصولون ويجولون وينازلون الشعوب اللاتينية ويهزمونها كانت هنالك قوات عربيـــة اخرى تهاجم شرقى اوربا وتقاتل الروم البيزانطيين فى عقر دارهم فقد وضع الامويون الاستيلاء على القسطنطينية فى برنامج دولتهم الجديدة وكانت اول حملة وجهت لفتحها تلك التى سيرها معاوية ابن ابى سفيان سـنة ٤٩ هـ بقيادة سفيان بن عوف المرى ثم تتابعت الحملات مخترقة الاناضول من شماله الى جنوبه فى خــلال النصف الثانى من القرن الهجرى الاول وآخرها تلك التى سيرها الوليـد بن عبد الملك سـنة ٩٩ للهجرة بقيادة اخيه مسلمة فاقامت حولها سنتين وكانت التعليمات التى اصدرها الخليفة الى قائده العام تقضى عليه بان لا يرجع عنها حتى يفتحها ويسخرها ويرفع عليها راية العرب ولو لم يبق معـه جندى واحد .

وقد اشتركت اساطيل العرب القادمة من مصر والشام وشمالى افريقية وكان لكل منها أسطول خاص فى تلك الحملة وبلغ عدد سفنها نحو ١٥٠٠ سفينة . ولم ينقذ عاصمة الروم من ايدى العرب سوى موت الخليفة الوليد وحلول عمر بن عبـد العزيز محله ، وكان زاهدا ، تقيا ورعا كارها لسياسة الفتح والتوسع ، فاصدر امره باعادة الحملة كما اصدر امرا آخر الى قائد الجيش العربى العام فى غربى اوربا بوقف حركة الزحف اى انه اوقف اعمال العرب العسكرية فى غربى اوربا وفى شرقيها ، واستؤنفت هـذه الاعمال فى عهد هشام بن عبد الملك فقد كان عالى الهمة ، واسع الحيلة ، بعيد النظر ، كبير المطامع واثمرت اعظم الثمار

وكان هنالك جيش عربى ثالث يعمل فى اســيا الوسطى وهو جيش العراق او

جيش الحجاج بن يوسف الثقفى فقد سير هذا جيشين قويين لاخضاع الهند والشرق الاقصى (الصين) فقاد الاول قتيبة بن مسلم الباهلى الفاتح العربى العظيم فاستولى على افغانستان وتركستان وواصل التقدم حتى حدود الصين. وقاد الجيش الآخر وكانت وجهته الهند محمد بن القاسم الثقفى فاستولى على السند واصقاعها وواصل الزحف حتى حدود الهند فمهد للقواد الذين جاءوا من بعده

فهذا البيان التاريخى الوجيز يدل على ان العرب لم يضعوا السلاح من ايديهم حينما آنسوا من انفسهم القوة بل فعلوا كل ما يفعله شعب ناهض، وثاب الى المجد فانساحوا فى اربعة اطراف المعمورة يكتسحون الممالك ويثلون العروش ويهدمون الدول فنالوا من النجاح والفوز ماقصرت عنه جميع شعوب الارض ما تقدم منها وما تأخر فاسسوا فى خلال قرن ونيف اى منذ خروجهم من جزيرتهم فى عهد الخليفة الاول ابى بكر سنة ١٣ حتى موت الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٧ امبراطورية ماعرف التاريخ اعظم منها كانت حدودها تمتد من بوردو فى فرنسا حتى كاشغر فى الصين ومن جبال حملايا حتى اواسط افريقية وهى الامبراطورية التى يجب على كل عربى ان يعمل لاحيائها وتجديدها فليس هنالك مستحيل

وتتابعت بعد ذلك الحروب بين الاسلام واوربا وحمل العثمانيون على القسطنطينية فاستولوا عليها وتدفقوا على شرقى اوربا فثلوا ممالكها وعروشها فايقظ ذلك شعوب اوربا الشرقية فنهضت لقتالهم واتحدت على مقاومتهم فشغلوا بحروبها وبالفتن الداخلية التى كانت تشب فى الممالك التى خضعوها للتخلص من ظلمهم وعسفهم، عن الاهتمام ببلاد العرب، النائية عن عاصمة ملكهم ومقر حكمهم، فاطمع ذلك الشعوب اللاتينية وهى فى غربى اوربا وكانت قد نهضت واستيقظت فوثبت على بلاد العرب فى شمالى افريقية فاستصفتها قطرا بعد قطر وبلدا بعد بلد

ويرى الباحث ان الشعوب اللاتينية لم تبلغ مابلغته من العرب ولم تسيطر على بلادهم الغربية الا بسبب تفرقهم وتخاذلهم وتشتت كلمتهم وانعدام كل صلة تقريبا بين عرب المغرب وعرب المشرق، فلم ينجد بعضهم بعضا ولم يأخذ الأخ بضبع اخيه، ولم ينهض الجار لمساعدة جاره خلافا لما تقضى به قواعد الاسلام ومبادؤه

لقد شغل عرب المشرق فى خلال الفترة التى اغار فيها الفرنسويون على الجزائر بحروب محمد على باشا مع الامبراطورية العثمانية وحال بعد الشقة وقلة وسائل المواصلات ، ولم تك قد بلغت فى القرن الماضى ، مابلغته فى هذا العهد من تقدم وانتظام دون نهوضهم لمساعدة اخوانهم ، فلم يرتفع صوت بالدعوة الى اغاثتهم وتفريج كربتهم ، مع ان اهلها لم يقصروا فى الابلاغ والانذار

واغار الفرنسويون على تونس فى زمن كانت مصر تغلى فيه وتفور ، وكانت بلاد العرب الاخرى تعانى شر ازمة سببها انكسار الدولة العثمانية فى آخر حرب لها مع روسيا سنة ١٨٧٧ وهى الحرب التى افقدتها الجانب الاكبر من املاكها فى اوربا

ووقعت الغارة الايطالية على طرابلس الغرب وبرقة بعد الغارة على تونس بنحو ثلث قرن فكانت من جملة العوامل فى ايقاظ الشعور القومى عند العرب . وهو الشعور الذى تنبه فى اوائل هذا القرن وتجلى بعد اعلان الدستور العثمانى فى سنة ١٩٠٨ فنهض عرب المشرق وعرب المغرب لمساعدة اخوانهم وجيرانهم ، وبز المصريون والتونسيون الجميع وسبقوهم فى هذا المضمار فبذلوا الاموال بغير حساب وتطوع عدد غير قليل منهم للقتال ولم يقصر الشاميون والعراقيون والحجازيون ولا الجزائريون ايضا ، وهكذا اشترك العالم العربى كله ـ بنسبة محدودة ـ فى كفاح الاستعمار الايطالى ومقاومته فكان ذلك اول مظهر من مظاهر النهضة العربية الجديدة

وتم للفرنسويين بسط نفوذهم السياسى رسميا على المغرب الاقصى ، فى زمن كان العرب منهمكين فيه بحرب ايطاليا ، وكانوا قد ملوا الاعيب ابناء مولاى الحسن واساليبهم الممقوتة فازدروهم ونبذوهم لما رسخ فى اذهانهم وهو انهم يتاجرون بوطنهم ويتنافسون فى التمهيد لادخال الحكم الاجنبى الى بلادهم ولذلك لم يثر دخول فرنسا فاس شيئا من الاهتمام فى العالم العربى ولولا ان بعض رجال القبائل والعامة من سكان المدن وقفوا فى وجهها وقاتلوها لقلنا ان الاستيلاء على المغرب الاقصى تم بدون عناء ولا مشقة وانه ذهب ضحية تنافس ابناء المولى الحسن وخيانة بعض رجال الحكومة والزعماء

وتلا ذلك اعلان الحرب العظمى فتحركت افريقيــة الشمالية وهى اقرب اقطار العرب الى اوربا واكثرها اتصالا بها واحتكاكا فاستأنف الطرابلسيون والبرقاويون الجهاد وعادوا لقتال ايطاليا بالاتفاق مع الترك والالمان الذين امدوهم بالسلاح والمال .

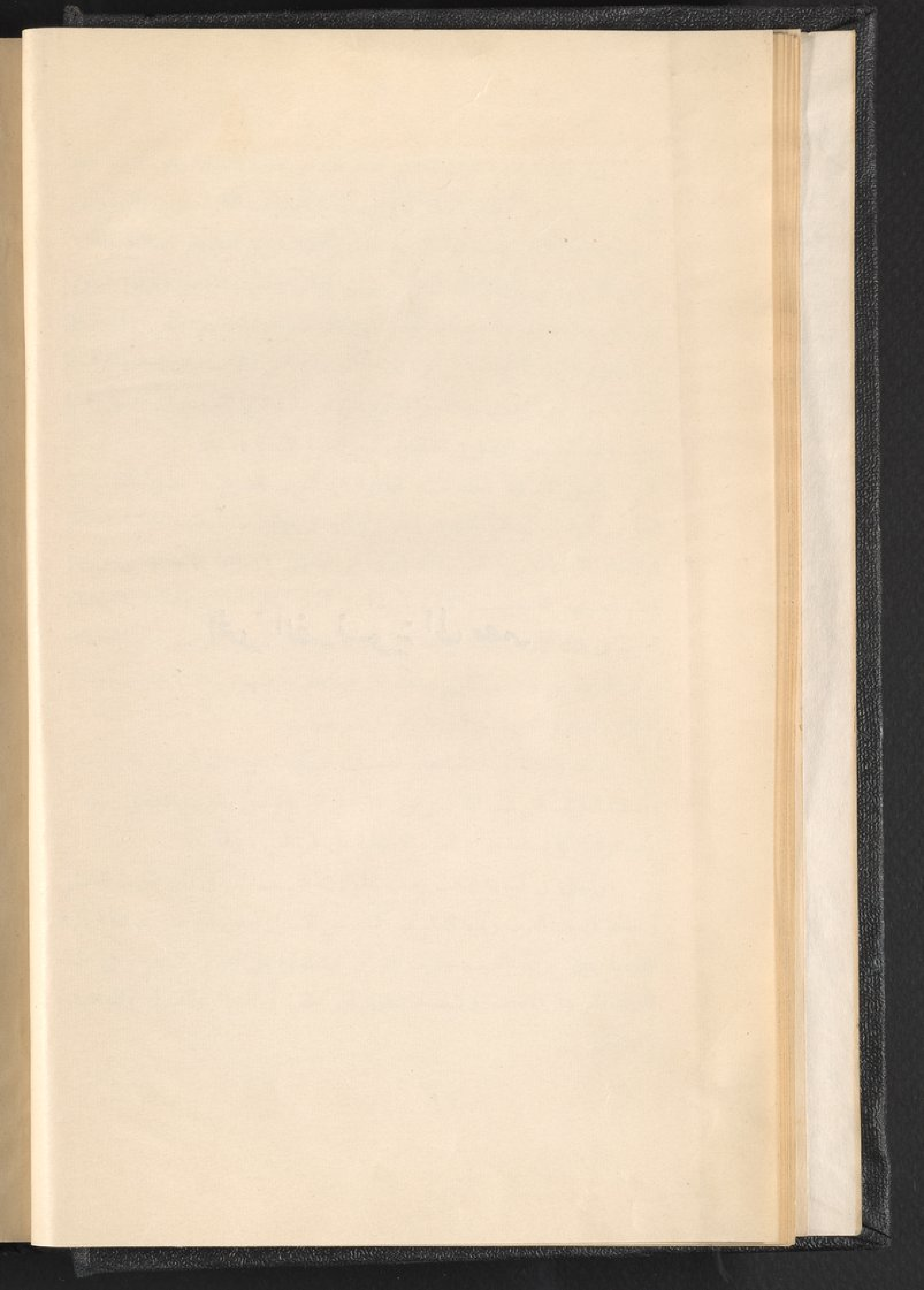
ولبس الفرنسويون جلود النساك فى تونس والجزائر والمغرب الاقصى وطافوا البيوت والمنازل يستنجدون بالعرب ويسألونهم ان ينهضوا لاغاثتهم ونجدتهم مظهرين الندم على ما فرطوا واسلفوا قائلين اننا لن نعود الى ما كنا عليه قبل الحرب ، بل نعيد حقوقكم اليكم فآمن بهم كثيرون وتقدموا للدفاع عن فرنسا وبذلوا الارواح فى سبيلها واليهم يعود جانب كبير من الفضل فى انقاذها وكبح الغارة الالمانية وصدها

ولبس الانكليز الجلد نفسه فطافوا بلاد العرب الشرقيــة يحثون العرب على النهوض ويقطعون لهم العهود باسم بريطانيا ويقولون انها مستعدة لمساعدتهم فى انشاء الامبراطورية العربية الكبرى التى يسعون لانشائها وانها تضع مواردها تحت تصرفهم فما عليهـــم الا ان يثوروا على الترك لينالوا امانيهم وهكذا كانت بلاد العرب فى تلك الآونة ميدانا واسعا جال فيــه فرسان الدعاية الفرنسويين والانكليز فوثق العرب بهم وانضموا اليهم وعضدوهم فرجحت كفتهم وربحت تجارتهم وخسر الالمان والترك وانقلبوا من الشرق العربى شر منقلب

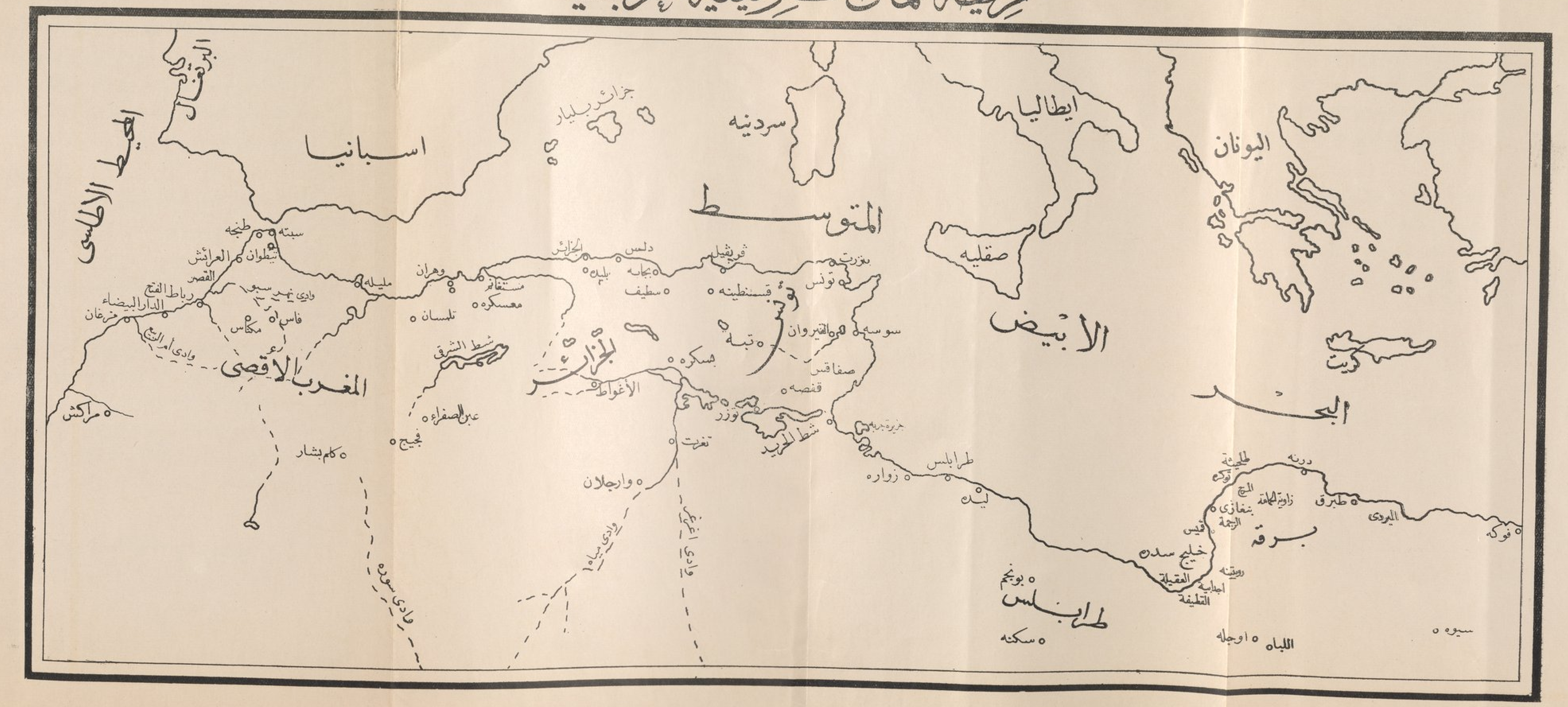
ولقد وصفنا فى كتابنا هذه الاحداث فتكلمنا عن الحملة الفرنسوية الى مصر ووصفنا الغارات التى شنها الفرنسويون على الجزائر وتونس والمغرب الاقصى وسورية وصفا وافيا كما بسطنا تاريخ الغارة الايطالية على طرابلس وبرقة

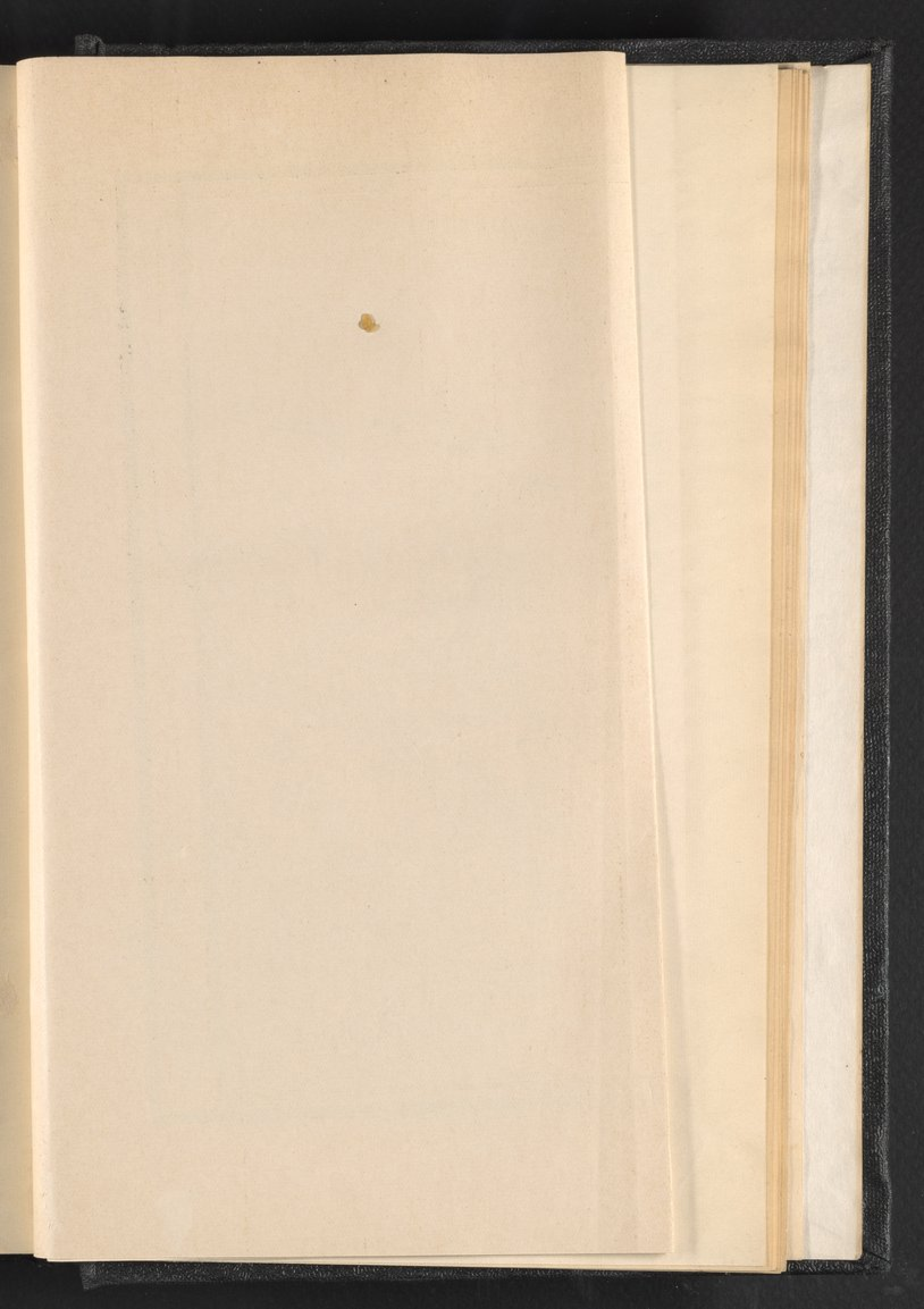
ونتولى فى كتابنا الثالث وصف الحوادث التى حـدثت فى ابان الحرب العظمى وبعدها فى بلاد العرب ونميط اللثام عن كثير من الاسرار آملين ان نعزز بعملنا الروابط القومية بين عرب المغرب وعرب المشرق فيتعاونوا على تحرير بلادهم وعلى انشاء الدولة العربية المتحدة ويشـــد بعضهم ازر بعض فى السراء والضراء والله الموفق والمستعان

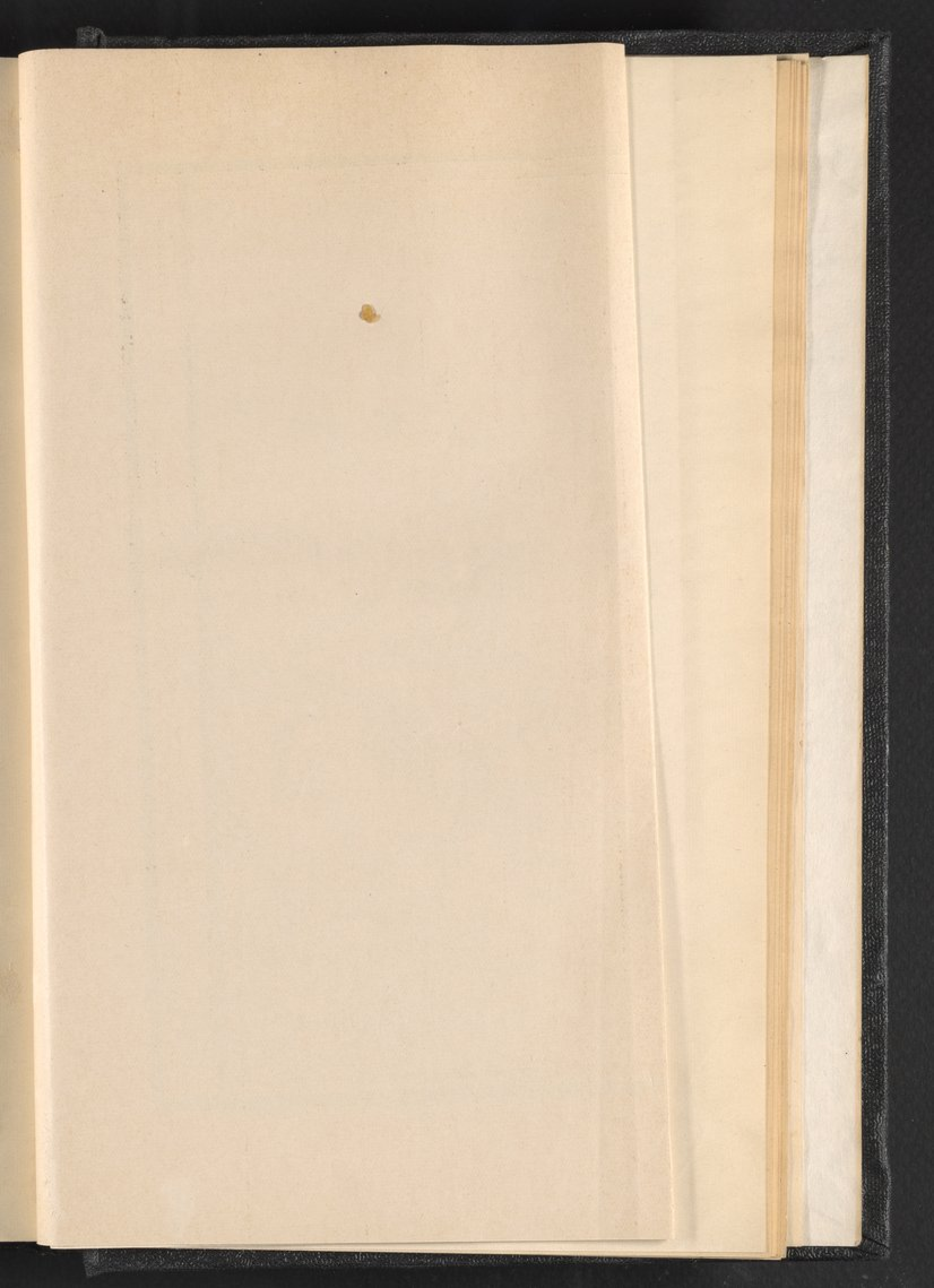
الحملة الفرنسية الى مصر



خريطة شمال افريقية العربية







١

الفرنسيون فى القاهرة

تألفت الحملة الفرنسوية الى مصر - كما جاء فى تقرير وزارة الحربية الفرنسوية الى حكومة الديركتوار المؤرخ يوم ٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨ من ٣٦٨٢٦ مقاتلا يقودها صفوة قواد الجيش الفرنسوى الذين تجلت مواهبهم وكفاياتهم فى حروب ايطاليا وحرب الرين وغيرها برئاسة نابوليون بونابرت صاحب فكرة ارسالها

وانضم الى هذه الحملة اسطول كبير يتألف من ٥٥ سفينة حربية بقيادة الاميرال برويس منها ١٣ بارجة كبيرة وخمس فرقاطات كبيرة والباقى سفن مختلفة الحجم ويبلغ عدد بحارتها ٨٩٠٠ بحار

وغادرت الحملة ميناء طولون تقلها ٣٠٠ سفينة نقل يوم ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ فوصلت يوم ٩ يونيو الى جزيرة مالطه فاستولت عليها بعد قتال طفيف وابقى نابوليون فيها الجنرال فوبوى ومعه ثلاثة آلاف جندى للمحافظة عليها ثم واصلت سفرها الى الاسكندرية فبلغتها يوم ١٨ المحرم سنة ١٢١٣ الموافق يوم اول يوليو سنة ١٧٩٨

وشرع الفرنسويون مساء ٢ منه فى النزول الى البر فى جهة العجمى وتبعد عن الاسكندرية نحو ١٢ كيلو مترا الى جهة الغرب وفى الساعة ١١ من مساء ذاك اليوم نزل نابوليون الى البر مع اركان حربه وفى الساعة الثالثة من صباح يوم الجمعة ٣ منه زحفت الجنود التى نزلت الى البر حتى ذاك الوقت وكان عددها نحو خمسة آلاف الى الاسكندرية لمباغتتها واحتلالها فوصلت نحو الساعة السادسة وشرعت فى مهاجمتها عند الساعة العاشرة صباحا

ولم تكن مدينة الاسكندرية فى ذلك العهد على ماهى عليه اليوم من اتساع عمران وكثرة سكان ، فقد دمرها الحكم التركى تدميرا وقضى على عمرانها وجعلها فى مؤخرة البلاد فغادرها اهلها ونزحوا عنها

وكانت اخبار الحملة الفرنسوية قد استفاضت وكان الاسكندريون يترقبون قدومها وكانوا يشتغلون بتحكيم الاسوار القديمة وتحصينها وقد تسلحوا بما كان عندهم من سلاح قديم وعهدوا الى جماعة من الفرسان بمناوشة القوات الفرنسوية عند تقدمها

وحمل الفرنسويون على المدينة من ثلاث جهات فجاءها الجنرال منو من الغرب محاذيا الشاطئ ، وحمل عليها الجنرال كليبر من باب سدرة والجنرال بون من باب رشيد ومع ان الاهالى قاتلوا واستبسلوا الا انهم اضطروا الى التقهقر امام النيران العظيمة التى صبها عليهم الفرنسويون فاقتحم هؤلاء الاسوار ودخلوا المدينة فلجأ السكان الى بيوتهم يطلقون الرصاص من داخلها ومن فوق الاسطحة ومن النوافذ

وجاء فى تقرير رئيس هيئة اركان حرب الحملة الجنرال برتييه يوم ٦ يوليو الى وزارة الحربية الفرنسوية عن معركة الاسكندرية مانصه « ولقد دافع الاهالى دفاع المستميت عن المدينة واصيب الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته فجرح جرحا بليغا واصيب الجنرال منو بضربة حجر اسقطته من اعلى السور فرض رضا شديدا واصيب الادجودان جنرال اسكال بجرح بليغ فى ذراعه من عيار نارى وقتل الجنرال ماس وخمسة ضباط آخرون »

وقدر نابوليون خسائر الفرنسويين فى معركة الاسكندرية بثلاثماية قتيل وجريح وقدر خسارة الاسكندريين بسبعمائة الى ثمانمائة بين قتيل وجريح

واستسلم السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الى الفرنسويين وهو من ابناء البلاد بعد ماستنفد قواه فى الدفاع فرد اليه نابوليون سيفه وقال له فى مجلس من اعيان المدينة « لقد اخذتك والسلاح فى يدك . وكان لى ان اعاملك معاملة الاسير

ولكنك استبسلت فى الدفاع والشجاعة متلازمة مع الشرف . ولذلك اعيد اليك سيفك وآمل ان تبدى للجمهورية الفرنسوية من الاخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة »

الزحف الى القاهرة

ولم يطل نابوليون الاقامة فى الاسكندرية بل غادرها فى الساعة ٥ من مساء يوم ٧ يوليو الى القاهرة بعد ما ارسل الجنرال دوجا يوم ٥ منه على راس فرقة الى رشيد فاحتلها فى ٦ منه ثم انضم ورجاله الى الجيش فى الرحمانية

وغادر الجيش دمنهور ليلة ١٠ منه يشد ازره اسطول السفن الفرنسوية الخفيفة فى النيل ، الى الرحمانية فاستولى عليها وسار الى شبراخيت ، وكان المماليك يرابطون فيها بقيادة مراد بك لمقاومة الحملة الزاحفة فدارت معركة بين الفريقين يوم ١٣ منه فانهزم المماليك وارتدوا منسحبين الى الجنوب

وكان جيش مراد بك يتألف فى هذه المعركة من ١٢ الف مقاتل منهم ٣ آلاف من المماليك والباقون من الفلاحين واتباع البكوات وكان الفلاحون مسلحين بالبنادق والعصى والشماريخ

وكان اسطول المماليك فى النيل يشد ازر هذه القوى ، وكان عدده يوازى عدد سفن الاسطول الفرنسوى فتبادل الفريقان اطلاق القنابل ، وكان الاهالى يساعدون الاسطول المصرى ويهاجمون الاسطول الفرنسوى فغرقت خمس سفن منه واستولى الاهالى على سفينتين مسلحتين وجرح الكونتر اميرال بيرى قائده فى ذراعه

ولم يستطع اسطول المماليك الوقوف امام اسطول الفرنسويين المنظم ولا امام مدفعيته القوية وارتد مسرعا بعد ماخسر نحو ٢٠٠ قتيل . ويقول احد ضباط اركان حرب نابوليون فى كتاب ميادين الوقائع والهجمات التى انتصر فيها بونابرت فى ايطاليا ومصر عن معركة شبراخيت « لو كان جيش المماليك مدربا على ضروب

القتال الحديثة ويقوده ضباط متعلمون لاستطاع ان يهزم الجيش الفرنسوى أو لاجبروه على التراجع الى الاسكندرية »

وواصل مراد بك انسحابه فاستقر فى امبابه على الضفة الغربية للنيل وشرع فى انشاء الخنادق والمتاريس بين امبابه و بشتيل والاهرام وضم اليه بعض القوى واعد عدته للنضال

وكان الجناح الايمن فى هذه التعبئة يستند الى الاسطول المصرى الراسى فى النيل ويتألف من المتطوعين القاهريين وعدتهم ٢٠ الفا اما الجناح الايسر فقد امتد من امبابه حتى الاهرام و يبلغ مجموع قواه مع قوى القلب نحو سبعة آلاف فارس من فرسان المماليك وفى اقصى الجناح الايسر فرسان العرب

وكانت المدفعية فى امبابه وتتألف من ٤٠ مدفعا قديما اقيمت فى امكنة ثابتة داخل الاستحكامات اى انها لم تكن ذات عجلات تتحرك تبعا لسير القتال كما كانت المدفعية الفرنسوية

وعسكر ابراهيم بك وهو الزعيم الآخر للمماليك وكان ينافس مراد بك على الزعامة فى بولاق اى على الضفة الشرقية للنيل ، تجاه قوات مراد بك وانشأ سلسلة من الخنادق والاستحكامات امتدت من شبرا الى بولاق ، وهكذا كانت ضفتا النيل مملوءتين بالجنود والمقاتلة

وواصل الجيش الفرنسوى تقدمه حتى بلغ امبابه فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم السبت ٢١ يوليو فاستقرت قواته بين وراق الحضر (شمالى امبابه) و بشتيل فكانت الاهرام عن يمين الفرنسويين والنيل عن يسارهم وامامهم قرية امبابه

وابتدأت المعركة فى مساء ذلك اليوم بعد ما رتب نابوليون جنوده على شكل مربعات ووضع المدافع على زوايا كل مربع ، وكانت تعبئته على المنوال الآتى :

الجناح الايمن : ويتألف من فرقتى الجنرال ديزيه والجنرال رينيه

الجناح الايسر : ويتألف من فرقتى الجنرال بون والجنرال فيال

٧

القلب : فرقة الجنرال دوجا

وتقدمت فرقة الجنرال ديزيه من اليمين لمهاجمة الجناح الايسر المصرى وكان نابوليون يرمى من خطته هذه الى اختراق صفوف اعدائه والاحاطة بها ودفعها الى النيل ثم ينثنى على امبابه فيستولى عليها وانضمت فرقة الجنرال رينيه الى فرقة ديزيه فى العمل فى طريق الجيزة و بينها و بين امبابه ومشت فرقتا الجنرال بون وفيال من الجناح الايسر للاحاطة بامبابه نفسها ، وكانت فرقة الجنرال دوجا تحافظ على الاتصال بين الفرق

وحمل مراد بك القائد العام للماليك بخمسة آلاف من فرسانه على قلب الفرنسويين محاولا اختراقه واحباط هجومهم وقطع خط الاتصال بينهم فصدته نيرانهم فانثنى هاجما على فرقة الجنرال ديزيه فردته ايضا فهاجم فرقة الجنرال رينيه فوقفت فى وجهه النيران الفرنسوية القوية . ورای اخيرا ان مصلحته العسكرية فى التراجع فاصدر امرا بذلك الى قواده فلقوا صعوبة زائدة لانهم انحصروا بين فرقتى ديزيه ورينيه ثم تلقتهم فرقة دوجا وكانت قد وصلت الى النيل فوقعوا بين نارين فارتد فريق منهم الى امبابه وفريق آخر الى الجيزة ومات منهم كثيرون

و بينما كان فرسان مراد بك يقاتلون فرقتى ديزيه ورينيه كانت قوات الجنرال بون والجنرال فيال تهاجم امبابه فقاومها المتطوعون والمماليك مقاومة شديدة وكروا عليها ثم مالبثوا ان ارتدوا الى معاقلهم ، ووقفوا تحت حماية مدفعيتهم فلم تغن عنهم شيئا وتعطلت بعد الطلقة الاولى فتخلى عنها رجالها وتركوها وانسحبوا فاضطرب بذلك النظام واختل

واحاط جنود الجنرال رامبون والجنرال مارمون بالاستحكامات لقطع خط رجعة المصريين وتم لهم تطويقها فوقع هؤلاء بين نارين ، وزاد الطين بلة هبوب ريح نكباء تحمل الرماد وتسفيه فى وجوه المصريين فلا يستطيع احدهم ان يفتح عينيه من شدة الغبار

واستولى الفرنسويون على امبابه وغنموا كل ما كان فيها وتفرق جيش مراد

بك ، و يقدر نابوليون فى مذكراته مجموع خسارة المصريين فى هـذه المعركة بسبعة آلاف . وسار (نابوليون) بعد انتهاء المعركة الى الجيزة ونزل فى قصر مراد بك واتخذه معسكرا له واستولت فرقة فرنسوية فى مساء ذاك اليوم على جزيرة الروضة

وفى مساء يوم الاحـد ٢٢ منه دخلت كتيبة من قوات الجـنرال ديبوى الى القاهرة بدون مقاومة فعسكرت فى بيت الوالى ابراهيم بك وتبعتها الفرق الاخرى فى اليوم التالى فاحتلت القلعة و بسطت نفوذها على العاصمة

ولـما تمت الغلبة للفرنسويين جمع ابراهيم بك قواه التى كانت ترابط على ضفة النيل الشرقية وسار الى بلبيس من دون ان يشـترك فى قتال او ان يحـاول صد الفرنسويين ، وانضم اليـه فى سيره الوالى التركى ابو بكر باشا والسـيد عمر مكرم نقيب السادة الاشراف وكان من زعمـاء مصر فى ذاك العصر وغيرهـم من كبار الموظفين وكبار المماليك

٢

نظام الحكم الجديد

نادى نابوليون من اليوم الاول انه ماجاء مصر مستعمرا ولا فاتحا وانما جاء محررا ومنقذا ينقذها من ظلم المماليك وطغيانهم وانه على اتم وفاق مع سلطان العثمانيين الذى يحترم حقوقه

ونثبت هنا نص المنشور الذى نشره فى الاسكندرية باللغة العربية غداة دخوله وهو مؤرخ ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ الموافق ١٨ المحرم سنة ١٢١٣ و ١٤ سيدور للسنة السادسة للجمهورية الفرنسوية ، وقد اعده وطبعه على ظهر البحر المستشرقون الفرنسويون الذين كانوا يرافقون الحملة بصفة تراجمة لها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله لاولد له ولا شريك فى ملكه

من طرف الفرنساوية ، المبنى على اساس الحرية والتسوية ، السر عسكر الكبير (كان هذا لقب نابوليون فى مصر وهو تعبير تركى يقابله فى العربية القائد العام) امير الجيوش الفرنساوية بونابرت :

يعرف اهل مصر جميعهم ان من زمان مديد ، السناجق (حكام المديريات) الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنسوية ، ويظلمون تجارها بانواع الايذاء والتعدى فحضرت الآن ساعة عقوبتهم واخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لايوجد فى كرة الارض كلها فاما رب العالمين القادر على كل شىء فانه قد حكم بانقضاء دولتهم

يا يها المصريون

قد قيل لكم اننى مانزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين اننى ما قدمت لكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين واننى اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم

وقولوا لهم ايضا ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . و بين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء احسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فان كانت الارض المصرية التزاما للماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم

ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لاييأس احد من اهل مصر من الدخول فى المناصب السامية ومن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيديرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها . وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة ، والمتجر المتكاثر ، وما ازال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك

ايها المشايخ والقضاة والائمة والشوربجية (رجال الجيش) واعيان البلد :

قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان يحث انصاره دائما على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها (الكوالرية) الذين كانوا يزعمون ان الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين ، ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى واعدى اعدائه ادام الله ملكه ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لامره فما اطاعوا اصلا الا لطمع انفسهم

طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم ، وتعلو مراتبهم

طوبى للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب . لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر :

المادة الاولى ـ جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها ان ترسل للسرعسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليهم انهم اطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنسوية الذى هو ابيض وكحلى واحمر

المادة الثانية ـ كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار

المادة الثالثة ـ كل قرية تطيع العسكر الفرنسوى ايضا تنصب سنجق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه

المادة الرابعة ـ المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع ادنى شىء منها

المادة الخامسة ـ الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والائمة انهم يلازمون وظائفهم . وعلى كل احد من اهالى البلد ان يبقى فى مسكنه آمنا مطمئنا ، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة . والمصريون باجمعهم ينبغى ان يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك ، قائلين بصوت واحد : ادام الله اجلال السلطان العثمانى . ادام الله اجلال العسكر الفرنساوى . لعن الله المماليك ، واصلح حال الامة المصرية ـ اهـ

بيان آخر

ولما تم النصر لنابوليون فى معركة امبابه ويسميها المؤرخون الفرنسويون معركة الاهرام وقد دارت على مقربة منها ، اجتمع صباح يوم الاحد ٢٢ يوليو وغداة

المعركة ، فى الجامع الازهر بعض العلماء والمشايخ للبحث فى الخطة التى يسيرون عليها فاجمعوا بعد المداولة على ان يبعثوا برسالة الى الفرنسويين لسبر غورهم ومعرفة حقيقة نياتهم فارسلوا رسولين حملا رسالة الى الجيزة مقر نابليون فقابلاه فهش لهما وطمأنهما فقالا نريد امانا منكم فكتب لهم رسالة هذا نصها :

« من معسكر الجيزة خطابا لاهل مصر ، اننا ارسلنا اليكم فى السابق كتابا فيه الكفاية (يريد المنشور الذى اثبتناه آنفا) وذكرنا لكم اننا ماحضرنا الا بقصد ازالة المماليك الذين يستعملون (يعاملون) الفرنساوية بالذل والاحتقار واخذ مال التجار ومال السلطان . ولما حضرنا الى البر الغربى خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم واسرنا بعضهم ونحن فى طلبهم حتى لايبقى احد منهم فى القطر المصرى . واما المشايخ والعلماء واصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين وفى مساكنهم مرتاحين »

منشور ثالث

واذاع نابليون فى اليوم نفسه المنشور الآتى :

من معسكر الجيزة فى ٤ ترميدور (٢٢ يوليو) الى اهل القاهرة

« انى مسرور من سلوككم وقد احسنتم صنعا بعدم مقاومتى . انى جئت لابادة جيش المماليك وحماية التجارة واهل البلاد الاصليين ، فليطمئن الخائفون ، وليرجع الفارون الى بيوتهم وليستمر الاهالى على اقامة الشعائر الدينية كالمعتاد . اطمئنوا على دينكم الذى احترمه

«ولما كان من غرضى ان لايختل الامن وان يسود النظام فسيتألف « ديوان » من سبعة اعضاء يجتمعون فى الازهر يتصل منهم اثنان بقومندان الموقع و يتخصص اربعة بالمحافظة على الراحة وتدبير شؤون البوليس »

١٣

تأليف الديوان

ودخل نابوليون القاهرة يوم ٢٤ منه مصحوبا بضباطه واركان حربه ونزل بقصر محمد بك الالفى بالازبكية وامر بدعوة المشايخ والاعيان للبحث فى انشاء ديوان يتألف من عشرة مشايخ فاجتمعوا و بحثوا وهذا نص الامر الذى اصدره يومئذ :

« معسكر القاهرة فى ٧ ترميدور (٢٥ يوليو سنة ١٧٩٨)

« بونابرت عضو المجمع العلمى الفرنسوى والقائد العام للجيش يأمر بما يأتى :

١ – تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة اعضاء

٢ – يتألف هذا الديوان من المشايخ : السادات ، والشرقاوى ، والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرسى ، والسيد عمر نقيب الاشراف ، ومحمد الامير ، وعليهم ان يجتمعوا اليوم الساعة الخامسة مساء فى منزل كخيا الشاويشية وعليهم ان ينتخبوا من بينهم رئيسا لهم وان يختاروا سكرتيرا (كاتم سر) من غير الاعضاء و يعينوا اثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنساوية والعربية

ولهذا الديوان اثنين من الاغوات (رؤساء الجند) لادارة البوليس ، وعليه ان ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الاسواق وتموين المدينة ، ولجنة من ثلاثة آخرين يكلفون بمهمة دفن الموتى فى القاهرة وضواحيها الى فرسخين منها

٣ – يجتمع الديوان كل يوم حتى الظهر و يبقى ثلاثة من اعضائه على الدوام بدار المجلس

٤ – يقام على باب الديوان حرس فرنسوى وآخر تركى

٥ – على الجنرال برتييه (رئيس اركان الحرب) والجنرال ديبوى (قائد المدينة) ان يكونا فى الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لاجراء مايلزم لاعضائه ولكى يأخذا عليهم عهدا بالا يعملوا عملا ضد مصلحة الجيش

تعليمات نابوليون

وامر نابوليون الاستاذين بونج و برتوليه عضوى المجمع العلمى بان يشتركا فى اعمال الديوان العام على ان تكون لهما صفة قومسيرين لحضور المناقشات وعرض مشروعات الحكومة على الاعضاء واصدر اليهما التعليمات الآتية :

« ان الغرض من عقد الديوان العام هو تعويد الاعيان المصريين نظم المجالسة الشورية والحكم فقولوا لهم انى دعوتهم لاستشارتهم وتلقى آرائهم فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية ، وما يفكرون فى عمله اذا كان لهم حق الفتح الذى حزناه فى ميدان القتال

« اطلبوا من الديوان العام ان يبدى رأيه فى المسائل الآتية :

١ ـ ماهو اصلح نظام لتأليف مجالس الديوان فى المديريات وما هو المرتب الذى يجب تحديده للاعضاء

٢ ـ ماهو النظام الذى يجب وضعه للقضاء المدنى الجنائى

٣ ـ ماهو التشريع الذى يكفل ضبط المواريث ومحو انواع الشكاوى والاجحاف الموجودة فى النظام الحالى

٤ ـ ما هى الاصلاحات والاقتراحات التى يراها الديوان لاثبات ملكية العقارات وفرض الضرائب

ويجب ان تفهموا الاعضاء باننا لانقصد سوى توفير السعادة والرفاهية للبلاد التى تشكو من سوء نظام الضرائب الحالى كما تشكو من طريقة تحصيلها وعليكم ان تضعوا للديوان نظامه الداخلى كما يأتى :

ينتخب الاعضاء رئيسا له ونائب رئيس وسكرتيرين ومترجمين اثنين وثلاثة مراقبين وان يكون ذلك بطريق الاقتراع وبكل مظاهر الانتخاب وعليكم ان تتبعوا المناقشات وتدونوا اسماء الاعضاء الذين يمتازون عن زملائهم فى الديوان سواء بنفوذهم او بكفايتهم »

خطبة الافتتاح

وافتتح الديوان باحتفال ولما تكامل اجتماع الاعضاء سلم كبير المندو بين خطبة الافتتاح لكبير التراجمة فتلاها وهذا هو النص العربى الذى تلى :

« ان قطر مصر هو المركز الوحيد وانه اخصب البلاد ، وكان يجلب اليه المتاجر من البلاد البعيدة ، وان العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا اخذت عن اجداد اهل مصر الاول ، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الامم فى تملكه فملكه اهل بابل وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن . الا ان دولة الترك شددت فى خرابه لانها اذا حصلت الثمرة قطعت عروقها فلذلك لم يبقوا بايدى الناس الا القدر اليسير ، وصار الناس لاجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لانفسهم من سوء ظلمهم ، ثم ان طائفة الفرنساوية بعد ماتمهد امرهم ، و بعد صيتهم ، بقيامهم بامور الحروب اشتاقت انفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه واراحة اهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة . فقدموا وحصل لهم النصر ومع ذلك لم يتعرضوا لاحد من الناس ولم يعاملوا الناس بقسوة وان غرضهم تنظيم امور مصر واجراء خلجانها التى دثرت فيصير لها طريقان: طريق الى البحر الابيض وطريق الى البحر الاحمر، فيزداد خصبها وريعها ، ومنع القوى من ظلم الضعيف ، وغير ذلك استجلابا لخواطر اهلها وابقاء الذكر الحسن ، فالمناسب من اهلها ترك الشغب واخلاص المودة ، وان هذه الطوائف المحضرة من الاقاليم يترتب على حضورها امور جليلة لانهم اهل خبرة وعقل فيسألون عن امور ضرورية ويجيبون عليها فينتج لنابليون من ذلك مايليق صنعه »

حكام الاقاليم الفرنسويون

ووزع نابليون قواد الجيش على المناطق الآتية وعينهم حكاما للبلاد وهم :

منطقة الاسكندرية	الجنرال كليبر
» رشيد	» منو

منطقة دمياط	الجنرال فيال
موقع القاهرة	« ديبوى
منطقة الشرقية	« بكارك
« المنوفية	« زايونشك
« الغربية	« فوجيو
« القليوبية	« مورا
« اطفيح	« مراجون
« الصعيد	« ديزيه

الدواوين فى الاقاليم

واصدر نابليون يوم ٢٧ يوليو قرارا هذا نصه :

١ – يتألف فى كل مديرية من مديريات القطر المصرى ديوان من سبعة اعضاء يسهرون على مصالح المديرية وتعرض عليه كل الشكاوى التى تصل اليهم ويمنعون اعتداء القرى بعضها على بعض وعليهم مراقبة الاشخاص السيء السيرة ومعاقبتهم والاستعانة على ذلك بالقوات التى تحت امرة القواد الفرنسويين وارشاد الاهالى الى ماتقتضيه مصلحتهم

٢ – يعين فى كل مديرية اغا (رئيس انكشارية) يتصل دائما بالقائد الفرنسوى ، وتكون تحت امرته قوة مسلحة من ستين رجلا من الاهالى يحافظ بهم على النظام والامن والسكينة

٣ – يعين فى كل مديرية مباشر (مدير مالية) لجباية اموال الميرى والضرائب وايراد املاك المماليك التى صارت ملكا للجمهورية ويكون تحت رئاسته العمال الذين يحتاجهم العمل

٤ – يعين بجانب هذا « المباشر » وكيل فرنسوى للمخابرة مع مدير المديرية الحالية ومراقبة تنفيذ الاوامر التى يصدرها وتكون من اختصاص الادارة المالية

مدير فرنسوى للمالية

وعين نابليون المسيو بوسليج مديرا لمالية الحكومة المصرية وعين فرنسويا آخر لادارة الجمارك ومثله لادارة البريد وعين روميا وكيلا لمحافظة القاهرة

٣

حكم الارهاب

قضى نابوليون على نظام الحكم القديم وابدله بنظام جديد يمنح البلاد شبه نظام برلمانى و يشركها فى ادارة حكومتها وما كان المماليك ولا الترك يشركونها فى شىء وكانوا قد اختصوا انفسهم بكل شىء ووضعوا يدهم على كل شىء

وكان نابوليون يرجو ان يوفق بهذا الاسلوب و بما كان يتظاهر به من الميل الى الاسلام واحترام رجاله ومن الصداقة للسلطان العثمانى الى اكتساب مودة المصريين وصداقتهم ونيل ثقتهم فيستعين بهم فى توطيد قواعد الدولة الجديدة التى كان يطمح الى تأسيسها فى الشرق وفى مقاومة اعدائه الانكليز فيقضى على نفوذهم ويحل النفوذ الفرنسوى محله

وجرت الرياح بما لم يشته ، فاشتبك مع المصريين فى نضال عنيف امتد زمن الاحتلال كله فجرت الدماء انهارا وخربت المدن ودمرت القرى وكثرت الثورات فالتوى القصد على الفرنسويين

ويرجع الفشل والاخفاق الذى منيت به الحملة الفرنسوية الى عوامل متعددة بعضها ايجابى و بعضها سلبى ونحن نوجزها فيما يأتى :

١ ـ مابين المصريين والفرنسويين من تباين فى العادات والدين والاخلاق والتقاليد واللغة والطباع

٢ ـ عدم وفاء الفرنسويين للمصريين بما قطعوه لهم من عهود ومواثيق واسرافهم فى وضع الضرائب وجباية الاموال الكثيرة وكانوا فى حاجة اليها لنفقات جيشهم وتنفيذ مشروعاتهم

٣ ـ مطاردة انكلترا للحملة الفرنسوية وسعيها المتواصل لطردها من مصر وضربها الحصار البحرى على الشواطىء المصرية مما شل الحركتين التجارية والمالية وزاد الازمة الاقتصادية شدة

٤ ـ حشد الدولة العثمانية الجنود وارسالها الحملة تلو الحملة لقتال الفرنسويين واخراجهم من مصر

٥ ـ اسراف الفرنسويين فى فرض الغرامات المالية ومعاملتهم اهل البلاد باقصى ضروب الشدة

تلك هى العوامل الجوهرية التى يلوح لنا انها باعدت بين المصريين والفرنسويين وانشأت ذلك الجفاء والنفور ونحن نثبت تفاصيل هذه الحوادث بحسب تاريخها مستندين فى ذلك الى المصادر الفرنسوية الرسمية والمصرية

١ ـ حادثة الاسكندرية الاولى

عين نابوليون الجنرال كليبر حاكما لمدينة الاسكندرية بعد احتلالها واوصاه يوم سفره الى القاهرة بان يبذل كل مافى وسعه لاستبقاء العلاقات حسنة مع الاهلين وان يبدى كل انواع الاحترام للمفتين ورؤساء المشايخ

ولم يتقيد الجنود بهذه الاوامر ولم يعبأوا بها بل اسرفوا فى الاعتداء على المصريين حتى ان الجنرال كليبر نفسه شكا من سوء اعمالهم برسالة كتبها الى نابوليون يوم ١٢ يوليو سنة ١٧٩٨ قال فيها : « ان بحارة الاسطول قد خربوا ضواحى ابو قير واغتصبوا ثمار الاشجار وقطعوا النخيل من جذوعه »

ولفت الجنرال كليبر نظر الاميرال قائد الاسطول الى هذه الحالة وطلب اليه ان يمنع جنوده عن العدوان وكتب اليه يقول : « انكم لا تقدرون عواقب

هـذا السلوك الذى يثير السخط فى نفوس الاهالى الذين نحن محتاجون الى كسب قلوبهم »

وقتل يوم ١٤ يوليو بحار فرنسوى ولم يعرف قاتله ، ومات خادم احد الضباط الفرنسويين غريقا فى البحر فلجأ الفرنسويون الى القسوة فاشتد الهياج فى الاسكندرية وتحفز الناس للثورة فقبض الجنرال كليبر على بعض الاعيان واعتقلهم رهائن ودعا الحاكم الوطنى محمد كريم والقاضى الشرعى وطلب منهما البحث عن الجناة ومعاقبتهم طبقا لقوانين البلاد ، وتهددهما بشنق من تقع عليه القرعة من الرهائن اذا لم يعاقب الجانى فى خلال خمسة ايام . ودل البحث على ان القاتل نجا بعد ارتكابه الجريمة وغادر البلاد

واذاع الجنرال كليبر على اثر هذا الحادث المنشور الآتى على جنود الحامية الفرنسوية فقال :

ايها الجنود

انكم ستستهدفون لمثل هذه الحوادث اذا خالفتم اوامر القائد العام ولم تحترموا املاك الاهالى وعاداتهم ودياناتهم . وقد رايت من واجبى حماية للاهالى ومحافظة واطمئنانا عليكم ان اصدر اليكم الاوامر الآتية اتقاء عواقب الخروج عن حدود الواجبات والنظام

١ — كل من يدخل سكن احد المسلمين فى مكان النساء يعد محرضا على القتل والاخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام

٢ — كل من يتسلق بيتا من بيوت المسلمين او غير المسلمين لاى سبب من الاسباب يعد سارقا ويحكم عليه بالاعدام

٣ — من يصيد الحمام داخل المدينة باستعمال الآلات النارية وينشأ عن عمله تعريض حياة الاهالى للقتل والخطر كما حدث من قبل يعد قاتلا ويحكم عليه بالاعدام

٤ ـ كل من ينتهك حرمة شعائر المسلمين الدينية فى المساجد اثناء صلواتهم ووضوئهم يعد محرضا على الاخلال بالنظام و يحكم عليه بالاعدام

٢ — فتنة دمنهور الاولى
واعدام حاكم الاسكندرية

وفى يوم ١٧ يوليو امر الجنرال كليبر بان تتجول كتيبة فرنسوية فى ضواحى مدينة الاسكندرية وفى مديرية البحيرة ورشيد للاطمئنان على سلامة مواصلات الجيش الفرنسوى وعهد بقيادة هذه الكتيبة الى الجنرال ديموى

وحاولت السلطة المحتلة الحصول على عدد من الجمال لحمل حاجة الكتيبة من الماء ـ ولم يك العمران فى مديرية البحيرة على ما هو عليه اليوم ـ فعجزت لان اهل الاسكندرية اخفوا جمالهم ورفضوا ان يقدموا للسلطة اى مساعدة فسافرت من دون ان تتزود من الماء بما يكفيها واستهدفت فى تقدمها نحو دمنهور لاعتداء العربان فقد جاء فى تقرير رفعه قائدها الى الجنرال كليبر يوم ٢٤ يوليو « ان عدد العرب الذين كانوا يهاجمونها كان يزداد كلما تقدمت » ثم قال « وقد شتتنا هذه الجموع بالرصاص ولم نفقد سوى قتيل واحد وجريح ، وقد داخلنى الشك من الاتفاق بين هجوم هذه الجموع علينا ومغادرتنا الاسكندرية وخيل الى ان هنالك اتصالا بينهم و بين اهالى الاسكندرية

« وتابعت الحملة مسيرها حتى دمنهور ، وكنا فى خلال هذه المسافة محرومين من الماء حرمانا تاما . وكان من المستحيل علينا ونحن فى الاسكندرية ان نحصل على جمل واحد او قربة واحدة لحمل الماء على رغم اوامر الجنرال كليبر . واختفت الجمال من الاسكندرية يوم سفر الحملة ثم عادت الى الظهور غداة مسيرها مما يدل على ان هنالك تواطؤا ضدها »

واجتمع نحو ستة آلاف فى دمنهور عند وصول الكتيبة فملأوا الطرق والشرفات والمنازل فرأى الجنرال ديموى ان من الخطأ الاشتباك معهم فغادر المدينة

منسحبا الى بركة غطاس بعد ما فقد بعض جنوده فاستقى الجنود الماء وعاد العرب الى مهاجمتهم ، فرجعت الكتيبة على الفور الى الاسكندرية مضعضعة منهوكة القوى وعدلت عن الذهاب الى رشيد وخسرت ٣٠ بين قتيل وشريد

وكان العرب يتعقبونها فى سيرها و يطلقون عليها الرصاص وظلوا على ذلك حتى اوصلوها ابواب الاسكندرية

واخذ الشك فى اخلاص السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية يتسرب الى نفوس القواد الفرنسويين بسبب هذه الحادثة وحوادث اخرى تتابعت فى داخل الاسكندرية نفسها فكان الاهالى يجتمعون حول عمود السوارى و يقتلون من يصادفونه من الفرنسويين فاضطر هؤلاء الى انشاء مخافر على الاكمات التى تشرف على الثغر شحنوها بالجند لحماية المدينة والقوى المرابطة بها ولتكون قاعدة للسرايا التى كانت لاتفتأ ترتاد الضواحى . واشتبكت هذه السرايا يوم ٢٣ يوليو بقوة من العرب امام باب رشيد فقتلت منها ٤٣

وفى يوم ٢٠ يوليو امر الجنرال كليبر بالقبض على السيد محمد كريم بتهمة الاشتراك فى اعداد المقاومة التى لقيتها حملة الجنرال ديموى وارسله الى السفينة الفرنسوية ديموى فاقلته الى ابو قير حيث نقل الى بارجة الاميرال واعتقل فيها . وكتب كليبر الى قائد الاسطول الفرنسوى يقول : « لقد رأيت ان اعوان هذا الرجل يبقون مابقوا آملين عودته ، اذا ظل قريبا من المدينة لذلك رأيت قطعا لهذا الامل ان ارسل به اليك لتعتقله على ظهر البارجة اوريان مع رجاء معاملته بالحسنى ريثما يبت القائد العام فى امره »

وكتب الجنرال كليبر الى السيد محمد كريم كتابا ارسله اليه بمناسبة اعتقاله قال فيه :

« لم اقصد من ارسالكم الى بارجة فرنسوية الا ان امكنكم من ان تلحقوا بالقائد العام ، وعلى ذلك بعثت بكم الى قائد الاسطول الفرنسوى ليسهل لكم الوصول الى القاهرة بطريق النيل ، فاذا وصلتم اليه امكنكم ان تثبتوا له انكم اهل لما وضعه

فيكم من الثقة ، وارجو ان تبلغونى ماتحتاجون اليـه مدة بقائـكم هنا وسآمر ان لايمنع عنـكم كل ماتطلبون »

وجمع الجنرال كليبر اعيان الاسكندرية يوم اعتقال السيد محمـد كريم وابلغهم انه اعتقله لانه ارتاب فى اخلاصه للجمهورية الفرنسوية وطلب اليهم ان يختاروا حاكما للمدينة بدلا منه فوقع اختيارهم على السيد محمد الشوربجى الغريانى . واقر هذا ماطلبه الجنرال كليبر من تحصيل سلفة اجبارية ــ وهى السلفة التى عارض السيد محمـد كريم فى تحصيلها، وكانت معارضته فى مقدمة الاسباب التى بعثت الفرنسويين على اعتقاله ثم قتله ــ وتقرر ان تـكون ٣٠ الف فرنك

واقر نابوليون عمل الجنرال كليبر وامر بالقبض على اناس آخرين من الاسكندريين واذاع منشورا عسكريا يوم ٣٠ يوليو يعلن فيـه استياءه من سـلوك هؤلاء وامر بان يطلب منهم جميعا على اختـلاف مراتبهم تسليم اسلحتهم الى قائد الموقع وقال ان من يتأخر منهم عن تنفيذ هذا الامر يعدم فى خلال ساعة من نشره

وامر ايضا بهـدم منزل الشخص الذى اتهـم بقتـل الجندى الفرنسوى ولم يقبض عليه

واصـدر امرا آخر باعتقال ٥٠ شخصا من اعيان الاسكندرية يبقون رهائن على ظهر سفن الاسطول الفرنسوى ريثما يثبت اهل الاسكندرية اخلاصهم

واصدر امرا ثالثا بفرض ضريبة قدرها ٣٠٠ الف فرنك على تجار الاسكندرية على ان تحسب منها الثلاثون الفا التى فرضها الجنرال كليبر وبان تدفع هذه الاموال فى خلال ٢٤ ساعة

واصدر امرا رابعا الى الاميرال برويس بانه تحقق من خيانة السيد محمـد كريم ولذلك فهو يأمره ان يكبله بالحديد ويسد عليـه كل منفذ حتى لايهرب وبان يسجن اتباعه وحاشيته ويرسلهم مخفورين الى الجنرال كليبر

وابلغ صورة من هـذا الامر الى الجنرال كليبر وامره بان يعتقل كل من بقى فى منزل السيد محمد كريم وان يختم على داره واملاكه . وقال انه عالم بانه طمر امواله فى بئر

هنالك وان بعض خدمه يعرفون مقادير هـذه الاموال وموضعها فعليه ان يسأل كل واحد منهم على انفراد ليدله على الموضع الذى دفن فيه المال ، وان يتهددهم بما يشاء ليبوحوا بما لديهم من اسرار

ثم قال « واذا دفع السيد محمد كريم فى خلال ٨ ايام ٣٠٠ الف فرنك فيبقى معتقلا على ظهر احدى بوارج الاسطول حتى لايجد مفرا و يرسل الى فرنسا حين تعرض فرصة قريبة . واذا لم يدفع هـذا المبلغ على الاقل فى خمسة ايام فعلى الجنرال كليبر ان يأمر بقتله رميا بالرصاص »

ولم تصل هذا الاوامر الى الجنرال كليبر وهى مثبتة فى الجزء الرابع من مراسلات نابوليون لان الرسول الذى حملها وحمل الامر الى الاميرال برويس واسمه الكابتن جوليان قتل فى الطريق

وفى يوم ٣٠ يوليو ارسل الاميرال السيد محمد كريم الى رشيد ليرسل منها الى القاهرة وكان لايزال مطلق السراح ، فاستقبله اهل رشيد عند وصوله بالحفاوة الزائدة فخاف الجنرال منو (حاكم رشيد) العاقبة فاعتقله فورا وارسله الى القاهرة بسفينة خاصة فبلغها يوم ١٢ اغسطس فاعتقل وحقق معه الجنرال ديبوى حاكم القاهرة وهذا بيان التهم التى وجهت اليه :

١ ــ مراسلة مراد بك وغيره من المماليك

٢ ــ مراسلة عربان البحيرة

٣ ــ نشر اشاعات السوء عن مركز الجيش الفرنسوى

وفى يوم ٥ سبتمبر اصدر نابوليون امره باعدامه بالرصاص ومصادرة امواله واملاكه ، الا اذا افتدى نفسه بدفع غرامة ٣٠ الف ريال فى ٢٤ ساعة

ولم يفتد نفسه لعدم وجود مال عنده فاعدم يوم ٦ منه رميا بالرصاص فى ميدان الرميلة بالقاهرة فكان اول ضحية للاحتلال الفرنسوى

وقد انتقد مؤلف كتاب تاريخ نابليون « حملة مصر الجزء الاول » هـذا التصرف وكتب يقول « ان اعدام هذا الشريف هو اول عمل من التصرفات العديدة

التى وجهت فيها التهم الى نابوليون فى اثناء حملة مصر فان النفوس الحساسة قد تأثرت للخاتمة المحزنة التى انتهت بها حياة ذلك الشريف النزيه الذى اعدم بامره »

٣ - نهب القرى بين الاسكندرية والقاهرة

نقلنا فى ماتقدم البلاغ الذى اذاعه الجنرال كليبر على جنوده بالامتناع عن الاعتداء عن السكان واحترامهم (انظر ص ٢٠) واثبتنا نص الشكوى التى شكاها من تصرفاتهم وننشر هنا نقلا عن القواد الفرنسويين وصف ما ارتكبه جنودهم من اعتداءات على القرى فى اثناء زحفهم من الاسكندرية الى القاهرة ونهبهم البيوت والمنازل والدكاكين مما كان له اسوأ اثر فى نفوس اهل البلاد فاصدر رئيس هيئة اركان حرب الحملة امرا عسكريا يوم ١٢ يوليو يذكر الجنود فيه بمنشور قائدهم القائل فيه بان الفرنسويين قدموا الى هذه البلاد لمحاربة المماليك لا السكان وقال ان بعض الجنود اقتحم منازل السكان فالقائد العام يلقى تبعة هذه السيئات على ضباط الفرق . وعهد الى الجنرال دوجا بان يمنع الجند من اقتحام المنازل او صيد الحمام

وعاد يوم ١٦ منه فاصدر منشورا آخر بمنع صيد الحمام او غيره من الطيور فى الطرق او فى الغيطان ، فلم يجد ذلك نفعا ولم يحل دون اعتداء الجند على اهل البلاد يؤيد ذلك ما ورد فى يوميات الجنرال بليار عن هذه الحوادث فقد جاء فيها مانصه : « ان روح التذمر سائدة فى الجيش ويترك الضباط جنودهم يجوبون القرى القريبة من طريق الجيش وينهبون كل ماتصل اليه ايديهم غير مكترثين بالواجب »

وجاء ايضا فى مذكرات الجنرال لوجييه «وصلنا يوم ١٤ يوليو الى قرية النجيلة فالفينا جنود فرقتى الجنرالين بون وفيال ينهبونها وكان صياح الاهالى وبكاء النساء والاطفال يصم الآذان ، واتصل ذلك بالقائد العام فامر الجنرال دوجا بالبقاء فى هذه القرية واعادة النظام اليها فلاقى عناء كبيرا لان الضباط كانوا يتذمرون من قلة الزاد وما كانوا يكبحون جماح الجنود »

ونهب الفرنسيون ايضا قرية الطرانة حينما بلغوها وانتشروا فى الغيطان للنهب والسلب والمصادرة وهذا ماجاء فى مذكرات الكابتن سافارى ياور الجنرال ديزيه عن هذه الحوادث قال « وصادرنا بعض المواشى التى وجدناها فى طريقنا . وانطلق الجنود فى القرية (قرية الطرانة) ينهبون ويخربون مع وجود ثلاثة من القواد جاءوا لمنع النهب والتدمير

« والواقع ان عمل فرقتنا كان قاصرا على اتمام اعمال التخريب والتدمير لان الفرق التى سبقتنا لم تترك فيها الا مالا يمكن حمله او تخريبه وكنا نرى النيران مشتعلة فى الغيطان احيانا . وما كنا نعرف كيف نحصل على ما يلزم من التبن والشعير لحيواناتنا »

وقال الجنرال بليار فى مذكراته :

« ووصلنا الى قرية وردان وكان الاهالى قد غادروها قبل وصولنا ولم يأسف الجنود على ذلك بل وضعوا ايديهم على ما وصلت اليه من متاع واخذوا منها ماراق لهم اخذه »

وقال ريبو فى الجزء الثالث من كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسوية بمصر عن هذه الاعمال ما نصه : « لقد لقى الجنود تعبا ونصبا من قلة الزاد فى اجتيازهم المرحلة الشاسعة بين القاهرة والاسكندرية فان كل القرى التى كانت على طريق الجيش خلت من اهلها الذين هجروها الى داخل الدلتا . ولا ندرى اهذه الهجرة من تلقاء انفسهم ام بتحريض المماليك ؟ على انهم فى هجرتهم ساقوا مواشيهم معهم. ولما رأى مدير مهمات الجيش (المسيو سوسى) ان قرى الشاطىء الغربى اقفرت امر بعبور النيل لمصادرة الاقوات فى القرى والبلاد الواقعة فى البر الشرقى فقام بهذه المهمة الجنرال فوجير والجنرال زايونشك ومعهما قوة من الفرسان عددها ١٤٠٠ فكانت القرى خالية خاوية ولم يجدوا من الميرة ما يكاد يكفى حملتهم نفسها »

وفى يوم ١٥ يوليو اصدر نابوليون امرا عسكريا باعلان استيائه من سلوك

جند فرقتى الجنرال بون والجنرال منو وفرقة المدفعية والاحتياطى لما ارتكبوه من الاخلال بالنظام فى عدة قرى . وقد جاء هذا الاخلال فى الوقت الذى هو ادعى لحسن مسلك الجنود وهادما للاثر الحميد الذى تركه سلوك الجيش من عهد نزوله بالاسكندرية

٤ — حادثة السالمية

تقع قرية السالمية على الضفة الشرقيــة للنيل وهى فى مركز فوه (البحيرة) اتهم اهلها بمهاجمة شرذمة من الجنود الفرنسويين ارسلها الجنرال منو بريدا من رشيد الى القاهرة وقتل ثمانية منهم

وسار الجنرال منو بالذات الى قرية السالمية يقود قوة عسكرية كبيرة فاحاط بها وقتــل كل قادر على حمل السلاح من ابنائها وصادر مواشيها واحرقها بالنار ثم عاد الى رشيد وكتب يوم ٣ اغسطس الى الجنرال كليبر فى الاسكندرية يصف ما فعله فقال : « لقــد قمت هذا اليوم بجولة لمعاقبــة قرية قتلت بعض الفرنسويين فاحرقت القرية وقتلت تسعة من الاهالى وسيعتبرون بهذا الدرس كما يعتبر به اهالى وادى النيل »

ونشر الجنرال منو بمناسبة هــذا الحادث منشورا وجهه الى الاهالى الساكنين على شاطىء النيل من رشيد وفوه والقرى الواقعــة ما بين رشيد وابو قير ومن ابو قير الى الرحمانيــة وصف فيه ماحــل باهالى السالمية و بشيخها الشيخ سلامة العقدة من عذاب وتهددهم بمثل هذا العقاب اذا وقع منهم اعتداء على الجنود الفرنسويين

٥ — حادثة شباس عمير

فى يوم ١٢ سبتمبر ســنة ١٧٩٧ غادر الجنرال منو رشيد يقود ٢٠٠ جنــدى ليجول فى شمالى الدلتا ومعه الجنرال مارمون و بعض الضباط وعــدد من اعضاء المجمع العلمى ، فبلغ قرية شباس عمير فى طريقــه الى البرلس فقاومه الاهالى الذين كانوا متحصنين فى برج سور قريتهم الحصين

واحاطت الجنود بالقرية واقتحمت السور ، فاخلى الاهالى الحصون ماعدا برجا واحدا امتنعوا فيه وواصلوا اطلاق النار على الفرنسويين وقتل جواد الجنرال منو برصاصة اصابته

واقبل الظلام والمعركة دائرة فامر الجنرال منو جنوده بحرق القرية والتراجع فاندلعت النار فى البرج فاخلاه الاهالى . واقبل سكان القرى لنجدة اخوانهم فامر الجنرال باطلاق الرصاص عليهم . ثم ارتد مع رجاله الى سنهور فدسوق بعد ماخسر عددا من القتلى وتسعة عشر جريحا ولما وصل الى رشيد كتب الى نابوليون يطلب قوة من الجند ومدفعية لاخضاع تلك المنطقة

٦ — احراق دمنهور

فى اواسط شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ تلقى الادجودان جنرال ايبرب امرا من القائد العام يعينه قائدا للحملة الجديدة التى قرر تجريدها على مديرية البحيرة لاخضاعها وقمع التمرد المشهود بين سكانها واصدر اليه تعليمات مؤداها ان يأخذ الدمنهوريين بالقسوة والشدة و يعاقبهم على مافعلوه مع كتيبة الجنرال ديموى (انظر ص ٢١) وهذا ماجاء فى الامر الصادر اليه :

١ ـ تجريد اهالى دمنهور والرحمانية من سلاحهم

٢ ـ اعدام خمسة من اعيان دمنهور : واحد منهم من العلماء واربعة من العوام لانهم اشتركوا فى التحريض وساعدوا على حدوث ماحدث

٣ ـ القبض على ٢٥ من الاعيان وارسالهم رهائن الى القاهرة بطريق النيل

وشعر القائد بعد اصدار هذا الامر ان قوات الجنرالين بيرب وديموى لا تكفى لهذه المهمة فعهد الى الجنرال مارمون بقيادة حملة جديدة تنضم الى قوات زميليه واصدر اليه الامر الآتى :

« ستجدون تحت قيادتكم قوة من ١٥٠٠ جندى فبهذه القوة وبفضل نشاطكم وكفايتكم تستطيعون ان تكسبوا فخرا جديدا وتقديرا عاما لخدماتكم فكونوا ليلا ونهارا على تمام الاهبة ، وشددوا فى عقاب القرى وعاملوها بقسوة وصرامة » ولم يقصر مارمون فى استعمال القسوة مع السكان

٧ — حول رشيد

فى شهر نوفمبر من تلك السنة وقعت اضطرابات فى ضواحى رشيد ، وكانت السفن الانكليزية والتركية ترسل الرسل الى الساحل لتحريض السكان على الفرنسويين واغرائهم بهم ، فاضطرب هؤلاء واتهموا مشايخ بلاد ادفينا وادكوا بان لهم يدا فى هذه الاعمال فقبضوا عليهم وجاءوا بهم الى رشيد واعدموهم بالرصاص بامر الجنرال منو

وازداد الهياج على الفرنسويين فى جهة دمنهور ولما كانت قوات الجنرال لتورك المرابطة فيها غير كافية لقمعه فضلا عن انها كانت منهمكة فى قمع اضطرابات الرحمانية فقد اوفد الجنرال منو الجنرال مورا من رشيد الى دمنهور لمقاومة الهياج الجديد فبلغها فى شهر نوفمبر وقبض بمساعدة الجنرال لتورك على زعماء الحركة واعدمهم رميا بالرصاص وفرض على المدينة غرامة كميات كبيرة من القمح والشعير والحبوب جمعها فورا يؤيد ذلك الكتاب الذى كتبه بالذات الى نابوليون يوم ٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ وقد جاء فيه : « ان الجنرال لتورك جمع الخيل والاموال من جميع القرى المجاورة لدمنهور وارسل الى الاسكندرية ستين جملا محملة غلة مما صادره من البلاد »

وغادر الجنرال مورا دمنهور قاصدا قرية « ديرامس » لمطاردة الثوار الذين لجأوا اليها فادركهم فيها وكان الوقت ليلا فضرب الحصار عليهم فتسللوا واوغلوا فى الصحراء فعادت الحملة الى دمنهور ومنها الى الرحمانية

وفى يوم ٦ ديسمبر سنة ١٧٩٧ غادرت الحملة الرحمانية الى شابور لمطاردة قوة

من العرب كانت في الصحراء بالقرب من الصواف فمرت (الحملة) بعدة قرى كانت خالية من السكان الذين هجروها خوفا على انفسهم

وواصل الجنرال مورا سيره حتى اقترب من مؤخرة قوة الثوار وكانت تتألف من ٦٠٠ فارس فلم يثبتوا في وجهه بل ارتدوا تاركين معسكرهم فاشعل فيه النار واحرقه

٤

الفرنسويون فى الشرقية

انتهينا من سرد اعمال الارهاب التى عملها الفرنسويون فى المنطقة الممتدة بين القاهرة والاسكندرية ورشيد وابو قير . ونبدأ هنا بوصف اعمالهم فى المنطقة الشرقية اى فى المنطقة الواقعة شرقى مدينة القاهرة وتشمل مديريتى القليوبية والشرقية ولم تكن مدينة بور سعيد قد بنيت ولا الاسماعيلية ولم يك العمران قد استبحر فى هذه المنطقة على المنوال الذى نشاهده اليوم ، كما ان سكك الحديد لم تكن قد انشئت ، وكان الناس يعولون فى الدرجة الاولى على السفر بالنيل من رشيد او دمياط الى القاهرة

ولا يخفى ان نابوليون سلك فى زحفه من الاسكندرية الى القاهرة طريق المواصلات المعول عليها فى ذلك العهد فمشى على الضفة الغربية للنيل من البحيرة حتى امبابه وسار اسطوله النيلى الى جانب حملته يؤيدها ويشد ازرها . ولما بلغ القاهرة واستولى عليها انقسم المماليك الذين كانوا يدافعون عنها الى قسمين فلجأ مراد بك والذين كانوا معه فى امبابه الى الفيوم ، ورابطوا فيها وسيطروا على الصعيد

اما ابراهيم بك فسلك طريق الشرق اى انه انسحب الى بلبيس عاصمة مدينة الشرقية فى ذاك العهد وهى على بعد ٥٥ كيلو مترا من القاهرة شرقا واستقر فيها يرقب الحوادث وسيرها وحوله قواه وانصاره

وشرع نابوليون بعد ماوطد نفوذه فى القاهرة فى وضع الخطط العسكرية التى تضمن له القضاء على القوتين الرابضتين حوله : قوة بلبيس وقوة الفيوم

ولما كانت الاولى هى الاقوى ، لانها لم تدخل فى حرب ولم تفقد شيئا من معداتها فقد قرر ان يبدأ بها و يعجل بالقضاء عليها ، قبل ان تتحد مع قوة الصعيد وتتعاون معها . ولا نرتاب فى انه لو تم لقائدى المماليك ابراهيم بك ومراد بك توحيد قواهما لازعجا نابليون واقلقاه ، وحال ما كان بينهما من احن واحقاد دون انشاء مثل هذا الاتحاد

واقترنت الاعمال العسكرية فى هذه المنطقة (اى المنطقة الشرقية) بما اقترنت به الاعمال العسكرية التى عملت فى المنطقة الشمالية (منطقة القاهرة والاسكندرية) من تخريب وتدمير وحرق وقتل ونهب

ونحن نلخص ماحدث مستندين على اقوال المصادر الوطنية والفرنسوية الرسمية :

فى صباح ٢ اغسطس زحفت قوة عددها ٦٠٠٠ مقاتل من القاهرة بقيادة الجنرال بكارك الى بلبيس لمنازلة قوات ابراهيم بك وطردها فمرت بالقبة ومنها سارت الى المطرية ثم الى المرج من دون مقاومة وكان الفلاحون يغادرون القرى قبل وصولها . و بلغت الخانكة فى المساء واتخذتها قاعدة لها

وفى يوم ٤ منه زحفت الى ابى زعبل ، فالتقت فى طريقها بجماهير من الفلاحين مسلحين بالبنادق والعصى فنازلوها واضطروها للرجوع فارتدت وظلوا يطاردونها حتى اوصلوها الى مقرها ، والظاهر ان مالقوه من فوز شجعهم فهاجموا مخافر الفرنسويين الامامية صباح ٥ منه يشد ازرهم نحو ٢٠٠ من فرسان المماليك ، وانضمت اليهم قوة من فرسان العرب برزت من غابة ابى زعبل فاحاطوا بالمعسكر الفرنسوى محاولين اقتحامه فارتدت مقدمة الفرنسويين . وانضم اهل قرية الخانكة نفسهم الى الثائرين فى اثناء القتال وهاجموا الحرس الفرنسوى وجردوه من السلاح وقتلوه فجمع الجنرال بكارك ضباطه واستشارهم فى الخطة التى يسير عليها فاتفقوا على اخلاء الخانكة والرجوع غربا وصبروا حتى المساء فانسحبوا تحت ستار

الظلام الى المطرية وصادفهم بين الخانكة والمطرية الكولونيل سلكوسكى ياور نابوليون واخبرهم ان فرقة الجنرال رينيه ارسلت لنجدتهم وانها فى الطريق، فواصلوا السير حتى بلغوا المرج فى آخر الليل فاستراحوا وفى الغداة وصلت القوة فانضموا اليها وعادوا الى الخانكة فبلغوها ظهر يوم الخميس ٦ منه فالفوها خالية خاوية فاستولوا عليها واستقروا فيها انتظارا لوصول القوات القادمة لنجدتهم

ووصلت فى الغداة فرقة الجنرال دوجا وفرقة الجنرال لان . وجاء نابوليون بالذات

وفى يوم ٩ منه زحف يقود الفرق الثلاث الى بلبيس ولا تزيد المسافة بينها و بين الخانكة عن ٢٨ كيلو مترا

وعلم ابراهيم بك زعيم المماليك بما اعده الفرنسو يون من قوى لاطاقة له بها فجلا عن بلبيس قبل وصولهم واوغل فى الشرق منسحبا فى اتجاه الحدود الشامية

واستولى نابوليون يوم ٩ منه على بلبيس سلما ومن دون حادث ، وارسل فى ليلة ١٠ منه قوة من الفرسان لاتزيد عن ٤٠٠ فارس لمطاردة ابراهيم بك والتنكيل به قبل ان يغادر الحدود فادركته فى الصالحية فصمد لها ودارت معركة عنيفة بين الفريقين يوم ١١ منه فرجحت كفة المماليك فى ابتداء القتال وكادوا يقضون على الكتيبة الفرنسوية لو لم ينقذها الجنرال بكلرك فارتد المماليك الى الشرق من دون ان يصابوا بخسارة ذات بال

وجرح فى هذه المعركة الكولونيل سلكوسكى والكولونيل ديمترس وغيرهما من الضباط جروحا بالغة

وفى يوم ١٣ منه غادر نابوليون الصالحية عائدا الى القاهرة وقصد الجنرال مورا مديرية القليوبية لاخضاعها

وقصد الجنرال دوجا المنصورة لاخضاع القسم الشمالى من الدلتا و بقيت فرقة الجنرال رينيه وفرسان الجنرال بكلرك فى الصالحية وامر نابليون بتحصينها لحراسة

برزخ السويس ومراقبة حدود مصر الشرقية وعين الجنرال رينيه لمديرية الشرقية وناط به انشاء الطوابى والاستحكامات لمنع تقدم المماليك ورصد حركاتهم

١ - الاضطراب فى الشرقية

واعتدى الجنود الفرنسويون فى الشرقية على الفلاحين ونهبوا ماشيتهم واموالهم فلجأوا الى الصحارى وحاول الجنرال رينيه ردع جنوده فلم يوفق فتحرجت الحالة وازداد الجفاء بين السكان والفرنسويين فشرع الاولون يغيرون على مخافر الآخرين وقتلوا ترجمان الجنرال رينيه قرب بلبيس فى اوائل اكتوبر

وقاوم اهل بيشة الفرنسويين عند ماشرعوا فى مصادرة خيلهم . وهاجم اهل بلبيس والعرب المجاورن لهم معسكر الجيش الفرنسوى هنالك يوم ٢١ اكتوبر فجاء ١٠٠ فارس من قبيلة العائذ من الصحراء فالتقوا بكتيبة فرنسوية فقتلوا بعض رجالها وانسحب الجنرال رينيه من بلبيس ليقاوم هجوما آخر اشترك فيه ٢٥٠ من الفرسان و ١٢ الفا من المشاة كان يهدد مركزه ثم كر عليهم حينما تلقى نجدات جديدة فاجلاهم عن بلبيس وظل يتعقبهم حتى اوغلوا فى الصحراء

وجاء فريق من عرب بلى بطريق القاهرة وهاجموا المعسكر الفرنسوى فردوا فكروا بقوة اكبر فحمل عليهم الجنرال رينيه بمدفعيته وفرسانه ورجاله فانسحبوا الى قرية غيته (جنوبى بلبيس الغربى) وتجمهر عدد كبير من الفلاحين فى الفضاء الذى يفصل بين بلبيس والمعسكر الفرنسوى فردهم الجنرال فاستأنفوا الهجوم واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين ولم تنقطع المناوشات بينهما وهددت مواصلات الفرنسويين فارسل رينيه يطلب نجدات من القاهرة فارسلت اليه وارسل اليه نابوليون يوم ٢٧ اكتوبر امرا بان لايهمل شأن موقعى الصالحية و بلبيس وان يسرف فى معاقبة القبائل التى تمردت او شاركت فى الحركات الاخيرة وان يأخذ منها رهائن

وامره ايضا بمعاقبة البلاد التى اشتركت فى الثورة وان يأخذ مشائخها و يقتلهم لانهم هم المسؤلون عما يحدث فى بلادهم

واستمرت الاضطرابات فى الشرقية طول زمن الاحتلال الفرنسوى ولم تنقطع ومما رواه الجبرتى فى اخبار شهر ديسمبر من تلك السنة قوله « وعاد نابوليون ليلا من ناحية بلبيس ومعه عبد الرحمن اباظة اخو سليمان اباظة شيخ العبايدة وخلافه رهائن وضربوا ابو زعبل والمنير واخذوا مواشيهم وحضروا بهم الى القاهرة وخلفهم اصحابهم »

٢ - فى المنوفية والغربية

بعد ما انتهت الاعمال العسكرية فى الشرقية وتفرق القواد الفرنسويون عائدين الى مراكزهم قصد الجنرال فرايونشك المنوفية . وسار الجنرال فوجير الى الغربية بعد ماتلق امرا من نابوليون بان يسافر الى مقر عمله بطريق قليوب ـ منوف ثم يقصد المحلة الكبرى وكانت عاصمة الغربية يومئذ و يتصل بزملائه الجنرال زايونشك بمنوف والجنرال فيال بالمنصورة والجنرال بيرب بالرحمانية وان يتعاونوا جميعا على توطيد ساطة فرنسا فى هذه الاقاليم

وكانت التعليمات التى اصدرها نابوليون الى هؤلاء القواد تتضمن مايأتى :

١ ـ تجريد الاهالى من السلاح

٢ ـ مصادرة مايملكونه من خيل

٣ ـ اعتقال الاعيان رهائن

ثم ارسل يوم ٤ اغسطس رسالة الى الجنرال زايونشك يقره فيها على اعدام خمسة من اهالى كل قرية تثور و يقول « اصدروا اوامركم بان تقدم لكم كل قرية جوادين من خيرة الجياد . واى قرية لم تفعل وانقضت خمسة ايام على انذارها فرضت عليها غرامة قدرها الف ريال

« ان هذه لهى الطريقة المثلى للحصول على ٥٠٠ من الجياد تسد حاجتكم .

وعليكم كذلك عند طلب الخيل ان تطلبوا عدتها من الركاب واللجام لتتهيء لكم في الحال فرقة من الخيالة وتلك هي الوسيلة الوحيدة لاخضاع البلاد »

وفي يوم ١٣ اغسطس غادر الجنرال فوجير منوف قاصدا المحلة الكبرى فاصطدم في طريقه بقريتي غمرين وتنا وهما متجاورتان في شمالي منوف

واغلق اهل البلدين ابوابهم في وجه الفرنسويين خوفا من اعتدائهم فحاول الجنرال استمالتهم بالحسنى واقناعهم بفتح الابواب فابوا فلجأ الى الجنرال زايونشك في منوف وطلب اليه ارسال قوة من الجند فارسلت اليه فتعاونت القوتان : قوة فوجير وقوة زايونشك على اخضاع القريتين ودارت معركة عنيفة في غمرين سالت فيها الدماء والتحم الفريقان في الشوارع وشاركت النساء الرجال في الدفاع

ووصف الكابتن فيروس في رسالة ارسلها الى الجنرال كافاويللي يوم ١٣ اغسطس معركة غمرين بقوله : جاءنا المدد وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة غمرين فاخذناها عنوة بعد قتال ساعتين وقتلنا من الاهالي من ٤٠٠ الى ٥٠٠ بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جندنا بكل بسالة . اما خسائرنا فهي قتيل واحد و ١٢ جريحا « ولو كان عندنا فؤوس لاقتحمنا القرية »

واستولى الفرنسويون بعد غمرين على تنا واضرموا النار في القريتين وحرقوهما

٣ - ثورة طنطا

وصلت الى طنطا اخبار الغرامات والضرائب التي يفرضها الفرنسويون والاعمال التي يعملونها في البلاد التي يمرون بها فاثرت في نفوس ابنائها وآلمتهم فاجمعوا على الامتناع عن دفع الضرائب والغرامات وابلغوا ذلك الى السلطة الفرنسوية طالبين ان تعاملهم بالعدل والانصاف مراعاة لمقام مدينتهم الديني

ووصف الجنرال فوجير حاكم الغربية في رسالة ارسلها يوم ١٦ اكتوبر الى

نابوليون حالة طنطا بقوله : «ان امتناع الطنطاويين عن دفع الضرائب منشؤه كرههم لفرنسا وما تنطوى عليه جوانحهم من شعور عداء لها وهم يؤوون بعض المماليك فيقيمون مطمئنين بينهم ينشرون روح التمرد والعصيان »

ولم ينتظر الجنرال فوجير وصول رد نابوليون واوامره فى الخطة التى يسير عليها بل اصدر امرا الى الكولونيل لوفيفر بان يقصد طنطا و يعتقل بعض زعمائها ظنا منه ان هذه هى الطريقة المثلى لاخماد حركة الهياج التى كانت تنتشر بين الوطنيين ضد الاحتلال الفرنسوى

و بلغت حملة لوفيفر طنطا يوم ٧ اكتوبر ورابطت حولها وارسل قائدها الى سليم الشوربجى حاكمها بان ينفذ اليه اربعة من كبراء المدينة يتخذهم رهائن فارسل اليه اربعة من ائمة مسجد السيد البدوى وابى كبار المشايخ مقابلة القائد الفرنسوى واعطاءه الرهائن التى يطلبها . وعجل الكولونيل بانزال الاربعة الى سفينة نيلية تحملهم الى القاهرة حيث يعتقلون فيها

وذاع هذا الخبر ـ خبر انزال الائمة الى السفينة بين طبقات الشعب وكانت طنطا تموج فى تلك الاثناء بالقادمين اليها للاشتراك فى عيد السيد البدوى على جارى العادة فازعجها فصاحت وتدفقت الجموع على الفرنسويين فقابلوها بنيران شديدة فارتد المهاجمون على اعقابهم لانهم ما كانوا مسلحين بالسلاح الكافى . ثم جمعوا شتاتهم وكروا على الفرنسويين فوقف فريق منهم للدفاع وشرع الآخرون فى النزول الى السفن النيلية فاقلعت على الفور بمعظم رجال الحملة تاركة قسما من رجالها على شاطىء الترعة لمنع الثوار من اللحاق بها فدار قتال بين الباقين والثوار استمر ٤ ساعات ثم انسحب الفرنسون ليلا

وقدر الجنرال فوجير عدد الثوار بالآف وقدر خسائرهم بثلثماية بين قتيل وجريح

وكتب نابوليون يوم ١٦ اكتوبر الى الجنرال فوجير يقول : « لقد علمت بمزيد الاسف بما حدث فى طنطا على انى راغب فى سلامة هذه المدينة ، واعتبر تخريب

هذا المكان المقدس فى نظر الشرق كارثة كبرى . وسأكتب الى اهل طنطا وساطلب من الديوان العام ان يكتب اليهم ، وانى راغب فى ان تنتهى هذه الحادثة بالمفاوضات على صلح ووئام »

وامر فوجير فى هذا الكتاب بان يأخذ رهائن من العرب وان لم يخضعوا فينكل بهم . واصدر فى الوقت نفسه تعليمات الى الجنرال لانوس حاكم مديرية المنوفية الجديد بان يسير الى العرب فى سنباط ويخضعهم ويأخذ رهائن منهم بالاتفاق مع قوة الجنرال فوجير

٤ - حادث عشما

فى يوم ٢٠ اكتوبر جرد الفرنسويون كتيبة من الجند بقيادة الجنرال لانوس حاكم المنوفيـة لاخضاع قرية عشما (من بلاد المنوفية) والقضاء على نفوذ الشيخ ابى شعير وكان الفرنسويون يتهمونه بعدم الاخلاص لهم

وفى الساعة الثانيـة بعد منتصف الليل بلغت القوة الفرنسوية عشما وتخطت مخفرين من المخافر التى وضعها ابو شعير لحماية القرية والدفاع عنها ، من دون ان يشعر بها احد ، ولما وصلت الى مدخل البلد اطلق عليها رجال مخفر هنالك النار فواصلت تقدمها واحاطت بالقرية وطوقت منزل شيخها وهو قصر شامخ منيع

واحس الشيخ بالخطر فركب ومعه بعض رجاله واخذ اهبته للقتال فسعى الجنرال لانوس للتفاهم معه واقناعه بالاستسلام فاجاب بالرصاص فامر الجنرال رجاله باقتحام اسوار القصر فقابلهم الاهالى بالرصاص واغتنم الشيخ هذه الفرصة فتسلق الاسوار والقى بنفسه فى الترعة وقطعها سباحة واصابته رصاصة عند بلوغه الضفة الاخرى فمات

واستولى الفرنسويون فى القصر على مدافع وعدد كبير من البنادق . واعترف الجنرال لانوس فى رسالة ارسلها يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٧٩٨ انه لولا مفاجأته لابى

شعير فى قريته لما استطاع ان يتغلب عليه وانه لو علم بقدم الفرنسويين لحشد قواه وانصاره ولنالهم منه جهد شديد

ولقى الفرنسويون مقاومة شديدة ايضا فى قريتى سلامون وسرسنا وهما على مقربة من عشما . وقبض لانوس على اثنين من اخوة ابى شعير وارسلهما الى نابوليون ليحملهما على ارشاد الفرنسويين الى المكان الذى خبأ اخوهم فيه امواله ليصادروها كما اشار عليه بان يقتلهما لما ارتكباه من اعتداء وطلب اليه ان يمده بقوة من الفرسان فامده بقوة قادها الجنرال فو فوصلت يوم ٧ نوفمبر الى منوف وانضمت الى حملة لانوس فاوقعت بكثير من القرى المحاذية للنيل بحجة مهاجمتها للسفن الفرنسوية على فرع رشيد و بلغت طنطا دون مقاومة . وشتت قوات العرب التى كانت تشد ازر الثوار

٥

الفرنسويون فى الدلتا

فى اوائل شهر اغسطس سنة ١٧٩٨ قصد الجنرال فيال المنصورة فى طريقه الى دمياط وكان يحمل امرا بتعيينه حاكما على هاتين المديرتين فاقام قوة من جنده فى مدينة المنصورة كانت اول جيش للاحتلال يدخل تلك المدينة ، فكبر ذلك على سكانها وكانوا قد عرفوا كثيرا من اخبار الفرنسويين فاتفق نفر منهم على مهاجمة الحامية بمساعدة بعض رجال البلاد المجاورة

واعتصم الجنود وعدتهم ١٢٠ فقط فى معسكرهم فحاصرهم الثائرون وشرعوا فى دكه فانحدر الجند الى السفن يبغون النجاة فتكاثرت عليهم الجموع وابى اصحاب السفن حملهم فاتجهوا الى طريق دمياط فلحقهم الثوار وقتلوهم ماعدا اثنين اسرا وفر ثالث فنجا

وفى ١٨ اغسطس وصل الجنرال دوجا الى جنوب المنصورة يحمل امرا من نابوليون بان يعاقب المنصوريين عقابا شديدا و بان يقتل ٩ – ١٠ من اعيانهم . ولابد لنا من القول ان المنصوريين اسرعوا فكتبوا رسالة الى هذا حملها قاضيهم اليه يبرأون فيها مما وقع و يقولون ان العرب والفلاحين هم الذين ارتكبوا ما ارتكبوه رغما عنهم

و باشر الجنرال دوجا التحقيق ولم يشأ ان يأخذ البرىء بجريرة المذنب وانتهى الامر بالحكم على اثنين من اهل المنصورة بالاعدام فاعدما

وكتب الجنرال دوجا من المنصورة الى القائد العام يستأذنه فى اصدار عفو عام

عن جميع المتهمين فى هـذا الحادث وقال ان صدوره يعيد الى البـلاد استقرارها وهدوءها لان معظم سكانها نزحوا عنها فشلت هجرتهـم الحركة الاقتصادية بشرط ان لايشمل العفو اهل القرى الذين اشتركوا فى الحادثة فاقر طلبـه واذن له ان يستخدم مايراه لاقرار الطمأنينة وبان ينذر اعيان البلاد التى اشترك اهلها فى قتل الحامية بان يسلموا المعتدين والا استهدفوا لحرق قراهم

وامره ايضا بان يخضع اهل المديرية كلها وان يأخذ رهائن من كل قرية اشترك اهلها فى الاعتـداء وان يحرق القرى التى كان اهلها اكثر اعتداء وان يفرض على اعيـان المنصورة ثلاثة آلاف ريال عقابا لهم ويفرض الفى ريال على السـيد على الشناوى احد الاعيان ومثلها على القرى المجاورة التى اشتركت فى الاعتداء

وقابل المنصوريون هذه الحركة بالاستنكار ولم يخضعوا للفرنسويين الا بعد ما استنفدوا الجهد فى المقاومة ودفعوا الغرامة مضطرين

ووقعت للفرنسويين فى هذه المنطقة وقائع هذا بيان عنها :

١ ـ حادث سنباط وميت غمر

كانت قرية سنباط من قرى مديرية الدقهليـة اول قرية استهدفت لغارة الفرنسويين حينما شرعوا فى تأديب القرى التى اشتركت فى حادث المنصورة وكانت اوامر نابوليون تقضى باحراقها

ففى اواخر شهر اغسطس غادر الجنرال مور حاكم القليوبية قاعدته لينضم الى حملة الجنرال دوجا ويباشر معه تأديب القرى وتجريد الاهالى من اسلحتهم

وفى يوم ١٢ سبتمبر انفذ الجنرال دوجا الجنرال فرديه على رأس ٥٥٠ جنديا سافروا بالنيل لمهاجمة سنباط فالتقى قربها بقوة من العرب فهزمهم واستولى على خيامهم وماشيتهم

ونشرت جريدة كوريبه دى ليجبت ـ وكانت لسان الحملة الفرنسوية فى مصر ـ بيانا عن هذه الحملة جاء فيه ان المعركة التى دارت حول سنباط انتهت باحراقها

وقتل ٥٠٠ من العرب عدا الذين غرقوا وان الفرنسويين استولوا على ستة آلاف رأس من الغنم

وهاجم الجنرال مورا فى شهر سبتمبر ايضا بعض العربان فى دنديط قرب ميت غمر فقتل عددا منهم وهزم الباقين وغنم منهم ٢٠٠٠ رأس من الغنم

وفى شهر اكتوبر اصدر نابوليون امرا الى الجنرالين مورا ولانوس بان يتعاونا فى اخماد حركة الاضطرابات التى تجددت فى الدلتا فسارا بالنيل الى ميت غمر ومنها الى دنديط لمهاجمة الثوار الذين احتشدوا هنالك

وارتد هؤلاء الى ميت الفرماوى حينما شعروا بدنو الفرنسويين فتحصنوا فيها وكانوا مسلحين بمدفعين فنازلوا الفرنسويين وقاوموهم فى ابتداء القتال ثم ارتدوا الى التلول المجاورة فدخل الجند القرية وغنموا المدفعين وطاردوا الثوار فلجأوا الى الهوابر فتركوهم وكفوا عن مطاردتهم لما لحقهم من التعب وعادوا الى ميت غمر

٢ – حادث البحر الصغير

يطلق اسم بلاد البحر الصغير على المنطقة الواقعة بين المنصورة وبحيرة المنزلة ففى شهر سبتمبر اعد الجنرال دوجا حملة عسكرية بقيادة الجنرال داماس والجنرال دستنج لاخضاع هذا الاقليم ورسم لهما الخطة التى يسيران عليها فامر الاول بان يقصد بحيرة المنزلة مباشرة فيرتادها ويخضعها وامر الثانى بان يقصد قرية القباب الكبرى ومنية محلة دمنة ويؤدبهما لان اهلهما جاهروا بالعصيان وامتنعوا عن دفع الضرائب والغرامات التى فرضت عليهم

ووصف المسيو ريبو فى كتابه التاريخ العلمى والعسكرى للحملة الفرنسوية هذا الاقليم وسكانه بقوله : « وتتصل مديرية المنصورة – وكانت مسرحا للاضطرابات والفتن – ببحيرة المنزلة وهى بحيرة كبيرة تقع بين دمياط والطينة

« ويسكن سواحل هذه البحيرة والجزر التى بها والمناطق المجاورة لها قوم شداد ذوو نخوة ولهم جلد وصبر بل هم اشد بأسا من سائر المصريين وفوق ذلك

فهم اغنياء بما ينالونه من الصيد . ولهم فى البحيرة ٥٠٠ ـ ٦٠٠ مركب ولهم ٤٠ رئيسا وهؤلاء الرؤساء يخضعون لشيخ بلد المنزلة واسمه الشيخ حسن طوبار فهو الزعيم الاكبر ، وصاحب النفوذ الاعظم »

ووصف الجنرال اندريوس حسن طوبار هذا بانه من اكبر اغنياء القطر المصرى وقال انه ذو ثروة طائلة جمعها من احتكاره الصيد فى البحيرة لقاء جعل يدفعه للحكومة وان مشيخة البلد فى اسرته يتوارثونها من اربعة او خمسة اجيال وله سلطة واسعة تقوم على مكانته فى النفوس وثروته وعصبيته ، وعلى مؤازرة العرب الذين يقطعهم الاراضى ليزرعوها ويفرق على رؤسائهم الهدايا والتحف

وتشمر الفرنسويون بعد ماتجمعت عندهم هذه البيانات والمعلومات لاخضاع الشيخ حسن طوبار والقضاء على نفوذه والتخلص منه فلا يعارضهم ولا يقف فى وجههم وللفوز بثروته الطائلة او جزء منها على الاقل بما يفرضونه عليه من غرامات . والتعليمات التى اصدرها الجنرال دوجا الى الجنرالين داماس ودستنج حينما وجههما اليه تنم عن ذلك فقال للاول :

١ ـ على الجنرال داماس مساعدة الجنرال دستنج فى تأديب منية محلة دمنة والقباب الكبرى وان يعمل بالتعليمات الصادرة الى الجنرال دستنج فى هذا الشان

٢ ـ عليه ان يمر فى البحر الصغير (بحر اشمون) الى بحيرة المنزلة ويقيس عمق البحر ، ويخضع البلاد الواقعة على شاطئيه وينتزع رهائن من كل البلاد التى لم تدفع الضرائب المفروضة عليها ، او تسلم الخيل المطلوبة منها

ان الجنرال فيال ، حاكم دمياط ، منزعج من مقاصد الشيخ حسن طوبار شيخ المنزلة ومن حشده عددا كبيرا من المراكب فى المطرية فاذا كان هذا صحيحا فمن الواجب اسر الشيخ وتحطيم اسطوله الخ

وقال فى تعليماته الى الجنرال دستنج :

ان قريتى محلة دمنة والقباب الكبرى واقعتان تحت تأثير رجلين يجب اسرهما وهما على العديسى من الاولى والامير مصطفى من الثانية

ويتهم الجنرال فيال هـذين بالاتصال بالشيخ حسن طوبار شيخ المنزلة وانتظارهما النجدة منه فيجب ان لايترك الوقت لهما ، ويجب الاسراع فى مهاجمتهما . ثم احتلال موقع عسكرى بين دموه السباخ يحول بين الرجلين وبين كل مدد يأتيهما

« واذا قاوم الاهالى يجب سحقهم وسحق قراهم

« واذا سلموا بدون اطلاق نار فيجب عليهم ان يسلموا فى الحال ٢٠ رهينة منهم وان يسلموا على العديسى والامير مصطفى . وعليهم ايضا ان يسلموا جميع اسلحتهم و٢٠ جوادا و٣٠٠ من الماشية ، ويغرموا ايضا ثلث الضريبة المفروضة عليهم. واذا تسلحت بعض القرى لمؤازرة المنية والقباب فاضربوا اهلها وخذوهم باقصى انواع الشدة ونكلوا بهم

« واذا انتهت الحملة على المنية والقباب باعادة السكينة والخضوع فارجعوا الى المنصورة بمن معكم من الجنود واذا ظهرت فتن فى بلاد اخرى فعليكم ان تتابعوا سيركم لاخضاعها »

وفى يوم ١٦ سبتمبر غادرت الحملة المنصورة بالنيل وسارت الى محلة دمنة فارست عليها ليلا وشعر السكان باقترابها فنزحوا

ونزلت فى الغداة الى القرية فالفتها خالية خاوية فتابعت سيرها الى القباب وكانت خالية ايضا وكان سكانها قد هجروها خوف الفتك والاضطهاد ، فدعا الجنرال داماس مشايخ بعض القرى المجاورة وعهد اليهم بابلاغ المهاجرين من القريتين بان يعودوا الى منازلهم فلا ينالهم شر اذا دفعوا الضرائب المفروضة عليهم

وعاد الجنرال دستنج الى المنصورة بعد تطبيق الخطة التى رسمت له ، وواصل الجنرال داماس السير الى بحيرة المنزلة فبلغ برنبال الجديدة مساء اليوم التالى فقضى ليلته فيها ثم غادرها قبل شروق الشمس فوصل فى الساعة ١٠ قبل الظهر الى امام قرية الجمالية فوحلت سفنه لقلة الماء ، فاغتنم الاهالى الفرصة وكانوا يراقبون حركات الحملة عن كثب ويتتبعون سيرها ، فهاجموها بالرصاص والحجارة ، واشترك سكان قرية

الجمالية فى هذا الهجوم فانزل الجنرال جنوده الى اليابسة واشتبك فى قتال عنيف معهم امتد ٤ ساعات ورای فى نهايته انهم يكادون يتغلبون عليه فاضرم النار فى القرية وعاد بحرا الى المنصورة يحمل جرحاه وقتلاه

ومر فى رجوعه بقرية سلسيل فالفاها خالية فاحرقها عقابا لسكانها الذين نزحوا عنها وقدرت خسارة الفرنسويين فى هذه المعركة بخمسة قتلى و ١٥ جريحا وقدرت خسارة الاهالى بخمسماية بين قتيل وجريح

٣ ـ حادث الهجوم على دمياط

وبينما كان الفرنسويون فى طريقهم الى المنزلة لمهاجمة الشيخ حسن طوبار كان هذا يرسل اهله وابناءه الى غزة لكى لاينالهم المحتلون بسوء كما كان يعد المعدات لمهاجمة هؤلاء فى دمياط ، واخراجهم من تلك المدينة الكبرى وكانت تعد من اعظم مدن القطر المصرى فى تلك الايام واكبر ثغوره

وشعر الجنرال فيال حاكم دمياط بالخطر فكتب الى الجنرال دوجا فى اوائل شهر سبتمبر ينذره بقرب وقوع الكارثة ويطلب اليه ارسال نجدات ويقول ان حسن طوبار يحشد جيشا كبيرا فى المنزلة لمهاجمة دمياط

ووقع ماحذره الجنرال فيال وما انذر به فقد جاء اسطول حسن طوبار الصغير من المنزلة الى ساحل دمياط كما جاءها الفلاحون من القرى المجاورة ففتكوا بقوة الحرس الفرنسوى فى المخافر حول دمياط وفى ليلة ١٦ سبتمبر حملوا عليها واستمر القتال الليل بطوله فرد الجنرال فيال المهاجمين على اعقابهم فانسحبوا الى شاطىء البحيرة وركبوا السفن التى كانت فى انتظارهم وسار فريق منهم الى قرية الشعراء وهى الى جنوبى دمياط وعلى مقربة منها فتحصنوا فيها . وانضم اليهم فريق آخر من الفلاحين لم يشترك فى الهجوم ، وتفرق الفريق الآخر

ولما وصلت الاخبار بما وقع فى دمياط الى قرية عزبة البرج وثب سكانها على الحامية الفرنسوية فقتلوا بعض رجالها

وغادر اهالى هذه القرية بيوتهم يحملون عيالهم وامتعتهم الى سورية فى الغداة حينما عرفوا بفشل الثورة ، وارسل الجنرال فيال قوة للتنكيل بهم فنهبت القرية المقفرة وحرقتها

وتلقى الجنرال فيال نجدات فاعد حملة عسكرية كبيرة زحف على رأسها يوم ٢٠ سبتمبر الى قرية الشعراء وكان فيها نحو ١٥٠٠ ثائر فاقتحمها واستولى عليها عنوة ونهبها واضرم فيها النار وغنم مدفعين مع السفن التى كانت هنالك ورجع الى دمياط

ويقدر الفرنسويون قتلى الاهالى فى هذه المعركة بخمسين

وفى شهر اكتوبر غادر الجنرال فيال دمياط يقود حملة اخرى لمعاقبة القرى التى اعتدت على سفن النقل الفرنسوية بالنيل فمر اولا بقرية الطاهرية فوجدها خالية فسار الى قرية كفر المياسرة وكانت خالية ايضا ثم الى الزرقا وكان شيوخها قد لاذوا بالفرار فاتجه الى قرية ميت الخولى فوجدها خالية ايضا فنزل فيها وصادر ما وجده فيها من اسلحة وامر جنده فنهبها واحرقها

وواصل سيره بالنيل حتى بلغ قرية الاحمدية وكان اهلها قد اخلوها قبل وصوله ثم اتجه الى قرية شرمساح وعاد منها الى كفر الزعاترة وهى آخر قرية بلغها فى رحلته تلك فنزل فيها وكان فيها بعض السكان . وفى يوم ١٤ اكتوبر وصل الى دمياط ومعه رهائن من اعيان البلاد فارسلهم الى العاصمة

ووصف الجنرال لوجييه فى مذكراته اعمال الجنرال فيال فى حملته تلك ومما قاله: « كانت مدينة دمياط غداة اليوم الذى عاد فيه الجنرال فيال اشبه بسوق او مولد باع فيه الجنود الفرنسويون الروم من نزلاء دمياط ما نالته ايديهم من السلب والنهب فكانوا يعرضون المواشى والطيور والثيران والبقر والخيول والحمير والغنم والدجاج والاوز وكثيرا من قطع الذهب والفضة التى يتحلى بها النساء »

وارسل نابوليون رسالة الى الجنرال فيال لامه فيها على اصداره الامر بنهب

قرية ميت الحولى ، وقال له ما نصه : « لقد استأت من نهب قرية ميت الحولى وكنت اكتفى بتجريدها من السلاح »

واضطربت الحالة بعد هذه الاحداث وتجمع الناس للمطالبة بالثار فاسرع نابوليون فارسل سفنا مسلحة الى دمياط لتكون تحت تصرف الجنرال دوجا وتساعده على توطيد نفوذه ويصف الجنرال لوجييه الحالة الادبية يومئذ بقوله :

« لم تتحسن الحالة كثيرا عما كانت عليه حينما جاء الجنرال دوجا لاول مرة الى دمياط والسلطة الفرنسوية مازالت منكورة فى معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية ولا يأمن الجندى الفرنسوى على حياته فى دمياط اذا ذهب الى حى الوطنيين ، والحامية الفرنسوية مقصاة فى حى الروم »

وانتدب نابوليون الجنرال اندريوس لتحصين دمياط واتخاذها موقعا حربيا منيعا ودرس حالة بحيرة المنزلة والبلاد المحيطة بها فكتب هذا اليه يقول انه لا سبيل الى تسلط الفرنسويين على هذه البلاد الا بعد سحق قوة حسن طوبار والقضاء عليها فالاستيلاء على مدينة المنزلة واتخاذها قاعدة حربية يوطد النفوذ الفرنسوى هنالك

٤ ـ الحملة الثانية على المنزلة

فاصدر نابوليون امرا الى الجنرال دوجا بان يجرد حملة عسكرية على مدينة المنزلة وامر الجنرال اندريوس ـ بعد ما وضع قوة عسكرية بقيادته ان يحتل الجزائر فى بحيرة المنزلة وشدد عليه فى رسالة ارسلها اليه بان يأخذ حسن طوبار ولو بالخديعة ويرسله الى القاهرة واوصاه ايضا بان يقسو على الثوار ويعاملهم بالشدة ويخضع جميع البلاد الواقعة بين المنصورة ودمياط ويجردها من السلاح ويأخذ منها رهائن ويقطع الرؤوس

وقاد الحملة على حسن طوبار ثلاثة جنرالات : الجنرال داماس والجنرال اندريوس والجنرال لوجييه

وغادرت قوة الاول دمياط يوم ٤ اكتوبر فركب جانب منها النيل ومشى الجانب الآخر فى البر الى جانب السفن . اما قوة الجنرال اندريوس فسارت بحرا الى المنزلة . وكانت حملة الجنرال داماس تقدمتها بالسفن الى المنزلة رأسا

ولما وصلت الحملة الى (الكردى) جاء وفد من المنزلة لمفاوضة الفرنسويين وليطلب منهم ان لا يعاملوا معاملة اعداء فكتب لهم الجنرال داماس تصريحا بضمانة ارواحهم اذا سلكوا مسلكا معتدلا ولائيا

وفى صباح ٦ اكتوبر سمع الجنود عند الفجر اصوات طلقات بنادق آتية من مصدر بعيد فمشت الحملة الى المنزلة فبلغتها نحو الساعة ١٠ صباحا ، وكان الاهالى ومعهم حسن طوبار قد اخلوها ولم يبق بها الا الشيوخ الذين لا يقدرون على السير والعجائز من النساء فدخلوها بدون حادث . ونهب بعض الجنود البيوت والمنازل فتدخل الجنرال داماس لاعادة النظام ومنع النهب

واحتل الفرنسويون المطرية بعد المنزلة بدون مقاومة اما حسن طوبار فقد هاجر الى غزة واقام فيها

٦

الاستيلاء على الوجه القبلى

انسحب مراد بك بعد معركة امبابه الى الفيوم واستقر فى البهنسا ولحق به بعض مماليك ابراهيم بك من الذين ابوا السفر الى سورية

وحسب نابوليون حساب هذه القوة فعهد الى الجنرال ديزيه على اثر معركة امبابه بان يحتل المناطق الواقعة حول الجيزة ويحصنها بالمدافع ويقيم حولها الخنادق خوف هجوم من الجنوب فنفذ ما امره به

واراد قبل الشروع فى الاعمال العسكرية ان يسعى للاتفاق مع مراد بك على ان يترك له المنطقة الواقعة بين جرجا والشلال وتشمل مديريات قنا واصوان فى الوقت الحاضر مع جرجا نفسها فيحكمها تحت النفوذ الفرنسوى . وعهد الى المسيو روستى قنصل النمسا بمصر بالقيام بهذه المهمة ومفاوضة مراد بك على هذا الاساس واصدر اليه التعليمات الآتية :

« المعسكر العام بالقاهرة فى اول اغسطس سنة ١٧٩٨

« الى المواطن روستى :

« عليك ان تذهب سرا الى مراد بك ، وتخبره بانك قدمت لى الرسول الذى اوفده الى ، وان هذا الرسول قد ترك فى نفسى اثرا سيئا بثرثرته واقواله الطائشة على اننى ادركت انه قد يجىء الوقت الذى ارى فيه من مصلحتى ان انتفع بخدمات مراد بك وان اتخذه عضدا وامينا

« واخبره انى اقبل اذا تم الاتفاق بيننا ان تبقى مديرية جرجا فى حيازته على ان ينسحب اليها فى مدى خمسة ايام ولا ارسل اليها من ناحيتى جندا

« وابلغه ايضا انه اذا تم الاتفاق على هذه الشروط فمن المحتمل اذا ازددت معرفة وثقة به ان امنحه مزايا اكبر . ووقع واياه اتفاقا يكتب باللغتين الفرنسوية والعربية يكون على المنوال الآتى :

١ – يبقى مع مراد بك ٥٠٠ – ٦٠٠ من الفرسان يكونون عدته فى حكم مديرية جرجا من شلال اسوان الى ما يلى جرجا شمالا بنصف فرسخ وعليه ان يجعلها فى مأمن من هجمات العرب

٢ – يعترف مراد بك بان يكون فى حكم المديرية المذكورة تابعا لفرنسا وان يدفع لخزينة الجيش الخراج الذى يجبى منها

٣ – يتعهد القائد العام من ناحيته بان لا تحتل جنوده اى جهة من مديرية جرجا وان يترك ادارتها لمراد بك

٤ – على مراد بك ان يمضى برجاله الى ما وراء حدود مديرية جرجا فى مدة خمسة ايام ، ولا يسوغ لاحد من اتباعه ان يتخطى هذه الحدود الى مديرية اخرى الا باذن من القائد العام

وزود نابوليون ايضا رسوله بكتاب يخوله حق توقيع المعاهدة هذا نصه :

« ان القائد العام المدفوع بعواطف الانسانية التى كانت على الدوام رائده فى اعماله يخول المواطن روستى حق المفاوضة مع مراد بك والاتفاق معه على شروط معاهدة تنهى حالة الحرب بينهما والتوقيع على الاتفاق . . . »

وقضى الرسول اياما فى ضيافة مراد بك فى الفيوم يحاول اقناعه بقبول المشروع فابى فعاد يجرر اذيال الخيبة والفشل فاستقر قرار نابوليون على تجريد حملة عسكرية كبيرة لاخضاع الصعيد والقضاء على قوة مراد بك فتألفت بقيادة الجنرال ديزيه من خمسة آلاف من المشاة والمدفعية والمهندسين

وفى اواخر شهر اغسطس تحركت هذه الحملة برا و بحرا بالسفن من مصر القديمة والجيزة ووصلت تقدمها حتى اطفيح (الجيزة) فانضمت اليها كتيبة الجنرال رابون وفى يوم ٣١ منه بلغت بنى سويف بحرا واحتلتها بدون مقاومة فنزلها الجنرال ديزيه واخذ يتسقط اخبار المماليك

وفى يوم ٤ سبتمبر سارت الى ابو جرج بحرا على ان تنحدر منها الى بحر يوسف فتسير الى البهنسا والفيوم وكان مراد بك يرابط بين بحر يوسف والجبل

ونزل جانب منها الى البر فى ابو جرج وسار الى البهنسا وعرف مراد بك بقرب وصول الفرنسويين فامر اسطوله بان يسير جنوبا الى اسيوط كما عجل بالجلاء عن البهنسا نفسها لئلا يصطدم بهم وانسحب الى اللاهون ورابط فيها واستولى ديزيه على الاولى سلما وغنم مراكب للمماليك قصرت عن الانضمام الى اسطولهم ووضع يده على ما كان هنالك من ذخائر ومؤن

وتحركت الحملة يوم ٧ منه صاعدة فى النيل الى ديروط حيث يأخذ بحر يوسف من النيل فتنحدر فيه السفن الفرنسوية الى مديرية الفيوم ويسقيها هذا البحر فوصلت يوم ١٠ منه الى المنيا وفى ١٢ منه بلغت ديروط

و بعد ما اقام ديزيه قسما من قواه فى ديروط وعلى فم بحر يوسف لمراقبة الملاحة اسرع الى اسيوط وهو يرجو ان يظفر باسطول المماليك وكان معظم بحارته من الروم، وكان الفرنسويون يعولون على تأييدهم فبلغها يوم ١٤ منه بعد ما غادرها الاسطول الى جرجا

وفى ٢١ منه عاد ثانية الى ديروط فباشر تنظيم الحملة على الفيوم وفى يوم ٢٤ منه سارت السفن الفرنسوية فى بحر يوسف قاصدة الفيوم، وفى يوم اول اكتوبر بلغت البهنسا بعد رحلة شاقة متعبة وفى يوم ٣ اكتوبر اشتبكت مع طلائع المماليك بناحية القايات فنزل الجنرال ديزيه الى البر واشتبك مع الطلائع فارتدت فواصل تقدمه برا . وفى يوم ٥ منه شاهد جيش مراد بك مرابطا فى المرتفعات المشرفة على بحر يوسف فحمل عليه فانسحب شمالا فحاول ادراكه فعجز

وشرع المماليك فى صباح ٦ اكتوبر فى مناوشة الجيش الفرنسوى يشد ازرهم السكان فاصلاهم نارا حاميـة فارتدوا الى مواقع حصينة اعدوها وفى صباح ٧ منه التق الفريقان على مقربة من « سـدمنت » وهى قرية تقع فى الجنوب الغربى للاهون وتتصل بالجبل الغربى فدارت معركة عنيفة بينهما هى المعركة الثانية التى اشتبك فيها مراد بك بالفرنسويين بعد معركة امبابه ومع ان كفته رجحت فى اول الامر الا ان الفوز كان لخصومه فى النهاية

لقد جمع مراد بك لهـذه المعركة جموعا غفيرة فكان عـدد رجاله ضعف عدد رجال الجيش الفرنسوى ، وكان يملك ثمانية مدافع كما كانت المواقع التى اختارها وعبأ فيها قواه من افضـل المواقع واكثرها ملائمة ، وكان يرجوان يوفق بفضـل هذه القوى الـكبيرة الـتى اعـدها لسحق الفرنسويين ولـكنهم تغلبوا عليـه رغم استبسال انصاره ونشاطهم بفضـل نظامهم وحسن قيادتهم وجودة مدفعيتهم وكفاءة ضباطهم . ومما يذكر عن انصار مراد بك انهم كروا ثلاث كرات على الفرنسويين وكانوا فى كل مرة يضطرون للـتراجع امام نيرانهم الحامية . ولا بد لنا من القول بان مدافع مراد بك الثمانية اصلت الفرنسويين نارا حاميـة وانزلت بهم خسائر جسيمة وكادت تهزمهم لولا ان الجنرال ديزيه امر جنوده بالهجوم على اماكن المدافع وتدميرها ففعلوا

وخسر المصريون فى هذه المعركة نحو ٤٠٠ قتيل وخسر الفرنسويون ٣٤٠ قتيلا و ١٥٠ جريحا

وارتد مراد بك وحلفاؤه من العرب بعـد وقوف القتال وساروا غربا حتى استقروا فى الغرق (بركة كبيرة واقعة فى جنوبى الفيوم الغربى)

واسـتولى ديزيه على اللاهون يوم ٩ اكتوبر واستراح فيها حتى ١٢ منـه وبعد ما ارسل الجرحى الى القاهرة تحرك الى الفيوم فاستولى عليها بدون مقاومة ، ثم اسرع باخلائها حينما علم بان المماليك والعـرب ازمعوا الرجوع الى معقلهم الاول فى سدمنت فخاف على مواصلات جيشه

ووصل ديزيه الى اللاهون يوم ١٦ منه واتخذها قاعدة له وصمم على سحق قوة المماليك والتخلص منهم

وانتشرت الامراض بين رجال الحملة وفتك بهم الرمد فتكا ذريعا فاصيب به ٨٠٠ فى يوم واحد فكتب ديزيه الى نابوليون يوم ٢٠ اكتوبر يقول « حرمتنى امراض العيون الانتفاع بالف واربعماية من رجالى وكانت كارثة فظيعة حلت بالجيش وقد اضطررت ان اعزل ١٠٠ رجل فقدوا بصرهم تماما

« وليس فى امكانى ان اطارد مراد بك الا اذا سد النقص فى صفوف الجيش ووصل عدد رجال الحملة الى ثلاثة آلاف مقاتل . وقد انشأت هنا مستشفى لثلاثماية مريض وارسلت بالنيل ٤٠٠ مريض آخرين . ومن الواجب الاسراع فى سد النقص فان بحر يوسف لا يعود بعد ايام صالحا للملاحة

« ان مركزنا هنا محفوف بالمكاره والمخاطر وانا احارب فى صحراء حيث لا توجد طرق للمواصلات ولا وسائل للنقل حتى ولا للجنود المرضى »

وفى اواخر اكتوبر انتقلت الفرقة الى مدينة الفيوم وعسكرت فى حديقة كبيرة شماليها واقامت جسرا على بحر يوسف

وانشأ ديزيه حكومة فى الفيوم وعكف على جباية الضرائب وجمع الغلال ومصادرة الخيل من القرى ، فلقى مقاومة واحس بان روح التمرد تسرى بين طبقات الفلاحين فجرد حملة على القرى لاخضاعها وحملها على تسليم ما يطلب منها وسار على رأسها يوم ٦ نوفمبر ، بعد ماترك فى الفيوم قوة كافية للدفاع عنها

واخضعت الحملة قرى مطرطارس وسيله وسرسنا وقاوم اهل القرية الاخيرة مقاومة شديدة ثم انسحبوا من قريتهم موغلين فى الصحراء فاستولت عليها وحرقتها ثم تابعت سيرها فوصلت الى قرية الروضة وقضت الليل فى قرية الروبيات

وجمع الثوار جموعهم ، واغاروا يوم ٨ نوفمبر على مدينة الفيوم ، مغتنمين فرصة

غياب الجنرال ديزيه ورجاله عنها وهاجموا معسكر الفرنسويين بعد ماطردوا رجال المخافر الامامية واستولوا عليها

وتحصن هؤلاء فى منزل على كاشف بقيادة الكولونيل هبلر واطلقوا منه النار على المهاجمين فانسحبوا تاركين عددا كبيرا من القتلى ثم كروا كرة ثانية بعد وصول نجدات جديدة ففشلوا وفقدوا كثيرا من القتلى والجرحى . واتصل خبر ماجرى بديزيه فعاد فورا الى الفيوم

واصدر نابوليون امرا الى الجنرال بليار قائد الجيزة بان يمضى الى الصعيد نجدة للجنرال ديزيه فسار برجاله يوم ١٠ نوفمبر حتى الزاوية (شمالى بنى سويف) وفيها تلقى تعليمات من هذا بان يبقى فى بنى سويف لمساعدة الجنرال زايونشك فى مهمته وكانت هنالك دلائل تدل على ان روح التمرد والانتقاض بدأت تسرى فى انحائها

وانتقل ديزيه بعد اخماد ثورة الفيوم الى بنى سويف فبلغها يوم ٢٢ نوفمبر فاتحد مع فرقة الجنرال بليار وقضى هنالك اياما يعد المعدات للزحف على اعالى الصعيد

وامد نابوليون ديزيه بالف ومائتين من الفرسان بقيادة الجنرال دافو ومئات من المشاة وزوده بالمدافع والذخائر وست سفن حربية منها السفينة ايطاليا وكان يركبها فى النيل وكانت خاصة به

وفى يوم ١٥ ديسمبر شرعت حملة الجنرال ديزيه فى الزحف على الصعيد بعد ما اتمت اعداد معداتها وكانت تتألف من اربعة آلاف مقاتل مجهزين بالمدافع والذخائر يشد ازرهم اسطول من السفن النيلية المسلحة بالمدافع الحديثة ويقودهم ضباط من خيرة رجال الجيش الفرنسوى وهم الجنرالات فريان ودافو وبليار والكولونيل لاتورى والكولونيل راباس

وبلغت الحملة الفشن يوم ١٧ ديسمبر وفى ٢٠ منه بلغت المنيا ثم سارت الى ملوى وفى يوم ٢٥ منه بلغت اسيوط وكان المماليك قد عجلوا فى الجلاء عنها بعد ان اغرقوا سفينة من اسطولهم فى النيل لعرقلة حركات الاسطول

وغنم الفرنسويون فى اسيوط ست سفن لم يستطع المماليك اخذها معهم

وانقسمت الحملة الى قسمين بعد اسيوط : فقاد الجنرال فريان قسما اخذ طريق الجبل وقاد الجنرال بليار القسم الآخر وسار فى السهل والتقى الفريقـان فى الغنايم فاستوليا عليها ونهبها الجند كما جاء فى مذكرات الجنرال بليار . وحاول الاهالى الدفاع عن انفسهم ومدينتهم ووقف اعتداء الجند فلم يوفقوا

وواصل الجيش تقـدمه جنوبا فبلغ جرجا يوم ٢٩ ديسمبر فاستولى عليها بدون مقـاومة وحط رحاله فيها وكان يطارد قوات المماليـك وكان هؤلاء يأبون الاشتباك معه

٧

الثورات فى الصعيد

اثار ايغال الفرنسويين فى الصعيد وتقدمهم حتى مدينة جرجا روح الحماسة فى صدر ابنائه فانضموا الى المماليك فى نضالهم وايدوهم فى دفاعهم فاريقت دماء زكية وحرقت مدن وقرى ونهبت ضياع ومنازل وكانت نكبة عامة اصيب بها الصعيد افقدته عددا غير قليل من ابنائه ومدنه وقراه

ويضيق بنا المقام لو حاولنا نشر تفاصيل كل ماجرى فنكتفى بايراد وصف موجز للفتن الكبرى والحوادث الخطيرة التى حدثت فى ذلك العهد واولها

١ - فتنة سوهاج

كانت فتنة سوهاج فى مديرية جرجا من الفتن الكبرى التى واجهها الفرنسويون وقد دبرها المماليك مستغلين نفور الاهالى من الاحتلال الاجنبى

وعهد الجنرال ديزيه الى الجنرال دافو قائد الفرسان بقمع هذه الفتنة فغادر جرجا يوم ٣ يناير سنة ١٧٩٨ الى سوهاج فصدمه الثوار ويقدرهم فى تقريره باربعة آلاف من الاهالى مسلحين بالبنادق والحراب ويشد ازرهم نحو ٧٠٠ من فرسان المماليك

ودار قتال عنيف بين الفريقين انتهى بتغلب الفرنسويين وفوزهم وتشتيت شمل الثوار فعاد دافو على الاثر الى جرجا ويقدر الجنرال ديزيه قتلى الاهالى بثمانمائة قتيل

٢ - معركة طهطا

وجاءت الاخبار الى الفرنسويين بان فى طهطا انتقاضا واضطرابا فامر ديزيه دافو بان ينهض لاخماده فسار اليها فبلغها يوم ٨ يناير وكان هنالك نحو ٨٠٠ فارس اخلوا الطريق للقوة القادمة

وقضى الفرنسويون نحو ساعتين فى طهطا ثم ركبوا خيولهم عائدين الى جرجا فلحقهم الثوار وكان اهالى القرى ينضمون اليهم حتى بلغوا نحو الفين فهجموا على مؤخرة الجيش الفرنسوى فارتد عليهم الفرسان وقتلوا منهم نحو ١٥٠ من الفرسان و ٨٠٠ من المشاة . ويقول نابوليون فى تقرير الى حكومة الديركتوار ان خسارة المصريين فى معركتى سوهاج وطهطا تبلغ نحو ٢٠٠٠ قتيل

ويقول الجنرال دافو فى تقرير ارسله يوم ١٢ يناير ان الفرنسويين انتقموا من القرى التى اطلقت عليهم النار انتقاما فظيعا فقتلوا من اهلها نحو ٥٠٠ رجل واحرقوها

وواصل الجنرال دافو سيره بعد هذه المعركة الى اسيوط فبلغها يوم ١١ منه ثم قفل راجعا الى جرجا

٣ - معركة سمهود

زادت اعمال الارهاب التى عملها الفرنسويون فى نقمة اهالى الصعيد على الحكم الجديد فهبوا فى كل مكان لمقاومته

ومما شجعهم على مواصلة النضال وصول قوة من عرب الحجاز جاءت لنجدة مراد بك وتطوعت فى الدفاع عن مصر وكان عددها لا يقل عن الفين يقودهم الشريف حسن

وانضم الى مراد بك ايضا عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى من ذوى

العصبية فقرر هذا ان يصمد للفرنسويين وينازلهم فى معركة ميدان بعد ان ضم حوله قوة لا يقل عدد رجالها عن ١٢ الف مقاتل معظمهم من الفرسان

واسرع ديزيه لملاقاة هذه القوة وكانت ترابط بقيادة مراد بك نفسه فى قرية سمهود من مركز فرشوط بمديرية قنا وعلى مقربة من الجبل الغربى فالتقى الجيشان صباح ٢٣ يناير سنة ١٨٩٨ وما كانت قوة الفرنسويين تزيد على خمسة آلاف مقاتل ومع ان جيش مراد بك كان متفوقا عددا فلم يغن ذلك عنه شيئا بل تمت الغلبة للعدو فارتد المتحالفون الى فرشوط ثم الى اصوان فبلغوها يوم ٣ فبراير فوصل الفرنسويون فى اثرهم ودخلوا اصوان بلا مقاومة فدان لهم الصعيد من اقصاه الى اقصاه

وافلتت قوات مراد بك من قبضة الفرنسويين وانسحبت الى الشلال وعسكرت هنالك . فلم ير ديزيه فائدة من اطالة المقام فغادر اصوان عائدا الى اسنا وهى فى مركز متوسط بينها وبين جرجا بعد ما عهد الى الجنرال بليار بالبقاء هنالك ومطاردة المماليك وراء الشلال وعدم تمكينهم من الرجوع الى الأراضى المصرية

واستولى الفرنسويون بعد ذلك على الجزر الواقعة فى الشلال وحصنوا اصوان نفسها ليمنعوا رجوع المماليك اذا حاولوا دخول الاراضى المصرية واحبط هؤلاء خطتهم اذ اوغلوا فى الصحراء غربا ثم ارتدوا شمالا فظهروا فى المنطقة الصحراوية بين جرجا واسيوط وهددوا مواصلات الجيش الفونسوى فأسرع الجنرال بليار فخلى عن اصوان ليلة ٢٥ منه وسار شمالا لمطاردتهم

٤ – معركة الردسية

وعرف الفرنسويون ان قوات المتحالفين تعد العدة لاحتلال قنا وقطع خط مواصلاتهم فعهد ديزيه الى الجنرال فريان باحتلال قنا واحباط الحركة الجديدة وانفذ قوة اخرى بقيادة الجنرال دافو لمطاردة قوات حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن تجاه مدينة ادفو فالتقى الفريقان يوم ١١ فبراير بالردسية وتقع بالبر الشرقى

للنيل جنوبى ادفو على البر الغربى ودارت بينهما معركة ميدان امتدت ثلاث ساعات واشتبك فيها المتقاتلون وجها لوجه وانتهت بانسحاب المماليك الى الصحراء فى طريق القصير من دون ان يتم الفوز لأحد وخسر الفرنسويون فى هذه المعركة ٣٣ قتيلا و ٤٤ جريحا

٥ ـ معركة ابو مناع

واستهدفت القوة الفرنسوية التى احتلت قنا لهجوم عرب الحجاز والاهالى ليلة ١٢ فبراير فصدتهم وحصن الفرنسويون قنا وأقاموا المخافر حولها ثم زحفوا يوم ١٧ منه الى قرية ابو مناع لمطاردة الذين لجأوا اليها بعد معركة قنا وكانوا بقيادة الشريف حسن فدارت بين الفريقين معركة انتهت بانسحاب العرب بعد ما قتل عدد كبير منهم وحرق الفرنسويون القرية والقرى المجاورة لها ونهبوها

واشتبك الفرنسويون يوم ٢٥ فبراير بمعركة فى اسنا مع مراد بك واضطروه للانسحاب فارتد الى ارمنت

٦ ـ تدمير الاسطول الفرنسوى

اغتنم الثوار فرصة سفر الاسطول الفرنسوى النيلى فى الصعيد منفردا من قوص الى اسيوط وكان يتألف من ١٢ سفينة موقرة بذخائر الجيش ومؤونتـه وحاجاته فهاجموه يوم ٣ مارس قرب قرية بارود وهى على الشاطىء الشرقى للنيـل جنوبى قنا وقرب قوص فأطلقت عليهم السفينة الحربية ايطاليا مدافعها فقتلت عددا منهم ، فلم يثنهم ذلك ونزل بعضهم فى النيل وهجموا على السفن واستولوا عليهـا عنوة وافرغوا مافيها عـلى الشاطىء ثم ركبوها وساروا لمطاردة السفينة الحربية ايطاليا فقابلتهم بنيران حامية فشددوا فى الهجوم عليهـا وانضم اليهم الفلاحون من الساحل فأراد قائدها الانسحاب فعاكسته الريح وجنحت السفينة الى الشاطىء فهرع الفـلاحون اليهـا وصـعدوا على ظهرها فرمى قائدها وبحارتها بأنفسهم فى النيل بعـد ما اوقدوا النار فى

مستودع البارود فانفجر، فقتلهم الثوار كما قتلوا جميع بحارة الاسطول ولا يقل عددهم عن ٥٠٠ ودمروا الاسطول فاحرج ذلك موقف الفرنسويين وشجع روح المقاومة والعصيان

وشعر الجنرال ديزيه بخطورة الموقف فكتب يوم ٩ فبراير رسالة الى نابوليون يطلب منه أن يمده بنجدات ويشكو سوء الحالة ومما قاله : « لقد ساءت حالة الجنود فى ملابسهم واحذيتهم فنحن نسير بلا انقطاع ولا نفتأ عن العمل ومع ذلك فلم يتسن لنا الا جمع النزر القليل من اموال الميرى

« لا يزال دعاة الثوار عاكفون على نشر دعوتهم . ونحن هنا نحارب ثلاث قوات : العرب القادمون من القصير (عرب الحجاز) والمماليك والأهالى وليس بيسير اخضاع هذه القوة المتحدة ، واخضاع البلاد

« ضرورى جدا ان ترسلوا لنا ذخيرة كثيرة من الرصاص وكثيرا من الاحذية وان ترسلوا الى اسيوط القوات الموجودة فى الفيوم و بنى سويف وان تقيموا حامية فى المنيا و بذلك يتم لنا الاستيلاء على أهم مواقع النيل فلا يستطيع اعداؤنا ان يصلوا اليها

« اننا هنا كاننا فى اقصى الدنيا وان حالتنا محزنة والملاحة فى النيل تكتنفها الاخطار »

٦ ـ معركة الصوامعة

فى يوم ٥ مارس وصل الجنرال فرساين على رأس حملة كبيرة الى قرية الصوامعة جنوبى طهطا لاخماد حركة جديدة تحركها السكان بقيادة مشايخ البلاد فدارت بينه و بين الثوار ـ و يقدرونهم بثلاثة آلاف مقاتل ـ معركة عنيفة فطردهم الفرنسويون من قرية الصوامعة بعد ما قتلوا منهم نحو ثلثهم

٧ ـ معركة قفط

وفى يوم ٨ مارس التقى ثلاثة آلاف ثائر بقوات الجنرال بليار على مقربة من قفط فدارت معركة انتهت بانسحاب الاولين وهم يقاتلون اشد قتال الى ابنود فتحصنوا فيها ونصبوا المدافع الفرنسوية التى اخذوها من الاسطول وكانوا قد تسلحوا بها

والحقت هذه المدافع بالفرنسويين ضررا شديدا فى اثناء القتال وكادت تشل حركتهم وتهزم صفوفهم فجمع الجنرال بليار قواه كلها وحمل بها على مكان المدفعية فاستردها

وحمى وطيس القتال وتحصن العرب الحجازيون والاهالى فى منازل القرية وقاتلوا الفرنسويين قتالا مرا وأخرجوهم من الشوارع فلجأوا الى طريقتهم القديمة ـ طريقة الحرق ـ فأضرموا النار فى منازل القرية فالتهمتها

ولجأ الثوار الى قصر كان هنالك ووضعوا ما كان لديهم من ذخيرة فى مسجد مجاور له واشتد القتال حول القصر والمسجد وثبت العرب والاهالى حتى الليل والحقوا بالفرنسويين خسائر فادحة فأحرق هؤلاء المسجد . واستؤنف القتال فى الغد فضرب هؤلاء القصر بالمدافع وجاء اهل القرى المجاورة لنجدة الثوار فردهم الفرنسويون واقتحموا القصر فى اليوم الثالث . وقد دامت هذه المعركة نحو ٧٢ ساعة وقدرت خسارة الثوار بنحو ٦٠٠ قتيل وخسارة الفرنسويين بخمسة وثلاثين قتيلا و ١٣٤ جريحا وحرقوا القرية ودمروها

وعاد بليار بعد انتهاء المعركة الى قنا وشرع فى تحصينها واخذ يبعث بالرسائل الى ديزيه فى اسيوط يشكو من سوء حالته ويطلب ارسال امدادات وكان رسله يقتلون فى الطريق ولم ينج منهم سوى واحد بلغ الرسالة وفيها وصف حالته وما اصاب الاسطول من نكبة فغادر هذا اسيوط الى قنا يوم ١٨ مارس فمر بجرجا يوم ٢٣ منه

وقضى اياما فى بلاد (الشيخ عبد المنعم) وهو من الذين اشتهروا بكره الفرنسويين ومقاومتهم فقطع نخيله واضرم النار فى القرى التابعة له

وفى يوم ٢٧ منه وصل الى قنا وانضم الى بليار فشرع الاثنان فى وضع خطة ترمى الى سحق المقاومة والقضاء عليها

٨ - معركة الحبطة

واعد ديزيه حملة من خيرة رجاله تألفت من ١٥٠٠ مقاتل وسار بهم من قنا لقتال حسن بك الجداوى الذى انسحب بعد معركة ابنود الى ناحيـة الحبطة فى طريق القصـير فواصـل تقدمه حتى وصل الى مكان اسمه القربية جنوبى قفط فنزل فيه ، واوعز الى الجنرال بليار باحتلال مكان اسمه حجازه وكان يرمى من هذا الاحتلال الى صد حسن بك ورجاله عن ورود النيل

وفى صباح ١٢ ابريل تقدم ديزيه لقتـال الثوار فى « الحبطة » فالتقى بهم فى مكان اسمه بئر عيز ودارت معركة عنيفة بين الفريقين خسر فيهـا الفرنسويون الـكولونيل دوبلسى والضابط بوفاتيه و ٤٤ قتيـلا و ٢٠ جريحا وانتهت بانسحاب الثوار الى الحبطة ثم اتجاههم فى طريق اصوان

وعاد بليار بعد هـذه المعركة الى قنا ولم يجازف بجنوده فيطارد المماليك فى الصحراء وقبل ان يصل اليها كان الجنرال دافو قد غادرها الى جهات جرجا واسيوط لقمع الثورات الجديدة وحماية المواصلات فى اعالى الصعيد

٩ - معركة جرجا

وعهـد الجنرال ديزيه الى الـكولونيل مورانا قائد جرجا باحتـلال الاكمات المشرفة على النيـل تجاه جرجا فيأخذ الطريق على الثوار اذا ارادوا عبور النيـل ، وشعر هؤلاء بما يدبر لهم فانتقلوا الى البر الغربى فى برديس فسار اليهم موران يوم ٦ ابريل وتبادل معهم الرصاص فهجموا على جنوده مرتين فصـدوهم واخيرا اضطر الى

التراجع لحماية مراكزه فى جرجا ، فلحق الثوار به محاولين طرده وتضاعف عددهم فى الطريق بمن انضم اليهم من الفلاحين حتى اربى عددهم على ثلاثة آلاف فأغاروا على جرجا يوم ٧ ابريل وتم لفريق منهم دخولها ولكن الحامية الفرنسوية تغلبت عليهم فى النهاية وصدتهم وقدرت خسارتهم بمائة وخمسين قتيلا

١٠ - معركة جهينة

وفى اوائل شهر ابريل استولى الثوار على طهطا وسيطروا على المناطق المجاورة لها فغادر الضابط لاسال اسيوط يوم ١٠ ابريل لاخضاعهم فالتقى بهم فى جهينة وهى جنوبى طهطا فحاصرهم وضربهم بالمدافع ودار القتال فى شوارع المدينة وتحصن الثوار فى دار هنالك فاقتحمها الفرنسويون واستولوا على جهينة نفسها وقدرت قتلى العرب والاهالى بثلاثمائة

١١ - معركة بنى عدى

وواصل الثوار الذين انسحبوا من جهينة السير الى اسيوط وكانوا يحرضون الناس على الثورة ويدعونهم الى مقاومة الفرنسويين واتخذوا بنى عدى قاعدة لهم ، وكانت من اكبر بلاد الوجه القبلى يومئذ سكانا واعظمها مكانة واكثرها ثروة وغنى وهى واقعة على طرف الصحراء غربى منفلوط وعلى طريق الواحة التى كان مراد بك لاجئا اليها ، وقدر عدد الذين اجتمعوا فيها لمقاومة الفرنسويين باربعة آلاف مقاتل

وسار الجنرال دافو برجاله الى بنى عدى فبلغها يوم ١٨ ابريل وكان رجالها قد تسلحوا واعدوا عدتهم للقتال ، فدارت بين الفريقين معركة حامية فى اسواق المدينة وشوارعها وبين بيوتها الحصينة ولقى الفرنسويون من اهالى بنى عدى كما اعترفوا فى تقاريرهم ما لم يلقوه فى بلاد اخرى مطلقا

وامتدت المعركة حتى الليل ولما رأى الفرنسويون انه ليس فى استطاعتهم التغلب على الثوار وجها لوجه اضرموا النيران فى انحاء المدينة فسرت فيها فاصبحت كانون نار فشغل اهلها بانقاذ الاهل والعيال فاصلاهم الجند نيرانا وفتكوا بهم

وقدر الجنرال دافو عدد القتلى فى تقريره بالفين وقدرهم ديزيه فى تقريره بثلاثة آلاف مات معظمهم حرقا ، ويقول الجنرال برتييه رئيس اركان حرب الحملة فى مذكراته ان بنى عدى اصبحت بعد هذه المعركة اكواما من الخرائب وان القتلى تكدست فى شوارعها وانه لم تقع مجزرة اشد هولا من مجزرتها . واعترف الجنرال ديزيه بان الجنود غنموا غنائم عظيمة فى بنى عدى وقال ان منهم كثيرين استولى الواحد منهم على عدة آلاف من الريالات وقال الجنرال دافو فى تقريره ان الغنائم التى غنمها الجند فى بنى عدى عوضتهم ما فقدوه وكثير منهم بلغ نصيبه ١٥ الف فرنك و بعضهم ٢٥ الف فرنك ذهبا

١٢ – معركة المنيا

وكان نطاق الثورة يتسع كلما امعن الفرنسويون فى النهب والسلب والانتقام فانهم ما كادوا يخمدون ثورة بنى عدى حتى فوجئوا باضطرابات جديدة حدثت فى المنيا فانتدب الجنرال دافو لاخمادها فلقى فى طريقه مشقات وكان الاهالى فى القرى التى مر بها يمتنعون عن مساعدته ويأبون ان يقدموا له شيئا فكان ينكل بهم ويحرق قراهم

ولما بلغت الحملة ابو جرج (مديرية المنيا) طلب الجنرال من شيخها ان يقدم للجند مؤنة فاعتذر ورد الرسول خائبا فحاصر البلدة واضرم النار فيها انتقاما من اهلها فاسرع الفلاحون من سكان القرى المجاورة لنجدة جيرانهم واخوانهم واستمر القتال نحو ساعتين واحترقت ابو جرج ومات كثيرون من اهلها حرقا ، ويقدر الجنرال ديزيه القتلى من ابو جرج بالف

وواصل الجنرال دافو سيره بعد هذه الحوادث الى المنيا وكانت نيران الثورة تضطرم فى داخلها وحولها فقد ثار الاهالى على الحامية الفرنسوية وكانت بقيادة الجنرال ديتريس فدارت بينهم و بينه معارك استمرت ثلاثة ايام وكادت تنتهى بتغلب الثوار وانتصارهم لولا وصول الجنرال دافو

وقد اعترف الجنرال ديتريس فى رسالته الى الجنرال ديزيه بان حامية المنيا سلمت من القتل بفضل مساعدة العمد وبقاء الفريق الاكبر من سكانها على الحياد

١٣ – معركة الطفيح

وما كادت الثورة تنتهى فى المنيا حتى وصلت الاخبار بحدوث ثورة جديدة فى الطفيح (مديرية الجيزة) فواصل الجنرال دافو السير لاخضاعها وتلقى فى الطريق امرا من الجنرال دوجا بان يقصد القاهرة بسرعة لاضطراب الحالة فيها وفى الوجه البحرى

الاستيلاء على القصير

و بينما كان الجنرال دافو يخترق الصعيد من جنوبيه الى شماليه عاملا على اطفاء الثورات ومسرفا فى التنكيل كان الجنرال ديزيه يتجول فى اعالى الصعيد لمراقبة حركات عرب الحجاز والمماليك . وكان اول ما شرع فيه بعد سفر الجنرال دافو انه اعد حملة بقيادة الجنرال بليار وامره بان يحتل القصير و يوطد النفوذ الفرنسوى على البحر الاحمر و يجمع الاموال الاميرية ومما جاء فى امره اليه : « وعليك ان تسرف فى الصرامة فهذه هى الوسيلة التى تحصل بها على شىء من النفوذ والسلطة والطمأنينة وعليك ان تأمر بقطع رأس كل من لا يطيع اوامرك من مشايخ البلاد ، وان تقطع النخيل

وتحرق القرى الثائرة وان تبحث لمعرفة القرى التى اشتركت فى الهجوم على سفننا وفى المذبحة التى اودت برفاقنا التعساء فى بارود وان تعاقبهم باشد ما يمكن من القسوة وان تفرض عليهم غرامة لا تقل عن عشرة آلاف ريال »

وعملا بهذا الامر سار بليار يوم ٢٦ مايو الى القصير فبلغها يوم ٢٩ منه واحتل قلعتها بدون مقاومة ثم غادرها يوم اول يونيو عائدا الى قنا وترك بها الجنرال دلو مع قوة للمحافظة عليها

٨

ثورتا القاهرة

يرى الباحث فى سيرة نابوليون زمن وجوده بمصر وفى المنشورات التى نشرها والاقوال التى قالها انه كان حريصا على استمالة المصريين واسترضائهم بالوعود المعسولة والاقوال المنمقة فقد هتف بهم بانه جاء لانقاذهم من ظلم المماليك وعسفهم ، وانه لايريد بهم شرا ولا سوءا ، وانه سيعهد اليهم بحكم بلادهم وسيحترم عقائدهم وتقاليدهم ، وذهب الى اكثر من هذا فتظاهر بالاسلام و بالميل الى المسلمين اى انه اسرف فى الوعود اسرافا زائدا اضر بسمعته الشخصية فى النهاية وبسمعة بلاده فقد نفر عدم تحقيق هذه الوعود او عدم تنفيذها المصريين وجعلهم يثورون عليه فكثرت الاضطرابات وتعددت الفتن ولم يلق الفرنسويون السلاح من ايديهم من اليوم الذى نزلوا فيه الاسكندرية فاتحين حتى اليوم الذى غادروها مطرودين ، ولا نشك فى انه لو كانت لمصر قيادة منظمة ، وجنود مدربة ، وكان هنالك اتصال بين قواد الثورة وزعمائها - وكان معظمها يرتجل ارتجالا - لقاسى الفرنسويون اكثر مما قاسوه ولكانت خسارتهم اكبر واعظم

ويجب ان يضاف الى عامل عدم الوفاء بالوعود عامل آخر لايقل خطورة وشأنا عنه وهواستعمال القسوة فقد اخذ الفرنسويون اهل البلاد بالشدة منذ الاولى ، واكثروا من فرض الضرائب الباهظة ، ووضع الغرامات الثقيلة ، وطبقوا فى جبايتها اقصى اساليب العنف ، فلم يوقروا كبيرا ، ولم يرحموا صغيرا ، اعتقادا منهم ان هذه هى الطريقة المثلى التى يجدر بهم اتباعها فى حكم مصر

على اننا لاننكر ان هنالك عوامل خارجية زادت فى ازعاج الفرنسويين وفى تنفير العامة منهم ، وفى مقدمتها الدسائس التركية ، فان الدولة العثمانية لم تتردد فى اعلان الحرب على فرنسا حينما علمت بوصول حملتها الى مصر ، ثم ثنت على ذلك بحشد الجيوش فى الشام وفى الجزر والمناطق المجاورة لاخراجها ، وارسل قوادها ورجالها الرسل الى داخل القطر فبثوا دعاية واسعة النطاق ضد الاحتلال الجديد ونادوا فى الناس بان الترك قادمون على عجل لانقاذ مصر وتحريرها مما اثر فى النفوس وزادها حقدا واضطرابا

وكذلك يجب ان لاننسى ما كان للتدخل البريطانى من اثر فقد تشمر الانكليز من الساعة التى علموا فيها بتأهب الفرنسويين للغارة على مصر لمقاومة مشروعهم والقضاء عليه وارسلوا اسطولهم يرتاد البحار للبحث عن الحملة وقتال رجالها . ومما يستحق الذكر ان الاميرال نلسون قائد الاسطول البريطانى العام بلغ الاسكندرية قبل وصول الحملة الفرنسوية بيومين (٢٩ يونيو) ووقف امامها وارسل اليها رسولا يسأل عن الحملة فاجيب بانها لم تصل . فاقترح على حاكمها السيد محمد كريم وهو الذى اعدمه الفرنسويون عقب احتلالهم بان يأذن له بالدخول الى الميناء لانتظار الاسطول الفرنسوى والحملة الفرنسوية فينازلها ، فابى عليه ذلك وظن انها خدعة وطلب اليه ان يبحر فابحر

ووصل الاسطول الفرنسوى فى الغداة فوجد الميدان خاليا فانزل قواه واستولى على المدينة ، ونحن فى غنى عن القول انه لو بقى الاسطول الانكليزى فى داخل ميناء الاسكندرية ونازل الفرنسويين يوم وصولهم وانتصر عليهم لقضى على مشروعهم

ولم ينج الاسطول الفرنسوى الذى جاء مع الحملة من براثن الانكليز فقد عاد نلسون الى الاسكندرية يوم ١٨ اغسطس اى بعد الاحتلال الفرنسوى بشهر ونصف وكان الاسطول الفرنسوى يرابط فى خليج ابو قير ويتألف من ١٧ سفينة حربية تحمل ١١٨٠ مدفعا و ٨٩٠٠ بحارا

ودارت معركة عنيفة بين الاسطولين ، وكان الاسطول الانكليزى يتألف من ١٥ سفينة حربية تحمل ١٠٥٠ مدفعا و ٨٢٤٠ بحارا ، ابتدأت فى الساعة الخامسة بعد الظهر واستمرت الى الساعة الثالثة بعد نصف الليل ثم استؤنفت عند الساعة الخامسة صباحا وانتهت عند الظهر اى انها استمرت نحو ١٩ ساعة متوالية واسفرت عن ضياع الاسطول الفرنسوى فهوت سبع بوارج من بوارجه فى قاع البحر وغنم الانكليز ستا وفرت اربع وقتل اميراله ومعظم اركان حربه وقتل وغرق نحو اربعة آلاف من بحارته وهكذا سحق الانكليز اسطول فرنسا وتخلصوا من منافسته وسيطروا من ذلك اليوم على البحار كما قطعوا ما كان بين الحملة وفرنسا من صلات وعزلوها فاضعفها ذلك وزاد مركزها وهنا واطمع اعداءها فيها ، وزاد فى جرأتهم واندفاعهم . واتبع الانكليز تحطيم الاسطول ، وكان تحطيمه نكبة كبيرة نزلت بالحملة ، باعلان الحصر البحرى على مصر فعرقلوا تجارتها وشلوا حركتها الاقتصادية فازداد الضيق بين سكانها وعم طبقاتها

وحالف الانكليز الترك وانضموا اليهم وآزروهم فى اخراج الفرنسويين وقتالهم وارسلوا الرسل والدعاة الى مصر لاغراء السكان بالمحتلين وتأليبهم عليهم فزاد ذلك فى متاعبهم ومشاغلهم

وغادر نابوليون مصر الى سورية محاولا فتحها والزحف منها الى العراق فالهند ليضرب الانكليز فى العمود الفقرى من امبراطوريتهم و بلغ عكا فحاصرها مدة ثم ارتد عنها خائبا عاجزا فتطايرت الاشاعات عن انكساره وخذلانه فاثر ذلك فى مركز الحملة وزاده وهنا

فهذه العوامل المختلفة ساعدت بانضمام بعضها الى بعض على اضعاف النفوذ الفرنسوى فازداد الهياج وعمت النفرة من الفرنسويين وكانت نتيجة ذلك تتابع الثورات والفتن فى انحاء الوجهين البحرى والقبلى وقد وصفناها

وحدوث ثورتى القاهرة وهما اعظمها شأنا ، وهى ترسم صورة صحيحة للحالة الادبية التى كان عليها الشعب المصرى فى ذلك العهد وتوضح مابذله من مجهود كبير للتخلص من الحكم الفرنسوى

الثورة الاولى — ٢٣ اكتوبر سنة ١٧٩٨

دخل الفرنسويون القاهرة يوم ٢٢ يوليو سنة ١٧٩٨ فالغوا نظام الحكم القديم وانشأوا نظاما جديدا لم يألفه المصريون ولم يعرفوه ووضعوا يدهم على موارد البلاد المالية والاقتصادية والتجارية بعد ما اذاعوا فى طول البلاد وعرضها انهم جاءوا محررين ومنقذين وبانه لاغاية لهم ولا مطلب سوى اسعاد الشعب وتخفيف الاعباء المالية عنه وضمان وسائل رفاهته

وقبل ان يجف مداد هذه المنشورات ارسل نابوليون يوم ٢٨ يوليو اى بعد الاحتلال الفرنسوى بخمسة ايام فقط فدعا اعضاء الديوان العام وابلغهم انه يطلب من التجار المصريين والاجانب ٥٠٠ الف ريال (مائة الف جنيه) باسم سلفة فعارضه بعض اعضائه وكان قد مضى على انشائه ثلاثة ايام فقط وطلبوا منه التخفيف فابى واصر على المبادرة بجبايتها

وفرض نابوليون على تجار الاسكندرية سلفة اجبارية قدرها ٣٠٠ الف فرنك (١٥ الف جنيه) وعلى تجار رشيد ١٠٠ الف فرنك (٥ آلاف جنيه) وعلى تجار دمياط ١٥٠ الف فرنك (٧٥٠٠ جنيه)

وكذلك فرض غرامات على تجار المنسوجات فى القاهرة مقدارها ١٠٠ الف ريال (٢٠ الف جنيه) منها ٦٠ الف ريال تدفع نقدا والباقى وقدره اربعون الفا تدفع ملابس واحذية للجنود . وفرض على تجار البن فى القاهرة ٢٠٠ الف ريال (٤٠ الف جنيه) وعلى الاقباط الذين يحصلون الضرائب فى الاقاليم ١٠٠ الف ريال (٢٠ الف جنيه) وعلى تجار خان الخليلى وحدهم ١٠٠ الف ريال (٢٠٠٠٠ جنيه) ومثلها على تجار الصابون وستة آلاف ريال على تجار الفاكهة و١٥ الف ريال على السقايين

و ١٠ آلاف ريال على تجار السكر و ١٥ الف ريال على تجار الاقمشة الهندية بالغورية ومجموع ذلك ٨٣ الف جنيه فاذا اضفناها الى المبلغ السابق لبلغ المجموع ٢١٨٥٠٠ جنيه

وفرض ايضا غرامات وضرائب على نساء المماليك بلغ مجموعها ٦٠٠ الف فرنك (٦٠ الف جنيه) دفعت منها زوجة مراد بك وحدها ٤٩٢٫٦٥٧ فرنكا وكانوا يصالحونهن على ان يفتدين انفسهن بالمال ليسكن فى بيوتهن فان كان عندهن شىء من متاع ازواجهم بذلنه وان لم يكن عندهن شىء يصالحن على انفسهن ويبقين فى بيوتهن

وفرض ايضا على سكان القاهرة مغارم اخرى من خيل و بقر وثيران وسلاح ومن لايدفع عينا يدفع نقدا وكانوا يفتشون الدكاكين بسوق السلاح وغيره ويأخذون ما يجدونه من السلاح ، كما كانوا يفتشون المنازل ويستخرجون مايجدونه من الخبايا وينقلونه الى معسكراتهم وينقلون السروج والامتعة والصناديق وغيرها و يطلبون البنائين والمهندسين والخدم الذين يعرفون بيوت اسيادهم ليرشدوهم الى اماكن الخبايا والمواضع التى دفنت فيها الدفائن

وقطعوا رواتب الاوقاف عن مستحقيها من الفقراء

ووضعوا أيديهم على كثير من الدور والمنازل واخرجوا اصحابها منها باسم الحاجة اليها وسكنوهاولم يدفعوا اجورها

وهدموا كثيرا من المساجد والمبانى والآثار باسم تحصين القاهرة . وامروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول الى المدينة فنزلوا واصعدوا الى القلعة مدافع فهدموا كثيرا من الدور لنصبها . وغيروا معالم القلعة وابدلوا محاسنها ، ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء ونزعوا ما كان فى ابوابها الضخمة من الاسلحة والدرق والبلط والحراب الهندية ، وهدموا قصر السلطان صلاح الدين ومحاسن الملوك والسلاطين

وهدموا ابواب الحارات والدروب وكانت تغلق بالليل فيأمن المارة من اعتداء

اللصوص ، وكانت غايتهم من هدمها ـ وقد ساء السكان عامة ان لا تعطل انتقال الجنود فى حالة الفتنة او الهياج

ويقول الجنرال موجييه فى مذكراته عن هذا الحادث مانصه :

« وكان لكل شارع او حارة باب كبير يقفل عليها و يمكن استخدامه كمتراس فى حالة الثورة لذلك امر القائد العام بنزع هذه الابواب وقد استاء الاهالى وجعلوا يضجون و يصخبون ولكنهم بعد ذلك اذعنوا واخلدوا للسكينة و بعد ما أقفل التجار دكاكينهم احتجاجا على هذا العمل عادوا ففتحوها »

وقرن الفرنسويون فرض الغرامات الثقيلة وضرب الضرائب الباهظة باعمال الارهاب فاسرفوا فى اراقة الدماء وقتل النفوس ظنا منهم ان ذلك يرهب الناس فيخلدوا للطاعة و ينقادوا الى الاوامر التى تصدر اليهم يؤيد ذلك ماجاء فى رسالة ارسلها نابوليون بالذات يوم ٣٠ يوليو سنة ١٧٩٨ اى بعد احتلال القاهرة باسبوع واحد الى الجنرال زايونشك حاكم المنوفية فقد جاء فيها « يجب ان تعاملوا الترك (الاهالى) بمنتهى القسوة وانى هنا اقتل كل يوم ثلاثة وآمر ان يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة وهذه هى الطريقة الوحيدة لاخضاع هؤلاء الناس وعليكم ان توجهوا عنايتكم لاخضاعهم وتجريدهم من السلاح قاطبة »

وارسل نابوليون رسالة اخرى الى الجنرال منو حاكم رشيد فى ٣١ يوليو اى غداة ارسال الرسالة الاولى يكرر فيها المعنى الوارد فى تلك و يقول « ولا يمكن اخضاعهم الا بالقسوة وفى كل يوم آمر بقتل خمسة او ستة فى القاهرة ، لقد كنا نتجنب التعرض لهم حتى نزيل عن سمعتنا وصمة الارهاب ، تلك التهمة التى كانت تسبقنا الى اذهان الناس ، اما الآن فيجب علينا ان نستعمل الوسائل التى تؤدى الى اخضاع هؤلاء القوم واخضاعهم معناه تخويفهم »

فهذه التصرفات القاسية اقلقت المصريين وحفرت هوة بينهم و بين الفرنسويين وجعلتهم يثورون عليهم و يسعون للتخلص منهم و يقول احد الكتاب الفرنسويين الذين رافقوا الحملة ان الدعوة الى الثورة كانت تختلط باصوات المؤذنين

فكانوا يدعون اليها والى الله فى الصباح والمساء فاهاجوا النفوس والخواطر ، واستغل دعاة الثورة فرصة ضرب ضرائب على المنازل فبثوا دعاية شديدة ومن لم تؤثر فيه الدعاية الدينية اثرت فيه الضرائب الباهظة »

ويقول كاتب فرنسوى آخر ان الثورة لم ترتجل ارتجالا فقد كانت فى الازهر لجنة تديرها وتنظمها وايد نابوليون هذه الرواية فى تقرير ارسله الى حكومة باريس فقال ان الشعب انتخب ديوانا « لجنة » ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الاسلحة المخبوءة وان الشيخ السادات انتخب رئيسا لهذا الديوان واكد ان لجنة الثورة كانت تجتمع فى الازهر

كيف بدأت الثورة

فى ليلة الاحد ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ اجتمع كثير من الناقمين على الحالة الجديدة والمتذمرين من الضرائب الباهظة وبعد البحث والمناقشة اتفقوا على اغلاق الدكاكين فى اليوم التالى وذهاب اكبر عدد ممكن من التجار الى مركز القيادة للاحتجاج على فرض الضرائب واقفلت القاهرة ابوابها صباح الاثنين وتألب الناس فى الشوارع ووقف بعض رجال الدين يخطب الجموع داعيا الى الثورة وظهرت الاسلحة بايدى الجماهير . وجاء الفلاحون وسكان الضواحى للاشتراك مع اهل العاصمة وارتفعت الاصوات بالشكوى من الضرائب الجديدة التى فرضوها

وسارت الجموع الى بيت القاضى التركى واسمه ابراهيم افندى وقابله نحو ٢٠ شخصا وقالوا انهم يريدون الذهاب الى نابوليون لالغاء الضرائب الجديدة فاستجاب لهم وخرج معهم ولكنه لم يكد يتخطى عتبة داره حتى شعر بخطورة الحالة فخاطب الذين جاءوا معتذرا عن الذهاب معهم وقال ان هذه الطريقة ليست مما يتبع فى تقديم الشكاوى وهم بالدخول الى منزله فصاح الناس : الى بونابرت الى بونابرت وانهالوا عليه وعلى حاشيته بالحجارة ثم بالعصى ونهبوا منزله

وتجمع المتظاهرون بعد ذلك فى صحن الجامع الازهر يضجون و يصيحون و ينادون الى القتال

ووصلت اخبار ماحدث فى بيت القاضى الى الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكرى فاصطحب ياوره وتاجرا فرنسويا يعرف العربيـة وكتيبة من الفرسان وذهب الى بيت القاضى فى حارة بين القصرين بعدما اصدر امرا الى جنوده المرابطة فى بركة الفيل بان تحمل السلاح وتكون على تمام الاهبة ، ومر بطريقه من بركة الفيل الى الموسكى فالغورية وحال ازدحام الجماهير دون ذهابه الى بين القصرين فحاول ان يشق له طريقا فانهالت عليه الحجارة من الجماهير ومن الشرفات ومن المنازل

وحاول التاجر الفرنسوى مخاطبة الناس فاجابوه بالسخط واللعنات فحمل الجنرال على الجماهير فانثنت ثم كرت عليه وكان هو وفرسانه فى زقاق ضيق فاطبقت عليه

ووصل فى تلك الاثناء برتلمى الرومى وكيل المحافظة وكان مشهورا بالقسوة والفظاعة ، مع شرذمة من رجاله لنجدة الجنرال واطلق رصاصة على الجماهير فاهاجتها فهجمت على الفرنسويين وانهالت عليهم ضربا بالعصى والحجارة واخذا بالسيوف وطعنا بالرماح فاصيب الجنرال ديبوى بطعنة رمح فى ثندوته اليسرى قطعت شريانه واراد ياوره الكبتن مورى الدفاع عنه فسقط عن جواده ، فمد الجنرال يده محاولا انقاذه فتفجر الدم من جراحه وخر صريعا وجاء على الاثر الطبيب لارى كبير جراحى الجيش لاسعافه ونقله الى دار بالازبكية فتوفى حالا

واستولى الثوار بعد هذا الحادث وقد شجعهم على ابواب القاهرة وهى باب الفتوح و باب النصر و باب زويلة و باب الشعرية وغيرها واتخذوا من مساطب الحوانيت متاريس لمقاومة الجند

وتلقى الفرنسويون اوامر من مركز القيادة بان يتجمعوا ونادى مناديهم الى القتال وامروا باطلاق النار على الثوار فى الشوارع وخلف المتاريس وخف نابوليون الى القاهرة وكانت تضطرم اضطراما فاتخذ التدابير الآتية للقضاء على الفتنة :

١ ـ امر الجنرال جونو بان يتولى قيادة الجنود العسكرية فى الازبكية وبان ينشىء مخافر من الجنود لمراقبة الجهات المجاورة لها وبتسيير طلائع مسلحة لاكتشاف جهات القاهرة ووضع مدافع على منافذ الشوارع الكبرى

٢ ـ عين الجنرال بون قائدا عسكريا للقاهرة وكلفه باتخاذ التدابير اللازمة لاعادة السكينة

٣ ـ امر الجنرال لان وكان معسكرا فى مصر القديمة بان ينتقل بجنوده فى فجر اليوم التالى ليحتل المرتفعات القائمة خارج المدينة ويأخذ معه من المؤونة ما يكفى يومين

٤ ـ امر الجنرال مارتان قائد المدفعية بان ينصب المدافع على جبل المقطم الى شرقى القلعة فيتعاون مع مدفعية القلعة فى اطلاق النار على الجامع الازهر

وتلقى نابوليون يوم الاحد تقريرا من الجنرال بون قائد القاهرة العسكرى الجديد يصف سير الثورة وهذا نصه :

يوم الاحد ٢١ اكتوبر : الساعة ١٠ مساء :

ان مركز الثورة لايزال فى حى العرب حيث الجامع الازهر وقد احاط الثائرون هذا المعسكر بالمتاريس وسدت الشوارع المفضية اليه ولم نوفق الى استطلاعها بسبب الظلام المخيم عليها

« واطلق الرصاص على طلائعنا والمظنون ان الغد كاليوم ، فلا سبيل غدا الى تشتيت الجموع المسلحة التى تتدفق من هذا المعسكر الثورى لذلك ارى فى هذه الحالة ان تقرروا اتخاذ وسائل الشدة والصرامة »

ووقع فى الغداة ماتوقعه الجنرال بون فقد تجمهر الناس منذ بزوغ الفجر فى الشوارع حتى غصت بهم كما وصلت وفود الفلاحين من القرى المجاورة وكان دعاة الثورة قد انتشروا فيها يحضون الناس على التبكير فى الذهاب لنجدة اخوانهم فاستجابوا لهم

وكانت الخطة التى رسمها نابوليون فى الليل لاخضاع الثورة تقضى

بارسال قوة عسكرية الى الاماكن التى احتشد فيها الثوار لاخضاعهم ومنعهم من الاتصال والتعاون ، وقد نفذت هذه الخطة باحكام عند الفجر فانتشرت القوات الفرنسوية حول المراكز التى احتشد فيها الثوار وعملا باوامر القائد العام وزع الجنرالات لان وفو ودوماس بعض قواهم عند الفجر فى ضواحى القاهرة لمنع سكانها من مغادرتها

وعلم القائد العام ان قوة كبيرة من الثوار خرجت من باب الفتوح تقصد المرتفعات الشرقية لمهاجمة المدفعية المركزية هنالك فارسل قوة على جناح السرعة . وصعد جماعة من الثوار الى اسطحة جامع السلطان سليم لضرب القلعة بالنار فلم يفوزوا بطائل . وزحفت قوة من الثوار الى الازبكية لمهاجمة مواقع الفرنسويين فيها فقابلتها كتيبة من فرسانهم كانت ترابط على مدخلها ومعها مدفعان فردتها ، فتسلق المهاجمون الجدران وعلو الاسطحة واطلقوا منها النار على الفرنسويين ودخلوا الى مسجد صغير يشرف على مركز الكتيبة وقتلوا بعض رجالها برصاصهم فحمل الفرنسويون على المسجد وحطموا ابوابه وقتلوا معظم الذين كانوا فيه

وقتل الكولونيل سلكوسكى ياور نابوليون فى هذا اليوم وذلك انه ركب فى الصباح على راس قوة من الحرس وسار على طريق بلبيس ليصد الناس عن القدوم الى العاصمة وتلقاه الثوار وهو عائد فى المساء عند باب النصر وارادوا منعه من الدخول فحمل عليهم بشرذمة من رجاله . وكبا به جواده فهجموا عليه وقتلوه

تعليمات جديدة الى الجنرال بون حاكم القاهرة

وفى الساعة الثانية بعد الظهر اصدر الجنرال بريتيه رئيس اركان الحملة تعليمات القائد العام الى الجنرال بون وهى :

« عليكم ان تهاجموا حالا معسكر الثائرين وان تضربوا الازهر بالمدافع ، ولتكن المدافع فى اصلح موقع ليكون الضرب اشد تأثيرا

« بلغوا الجنرال دومارتان (قائد المدفعية) ان يفعل مثل ذلك وان يستولى

على مدخـل الازهر والمنازل الموصلة اليـه وعليـكم ان تقتحموه بجنودكم تحت حماية المدافع

« ان القائد العام يامر بان تقتلوا كل من تلقونه مسلحا فى الشوارع وعليـكم ان تعلنوا الاهالى بان كل المنازل التى تلقى منها الحجارة تحرق حالا بالنار »

« عليـكم ان تقتلوا كل من تجدونه فى المسجد (الجامع الازهر) وان تضعوا فيه حرسا قويا من الجنود »

ويقول الـكولونيل دتروى فى مذكراته اليومية ان ضرب الازهر بالقنابل بدأ عند الظهر وان اول قنبـلة قذفت كانت من المدفع القائم على سفح المقطم واستمر الضرب الى الساعة الثامنة مساء فسقطت آلاف القنابل عـلى الازهر والاحياء المجاورة له كالصنادقية والغورية والفحامين فالقت الرعب والهول واقبلت بعد ذلك كتائب الجند فاحتلت الطرق الموصلة الى الازهر فاصبح الذين فى داخله محصورين بين نارين : نار المدافع من القلاع ونيران الجند حوله . واحـدثت المـدافع تخريبا فى الجامع نفسه وفى البيوت المجاورة له وصفها المسيو ريبو بقوله : « اوشك الجامع الازهر ان يتداعى من شـدة الضرب فيدفن تحت انقاضه الجماهير الحاشـدة فيه كما اصبح الحى المجاور له صورة من صور الخراب والتدمير فلم يكن يرى فيه الا بيوت مدمرة ، ودور محـترقة ، ومات تحت الانقاض آلاف من السكان الآمنين وكانت اصوات انينهم ، وصيحات آلامهم تسمع فتصم الآذان ، وكانت الجهات القريبة من الازهر ولا سيما شوارع الغورية والصنادقية مسرحا لهذه المشاهد الفظيعة »

وقال الجبرتى وهو شاهـد عيان لتلك الحوادث : « وتتابع الرمى من القلعة والـكيمان ، حتى تزعزعت الاركان ، وهدمت فى مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ونزلت فى البيوت والوكائل . واصمت الآذان بصوتها الهائل ، فلما عظم الخطب ، وزاد الحال والـكرب ، ركب المشايخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هـذا النازل ، ويمنع عسكره من الرمى المتراسل ، فلما ذهبوا اليه عاتبهم فى التأخير ، واتهمهم بالتقصير ، فاعتذروا اليه فقبل عذرهم ، وامر برفع الرمى عنهم »

عدد القتلى

وقـدر نابوليون عدد القتلى من الاهالى فى تقريره الى حكومة باريس بألفين الى ٢٥٠٠ قتيل وقدرهم ريبو باربعة آلاف و بمثل ذلك الجنرال بليار

وخسر الفرنسويون ٢٠٠ قتيل بينهم جنرال وكولونيل وضباط ومهندسون

واتبع الفرنسويون بعـد اخماد ثورة القاهرة سياسـة الارهاب والشدة ونشر الهول والفزع و يقول الجبرونى فى هذا الصدد مانصه :

« و بعد هجعة من الليل (ليلة الثلاثاء ٢٣ اكتوبر) اى بعد اخمـاد الثورة ، دخل الافرنج (الفرنسويون) المدينة كالسيل ، ومروا فى الازقة والشوارع ، لايجدون لهم ممانعا كانهم الشياطين ، او جند ابليس ، وهدموا ماوجدوه من المتاريس

« ودخلت طائفة من باب البرقية ، ومشوا الى الغورية وكروا ورجعوا ، وترددوا وما هجعوا ، وعلموا باليقين ، ان لا دافع لهم ولا كمين ، وتراسـلوا ارسالا ، ركبانا ورجالا ، ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول ، و بينهم المشـاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالاروقة والحـارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والـكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والاوانى والقصاع ، والودائع والمخبئات ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الـكتب والمصاحف ، وعلى الارض طرحوها ، وبارجلهم ونعـالهم داسوها ، وكسروا اوانيه ، والقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ، ومن ثيـابه اخرجوه

« وانتدب برطلمى (هو برتلمى الرومى وكيل المحافظة) للعسس على من حمـل السلاح او اختلس ، و بث اعوانه فى الجهات يتجسسون فى الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب اغراضهم ، فيحـكم فيهم بمراده ، ويعمل برايه واجتهاده ، ويأخـذ الـكثير ، ويركب فى موكبه ويسير ، وهم موثوقون بين يديه بالحبـال ، يسحبهم الاعـوان بالقهر والنـكال ، فيودعونهم السجونات ، ويطالبونهم بالمنهـوبات ،

ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن آلات السلاح والحرب ، ويدل بعضهم على بعض ، فيضعون على المدلول عليه ايضا القبض ، وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الاغا (هو مصطفى اغا وقد عينه الفرنسويون محافظا للقاهرة) وتجبر فى افعاله وطغى ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفى بحر النيل قذفوهم ، ومات فى هذين اليومين وما بعدهما امم كثيرة لا يحصى عددها الا الله »

ومما يصلح الاستشهاد به لتأييد هذه الرواية الامر الذى اصدره الجنرال برتييه رئيس اركان حرب نابوليون باسم القائد العام الى الجنرال بون يوم ٢٣ اكتوبر وهو :

« يهدم الجامع الاكبر (الازهر) ليلا اذا امكن ، وترفع الحواجز والابواب التى كانت تسد الشوارع »

وكتب الجنرال برتييه فى اليوم نفسه الى الجنرال دوجا حاكم المنصورة العسكرى يقول : لقد نكلنا بالثائرين فى مذبحة رهيبة فسادت السكينة مساء امس وقد قتلنا منهم الفين او ثلاثة آلاف »

وكتب نابوليون نفسه يوم ٢٦ اكتوبر الى الجنرال رينيه حاكم الشرقية يقول : « عادت السكينة الى القاهرة ، وفقد الثائرون نحو الفى قتيل ، وفى كل ليلة نقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الاهالى ، واظن ان هذا سيكون درسا قاسيا لهم »

وفى يوم ٢٣ اكتوبر اصدر الجنرال برتييه باسم القائد العام تعليمات الى قائد القاهرة امره فيها بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين اخذوا ومعهم اسلحة وبارسال الجثث فى الليل الى شاطىء النيل ما بين بولاق ومصر القديمة واغراقها فيه »

ويقول نابوليون فى مذكراته وقد املاها على الجنرال برزان فى سنت هيلين فى منفاه ان رجال الشرطة قبضوا على ثمانين من اعضاء لجنة الثورة وسجنوهم فى

القلعة فثبتت اداناتهم فاصدر المجلس العسكرى يوم ٢٤ اكتوبر قرارا باعدامهم جميعا ونفذ فيهم الحكم »

وقال المسيو بوريين سكرتير نابوليون الخاص فى مذكراته « وسيق المسجونون الى القلعة وكنت اتولى كل مساء كتابة الاوامر القاضية باعدام ١٢ سجينا فى كل ليلة وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب وتغرق فى النيل ، واستمر ذلك ليالى عديدة وكان كثير من النساء ممن نفذ فيه حكم الاعدام ليلا »

والمشايخ الذين قبض عليهم بعد انتهاء الثورة وحوكموا باعتبارهم زعمائها هم الشيخ اسماعيل البرارى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ سليمان الجوسقى ، شيخ المشايخ العميان ، والشيخ احمد الشرقاوى ، وهم من اواسط علماء الازهر وقد حكم عليهم بالاعدام يوم ٣ نوفمبر ونفذ فيهم الحكم يوم ٤ منه سرا

وزار وفد من شيوخ المدينة نابوليون يوم ٢٤ اكتوبر وطلبوا منه اصدار عفو تطمئن به نفوس السكان فطالبهم بان يدلوه على الذين سببوا اثارة الشعب فلم يتهموا احدا ، فقال لهم « نحن نعرفهم واحدا واحدا »

وطلبوا منه اخراج الجنود من الجامع الازهر فاجابهم الى طلبهم بشرط ابقاء ٧٠ جنديا اسكنوا فى خط الازهر للمحافظة على النظام

وفى يوم ٢٧ منه اصدر امرا عسكريا وزعه على الجنود وقال فيه :

« لقد قتل بعض الفرنسويين فى يوم الثورة ، وهؤلاء من الذين لم يتبعوا الاوامر الصادرة اليهم ، بل دعاهم الطيش الى الابتعاد عن معسكراتهم غير حاملين سلاحا ، فعلى رؤساء الفرق ورؤساء الاقسام الادارية مراقبة الجنود لئلا يبتعدوا ولكيلا يضعوا عنهم السلاح ، وعليهم ان يراقبوا اتباع النظام والاوامر العسكرية بين الجنود

« وعلى كل فرنسوى ان يكون شاكى السلاح ، تام الذخيرة ، واذا قامت

قيامة فى المدينة فعلى كل فرد ان يلحق بفرقته او الادارة التى هو ملحق بها ، منتظرا ما يؤمر به ، ولا يمنعن الامن من الحذر ، ولتكونوا فى وقت السكينة معدين لوقت الهياج ، فان عدم الاغراق فى الاطمئنان ادعى للاطمئنان

« ولقد علم القائد العام ان بعض الجنود يتسللون الى المنازل وينهبونها فعلى قائد موقع القاهرة ، وقواد الفرق ان يتخذوا التدابير الفعالة ليلازم الجند حدود واجباتهم ، حتى لا يصم بعض الجنود سمعة اخوانهم ولا يكدروا صفو النظام العام »

الحكم المباشر بدلا من الحكم المقنع

والغى نابوليون « الديوان » عقب الثورة ، عقابا للسكان كما قال مع ان الديوان ما كان يملك سلطة وانما هو صورة ، وعكف على تحصين القاهرة ، فهدم كثيرا من الدور والمنازل فى مصر القديمة والجيزة وشبرا واقام مقامها القلاع والحصون خوفا من ثورة اخرى ، واصلح قلعة الجبل وزادها مناعة ، وهدم عدة مساجد وقطع كثيرا من النخيل والاشجار . وهدم جامع الكازرونى بالروضة وجامع قنطرة الدكة ، وحطم كثيرا من الابواب والشبابيك لاخذ خشبها واستخدامه فى بناء الحصون الجديدة

وهذه هى اسماء القلاع والحصون التى بنيت فى تلك الفترة :

١ — طابية ديبوى : اقيمت فى احدى روابى القلعة

٢ — طابية سلكوسكى : اقيمت فى جامع الظاهر فقد حولوه الى قلعة واتخذوا منارته مرصدا للاستكشاف ، وانشأوا فى داخله مساكن تسع ٦٠٠ فارس مع خيولهم ، ووضعوا على اسواره المدافع

٣ — طابية كامان : اقيمت قرب قنطرة الليمون فى الطريق الموصل الى بولاق

٤ — طابية مويرور : اقيمت فى حى طولون بمصر القديمة

٥ — طابية الناصرية : اقيمت فوق تل العقارب بقرب دار المجمع العلمى الفرنسوى

٦ — طابية ريبو : بين قلعة الجبل وطابية ديبوى

٧ — طابية فنو : شمالى طابية ديبوى الشرقى

٨ — « مارتينيه : « قلعة الجبل

٩ — « سوزين : « « «

١٠ — « لامبير : « « «

١١ — « جرزيو : على الكوم القائم بقرب الحسينية

١٢ — « لوجيه : بكوم ابى الرسمين بالفجالة

١٣ — « كوزو : غرب الازبكية على طريق بولاق

١٤ — « دنزلو : ببولاق

١٥ — « شيزر : «

١٦ — « المجراة

١٧ — « قصر العينى

وحصن نابوليون ايضا جزيرة الروضة ووضع بطاريات فى كل طرف من اطرافها ، وجعل المقياس شبه قلعة ، وحصن شاطىء النيل مقابل الجزيرة لحماية الملاحة

منشور العلماء

وعاد العلماء الى التدخل عند نابوليون ليكف اذى جنده عن الناس و يوقف حكم الارهاب فطلب منهم كتابة منشور يوزعونه على الناس و يستنكرون فيه الثورة و يصفون عواقبها السيئة و يؤكد الجبرتى ان الفرنسويين هم الذين كتبوه ووزعوه باسم العلماء وهذا نصه :

« نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر المحروسة

« نعوذ بالله من الفتن ماظهر منها وما بطن ، ونبرأ الى الله من الساعين الى الارض بالفساد

« نعرف اهل مصر المحروسة ان طرف الجعيدية واشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية و بين العساكر الفرنسوية ، بعد ما كانوا اصحابا واحبابا بالسوية ، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ، ولكن حصلت الطاف الله الخفية ، وسكنت الفتن بسبب شفاعتنا عند امير الجيوش بونابرت وارتفعت هذه البلية ، لانه رجل كامل العقل ، عنده رحمة وشفقة على المسلمين ، ومحبة الى الفقراء والمساكين ، ولولاه لكانت العساكر احرقت جميع المدينة ، ونهبت جميع الاموال ، وقتلوا كامل اهل مصر

« فعليكم ان لاتحركوا الفتن ولا تطيعوا امر المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المنافقين ، ولا تتبعوا الاشرار ، ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لايقدرون العواقب ، لاجل ان تحفظوا اوطانكم ، وتطمئنوا على عيالكم واديانكم ، فان الله سبحانه وتعالى يؤتى ملكه من يشاء ويحكم مايريد

« ونخبركم ان كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم واراح الله منهم العباد والبلاد ، ونصيحتنا لكم ان لاتلقوا بايديكم الى التهلكة واشتغلوا باسباب معايشكم وامور دينكم ، وادفعوا الخراج الذى عليكم . والدين النصيحة والسلام

كتب هذا البيان يوم ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢١٣

منشور آخر

وطبعت السلطة الفرنسوية منشورا آخر باسم العلماء وزعته فى الاقاليم لتهدئة الخواطر ، وتكذيب الاشاعات التى كانت تشاع فى تلك الايام عن اعداد السلطان جيشا لاخراج الفرنسويين وهذا نصه :

« نصيحة من علماء الاسلام بمصر المحروسة

« نخبركم يا اهل المداين والامصار من المؤمنين ، وياسكان الارياف من العربان والفلاحين ، ان ابراهيم بك ومراد بك ، وبقية دولة المماليك ، ارسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات ، الى سائر الاقاليم المصرية ، لاجل تحريك الفتنة بين المخلوقات وادعوا

انها من حضرة مولانا السلطان ، ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان ، و بسبب ذلك حصل لهم شدة الغم ، والكرب الزائد واغتاظوا غيظا شديدا من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم ، ويتركوا عيالهم واوطانهم ، فارادوا ان يوقعوا الفتن والشر بين الرعية والعساكر الفرنسوية ، لاجل خراب البلاد ، وهلاك كامل الرعيـة ، وذلك لشـدة ماحصل لهم من الكرب الزائد ، بذهاب دولتهم ، وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ، ولو كانوا فى هـذه الاوراق صادقين ، بانها من حضرة سلطان السلاطين ، لارسلها جهارا مع اغوات (قواد) معينين

« ونخبركم ان الطائفة الفرنسوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائما يحبون المسـلمين وملتهم ، و يبغضون المشركين وطبيعتهم ، احباب السلطان قائمـين بنصرته ، واصدقاء له ملازمون لمودته ، وعشرته ومعونتـه ، يحبون من والاه ، و يبغضون من عاداه ، ولذلك بين الفرنسوية والمسكوف غاية العداوة الشديدة من اجل عداوة المسكوف القبيحة الرديئة ، والطائفة الفرنسوية يعاونون حضرة السلطان على اخذ بلادهم ان شاء الله تعالى ولا يبقون منهم باقية

فننصحكم ايها الاقاليم المصرية ، انكم لاتحركون الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعـارضوا العساكر الفرنسوية بشىء من انواع الاذية ، فيحصل لـكم الضرر والهلاك ، ولا تسمعوا كلام المفسدين ، ولا تطيعوا امر المسرفين ، الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون، فتصبحوا على مافعلتم نادمين ، وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لـكامل الملتزمين ، فتـكونوا باوطانكم سالمين ، وعلى عيالـكم واموالـكم آمنين مطمئنين ، لان حضرة صارى عسكر الـكبير ، امير الجيوش بونابرت انفق معنا على انه لاينازع احدا فى دين الاسـلام ، ولا يعارضنا فى ما شرعه الله من الاحكام ، ويرفع عن الرعية سائر المظالم ، و يقتصر على اخذ الخراج ، ويزيل ما احدثه الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالـكم بابراهيم ومراد ، وارجعوا الى مالك الملك وخالق العباد ، فقد قال نبيه ورسوله الاكرم ، الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها بين الامم . عليه افضل الصلاة والسلام »

١٨ جمادى الثانية ١٢١٣ الموافق ١٧ نوفمبر ١٧٩٨

ويؤكد الجبرتى ان العلماء وقعوا هذين المنشورين تحت الضغط وان الفرنسويين هم الذين اجبروهم على توقيعهما وهـذا نص عبارته عن المنشور الاول « واستهل شهر جمادى الثانية بيوم السبت وفيه كتبوا (الفرنسويون) عدة اوراق على لسان المشايخ وارسلوها الى البلاد والصقوا منها نسخا بالاسواق والشوارع »

وقال عن المنشور الثانى : « وفيه كتبوا عدة اوراق وارسلوا منها نسخا للبلاد والصقوا منها بالاخطاط والاسواق على لسان المشايخ ايضا »

اعادة الديوان

وفى يوم ٢١ ديسمبر امر نابليون باعادة الديون وهـذا نص المنشور الذى اذاعه بهذه المناسبة :

بسم الله الرحمن الرحيم

من امير الجيوش الفرنسوية ، خطابا الى اهل مصر الخاص والعـام ، نعلمكم ان بعض الناس الضالين العقول ، الخالين من المعرفة وادراك العواقب ، سابقا اوقعوا الفتنة والشرور بين القـاطنين بمصر فاهلـكهم الله بسبب فعلهم ، ونيتهم القبيحة ، والبارى سبحانه وتعـالى امرنى بالشفقة والرحمة على العباد ، فامتثلت امره وصرت رحيما بكم ، شفوقا عليكم ، ولـكن كان حصل عندى غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينـكم ، ولاجل ذلك ابطلت الديوان الذى كنت رتبته لنظام البلد وصلاح احوالـكم من مدة شهرين ، والآن توجـه خاطرنا الى ترتيب الديوان ، كما كان ، لان حسن احوالـكم ومعاملتكم ، فى المدة المذكورة انسانا ذنوب الاشرار واهل الفتنة التى وقعت سابقا

أيها العلماء والاشراف :

اعلموا امتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذى يعادينى ويخاصمنى انمـا خصامه من ضـلال عقـله ، وفساد فـكره ، فلا يجد ملجأ ولا مخلصا ينجيه من هـذا العالم ولا

ينجو من بين يدى الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى ، والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ، ومن شك فى ذلك فهو احمق واعمى البصيرة

واعلموا ايضا امتكم ان الله قدر فى الازل هلاك اعداء الاسلام ، وتكسير الصلبان على يدى ، وقدر فى الازل انى اجىء من المغرب الى ارض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها ، واجراء الامر الذى أمرت به ، ولا يشك العاقل ان هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه

واعلموا امتكم ايضا ان القرآن العظيم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل واشار فى آيات اخرى الى امور تقع فى المستقبل ، وكلام الله فى كتابه صدق وحق لا يتخلف

واذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات فى آذانكم فلترجع امتكم جميعا الى صفاء النية ، واخلاص الطوية ، فان فيهم من يمتنع عن الغى ، واظهار عداوتى خوفا من سلاحى ، وشدة سطوتى ، ولم يعلموا ان الله مطلع على السرائر يعلم خافية الاعين وما تخفى الصدور . والذى يفعل ذلك سيكون مخالفا لاحكام الله ومنافقا وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب

واعلموا ايضا انى اقدر على اظهار ما فى نفس كل أحد منكم لاننى اعرف احوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما اراه ، وان كنت لا اتكلم ولا انطق بالذى عنده ولكن يأتى وقت ويوم يظهر فيه لكم بالمعاينة ان كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم الهى لا يرد وان اجتهاد الانسان غايته واجتهاده ، ما يمنعه عن قضاء الله الذى قدره وأجراه على يدى »

فطوبى للذين يسارعون فى اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام »

فى ١٦ رجب سنة ١٢١٣ الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٨٩٧

وادخل نابوليون تعديلا على نظام الديوان فجعله مؤلفا من هيئتين : الديوان العمومى وسماه الديوان الكبير والديوان المخصوص او الديوان الصغير

وتألف الديوان المخصوص من ٦٠ عضوا اختارهم من بين اعيان المصريين وممثلى طبقاتهم على أن ينتخب هؤلاء من بينهم الرئيس وسكرتيرين

واشترط فيه أن يجتمع بدعوة حاكم القاهرة الفرنسوى ويستمر ثلاثة ايام ثم ينفض ولا ينعقد بعد ذلك الا بدعوة أخرى. وكان هذا الديوان يتألف بحسب طبقاته كما يأتى :

١٤	العلماء والمشايخ
٢٦	التجار والصناع
١٢	رجال الجيش
٢	مشايخ الاخطاط
٤	اقباط
٢	اجانب
٦٠	

وتألف الديوان الخصوصى من ١٤ عضوا ينتخبون بالاغلبية النسبية ويشترط أن يوافق القائد العام على انتخابهم وحدد نابوليون اختصاص هذا الديوان بقوله « يجتمع كل يوم للنظر فى مصالح الناس وتوفير اسباب السعادة والرفاه لهم ومراعاة مصالح الجمهورية الفرنسوية »

الثورة الثانية

٢٠ مارس — ٢٢ ابريل سنة ١٨٠٠

حدثت ثورة القاهرة الثانية يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ اى بعد الثورة الاولى بسنة وستة أشهر وذلك بعد سفر نابوليون الى فرنسا فقد غادر القاهرة عائدا الى باريس سرا يوم ١٨ اغسطس سنة ١٧٩٩ على أثر رسالة ارسلتها اليه حكومة

الديركتوار بسبب اضطراب حالة فرنسا داخلا وخارجا . و بعد زحف العثمانيين على مصر لاحتلالها ووصول جيشهم الى العريش وانتصاره على الفرنسويين وتقدمه حتى عين شمس (ضواحى القاهرة) وانتصار الفرنسويين فى هذه المعركة (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) وانقسام الجيش العثمانى الى قسمين : قسم ارتد الى حدود فلسطين مهزوما وقسم ارتد الى الغرب اى الى القاهرة وضواحيها وانتشر فى ارجائها ور بوعها

وكانت فى القاهرة حين وقوع معركة عين شمس حامية فرنسوية تتألف من الفى مقاتل بقيادة الجنرال فردييه موزعة على القلاع المحيطة بالمدينة و فى المعسكر العام بالازبكية ، وكانت الاوامر التى اصدرها الجنرال كليبر قبل المعركة الى الجنرال فردييه تقضى عليه بأن يمتنع فى الحصون متى احس بقرب نشوب ثورة ويحافظ على المواصلات بين قصر السيفى وقلعة الجبل وقلعة قنطرة الليمون . وكان الجنرال زايونشك يرابط بالجيزة لحمايتها وحماية القاهرة عند الحاجة

واحدث وصول الكتلة العثمانية التى انفصلت عن الجيش العثمانى بعد معركة عين شمس ومعها بعض المماليك الى القاهرة هيجانا عظيما ، فاعتقد الناس ان الانتصار تم للترك وان الدائرة دارت على الفرنسويين فتجددت حركات الهياج وظن الموتورون من الاحتلال ان ساعة الانتقام قد دنت

وكان اهل حى بولاق فى مقدمة الهائجين فقد تسلح بعضهم بما استطاع الحصول عليه من سلاح وتقدموا بقيادة زعيمهم الحاج مصطفى البشتيلى الى قلعة الليمون لاقتحامها فردتهم حاميتها فاستأنفوا الكرة بعد ما نظموا صفوفهم فأرسل الجنرال فردييه نجدة للقلعة فردت الثوار بعد ما قتلت منهم نحو ٣٠٠ وصادف فى تلك الآونة وصول واصف باشا احد قواد الجيش العثمانى الى القاهرة ومعه ابراهيم بك ومحمد بك الالفى وحسن بك الجداوى وغيره من القواد والموظفين فطارت الاشاعة بأن الانتصار كان لهم و بأنهم جاءوا لتسلم المدينة مع انهم كانوا منهزمين

واثرت هـذه الاشاعة فى نفوس العامـة فتقلدوا السلاح واتجهوا بجموعهم الى المعسكر العام ، وما كان عددهم يقل عن عشرة آلاف ، فتلقاهم الجنرال ديرانتو ، وكان يدافع عن معسكر الازبكية بنار حامية فلجأ بعضهم الى المنازل المجاورة وتحصن فيها واستأنف الآخرون الغارة بعد ما جمعوا شملهم وكانوا مسلحين فى هذه المرة بثلاثة مدافع عثمانية كانت فى المطرية فنازلهم الفرنسويون واستمر القتال حتى اليوم التالى

وشرعت القلاع منذ ابتداء الثورة تضرب المدينة بقنابلها ولا سيما الاحياء الثائرة فاحدث ضربها ذعرا واضطرابا وازمع كثيرون على الهجرة فمنعهم زعماء الثورة واغلقوا الابواب

وهجم الثوار عـلى منزل الحاج مصطفى اغا محافظ العاصمة وكان متهما بالقسوة فقتلوه بعد ماحاكموه وحكموا عليه بالاعدام

واتسع نطاق الثورة تدريجيا فعمت كافة الطبقات . ووصلت فى الغـداة قوة فرنسوية بقيادة الجنرال لاجرانج ارسلها الجنرال كليبر للمساعدة فى اخمـاد الثورة فاكتسحت الشوارع الموصلة الى معسكر الازبكية ورفعت الحصار عنها وانضمت الى الحامية وكان الثوار قد استطاعوا بمساعدة المماليك احتـلال البيوت التى كان يسكنها قواد الجيش الفرنسوى حول ميدان الازبكية

ووصل بعد ذلك الجنرال فريان يقود فرقة وحاول ان يعيد النظام الى المدينـة فعجز عن اقتحام الشوارع لـكثرة ماكان هنالك من المتاريس التى انشأها الثوار ورابطوا حولها اسـتعدادا للقتال . وحاول بعض العقلاء اقناعهم بانتصار الفرنسويين فى معركة عـين شمس وانهزام الترك والمماليك فلم يصـدقوهم واعتدوا عـلى بعضهم وقتلوهم

وانشأ الثوار معملا للبارود فى بيت قائد اغا بالخرنفش كما انشأوا معملا لاصلاح الاسلحة والمدافع ومعملا لصب القنابل والمدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت وتطوع الصناع للعمل فيه وقدموا ما لديهم من الحديد والآلات والموازين واخـذوا

يجمعون القنابل التى تتساقط من المدافع الفرنسوية فى الشوارع ويستعملونها ثانية .
واحضروا مايحتاجون اليه من الخشب وفروع الاشجار ، وجمعوا الحدادين والنجارين
والسباكين وارباب الصنائع ووصف الجنرال كليبر فى مذكراته اليومية ما جرى
فقال :

« واستخرج الاعداء مدافع كانت مطمورة فى الارض، وانشأوا معامل للبارود
واصب المدافع وعمل القنابل ، وابدوا فى كل ناحية من النشاط ما اوحت به الحماسة
والعصبية ، هذه هى حالة القاهرة بوجه عام عند قدومى اليها ، ولم اكن اتصورها فى
هذه الدرجة من الخطورة »

واقبل الاهالى على مساعدة الثوار بالزاد والذخيرة وتبرعوا لهم بكميات كبيرة
عن طيب خاطر

وفى يوم ٢٧ مارس اى بعد اعلان الثورة باسبوع بلغ الجنرال كليبر العاصمة
عائدا من القبة بعد ماترك حاميات من الجنود فى مناطق الحدود وكانت الثورة
تضطرم اضطراما ، وقد اعترف فى مذكراته التى اثبتنا جانبا منها بانه ما كان يظن ان
الحالة بلغت ما بلغته من الخطورة ، فعكف على درس التدابير التى يستطيع بها اخمادها
فاستقر قراره على اتباع خطة المطاولة وقد مال الى ذلك لان قواه ما كانت تساعده
على الفتك والبطش . وكان يرجو ان يتوصل الى تفريق كلمة الثوار فينفضوا من
تلقاء انفسهم

وشرع الجنرال كليبر يفاوض الترك سرا اى الضباط والجنود الذين دخلوا القاهرة
بعد معركة عين شمس بقيادة واصف باشا فاتفق معهم على شروط معينة تقضى
بجلائهم سالمين عن البلاد

وفاوض المماليك ايضا وتفاهم معهم فتم له اقصاء عنصرين من العناصر القوية
التى كانت تؤيد الثورة ، ولم يبق امامه سوى العنصر الوطنى وهو الذى قامت الثورة
على اكتافه وكان منه وقودها . وشعر الزعماء الوطنيون بما وقع وعرفوا ان الترك

والمماليك تخلوا عنهم فقاطعوهم ونبذوهم وصمموا على مواصلة القتال والنضال

وتفرغ الفرنسو يون بعد عقد هذين الاتفاقين و بعد ما اخضعوا الوجه البحرى لاخماد ثورة القاهرة ففى يوم ٤ ابريل شرعوا فى الهجوم على اماكن الثوار، وكانوا قد استحضروا قواهم ، وامر الجنرال كليبر الجنرال رينيه ان يبذل كل ما فى وسعه للاستيلاء على جهة باب النصر وان يصوب نيرانه الى الجامع الازهر

و بدات فرقة هذا الجنرال الهجوم من باب الحديد فاصطدمت بمتراس للثوار فسقط الضابط الفرنسوى قائد الهجوم فتراجع الجند الى الوراء ثم تقدموا ثانية وطاردوا الثوار واقتلعوا المتاريس التى كانوا يتحصنون فيها واقتحموا المنازل واضرموا النار فى المبانى التى كانت تعوق تقدمهم واشتد القتال حول هذه المواقع وتداولها الفريقان المرة بعد المرة وظل القتال دائرا مدة خمسة ايام ٥ ـ ١٠ ابريل وانتهى بتوطيد اقدام الفرنسويين فيها

و بعد انتهاء القتال عهد الجنرال كليبر الى الجنرال رينييه باحتلال كوم ابى الريش والفجالة ، وكانت نقطة ارتكاز قوية للثوار وكانوا يهددون بواسطته مواصلات الفرنسويين بين الظاهر والازبكية فحمل عليه يوم ١٢ منه واجلى الثوار عنه وتحصن فيه فكروا عليه لاسترداده فاخفقوا واستمر القتال دائرا حتى صباح ١٣ منه وانتهى بالاستيلاء عليه

واغارت قوة فرنسوية اخرى على المنازل المحيطة ببركة الرطلى (الفجالة) فاقتحمتها واضرمت فيها النار ماعدا بعض منازل اتخذتها قاعدة لها وتحصنت فيها

وكر الفرنسويون على بيت فرقة الهندسة وكان الثوار يتحصنون فى داخله جنوبى الازبكية فاحتلوه

معركة بولاق الكبرى

وفى يوم ١٣ منه وصل الى القاهرة الجنرال بليار قادما من دمياط فعسكر امام

بولاق وكانت معقل الثورة وحصنها الحصين ، فاصدر اليه الجنرال كليبر امرا باقتحامه والقضاء على قوة الثوار المرابطة فى انحائه بعد انذارهم بوجوب التسليم

وفى صباح ١٥ منه شرع الفرنسويون فى الهجوم عند شروق الشمس ومهدوا لذلك بضربه بالمدافع ، ثم تقدموا فقابلهم الثوار بنيرانهم وكانوا يرابطون فى مدخله وفى بيوته الامامية

وثغرت المدفعية الفرنسوية ثغرات فى الجدران تدفق منها الجند الى شوارع الحى الداخلية فاضرموا النار فى المنازل فاشتعلت واتسع مداها وامتدت الى المخازن والمنازل والابنية العظيمة فدمرته تدميرا وكان مركز العاصمة التجارى وهدمت الدور على رءوس ساكنيها فمات معظمهم تحت الانقاض وذهبوا طعمة للنار . ووصف الجبرتى ماجرى فى هذا اليوم المهول فقال :

« هجموا على بولاق من ناحية البحر (النيل) ومن ناحية بوابة ابى العلا ، وقاتل اهل بولاق جهدهم ورموا بانفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسويون عليهم وحصروهم من كل جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل ، وسلبوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق وفعلوا باهلها ماتشيب من هوله النواصى ، وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والازقة ، واحترقت الابنية والدور والقصور ، وخصوصا البيوت والرباع المطلة على البحر ، وكذلك الاطارف ، وهرب كثير من الناس عند ما ايقنوا بالغلبة فنجوا بانفسهم الى الجهة القبلية . ثم احاط الفرنسيس بالبلدة ، ومنعوا من يخرج منها واستولوا على الخانات والوكائل ، والحواصل ، والودائع ، والبضائع ، وملكوا الدور وما بها من الامتعة والاموال والنساء والخوندات ، والصبيان ، والبنات ، ومخازن الغلال ، والسكر والكتان ، والقطن ، والابازير ، والارز والادهان والاصناف العطرية ، وما لاتسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور ، والذى وجدوه منعكفا فى داره او طبقته ولم يقاتل ، ولم يجدوا عنده سلاحا نهبوا متاعه ، وعروه من ثيابه ، ومضوا وتركوه

حيا ، واصبح من بقى من ضعفاء اهـل بولاق واهلها واعيانها الذين لم يقاتلوا فقراء لايملكون مايستر عوراتهم »

ووصف المسيو جالون فى كتابه « صورة مصر فى عهد الجيش الفرنسوى » مأساة بولاق وقد شهدها بالذات فقال :

« فى يوم ١٤ ابريل سـنة ١٨٠٠ انذرت بولاق بالتسليم فاجاب اهلها باباء وكبرياء انهم يربطون مصيرهم بمصير القاهرة و يدافعون عن انفسهم اذا هوجموا حتى الموت ، فاخـذ الجنرال فريان يحاصر بولاق و يصب عليها من المدافع نارا حامية وهو يرجو ان يحمل الاهالى على طلب الاستسلام فاجابوه بضرب النار فاطلقت المدفعية قنابلها على المتاريس ، وهجم الجنود على الاستحكامات فاقتحموا اكثرها ، وظل بعضها يقاوم . واستبسل الاهلون فى الدفاع ولجأوا الى البيوت فامتنعوا بها ، فاضطرت الجنود الى الاستيلاء عليها واحـدا بعـد آخر وتغلبت عليها بقوة الحديد والنار ، و بلغ القوم فى شدة الدفاع حدا لامزيد بعده ، وفى وسط هذا البلاء عرض العفو على الثوار فابوه ، واستمر القتال ، فجعلنا الحى ضراما ، واسلمناه للنهب وصار اهله عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم ، فجرت الدماء انهارا فى الشوارع ، وسرت النار فى انحاء بولاق من اقصاها الى اقصاها ، واستهدفت تلك المدينة العامرة الزاهرة للخراب ، واكلتها اهوال الحروب وفظاعتها ، ولما بلغت المأساة مداها طلب الاهالى التسليم فاجيبوا ، وستظل بولاق زمنا طويلا تتردى فى هاوية الخراب الى ان تستطيع النهوض من اعباء الكوارث التى حلت بها ، فان معظم بيوتها اصبح ركاما من الخرائب والاطلال المحترقة ، ولقد مضت ثمانية ايام والنار تلتهمها ولا تزال تشتعل فيها »

والظاهر ان ما اصاب بولاق من بلاء ما كان يكفى فى نظر القيادة الفرنسوية فزادت طين مصائبها بلة بان فرضت عليها نصف مليون ريال غرامة منها ٢٠٠ الف ريال على منازلها و ٣٠٠ الف ريال على متاجرها تجبى عروضا من السكر والبن والزيت

والحبال والتيل والقطران والنحاس والحديد والرصاص والزموا السكان بان يسلموا ماعندهم من المدافع والذخائر فى الترسانة وما يملكونه من الاخشاب والشنبر والارز والعدس والفول مع ٤٠٠ بندقية و ٢٠٠ طبنجة

وقبض الجند ايضا على الحاج مصطفى البشتيلى زعيم الثورة وامروا اتباعه ان يقتلوه لانه سبب ماحل بهم فضربوه بالعصى حتى مات

الهجوم العام

وحمل الفرنسويون يوم ١٨ منه على مراكز الثوار الاخرى فاغار الكولونيل سيلى على الناصرية فاخفق ، وهجم الجنرال دنزلو على حى المدابغ فلقى مقاومة شديدة فانسحب وتحصن فى شارع الجباسة ، وهجم الجنرال فريان والجنرال بليار من ميدان باب الازبكية والجنرال رينيه من الفجالة وابى الريش وباب الشعرية فاشتد القتال وكانت الحرب سجالا وانتهت بفوز الفرنسويين وكثر عدد القتلى والجرحى من الفريقين وجرح الجنرال بليار جرحا بليغا

العلماء يسعون للصلح

ولما طال المطال وكثرت الحرائق والفظائع جدد العلماء السعى للصلح والحوا على واصف باشا وابراهيم بك واصحابهما بالتوسط فذهب وقد قابل الجنرال كليبر وعرض عليه التفاهم و بعد اخذ ورد طويلين تم الاتفاق يوم ٢١ ابريل سنة ١٨٠٠ على ان ينسحب الجنود العثمانيون والمماليك من القاهرة حاملين اسلحتهم وامتعتهم ماعدا المدافع فى خلال ثلاثة ايام

وتعهد الجنرال كليبر بموجب هذا الاتفاق باصدار عفو عام عن جميع اهالى القاهرة وعن المصريين الذين اشتركوا فى الثورة بشرط ان لايغادر احد منهم البلاد مع الترك

وسكنت القاهرة وانتهت الثورة عقب توقيع هـذا الاتفاق و بعد نضال استمر ٣٣ يوما (٢٠ مارس — ٢٢ ابريل) و بعد ماهدمت معظم دورها ومنازلها ومخازنها فذهبت طعمة للنيران ومات عدد عظيم من ابنائها . وقـد وصف المسيو جالان فى كتابه (صورة مصر فى عهد الجيش الفرنسوى) هـذه الحوادث المهولة وصفا يفتت قلب الجماد وقد شاهدها بعينى راسه وهو ممن لايتهم بالافتراء على الفرنسويين فقال ماترجمته :

« رجعت الى القاهرة بعد اخماد الثورة ، واخذت ابحث عن منزل آوى اليه فى الازبكية بدل المنزل الذى كنت اسكنه والذى ذهب طعمة للنيران ، وقد لاحظت ان الحصار اضر بالقاهرة اكثر مما كنت اتصور ، فقد عم الخراب احياء باكملها وتمثل لنا شبحه المخيف فى الازبكية ، واثرت فى نفسى صورته المفزعة فليس فى الامكان ان نخطو خطوة الا على كثبان من الخرائب والاتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد هذا المنظر فظاعة ان الجنود كانوا ينبشون الجثث من تحت الانقاض والخرائب املا بالعثور على ذهب او فضة وكلما اظهروا جثة زاد المنظر هولا وفظاعة »

الغرامات والضرائب

وفرض الجنرال كليبر على سكان القاهرة بعـد سكون الثورة غرامة قدرها ١٢ مليون فرنك يوفى نصفها نقدا ونصفها عروضا مع ٢٠ الف بندقيـة ومثلها طبنجة و ١٠ آلاف سيف وخص بعض العلماء والزعماء بنصيب كبير منها ففرض على السيد محمـد السادات ١٥٠ الف ريال والشيخ مصطفى الصاوى ٥٠ الفا والشيخ محمـد الجواهرى واخيه الشيخ فتوح ٥٠ الف ريال ، وامر بتوزيع الباقى على سكان المدينة على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم واعتقل ١٥ رجـلا من الكبراء رهائن لوفاء هذه الغرامة الباهظة ومما يؤثر عنه قوله لوفد من اعيان المدينة جاء يحتج على فداحة الغرامة

« لقد اعطيناكم الامان فلا ننقض اماننا ولا نقتلكم . وانما نأخذ منكم الاموال فالمطلوب منكم الآن هو ١٢ مليون فرنك »

وعامل الفرنسويون السيد محمد السادات باقسى ضروب القسوة والشدة لعجزه عن اداء الغرامة الباهظة التى فرضت عليه وكان يعد من اكبر الزعماء الوطنيين فاعتقلوه واهانوه وصادروا امواله وحملوه على بيع ممتلكاته لاداء الغرامة المفروضة عليه ولم يراعوا منزلته ولا مقامه

٩

مقتل الجنرال كليبر

اسرف الجنرال كليبر ، وهو الذى خلف نابوليون ، فى الشدة واستباح كرامة العظماء والعلماء وسجنهم وفرض الغرامات الباهظة فنفر منه الناس وتمنوا لو تخلصوا من عتوه وجبروته ، ففوجئوا يوم السبت ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ بنبأ مصرعه مقتولا بيد شاب ازهرى سورى من اهالى حلب اسمه سليمان الحلبى فوجموا وقالوا انها القدرة الالهية ارسلت هذا الشاب السورى ففدى مصر بدمه

و بيان ما حدث انه بعد ما تغدى الجنرال فى ذاك اليوم على مائدة الجنرال داماس فى داره المجاورة لمقر القيادة العامة فى الازبكية (كانت دار القيادة مكان فندق شبرد الآن ، وكانت دار الجنرال داماس فى المكان الذى يقوم فيه مطعم سان جمس وهو واقع وراء فندق شبرد مباشرة) مع بعض القواد الفرنسويين ودعهم ليذهب الى دار القيادة ومعه المسيو بروتان المهندس المعمارى وعضو لجنة العلوم والفنون

وخرج -والجنرال ورفيقه يسيران - شاب كان يكمن وراء بئر عليها ساقية هنالك فاقترب من الاول متظاهرا بانه يرغب فى التوسل اليه فلم يكد يلتفت اليه حتى عاجله بطعنة خنجر اصابته فى صدره فصاح « الى ايها الحارس » وسقط على الارض مضرجا بدمائه ، ففر الضارب فلحق به المسيو بروتان يريد امساكه فارتد وطعنه ست طعنات فسقط صريعا ثم ارتد الى كليبر ليجهز عليه فطعنه ثلاث

طعنات اخرى ثم توارى فى حديقة الدار تاركا فى مكان الجريمة جزءا من عمامته والظاهر انها تمزقت فى اثناء صراعه مع بروتان

واسرع الحارس على أثر سماعه صوت الاستغاثة فالفى الجنرال ممددا فقصد دار الجنرال داماس واخبره بالخبر فجاء مع ضيوفه ونقلوا الجريحين وكان اولهما قد لفظ الروح من دون ان يفوه بكلمة

وعثر اثنان من ضباط الحرس بعد ساعة من حدوث الجريمة على القاتل مختفيا فى الحديقة الملاصقة لدار القيادة وراء جدار مهدم ، فقبضا عليه وساقاه الى دار القيادة وعثروا ايضا على الخنجر مدفونا فى المكان الذى اختبأ فيه ، فحقق معه الجنرال منو وواجهه بالمهندس المسيو بروتان ولم يمت هذا ، فتعرفه وارشد عليه من بين جماعة من العمال وضع بينهم . وشهد شهود بان القاتل كان يلازم الجنرال كليبر ويرقب حركاته وسكناته من امد بعيد

واعترف سليمان بجريمته ولم ينكرها ودل التحقيق على انه فى الرابعة والعشرين من عمره وان اسمه سليمان وابوه الحاج محمد امين من تجار حلب وظهر انه غادر بلدته الى القدس ثم قدم القاهرة قبل شهر واحد من الحادث اى يوم ١٤ مايو فنزل حين وصوله عند خطاط تركى اسمه مصطفى افندى البروسه لى كان يعرفه مدة اقامته الاولى فى مصر ، اذ قضى فيها ثلاث سنوات يطلب العلم فى الازهر

وانتقل سليمان الى الجامع الازهر غداة وصوله اى انه بات ليلة واحدة عند استاذه القديم ، وانتظم فى سلك الطلبة وصار يحضر الدروس معهم وافضى بعزمه على قتل الجنرال الى اربعة من زملائه وهم محمد الغزى ، وعبد الله الغزى ، وعبد القادر الغزى ، نسبة الى غزة (سورية) واحمد الوالى فرموه بالطيش ونصحوه بالعدول عنه فلم ينتصح وقصد مساء ١٣ يونيو الى الجيزة ، واستفهم من النوتية الذين كانوا فى خدمة الجنرال عن موعد خروجه فاخبروه ان من عادته ان يتروض مساء كل يوم فى حديقة سراى القيادة العامة بالازبكية

وحاول سليمان الدخول الى الحديقة فى تلك الليلة فلم يوفق فقضى ليلته فى

احد المساجد القريبة وفى صباح ١٤ منه خرج لمراقبة الجنرال فسار وراءه الى الروضة ثم لحق به الى القاهرة وتمكن من الانسلال الى حديقة دار القيادة العامة ووصل الى الرواق فكمن به

وقبض على ثلاثة من الذين ذكر اسماءهم وقال انه افضى اليهم بما ينويه اما الرابع وهو عبد القادر الغزى فقد فر وحقق مع الثلاثة فانكروا ان يكون افضى اليهم بشيء ، وقبض على مصطفى افندى الخطاط التركى

واصدر الجنرال منو قرارا بانشاء محكمة عسكرية لمحاكمة القاتل فتألفت من تسعة ضباط واجتمعت يوم ١٥ منه اى غداة الحادث وسمعت اقوال الشهود ثم اصدرت يوم ١٦ منه حكمها وهو يقضى باعتبار سليمان الحلبى واصدقائه مذنبين و براءة الخطاط مصطفى افندى واطلاق سراحه واحراق يد سليمان الحلبى ثم اعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها الطير واعدام شركائه الاربعة بقطع رؤوسهم واحراق جثتهم بعد الاعدام مع مصادرة اموال المتهم الغائب عبد القادر الغزى

وشرعوا بعد اصدار الحكم فى تجهيز جنازة كليبر ثم دفنوه و بعد دفنه نفذوا الحكم فى المحكوم عليهم عند تل العقاب قريبا من طابية قاسم بك على مشهد من الجنود واعيان المدينة

وقصد الجنرال منو وقد حل محل كليبر فى القيادة العامة الى الازهر يصحبه الجنرال بليار ومحافظ العاصمة وطافوا به وحفروا ارضه بحجة التفتيش على السلاح فنقل الطلاب كتبهم وامتعتهم واخلوا الاروقة وكتب الفرنسويون اسماء الطلبة فى كشوف وامروهم بعدم ايواء غريب واخرجوا منه المجاورين واقفلوه على الاثر ولم يفتح الا بعد جلائهم عن مصر

١٠

جلاء الفرنسويين عن مصر

شجع الانكليز الفوز العظيم الذى ادركه اسطولهم يوم ١٨ اغسطس سنة ١٧٩٨ فى ابو قير على الاسطول الفرنسوى وتحطيمه اياه ، على المنوال الذى بسطناه فى ما تقدم فاعلنوا الحصر البحرى على مصر ، وقطعوا كل صلة بين الجيش الفرنسوى وفرنسا واقاموا بوارجهم امام الثغور المصرية تمنع الدخول اليها والخروج منها فشل ذلك الحركة الاقتصادية

ولم يقف الانكليز عند هذا الحد بل عقدوا اتفاقا مع تركيا لمحاربة الفرنسويين واخراجهم من مصر فشرع الباب العالى يجهز الحملات لاستردادها فكان نصيبها الفشل والاخفاق

وادرك الانكليز بعد هذه التجارب ان الاعتماد على العثمانيين فى اخراج الفرنسويين لا يفيد بل يزيد فى نفوذ هؤلاء ويشجعهم ويوطد اقدامهم بما ينالونه من انتصارات ، ويجب ان نعترف بان الجيش العثمانى كان فى ذلك العهد مجردا من كل قيمة عسكرية وحربية ، فقرروا ان يتولوا ذلك بانفسهم فجردوا حملة عسكرية اقلتها النقالات الى مصر فرست صباح ٢ مارس سنة ١٨٠١ فى خليج ابو قير وعدتها ١٧٥٠٠ مقاتل بقيادة الجنرال السر رالف ابركرومبى

وفى صباح ٨ مارس بدأ نزول الانكليز الى البر تحت حماية اسطولهم فانحدر ستة آلاف فى اليوم الاول فهاجمهم الجنرال فريان على رأس ٢٠٠٠ جندى واشتركت المدفعية الفرنسوية فى هذه المعركة وكانت منصوبة فى حصون اعدها الفرنسويون

فكان الفوز للانكليز بعد نضال عنيف وخسروا نحو ٦٠٠ وخسر الفرنسويون نحو ٤٠٠ بين قتيل وجريح

وفى يوم ١٢ شرع الانكليز فى الزحف من ابو قير الى الاسكندرية فبلغوا اطلال قصر القياصرة او معسكر قيصر وهو على شاطىء البحر بالقرب من محطة مصطفى باشا برمل الاسكندرية وكان الفرنسويون قد تحصنوا فيه

واشتبك الفريقان فى معركة حامية يوم ١٣ منه وكان الفرنسويون بقيادة الجنرال لانوس وانتهى القتال بانكسار هؤلاء وارتدادهم الى الاسكندرية فتبعهم الانكليز فقابلوهم بنيران حامية من مدفعيتهم فتحصنوا فى الاكمات القائمة هنالك ورابط جيشهم فى خط طويل بين ابو قير والبحر. وفى يوم ١٨ منه سلمت قلعة ابو قير للانكليز وكانوا يحاصرونها من يوم ١٢ منه

وفى يوم ٢١ مارس اشتبك الجيشان فى معركة يسمونها معركة كانوب . وكان الفرنسويون بقيادة الجنرال منو وكان هذا قد جاء من القاهرة للدفاع عن الاسكندرية وكان الانكليز بقيادة قائدهم العام وكانت بعض المدفعيات الانكليزية تحمى ميمنة الجيش البريطانى من البحر

وانتهت المعركة قرب نصف الليل بارتداد الجيش الفرنسوى الى الاسكندرية بعد ما خسر نحو ١٥٠٠ قتيل والف جريح وكان بين القتلى ثلاثة من كبار القواد الفرنسويين منهم الجنرال لانوس

وخسر الانكليز ايضا نحو ١٥٠٠ قتيل بينهم قائد جيشهم العام وجرح بعض قوادهم ومنهم السر سدنى سميث الذى اشترك فى القتال . وخلف الجنرال السر هتشنستون القائد المقتول فى القيادة

وفى يوم ٢٥ مارس وصلت الى ابو قير العمارة التركية وعلى ظهرها ستة آلاف جندى بقيادة حسين باشا قبودان فنزلوا الى البر وانضموا الى الجيش البريطانى فازداد قوة بهم وقرر الزحف الى العاصمة

وفى شهر ابريل احتل الترك والانكليز رشيد

وفى اوائل شهر مايو تحرك الجنرال هتشنسون من رشيد الى القاهرة فمر بالرحمانية واحتلها يوم ١٠ مايو بعد مقاومة بسيطة واستولى على السفن الفرنسوية

و بينما كان الجيش الانكليزى ـ التركى يواصل تقدمه الى القاهرة زاحفا من الشمال كان هنالك جيش تركى آخر بقيادة الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا وعدده ٢٠ الف مقاتل يواصل تقدمه من طريق الصحراء الشرقية وكان قد استولى على العريش فى شهر ابريل وتابع سيره فاستولى على قطية والصالحية و بلبيس بلا مقاومة ولم يبق بينه و بين القاهرة سوى ٥٥ كيلو مترا

وحاول الجنرال بليار قائد القاهرة يومئذ ان يعيد تمثيل الدور الذى مثله الجنرال كليبر فيصمد للعثمانيين فى المطرية و يضربهم ضربة شديدة و يطردهم الى ماوراء الحدود فيرفع القوة المعنوية فى صدور جنوده ثم يرتد الى الجيش الزاحف من الاسكندرية فيهزمه ، ولكن القدر خانه فهزمه العثمانيون يوم ١٦ مايو بين الزوامل والخانكة فى طريق بلبيس ـ القاهرة فارتد الى العاصمة وتحصن فيها وكان معه ١٠ آلاف جندى

وازداد مركز الفرنسويين حراجة بانتشار الطاعون فكان يموت منهم كل يوم نحو ٢٠ جنديا

واتصل الصدر الاعظم بعد معركة الزوامل بالجيش القادم من الاسكندرية واجتمع بالقائد البريطانى فوضعا خطة مشتركة للزحف على القاهرة . وتقدم جيش الشرق (التركى) فعسكر فى القبة اما جيش الشمال (الانكليزى) فعسكر فى امبابه

ووصلت الى الجيش الانكليزى وهو فى الجيزة كتيبة من جيش الجنرال بيرد ارسلت نجدة له من الهند بقيادة اللفتنت كولونيل لويد وتلقى نجدات اخرى من ابو قير . واقام الجيشان جسرا من المراكب للاتصال وكان مجموع جنودهما لايقل عن ٤٠ الف مقاتل

الفرنسيون يقررون التسليم

وعقد الجنرال بليار مجلسا عسكريا دعا اليه قواد جيشه وكبار ضباطه للبحث فى الحالة فتناقش القواد فى الموقف وقرروا بالاكثرية وجوب فتح باب المفاوضة مع الانكليز على قاعدة الجلاء

وفى يوم ٢٢ يونيو وصل الى المعسكر البريطانى مندوب الجنرال بليار يطلب وقف القتال وفتح باب المفاوضة على قاعدة الجلاء فاجيب بالقبول وفى الغد اجتمع مندوبو الفريقين فى مكان اعد لهم بالجيزة فجاء البريجادير الجنرال هوب عن الانكليز وعثمان بك عن الصدر الاعظم واسحق بك عن قبودان باشا والجنرال موران والجنرال دنزلو عن الجنرال بليار فتم الاتفاق بعد مفاوضة استمرت اربعة ايام على ما يأتى :

معاهدة التسليم

١ – ان الجنود الفرنسويين على اختلاف اسلحتهم والملحقين بهم بقيادة الجنرال بليار يجلون عن القاهرة والقلعة وحصون بولاق والجيزة وعن كل الجهات التى يحتلونها الآن فى القطر المصرى

٢ – ينتقل الجنود الفرنسويون والملحقون بهم باسلحتهم وامتعتهم وذخائرهم الى رشيد بطريق البر الغربى للنيل ومن هنالك يبحرون الى الثغور الفرنسوية بالبحر المتوسط ومعهم اسلحتهم ومدافعهم ومنقولاتهم على نفقة الدول المتحالفة ، ويتم اقلاعهم باقرب ما يمكن من الوقت بحيث لايتأخر عن الخمسين يوما التالية لتاريخ التصديق على هذه المعاهدة . ومن المتفق عليه ان ينقل الجنود المذكورون الى الثغور الفرنسوية باقرب واسرع طريق

٣ - تقف الاعمال العدائية من الجانبين بمجرد التوقيع والتصديق على هـذه المعاهدة وتسلم قلعـة سلكوسكى وباب مدينـة الجيزة المسمى باب الاهرام الى الحلفاء ويحـدد خط المخافر الامامية لجيوش الطرفين بمعرفة مندوبين يعينون لهـذا الغرض وتعطى الاوامر المشددة للجنود بان لايتجاوزوا هذا الخط وذلك منعا لـكل اصطدام بين جنود الطرفين واذا وقع اى اصطدام فيحسم بالطرق الودية

٤ - يخلى الجنود الفرنسويون والملحقون بهم مـدن القاهرة والقلعة و بولاق وقلاعها فى اليوم الثانى عشر بعد التصديق على هـذه المعاهدة و ينسحبون الى القصر العينى والروضة والجيزة ، ومن هنالك يرحلون الى الثغور التى يركبون منها و يكون هذا الرحيل فى اقرب وقت بحيث لايزيد على خمسة ايام ، و يتكفل قواد الجيوش البريطانية والتركية بنفقات نقل الجنود الفرنسويين بطريق النيل من الجيزة

٥ - تنظم طريقـة لنقل الجنود الفرنسويين باشتراك قواد جيوش الطرفين او ضباط اركان الحرب الذين ينتدبون لهـذا الغرض من الجانبين . ومن المتفق عليه انه طبقا لهـذه المادة يكون لقواد جيوش الحلفاء تحديد عدد الايام التى يقتضيها احتشاد الجيش الفرنسوى ورحيله و بناء على ذلك يصحب الجيش الفرنسوى فى رحيـله مندوبون من الانـكليز والترك يكافون تقديم المؤن اللازمة اثناء الرحيل

٦ - تتولى شراذم من الجيش الفرنسوى وسفن مسلحة تابعـة لدول الحلفاء حراسـة الامتعة والاثقال والذخائر وسائر المهمات التى ينقلها الفرنسويون بطريق النيل

٧ - تقـدم المؤن الـكافية للجنود الفرنسويين والملحقين بهم من يوم رحيلهم عن الجيزة الى حين وصولهم الى فرنسا وتتبع فى ذلك لوائح الجيش الفرنسوى ولوائح البحرية البريطانية فى طريقهم بحرا لغاية وصولهم الى فرنسا

٨ - يقدم قواد القوات البرية والبحرية الانـكليزية والتركية مراكب النقل اللازمة

لنقل الجنود الفرنسوية الى ثغور فرنسا الواقعة على البحر المتوسط وكذلك لجميع الفرنسويين الآخرين الملحقين بالجيش الفرنسوى ، و يعهد فى هذه المهمة وفى تدبير المؤن الكافية الى مندوبين يعينهم لهذا الغرض الجنرال بليار وقواد الحلفاء البريين والبحريين بعد التصديق على هذه المعاهدة مباشرة ، ويتوجه هؤلاء المندوبون الى رشيد وابو قير لتدبير الوسائل اللازمة للنقل

٩ – يقدم الحلفاء اربع سفن او اكثر عند الحاجة خاصة لنقل الجياد والماء والعلف الكافى لمدة السفر

١٠ – يعود الجنود الفرنسويون والملحقون بهم الى فرنسا فى حراسة سفن الحلفاء ، وتضمن الدول المتحالفة للذين يركبون السفن منهم ان لايصابوا باذى الى ان يبلغوا الشواطىء الفرنسوية . ويتعهد الجنرال بليار هو واالجنود الذين فى قيادته ان لايصدر منهم فى اثناء سفرهم اى عمل عدائى ضد السفن او البلاد التابعة لصاحب الجلالة البريطانية او الباب العالى وحلفائهما

ولا يجوز للسفن المقلة للجنود او الرعايا الفرنسويين ان ترسو فى ثغر آخر غير الثغور الفرنسوية ما لم تقض بذلك ضرورة قصوى

ويتعهد قواد القوات البريطانية والتركية والفرنسوية بالعهود المبينة اعلاه مدة اقامة الجيش الفرنسوى بمصر من يوم التصديق على هذه المعاهدة الى حين نزوله الى السفن ويتكفل الجنرال بليار قائد القوات الفرنسوية بالنيابة عن حكومته بان السفن التى تقل الجنود الفرنسوية او تتولى حراستها فى البحر المتوسط لاتحجز ولا تطارد فى الموانىء الفرنسوية بعد نزول الجنود منها وان يكون لربابنتها الحق ان يشتروا لحسابهم من الزاد والمؤونة ما يكفى لعودتهم ويتكفل الجنرال ايضا بالنيابة عن حكومته بان لايصيب هذه السفن فى عودتها الى ثغور الحلفاء ضرر ما دامت لاتحاول القيام بحركات حربية عدائية او المشاركة فيها باى وسيلة كانت

١١ – جميع الرجال الاداريين واعضاء لجنة العلوم والفنون وبالجملة كل

الاشخاص الملحقين بالجيش الفرنسوى يتمتعون بالمزايا الممنوحة فى هذه المعاهدة لرجال الجيش

ولرجال الادارة واعضاء لجنة العلوم ان ياخذوا معهم الاوراق المتعلقة بوظائفهم واعمالهم واوراقهم الخاصة والاشياء الاخرى التى تتعلق بهم

١٢ – يحق لاى كان من سكان مصر على اختلاف اجناسهم اذا رغب اللحاق بالجيش الفرنسوى فى رحيله ان يرحل معه ولا يجوز بعد رحيله ان تؤذى عائلته او تصادر املاكه

١٣ – لا يضار احد من سكان مصر من اى دين كان ولا يؤذى فى شخصه ولا فى ماله بسبب علاقته اثناء الاحتلال الفرنسوى بالسلطات الفرنسوية مادام يخضع بعد الآن لقوانين البلاد

١٤ – يبقى المرضى الذين لا يستطيعون السفر فى مستشفى يتولى علاجهم اطباء من الفرنسويين او من مواطنيهم الى ان يتم شفاؤهم فيرسلون الى فرنسا طبقا للاحكام التى تسرى على الجنود وعلى قواد الحلفاء ان يقدموا لهم حاجتهم فى المستشفى وعلى الحكومة الفرنسوية ان تدفع ثمن تلك الحاجات

١٥ – عند تسليم المواقع والقلاع التى يجب تسليمها طبقا لهذه المعاهدة يعين مندوبون لتسليم المدافع والذخائر والاوراق والمحفوظات والرسوم وغير ذلك من الاشياء والمنقولات التى يجب على الفرنسويين تركها للحلفاء

١٦ – يرسل قائد القوات البحرية للمتحالفين سفينة فى اقرب وقت الى طولون تقل ضابطا ومندوبا من الجيش الفرنسوى لابلاغ الحكومة الفرنسوية نص هذه المعاهدة

١٧ – يحسم ما قد ينشأ من خلاف فى تطبيق هذه المعاهدة بالطرق الودية على يد مندوبين يعينون لهذا الغرض من الجانبين

١٨ – يفرج فورا بعد اقرار هذه المعاهدة عن الاسرى الانكليز والعثمانيين

المعتقلين فى القاهرة وعلى قواد الحلفاء ان يفرجوا ايضا عن الاسرى الفرنسويين فى معسكراتهم

١٩ – يتبادل الحلفاء والفرنسويون الرهائن لضمان تنفيذ هذه المعاهـدة من الجانبين وتكون الرهائن من ضباط الطرفين متساوين فى الرتبة و يطلق سراح الرهائن بمجرد وصول الجنود الفرنسوية الى موانى فرنسا

٢٠ – يبلغ احـد الضباط الفرنسويين هـذه المعاهـدة الى الجنرال منو فى الاسكندرية ولهذا الاخير ان يقبلها بالاضافة الى الجنود الفرنسويين ومن يلحق بهم ممن تحت امرته برا و بحرا فى تلك المدينـة ، وعليه فى حالة القبول ان يبلغ ذلك الى قائد القوات البريطانية المرابطة امام الاسكندرية فى مدة اليومين التاليين لتبليغه نص المعاهدة

٢١ – يتبادل قواد الفريقين التصديق على هذه المعاهدة فى مدة ٢٤ ساعة بعد التوقيع عليها

حرر من هذه المعاهدة اربع نسخ فى المكان الذى حصلت فيه المفاوضات بين مندوبى الفريقين ظهر يوم ٢٧ يونيو سنة ١٨٠١ الموافق ١٦ صفر سنة ١٢١٦ هـ

التوقيع

هوب : بريجادير جنرال . عثمان بك وكيل الصدر الاعظم . اسحاق بك وكيل قيودان باشا . دنزلو : قائد لواء . موران : قائد لواء . تارير : كولونيل

نوافق ونصدق على هذه المعاهدة فى ٢٨ منه

بليار قائد فرقة

نوافق : هلى هتشنسون القائد العام للجيش الانـكليزى . نوافق بالنيابة عن اللورد كيت : ستفنس قائد البحرية الملـكية

صدقنا على هذه المعاهدة : الحاج يوسف ضيا . حسين باشا قبودان

ولهذه المعاهدة ملحق هذا نصه :

١ – ان مدافع الميدان التى يسوغ للجيش الفرنسوى تحت امرة الجنرال بليار

ان ينقلها معه فى انسحابه من القاهرة هى مدفعان من مدافع الميدان لكل طابور ومدفع لكل سرية وما يتبعها من العربات والذخيرة

٢ - من المتفق عليه ايضا ان الجنود الفرنسويين الذين يركبون سفنا حربية من سفن الحلفاء يودعون اسلحتهم وذخيرتهم فى الاماكن الخاصة بها على ظهر تلك السفينة وتظل تحت رقابة ربانها ثم تسلم للجنود الفرنسويين عند نزولهم من السفن فى الموانى الفرنسوية . اما الجنود الذين يركبون سفنا غير حربية وغير مسلحة فيحتفظون باسلحتهم وذخائرهم مدة سفرهم ويكونون تحت رقابة ضباطهم

٣ - تنتقل زوجة الجنرال منو وابنه وياوره من القاهرة الى الاسكندرية بطريق النيل فى سفينة يعدها الحلفاء لهذه الغاية وترسل معهم امتعة الجنرال

٤ - يكون لزوجات بعض الضباط والجنود الفرنسويين المرابطين فى الاسكندرية حرية الانتقال الكاملة للالتحاق بازواجهن وتعد لهن وسائل الانتقال اللازمة وفى حالة عدم قبولهن فى الاسكندرية ينقلن الى القاهرة عند سفر الجيش الفرنسوى ويعطين المؤنة الكافية ويخولن المزايا المبينة فى هذه المعاهدة وتتبع فى ذلك لوائح البحرية البريطانية

٦ - الفرنسويات من نساء ضباط وجنود الجيش الفرنسوى او من نساء الموظفين الفرنسويين الملحقين بهذا الجيش ، ينتقلن مع ازواجهم الى فرنسا ويعطين المؤونة الكافية ويخولن المزايا المبينة فى هذه المعاهدة وتتبع فى ذلك لوائح البحرية البريطانية

٧ - تنقل المنقولات والامتعة لرجال الحامية الفرنسوية فى الاسكندرية من القاهرة الى رشيد وتودع فيها او ترسل اذا امكن الى فرنسا

٨ - لمدير الايرادات العامة للجيش الفرنسوى ان ينتقل الى الاسكندرية او يرسل اليها مندوبا عنه ويعطى كل التسهيلات الممكنة لهذا الغرض

٩ - اذا كان من بين الرهائن التى تعطى من الجانبين ضباط من الجيش البرى

فلقواد الجيوش الثلاثة ان يستبدلوا بهم عند نزول الجيش الفرنسوى الى السفن ضباطا بحريين من رتبتهم

٩ ـ الخيل والجمال التى يتركها جيش الجنرال بليار فى مصر تسلم حين الجلاء الى مندو بين يعينهم قواد الحلفاء

١٠ ـ المتفق عليه ان الحصون تسلم بحالتها ومن دون ان يمسها هدم او تخريب ويلفت نظر الضباط والمهندسين الى مابها من الغام

حرر فى معسكر المفاوضات يوم ٢٩ يونيو

الاسكندرية تستسلم

على هذا المنوال انتهى الاحتلال الفرنسوى فى القاهرة وغادرها الجيش الى رشيد يوم ١٤ يوليو وابى الجنرال منو قائد الاسكندرية التسليم وتحصن وراء اسوارها ينتظر الفرج ، وكان للانكليز قوة حول الحصون تحاصرها وقد قطعت كل اتصال بينها و بين الخارج

ولما ارتاح بال الحلفاء من جهة القاهرة التفتوا الى الاسكندرية وكانت لاتزال محصورة وكان اهلها يعانون اشد الضيق ومثل ذلك الحامية الفرنسوية وكان الجنرال منو ينادى بانه لايسلم و يتهم الجنرال بليار بالجبن والضعف فسار اليه هتشنستون وحشد قواته حولها وصمم على احتلالها واخراج الفرنسويين منها وفى يوم ٢٢ اغسطس تم للانكليز احتلال قلعة العجمى وساحلها فدخلت بذلك السفن البريطانية الى ميناء الاسكندرية الغربى و بذلك احكم الحصار بحرا ثم تقدم الجنرال كوت فاستولى على طابية القمرية (غرب القبارى) بعد قتال عنيف

واشتد الضيق على الفرنسويين الذين فى الاسكندرية ، وكانوا يعرفون انهم يحاربون حربا عقيمة لا تجديهم ولا تنفعهم فاجمعوا امرهم على مفاتحة الجنرال منو ومطالبته بالتسليم وانهاء الحرب وانتدبوا الجنرال رامبون لهذه الغاية فقابله يوم ٢٧ اغسطس و بسط له الحالة واطلعه على رأى اخوانه وزملائه فاقره وارسل يوم ٢٧ منه

اثنين من ياورانه الى الجنرال هتشنسون يطلب وقف القتال لمدة ثلاثة ايام يعد فى خلالها طلب التسليم فاجابه الى اقتراحه واوقف القتال فورا

ودعا الجنرال منو القواد وكبار الضباط الى مجلس حربى عقده برئاسته يوم ٢٨ منه فاصدر قرارا بالاتفاق تضمن ان الحالة فى الاسكندرية لاتسمح باستمرار الدفاع لان نسبة الحامية الى القوات التى تحاصرها كنسبة واحد الى عشرة ولان الحلفاء يحاصرون المدينة بحرا وبرا ولهم فى البحر اربعون بارجة حربية مخصصة للحصار فضلا عن ان الامراض فتكت بالحامية ونفدت الاقوات من المدينة وانقطع ورود الماء العذب اليها وناط المجلس بالجنرال منو « مفاوضة قواد جيوش الحلفاء على قاعدة جلاء الجيش الفرنسوى عن الاسكندرية وعلى ان تكون الشروط مشرفة لرجال الجيش والملحقين به »

وعهد المجلس الى الجنرالات رامبون وفريان وسونجى وسامنبون ودلجورج وضع شروط الجلاء على ان تعرض عليه لينظر فيها فوضعوها وعرضوها على المجلس فاختلف القواد بشأنها

وتهدد الجنرال هتشنسون باستئناف الزحف على المدينة لان شروط التسليم لم تصل اليه فى الموعد المضروب واخيرا قبل مد اجل الهدنة حتى صباح ٣٠ منه وفى الموعد المحدد ارسل الجنرال منو الشروط التى يطلبها فتسلمها الانكليز ودرسوها

وفى يوم ٣١ منه تم الاتفاق نهائيا على شروط الجلاء وهى مماثلة للشروط التى وردت فى اتفاق القاهرة ولذلك امسكنا عن نشرها بنصها ، وتقضى هذه المعاهدة بان ينسحب الفرنسويون من المدينة وقلاعها وملحقاتها فى خلال ١٠ ايام من بعد التوقيع على الاتفاق وبان يسلموا سفنهم وبان تنقل جنودهم واسلحتهم وعشرة مدافع من مدافعهم الى فرنسا سفن الحلفاء وان يسلموا باقى مدافعهم وذخيرتهم الى الحلفاء وان يسلم اعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون جميع الآثار والمجاميع والخرط والرسوم والمخطوطات التى جمعوها فى مصر الى قواد الحلفاء . وفى يوم ٢ سبتمبر شرع

الفرنسويون بتسليم المدينة ثم جلوا تدريجيا وكان الجنرال منو آخرهم فسافر يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٠١

و بلغ عدد الفرنسويين الذين سافروا من الاسكندرية ٧٢٠٠ جندى و١٥٠٠ بحار و١٤٠٠ مريض و ٦٨٠ من الملكيين ومجموع ذلك ١٠٧٨٠ شخصا يضاف اليهم الذين سافروا من القاهرة وعددهم ١٣ الفا فيبلغ المجموع العام ٢٣٧٧٠ الفا وهم جميع الذين عادوا الى فرنسا من الحملة الكبيرة التى ارسلت الى وادى النيل

١١

نظرة فى اعمال الحملة الفرنسوية

تلك كانت خاتمة الاحتلال الفرنسوى لمصر وقد استمر ثلاث سنوات وثلاثة اشهر و١٦ يوما (من ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ وهو اليوم الذى استولوا فيه على الاسكندرية الى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٠١ وفيه غادرها الجنرال منو الى فرنسا)

والباحثون فى خلاف من امر هذا الاحتلال فبعضهم يراه نقمة وشؤما على القطر المصرى ويراه آخرون خيرا وبركة ويقولون انه فتح عيون المصريين ورفع مستواهم الادبى والاجتماعى واشركهم فى حكم بلادهم وانشأ لهم نظاما نيابيا هو اول نظام من نوعه فى الشرق العربى كما ادخل اليها كثيرا من الاصطلاحات الادارية والمالية

ويلوح لنا ان الحقيقة هى بين هؤلاء وهؤلاء فالامر الذى لاريب فيه ان المصريين لقوا عنتا وارهاقا من الحكم الفرنسوى لم يعهدوه من حكامهم السابقين ولولا ذلك لما حاربوه وقاتلوه واشهروا السلاح فى وجهه ولما وقعت تلك المعارك الدموية ولما شبت تلك الثورات ولم يخمد اوارها تقريبا فى الوجهين القبلى والبحرى مدة الاحتلال

لقد كانت عدة الجيش الفرنسوى حينما بلغ الاسكندرية يوم اول يوليو ٣٦٨٢٦ مقاتل يضاف اليهم ٨٩٠٠ بحار و١٤٦ عالما ومجموع ذلك ٤٥٨٧٢ فرنسويا وكان مجموع من غادر القطر المصرى من هؤلاء ٢٣٧٨٠ ومعنى ذلك ان الفرنسويين فقدوا ٢٢ الفا وثمانية وثمانين رجلا من رجالهم بينهم عدد غير قليل من القواد والعلماء وكبار الضباط وهو عدد لايستهان به وكذلك فقدوا اسطولهم وكان يعادل

الاسطول البريطانى فى القوة وينافسه على سيادة البحار وقد تمت السيادة للانكليز من ذلك اليوم

وحرق الفرنسويون ايضا معظم مدن الوجه البحرى وقراه وفعلوا مثل ذلك بمدن الوجه القبلى وقراه مثل جهينة و بنى عديات وجرجا وغيرها كما دمر جانبا من احياء القاهرة . ولا يسع من يقرأ التفاصيل التى نشرناها الا التسليم بان ممثلى الاحتلال الفرنسوى قسوا كثيرا فى معاملة المصريين ظنا منهم انهم يرعبونهم ويحملونهم على الخضوع والامتثال فاثبتت الحوادث أنهم اخطأوا فيما حسبوه وقدروه فكانوا كلما اطفأوا ثورة شبت غيرها وكلما قتلوا زعيما خلفه غيره ، وهنالك اخبار ثورات عديدة وقعت فى الوجه البحرى بين ثورتى القاهرة الاولى والثانية وفى اثناء الثانية اكتفينا بالاشارة اليها هنا تجنبا للاطالة ولانها لاتختلف عن الثورات الاخرى فى شيء ، ومع ان الفرنسويين كانوا ينادون فى بدء احتلالهم بانهم ماجاءوا الا لانقاذ مصر من جور المماليك فانهم لم يحجموا عن السعى للتقرب منهم والتفاهم معهم ولا ادل على ذلك من ايفاد نابوليون نفسه مندوبا خاصا الى مراد بك (زعيم المماليك) فى شهر اغسطس سنة ١٧٩٨ اى غداة دخوله القاهرة يعرض عليه مشروعا للاتفاق (انظر ص ٤٩) فابى هذا قبول ماعرض عليه وواصل القتال والنضال

على ان مافات نابليون ادراكه من هذه الناحية تم بعد ذلك للجنرال كليبر فقد وقع فى القاهرة يوم ٥ ابريل سنة ١٨٠١ اتفاق بين الجنرال داماس من جهة و بين عثمان بك البرديسى من جهة اخرى فى عشر مواد خلاصته اعتراف القائد الفرنسوى العام بمراد بك اميرا وحاكما للوجه القبلى وتخويله السلطة على تلك البلاد ابتداء من بلصفورة بمديرية جرجا الى اسوان على ان يؤدى فى مقابل ذلك الخراج الواجب دفعه لصاحب الولاية على مصر وهو ٢٥٠ كيسا (الكيس ٥٠٠ قرش) علاوة على ١٥ الف اردب قمح و٢٠ الف اردب شعير وحبوب ويكون لمراد بك دخل جمركى القصير واسنا

ويقضى هـذا الاتفاق ايضا بان يكون للجيش الفرنسوى حق احتلال ثغر القصير وان يكون لمراد بك الحق فى ان يبقى فصيلة من المماليك فيها ، وعليه ان يدفع نفقات الحامية الفرنسوية فى القصير وعلى كل من الفريقين المتعاقدين ان يسلم للآخر من يلتجأ الى منطقته من جنود الفريق الآخر ، ولا يجوز لاحـدهما قبول الفلاحـين الذين يمتنعون عن دفع الضرائب المستحقة عليهم للفريق الآخر

ويقيم مراد بك فى بندر جرجا ، ويوفد احد انباعه الى القاهرة مندوبا يقيم لدى القائد العام ، ويضمن القائد العام لمراد بك حق التمتع بدخل المنطقة التى يحكمها ويتعهد بحمايته فى حالة مهاجمته ، واذا حصل هجوم على المنطقة التى يحتلها الجيش الفرنسوى فعلى مراد بك ان يرسل اليها قوة من جنوده توازى على الاكثر نصف قواته . ويتعهد القائد العام بان لايقبل اى انفاق فيه مساس بالمزايا المخولة لمراد بك فى هـذا العقد . وعليه ان يحيط به الحكومـة الفرنسوية لتقيم له وزنا فى انفاقاتهـا الخاصة بمصر

ذلك هو مضمون الاتفاق الذى عقده الفرنسويون مع مراد بك ، وهو الذى اعلنوا انهم ماجاءوا الا لمحاربته ، وللقضاء على سلطانه واراحـة البلاد من شروره فهـم لم يترددوا فى الاعتراف بسلطانه عـلى الجزء الجنوبى من مصر ويتألف من ثلاث مديريات وهى مـديرية جرجا وقنـا واسوان وغنى عن البيان ان نقض الفرنسويين لوعودهم وانباعهـم سياسة تناقضها أثر فى نفوس المصريين وجعلهـم ينفرون منهم

وليس فى الامكان وضع بيان صحيح لقتلى المصريين وجرحاهم فى هـذه المعارك وقـد وضعنا احصاء تقريبيا اجمـاليا لعـدد القتـلى استخلصناه مما ورد فى التقارير والـكتب الفرنسوية والرسمية والـكتب العربيـة فبلغ نحو ٢٥ الفا بين قتيـل وجريح اما الغرامات التى فرضها الفرنسويون وجبوها فى خلال الثورات والاضطرابات فتقـدر بنحو ٢٢ مليون فرنك أو مليون جنيـه مصرى وتقـدر عدد القرى التى أحرقوها بالعشرات

ونحن فى غنى عن القول ان جيشا يعمل هـذه الاعمال فى قطر من الاقطار لا ينال محبة جميع سكانه وعطفهم ، ولا يكون موضع ثقتهم

تلك هى احدى صور الاحتلال الفرنسوى لمصر ، وقد حاول بعض كتابهـم تبرير بعض تصرفات قواد الحملة فاخفقوا وعجزوا فالحقائق لاتتبدل ولا تتغير مهما احيطت بضروب الطلاء والتمويه

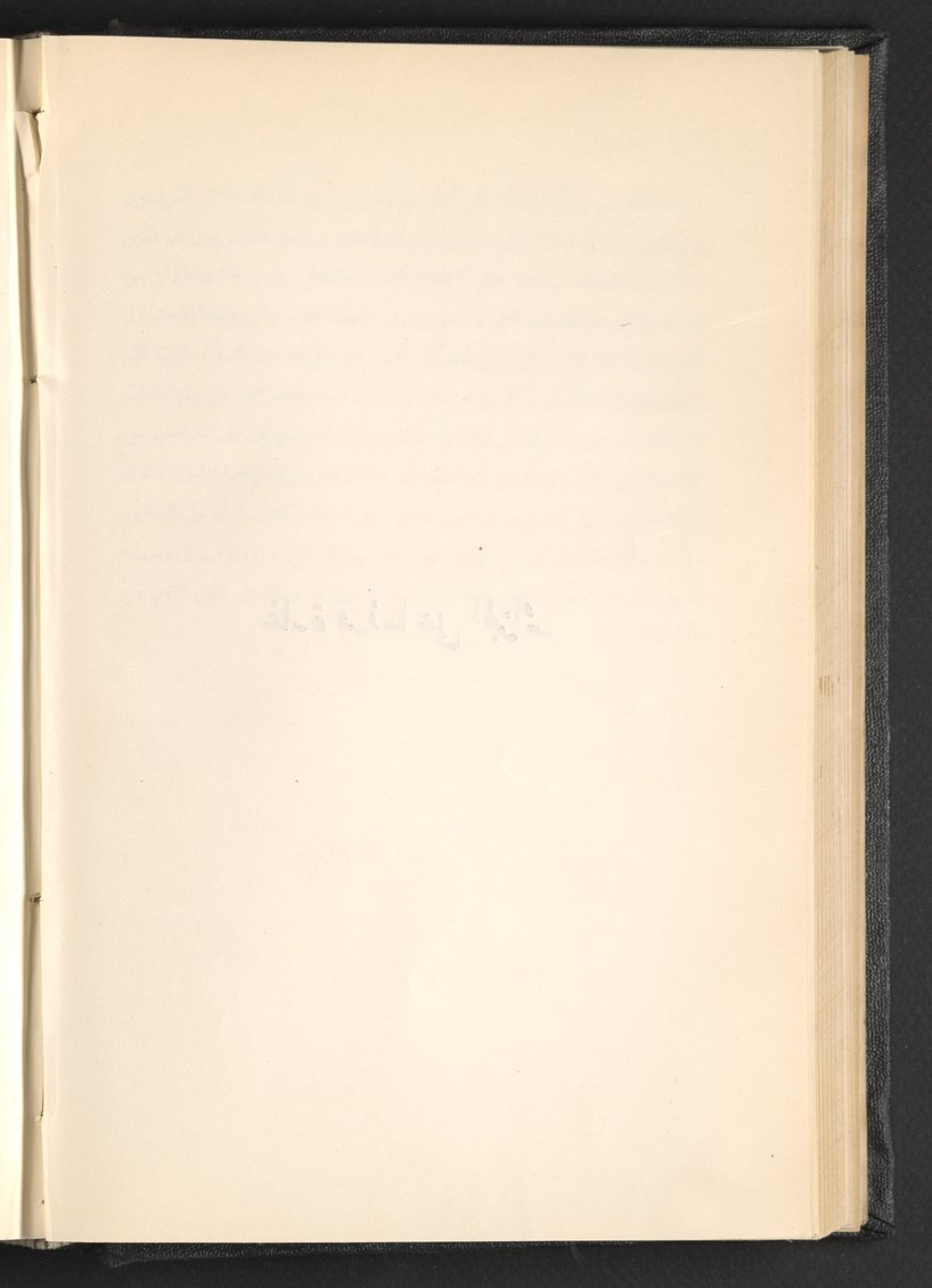
اما الصورة الزاهية لهـذا الاحتلال فتتمثل فى المشروعات العلمية والهندسـية والفنية التى باشرها العلماء ورجال الفن مدة الاحتلال فهم اول من ادخل الطباعة الى مصر وانشأ المستشفيات على الطراز الحديث ، كما حملوا اليها كثيرا من الانظمة الجديدة التى لم يألفها المصريون وشقوا الطريق وغرسوا الاشجار على جانبيها و بالاجمال فقد كانت الحملة الفرنسوية الى مصر طليعة المدنية الاوربيـة و بريدها فحملت اليها تقاليد الاوربيـين وطرق معيشتهم واساليب حياتهـم وتفـكيرهم وعلمهم وفنهـم ونبهت المصريين الى اشياء ما كانوا يعرفونها وكشفت لهم عن حقائق كثيرة

ولهذه الحمـلة مزية سلبية اخرى لايمكن الاستهانة بها فقد انشأت من الشعب المصرى امة يقظة ابية ، تأبى الهوان وتعـاف الذل وتبذل ارواحها واموالها فى الدفاع عن الـكرامة والذمار وتنكل بمن يحاول الاعتداء عليها او يسعى لغمط حقوقها ، ولا كالمصائب والازمات فى تـكوين الامم وانشائهـا فهى تصهرها صهرا وتخلقها خلقا جـديدا

لقـد كان الفرنسويون يعتقدون قبل ان يهبطوا مصر ان فيها شعبا وديعا مسالما ، يسـتميلونه بعذب القول ومعسول المواعيـد ، فينقاد اليهم فينفـذوا ما يريدون تنفيـذه من مشروعات ، ولـكنهم لم يلبثوا ان ادركوا انهـم اخطأوا الحساب والتقدير فقـد نهض هـذا الشعب للدفاع عن كرامته ، وكانوا كلما زادوه اضطهادا وعسفا ، زادهم ثباتا ، ومضاء واقداما واستبسالا ، ولا ريب ان طول زمن النضال وامتداده ، نفخ فى الشعب المصرى روحا جـديدة ، وجعله يأنف الذل و يأبى الخضوع للتدابير التى حاول الترك والمماليك تطبيقها فى بلاده ، بعد جلاء الفرنسويين

ويراد بها الرجوع الى الاساليب التى كانوا يسيرون عليها قبل الاحتلال الفرنسوى فثار عليهم وقاتلهم وانشأ حكومته الجديدة برئاسة محمد على باشا فالمصريون هم الذين اختاروه لهذا المنصب رغم مقاومة الباب العالى وعناده ، ولم ير بدا فى النهاية من الاستجابة لهم فكان هذا الاقرار احدى ثمرات النهضة القومية التى ولدها الاحتلال الفرنسوى ، كما كانت الحركة التى تحركها محمد على نفسه ، واحتلاله البلاد التى استولى عليها فى الشرق والجنوب من ثمراتها ايضا ، فقد شهد محمد على باشا بالذات الاحتلال الفرنسوى فى اواخر عهده واشترك فى قتال الفرنسويين وفى اخراجهم من البلاد ودرس نظامهم العسكرى واساليبهم فى تعبئة الجيوش وتسليحها فطبق ذلك فى دولته الجديدة على شاطىء وادى النيل فتغلب على اعدائه وكاد يستولى على البسفور لولا معارضة معظم دول اوربا الكبرى وفى مقدمتهم الانكليز ، ووقوفهم فى وجهه وحرموه من ثمرة انتصاره باسم حفظ التوازن فى الشرق مما فصلناه فى الجزء الاول من هذا الكتاب

غارة فرنسا على الجزائر



١

الفرنسيون فى الجزائر

لم يفل الفشل الذى لحق بحملة نابوليون على مصر من عزيمة الفرنسويين ولم يحملهم على الكف عن التحرش بالعالم العربى ، فقد ارسلوا فى سنة ١٨٣٠ اى بعد رجوع الحملة من مصر بتسعة وعشرين سنة حملة الى الجزائر فافتتحوها واتخذوها قاعدة للتبسط فى افريقية الشمالية فاستولوا على تونس فالمغرب الاقصى ثم ضموا اليها افريقيــة الوسطى والغربية والاستوائية فتكونت من ذلك الامبراطورية الفرنسوية فى افريقية وتعد اعظم الامبراطوريات الاستعمارية فى تلك القارة فلا يعادلها فى اتساع رقعتها وكثرة عدد سكانها وجودة موقعها معادل

ولقى الفرنسويون فى احتــلال الجزائر مالقوه فى احتلال مصر من مقاومة عنيفة نظمها اهل البـلاد الذين نهضوا على قدم وساق لقتالهم ولئن تم للدولة العثمانية اخراج الفرنسويين من مصر بمساعدة الانكليز ، الذين ارسلوا اسطولهم وجيشهم الى وادى النيل ، فانهم لم يحركوا ساكنا لبعد الجزائر عن طريق الهند ولان فرنسا كانت على ولاء معهم فقد انضمت اليهم واشتركت معهم فى تدمير الاسطولين العثمانى والمصرى فى نافارين سنة ١٨٢٧ اى بعد وقوع الجفاء بينها و بين حكومة الجزائر

وحارب الجزائريون حرب ابطال واستبسلوا فى الكفاح والنضال ولم يسلموا الا بعد ما تقطعت بهم الاسـباب وقلب لهم جيرانهم المراكشيون ظهر المجن ونهضوا لقتالهم حــين التجائهم الى اراضــيهم فاحرجوا مراكزهم واضطروهم الى الاستسلام اما الدولة العثمانية وكانت سـيدة الجزائر ، فلم تحرك ساكنا وصمت آذانها عن سماع اصوات الاستغاثة التى كانت تتصاعد من افواه الجزائريين وهنالك من يعذرها و يقول

انها كانت يومئذ مشغولة بقتال محمد على باشا ومقاومة حركته ، وكان الفرنسويون يشجعونه و يشدون ازره

واتبع الفرنسويون فى محاربة الوطنيين الجزائريين الذين وقفوا فى وجههم نفس الاساليب التى اتبعوها فى مصر فاسرفوا فى استعمال الشدة وفى فرض الغرامات لاعتقادهم ان هذه هى الطريقة المثلى لاخضاع البلاد وللقضاء على الحركة الوطنية التى بعثتها غارتهم وتم لهم فى النهاية ما ارادوه لوفرة ثروتهم وكثرة مصادرهم بعد قتال دام نحو عشرين سنة وبسطوا نفوذهم عليه ولا يزالون يحتلونه حتى الآن ، عاملين على ادماجه فى الجامعة الفرنسوية وانتزاعه من حضن الجامعة العربية

٢

اقليم الجزائر

يقع اقليم الجزائر فى مركز متوسط بين تونس و بين المغرب الاقصى فالاولى تحده من الشرق والثانية تحده من الغرب والجنوب الغربى والصحراء من الجنوب والبحر المتوسط من الشمال

والجزائر احد الاقاليم التى افتتحها العرب فى افريقية بعد الاسلام ، وكانت تتبع القيروان وكانوا يسمونها « المغرب الاوسط » تمييزا لها عن المغرب الاقصى وكانت مدينة تلمسان وهى فى غربيها تعد منتهى حدود المغرب الاوسط وقد خضع فى معظم الادوار التاريخية للحكومات التى قامت فى تونس

واستولى الترك على الجزائر فى جملة الاقطار العربية التى استولوا عليها فى افريقية الشمالية فقد هاجم خير الدين بار باروس ثغر شرشيل الجزائرى فافتتحه كما استولى اخوه اوروج على تلمسان ، ثم فتح مدينة تلمسان سنة ١٥٢٥ (٩٣٢ هـ) فدخلت البلاد من ذلك التاريخ رسميا فى سلطان العثمانيين وعين السلطان سليمان خير الدين باشا اميرا لامرائها « بكار بكى »

واهمل العثمانيون بعد ذلك هذا القطر البعيد عن عاصمتهم فتعاقبت عليه حكومات اقطاعية كانت آخرها حكومة « الدايات » التى اغار الفرنسويون على البلاد فى زمنها فاسقطوها وقضوا عليها

٣

نشأة الخلاف بين فرنسا والجزائر

تعد الجزائر اقرب بلاد العرب فى افريقية الشمالية الى فرنسا فالمسافة بين مرسليا والجزائر لاتزيد عن ٤٠٠ ميل بحرى تقطعها البواخر فى مدة ٢٤ ساعة وقد انشأ هذا القرب صلات اقتصادية وتجارية وسياسية بين البلادين فكان الفرنسويون يستوردون بعض محصولات الجزائر ولا سيما الحبوب وغيرها ، وكانت فى الجزائر ايضا جالية فرنسوية غير قليلة يزاول رجالها التجارة ، كما كان فى عاصمتها قنصل رسمى يمثل فرنسا ، وقد جرى الفرنسيس فى آخر الامر على اختياره من الضباط العسكريين وكانت هنالك معاهدات واتفاقات بين الحكومتين ومما قضى به العرف ان يحمل القنصل الفرنسوى الجديد الى الباى (لقب حاكم الجزائر) هدايا ثمينة يقدمها اليه باسم حكومته عند تعيينه

واضطربت الحالة الاقتصادية فى فرنسا وساءت كثيرا فى اوائل القرن التاسع عشر بسبب حروب نابوليون والاضطرابات الداخلية فعجزت حكومة باريس عن دفع ما تراكم قبلها من مال لحكومة الجزائر ويقدر بملايين من الفرنكات وهو ثمن حبوب باعتها اياها

وارسل الوالى حسين باشا يطالب باريس بدفع هذه الاموال ، وذلك بعد ما افلت شمس نابوليون واشرقت شمس الملكية وجاء سليل البوربون فجلس على العرش ، فعقد بين الحكومتين اتفاق جديد سنة ١٨٠٩ يقضى بان تدفع باريس للجزائر سبعة ملايين من الفرنكات على يد وكيليها يعقوب كوهين بكرى وميخائيل ابى زناك اليهوديين وان يكون الدفع فى اول سنة ١٨٢٠

وطلب تجار مرسيليا من حكومتهم ان تخصم من اصل هذا المبلغ مليونين

ونصف مليون فرنك قالوا انهـا دين لهم عند تجار الجزائر فخصمته عند الاستحقاق وابقته فى خزينتها وامرت بان يترافع تجار فرنسا مع غرمائهم امام مجلس تجارة باريس فاذا حكم لهم قبضوا المبلغ والا اعادته الى اصحابه

وانـكر الداى حسين باشا على حكومة باريس هذا التصرف وقال انه مخالف للاتفاق التجارى المعقود وطلب ان يدفع الدين كاملا بحسب الاتفاق وان تجرى المرافعة بين تجار مرسيليا وتجار الجزائر فى الجزائر ـ لافى باريس ـ عملا بالمعـاهدات وكتب الى الحـكومة الفرنسوية بذلك والح فى اجابة طلباته فرفضته ولما طال الاخذ والرد بين الفريقين كتب البـاى الى ملك فرنسا يومئذ وهو لويس السابع عشر يرجوه دفع هذا المبلغ واحترام العقود المعقودة استبقاء لصلات الصداقة القائمة بين الامتين

و زار قنصل فرنسا فى الجزائر وهو يومئذ الجـنرال دوفال البـاى مهنئا بعيد الفطر (ابريل سنة ١٨٢٧) ففاتحه بامر المـال المحجوز وشكا له من ممـاطلة حكومته وقال انه كتب الى الملك فلم يجبه خلافا لمـا تقضى به الاصول ، فرد عليه بانه ليس من العادة ان يجيب الملك من هم دونه ، بدون وساطة ، فشم البـاى رائحة التعريض فى هذه الجملة فغضب ولطم القنصل على وجهه بمروحة كانت فى يده

وطير القنصل الخـبر الى باريس ، فاصدرت امرا اليه بالرجوع فورا مع الفرنسويين النازلين بالجزائر فعادوا كما اصدرت امرا الى الاسطول الفرنسوى بالسفر اليها

٤

الاستيلاء على مدينة الجزائر

غادر الاسطول الفرنسوى بقيادة الامـيرال كوليث طولون الى الجزائر لمهاجمتها فوقفت الحصون والقلاع الجزائرية امامه وقاومته وصدت هجماته وكان الاميرال نفسـه من ضحايا المعارك التى دارت

ورأت الحكومة الفرنسوية ان لاتكتفى بالقوة البحرية فقررت ارسال قوة برية فغادرت الحملة الاولى طولون يوم ١٤ يونيو سنة ١٨٣٠ الى الجزائر فـكان ذلك خاتمة الدور الاول وقد امتد ثلاث سنوات (١٨٢٧ - ١٨٣٠) وابتدأ دو ر جديد هو دور الاحتلال العسكرى وكان اطول واصعب

ولم يحرك الترك ساكنا فى خلال الدور الاول ولم ينهضوا لامداد الجزائر و يلوح لنا ان مصدر ذلك هو فقدهم اسطولهم فى معركة نافارين فقد حطمته اساطيل الحلفاء وفى جملتها اسطول فرنسا مع الاسطول المصرى فـكان ذلك من جمـلة العوامل التى شجعت فرنسا على غزو الجزائر وسهلت مهمتها وساعدتها على فتحها وامتلاكها يضاف الى ذلك اتفاق انـكلترا وفرنسا فى تلك الايام على اتباع خطة واحدة ازاء الترك وقيام حكومة ملـكية فى باريس مما جعل الانـكليز يتغاضون عن الغارة الفرنسوية و يغضون الطرف عنها

ولا بد لنـا من ايراد ما رواه بعض المؤرخين الجزائريين وهو ان الحـكومة الفرنسوية سعت فى سنة ١٨٢٩ اى قبل ارسال الحملة البرية ، وكان مركزها الداخلى حرجا وكانت ريح الاضطرابات تعصف فى سماء بلادها للتفاهـم مع الجزائريين بشرط

ان يعتذر الباى عما حدث ، فلا تتورط فى حرب خارجية لاتعرف ماتنتهى اليه ، فارسلت رسولا اسمه المسيو دى لابر فقابل الباى فى العقبة ، وكان قد انتقل اليها بعد وقوع النزاع باهله وحاشيته ورجاله وحصنها ، واقترح عليه عقد صلح مع حكومته على قاعدة تقديم الترضية اللازمة فرده ردا غير حسن و رفض الدخول فى مفاوضات معه ولما غادر هذا الجزائر خائبا ضربته المدفعية الجزائرية المنصوبة فى برج المرسى

ووسطت حكومة باريس محمد على باشا صاحب مصر عند الباى ورجته ان يقنعه بقبول الاقتراح الذى يقترحونه عليه وهو بسيط وسهل فكتب اليه كتابا ينصح له فيه بالاتفاق و يحذره من الايغال فى العداء ويصف له نتائجه الوخيمة فاجابه معلنا عزمه على مواصلة القتال فكتب الى باريس بخلاصة الجواب ، فقررت حكومتها ارسال الحملة البرية ومواصلة الحرب بشدة فكان ذلك بدء الدور الثانى

ومما لاشك فيه انه لو قبلت الحكومة الجزائرية توسط الباشا ونفذته لكان ذلك افضل لها واولى ولوقت بلادها من حروب طاحنة والظاهر انها كانت تستند الى قواها وتعتقد بعجز الفرنسويين عن التغلب عليها

بيان عن الحملة

وتألفت الحملة الى الجزائر من ٣٧٠٠ الف جندى مجهزة بمائة واثنى عشر مدفعا حملتها ٤٠٠ سفينة وابحرت تحت حماية الاسطول

وكانت القيادة العامة للحملة البرية للجنرال دى بورمونت وفى يوم ١٤ يونيو وصلت الى مرسى سيدى فرج ، قرب ثغر مدينة الجزائر فضربته بمدافعها ففرت حاميته الصغيرة وتشتتت فنزلت الى البر بدون مقاومة

ووصلت الاخبار الى الباى بوصول الحملة الفرنسوية و بنزولها الى البر فى سيدى فرج فارسل فى المدائن والقرى يدعو الناس الى الجهاد وحشد جيشه وكان يتألف من ٤٠ الف مقاتل من الانكشارية ووجه جانبا منه الى سيدى فرج للقاء الحملة

الفرنسوية وولى قيادة هـذه الحملة صهره يحيى اغا فهزمـه الفرنسويون وكانوا اكثر نظاما وافضل دربة وسلاحا

وتلقى الاغا نجدات جديدة من وهران وقسنطينة فحمل على العدو حملة صادقة يوم ٢٥ منه فهزمه وطارده حتى دخل معسكره ونصب رايته عليه ، فجمع الفرنسويون جموعهم وكروا على اعدائهم تعززهم مدفعيتهم القوية فاخرجوهم من المعسكر وردوهم وطاردوهم الى ان ادخلوهم معسكرهم فى استاوالى ، واستولوا عليه وغنموا ما فيه من ذخائر ومهمات

الاستيلاء على الجزائر

ولم يفت ما جرى فى عضد الاغا فجمع قواه وكركرة اخرى على الفرنسويين يوم ٣٠ يونيو وهو يرجو ان يزحزحهم فهزموه وتقدموا حتى حصن ابى جارية واستولوا عليه وزحفوا الى الجزائر وسلطوا عليها مدافعهم فاصابت احدى قنابلهم برج مولاى حسن حيث يخزن البارود فاضطرمت فيه النار وتطايرت حجارته فدمرت عددا من المنازل فمات كثيرون تحت الردم ووقع فى قلوب الوطنيين الخوف والرعب والهلع

اول معاهدة بين فرنسا والجزائر

وادرك الباشا انه لاقبل له بالمقاومة فارسل يطلب الامان له ولاهل بيته فامنه القائد الفرنسوى ثم دارت مفاوضات انتهت يوم ٥ يوليو سنة ١٨٣٠ الموافق ١٣ المحرم سنة ١٢٤٦ بعقد الاتفاق الآتى :

١ – تسلم كافة القلاع المحصنة بمدينة الجزائر وابواب المدينة للعساكر الفرنسوية فى صباح السادس من يوليو الساعة العاشرة

٢ – يتعهد القائد الفرنسوى العام ان يترك للباشا امواله الخاصة

٣ – يكون لحضرة الباشا الحرية فى أن يتوجه مع عائلته وامواله الى المحل الذى يرغبه وفى مدة اقامته فى مدينة الجزائر يكون هو وعائلته تحت حماية القائد العام الفرنسوى ويحرسه حرس خاص حتى سفره

٤ - يمنح القائد العمومى هذه الحماية المعطاة لحضرة الباشا لكافة قواد العساكر الجزائرية

٥ - تعطى الحرية للديانة المحمدية وللمكاتب الاهلية ولدياناتهم ولاملاكهم ولتجارتهم ولصناعتهم وان لايعارضوا فى ذلك وان نساءهم محفوظات محترمات

٦ - ان مبادلة هذه المعاهدة تكون غدا الساعة ١٠ صباحا وتدخل العساكر حصن العقبة وتقيم فى قلاع المدينة والشطوط البحرية

ودخل الفرنسويون مدينة الجزائر فى الغداء « ٦ يوليو » وانتشروا فى انحائها ورفعوا راياتهم على الاسوار والابراج بدلا من الرايات العثمانية فكان ذلك ايذانا بانقراض حكومة الدايات التركية وهى الحكومة التى عاشت ٣٣٥ سنة وكانت من اسوأ الحكومات

اما الباشا نفسه فقد غادر البلاد بعد ذلك الى ايطاليا ومنها الى الاسكندرية وتوفى فيها

مليونان من الجنيهات

وغنم الفرنسويون مليونين من الجنيهات الذهبية كانت فى خزينة الحكومة الجزائرية عدا الغنائم الاخرى

٥

الفرنسيون بين الاقدام والاحجام

عكف الفرنسويون على توطيد اقدامهم فى العاصمة بعد احتلالها فخلوا بادىء بدء الجيش الجزائرى كما جمعوا بقايا الترك من اعيان وضباط وارسلوهم الى ازمير ، ثم انشأوا حكومة جديدة وجندوا جيشا اهليا من ابناء البلاد لحماية الامن ولم يقصروا فى بذل الاموال لاستمالة القلوب

وغادر القائد العام مدينة الجزائر يوم ٢٥ يوليو الى البليدة فدخلها بدون مقاومة وذلك بالاتفاق مع ابو مرزاك التركى حاكم تيطرى وكان قد دعاه اليه ووعده بتسليم البلاد فساء ذلك ابناء جبال متيجة المحيطة بالبليدة فتداعوا الى الجهاد وجمعوا جموعهم و بيتوا الفرنسويين ليلة ٢٨ منه وفتكوا بهم وافنوا معظمهم ففر الباقون عائدين الى الجزائر وكان بين الفارين القائد العام نفسه فاضعف ذلك من نفوذ الفرنسويين واضاع هيبتهم واطمع الناس فيهم

واقترن هذا الانهزام بوقوع خلاف بين جنودهم البريين والبحريين فكان كل فريق منهم يدعى ان الفضل فى الاستيلاء على الجزائر يرجع اليه فكثرت المشاغبات والمنازعات ففقد النظام واختل. وزاد الطين بلة حدوث ثورة فى فرنسا (ثورة سنة ١٨٣٠) وسقوط الملك البار بونى ، واضمحلال شأنه وفرار انصاره ، ولما كان القائد العام اى المارشال بورمونت من هذا الحزب فقد نفر منه الجند وقلبوا له ظهر المجن ، واسرعت الحكومة الجديدة حكومة الملك لويس فيليب فاستبدلته بالجنرال كاوزيل فجاء وتسلم زمام الامر

واعادت الحكومة الجديدة وقد حلت محل الحكومة الساقطة النظر فى المسألة

الجزائرية وكانت تميـل فى بادئ الامر الى الاكتفاء بالجزائر وحدها وعـدم الايغال فى الداخلية فلا تشتبك فى حرب طويلة الاجـل ، ولان حالة بلادها الداخلية كانت مضطربة ، بيد ان سير الحوادث من جهة ورغبة رجال الجيش انفسهم فى متابعة الحرب من جهة اخرى ساقاها فى النهاية الى مواصلة القتال ، وانتهى هذا الدور ، دور التردد بصدور مرسوم ملكى يوم ٢٢ يوليو سنة ١٨٣٤ يضم الجزائر الى فرنسا وتعيين حاكم عام عليها منحوه لقب حاكم عام لفرنسا فى شمالى افريقية ، واطلقوا يده فى مواصلة الحرب

٦

الفرنسويون يواصلون القتال

بلغ الجنرال كاوزيل القائد العام الجديد الذى اختارته حكومة لويس فيليب بدلا من الجنرال دى بورمونت ـ الجزائر فى شهر اكتوبر قادما من باريس وما استقر به المقام حتى جاءته الاخبار بان ابو مزراق والى تيطرى انقض على الفرنسويين فغادر الجزائر يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٣٠ يقود قوة كبيرة الى البليدة فاقام فيها اياما ثم اتجه الى المدية حاضرة ولاية تيطرى فلاقاه ابو مزراق بجموع العرب والبربر بثنية موازية فانتصر عليه وهزمه وتقدم الى الحاضرة فقدم اهلها الطاعة فولى عليهم مصطفى بن عمر

وجاء ابو مزراق الى الجنرال مستأمنا فامنه ، ثم اعتقله وعاد به الى الجزائر ، ومر بطريقه فى البليدة فوجد القبائل المجاورة لها قد دخلتها واستأصلت الحامية الفرنسوية فلم يقف فيها

الاستيلاء على وهران

وكتب بعد عودته الى الجزائر الى حاكم قسنطينة وحاكم وهران يدعوهما الى التسليم فاجابه الاخير وهو تركى واسمه حسن باى بالايجاب بشرط ان يمنحه الامان على نفسه وولده فاجابه الى طلبه فارسل نجله الاكبر يقود سفنا حربية فدخل وهران يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٣٠ بدون مقاومة وكانت خالية تقريبا من السكان فقد غادرها اهلها الى تلمسان ومعسكر حينما عرفوا بتسليم الحاكم وقرب وصول الفرنسويين

الزحف على قسنطينة

ومزق احمد باى حاكم قسنطينة كتاب الجنرال وقتل رسوله حينما جاءه يطلب منه التسليم

فسار الاسطول الفرنسوى الى بونه (عنابة) لتأديبه فاستولى عليها بمساعدة الاهالى الذين ارادوا التخلص من حاكمهم وكان يظلمهم و يعذبهم

سياسة جديدة

وراى الجنرال كلوزيل ان يتقرب من اهل البلاد بتعيين حكام منهم ومن الترك فولى مصطفى بن عمر على المدية و بعث الى صاحب تونس حسين باشا وهو تركى ايضا ان يرسل من يوليه الحكم فاختار احد رجاله فجاء هذا الى الجزائر و بعد ما ادى يمين الامانة عينه واليا على وهران ، ثم دس الى بقايا الترك المنتشرين فى داخلية البلاد يقول انه اعتزم انشاء حكومة تركية فى الجزائر وانه سيسلمها البلاد و يجلو عنها بعد الانتهاء من انشائها ودلل لهم بتعيينه تركيا لوهران فوثقوا به و بعثوا اليه بطاعتهم ، وشاع الخبر بين العرب فوثبوا على الترك وقتلوا جانبا منهم ولجأ ترك تلمسان الى قلعة المشور

واقالت حكومة باريس الجنرال كلوزيل واستبدلته بالجنرال تريزين وعينت الجنرالى بويه حاكما على وهران ـ فتسلمها من الامير التونسى الذى عاد الى بلاده

وجاء هذا التعيين قاضيا على فكرة تسليم البلاد للترك فعاد الذين بقوا من هؤلاء الى الصفوف وساحتهم الامة

اضطرابات جديدة

وعلم ابن ابى مزراق ان الفرنسويين ارسلوا والده ، وهو الذى اعتقله الجنرال كلوزيل بعد ما امنه ، الى الاسكندرية فجمع انصاره وهاجم المدية وحاصرها .

فارسل الجنرال تريزين قوة لانقاذ حاميتها فصمد لهـا ابن ابى مزراق وحاول منعها من الدخول فلم يفلح وتم لها انقاذ الحامية وعادت بها الى الجزائر فلحق بها وقتل جانبا من رجالها

وعاد هذا الى المدية فاستولى عليها واستقر فيها

وجمع الجنرال تريزين بعد هذه الاحداث اعيان الجزائر وكلفهم اختيار حاكم للداخلية فاختاروا السيد محي الدين بن السيد على مبارك فولاه ولقبة « آغة العرب » فخرج الى قرية القليعة على مسافة قريبة من الجزائر

وقبـل ان يستقر امره ظهر زعيم اسمه الحاج على بن السعدى نهض فى قبائل زواوه يدعو الى الجهاد فاجتمعت كلمة الناس عليه فانحدر من الجبال الى سهل متيجة ثم زحف الى الجزائر وخيم فى وادى الـكرمة على بعـد ١٠ كيلو مترات منها وكان السيد محي الدين مبارك اول من انضم اليه بجموعه ووالاه

وخرج الجنرال تريزين للقاء القادمين فنازلوه فتغلب عليهم ثم كروا عليه كرة صادقة فارتد الى الجزائر فطاردوه الى ان دخـلوها وغنموا غنائم كثيرة ثم عادوا الى معسكرهم فى وادى الـكرمة

واستأنف رجال زواوه الهجوم على مدينة الجزائر و بلغوا فى تقدمهم باب عزون احد ابوابها

الهدنة الاولى

و بذل الجنرال تريزين بعـد ذلك جهدا كبيرا لاستمالة شيوخ القبائل وزعمائها وسعى لعقد هدنة بينه و بينهم فعقدت على يد السيد محي الدين مبارك (آغة العرب) وتقضى بوقف الحرب والامتناع عن العدوان وان يحتفظ كل فريق بمـا فى يده . فهدأت الاحوال

سياسة جديدة

وعزلت حكومة باريس الجنرال تريزين وعينت الجنرال الدوك روفيفو بدلا منه فجاء هذا يقود حملة جديدة عدد رجالها ١٦ الف مقاتل لاخضاع القبائل وادخالها فى حظيرة الطاعة

نقض الهدنة

ووقع خلاف فى تلك الآونة بين فرحات شيخ بسكره وما يليها من ايالة قسنطينة و بين صاحبها الحاج احمد باى فارسل الاول وفدا الى الفرنسويين يعرض طاعته فاستقبله الجنرال الجديد بالحفاوة وارسل معه هدايا ثمينة الى الشيخ ، وهوجم الوفد فى رجوعه عند طرف سهل متيجة وسلب ما يحمله فرجع الى العاصمة فارسل الجنرال قوة كبيرة صبحت القبيلة التى هاجمته وقتلت بعض رجالها واخذت شيخها اسيرا فاعدم شنقا فى سوق الجزائر فاكبر الناس ماجرى وعدوه نقضا للهدنة من جانب الفرنسويين وعادوا الى ما كانوا عليه من الانتقام وشن الغارات

ونهض ابن السعدى زعيم قبائل زواوه يدعو للجهاد ووقعت معارك شديدة كانت الحرب فيها سجالا واخيرا دخل جانب من رجال القبائل فى طاعة الفرنسويين ولحق القسم الآخر بالجبال . ولما راى « آغة العرب » انه ليس فى طاقته ان يفعل شيئا غادر القليعة ولحق بجبال بنى فهاد ثم انضم الى مولاى عبد القادر عند ظهوره فى الدور الجديد

٧

الامير عبد القادر فى الميدان

ينقسم اقليم الجزائر الى ثلاث مقاطعات (ولايات) كبيرة وهى : الجزائر وقسنطينة ووهران والاولى فى الوسط والثانية فى الشرق على حدود تونس والثالثة فى الغرب وحدودها مشتبكة بحدود المغرب الاقصى

ومن مدن المقاطعة الاولى المشهورة البليدة ومستغانم والمدية ومن مدن المقاطعة الثانية بسكرة وتوغرت وبجاية و بونة (عنابة)

ومن مدن المقاطعة الثالثة تلمسان ومعسكر

وكانت الجزائر عند الغارة الفرنسوية خاضعة لنظام حكم اقطاعى فكان الباى « الباشا » يقيم فى مدينة الجزائر وفيها مقر الحكومة المركزية ، وكذلك كان الامر فى المقاطعتين : وهران وقسنطينة فكان فى كل منهما حاكم يعينه « الباشا » ويتمتع بسلطان واسع فى منطقته وهذا يعين الحكام والموظفين فى دائرة عمله

فلما استولى الفرنسويون على مدينة الجزائر واسقطوا الحكومة المركزية (حكومة العاصمة) وقضوا عليها اصبحت البلاد بدون حكومة شرعية تديرها وتنظم شؤونها

وعقد علماء مقاطعة وهران واعيانها ــ وكان الفرنسويون قد استولوا على وهران نفسها يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٣٠ سلما ، واتخذوها قاعدة للغارة على البلاد المجاورة لها ولبسط نفوذهم عليها ــ اجتماعات كثيرة للبحث فى انشاء حكومة منهم تحل محل الحكومة القديمة وتقيم الامن والعدل وتنظم حركة الجهاد ، وتقاوم العدو الذى

كان يسعى بلا كلل لبسط نفوذه وسلطانه فوقع اختيارهم على السيد محي الدين الحسني والد السيد عبد القادر الحسني فجاءه وفدهم يطلب منه ان يقبل بيعتهم ويتولى شؤونهم فاعتذر بكبر سنه وضعف قواه ، فاوفدوا وفدا الى صاحب المغرب الاقصى ليطلب تولية احد رجاله عليهم فاحتفى بهم وعقد عليهم لابن عمه سليمان ولقبه امير المغرب الاوسط فجاء هذا معهم فقابله الناس بالسمع والطاعة فاستقر فى تلمسان و بدأ بانشاء حكومته الجديدة

واصدرت حكومة باريس تعليمات الى سفيرها عند الحكومة المغربية وكان يقيم فى طنجة بان يقابل السلطان و يحتج عنده على ايفاد ابن عمه و يطلب منه استرداده فورا و ينذره بعدم التدخل فى شؤون تلك البلاد

وخاف السلطان العاقبة فاستعاد ابن عمه بعد ستة اشهر من وصوله خوف الاصطدام بالفرنسيس فانتشرت الفوضى بعد سفره ، فجاء الاعيان والشيوخ ثانية الى السيد محي الدين يرجونه قبول الولاية فكرر الاعتذار فالحوا عليه فقبل امارة الجهاد ولم يقبل الامارة العامة ، فبايعوه على الجهاد فكان ذلك الخطوة الاولى فى انشاء الحكومة الجزائرية القومية الجديدة

واتخذ السيد محي الدين مدينة (القيطنية) عاصمة له ثم دعا الناس الى الجهاد فلبوا دعاءه فسار الى وهران فهاجمها وضيق الخناق على حاميتها الفرنسوية وكانت بقيادة الجنرال بويه ووقعت بين الفريقين معارك كثيرة كانت معركة خنق النطاح الاولى فى شهر يونيو سنة ١٨٣٢ اشدها واعظمها

و بيان ماحدث ان السيد محي الدين ارسل قوة بقيادة السيد عبد القادر بن زيان الزيانى لاستطلاع حال العدو فى وهران فتقدم حتى المكان المعروف بخنق النطاح وهو فى جوارها وكان فيه معسكر الفرنسويين فارسل الى القيطنية بما شاهده فركب السيد محي الدين ومعه نجله الشاب السيد عبد القادر بالناس وجاء ونازل العدو فى معركة كبيرة استمرت ساعات وانتهت بارتداد الفرنسويين الى وهران والتجائهم الى الاسوار

واسرع الجنرال بونه فكتب الى فرنسا يطلب ارسال نجدات قوية لانقاذ الموقف فارسلت اليه فلقي بها جمهور المجاهدين وكانوا فى هذه المرة بقيادة الشاب السيد عبد القادر ابن السيد محيي الدين

ورتب السيد عبد القادر جنده وعبأه تعبئة حسنة فقسمه الى خمس فرق : لقي العدو بفرقتين واقام فرقتين فى الاحتياطي واتخذ من الفرقة الخامسة كمينا نصبه للعدو

وبدأت المعركة وحمل المجاهدون حملة صادقة على جناح الفرنسويين الايمن فتزحزح وارتد الى وهران فاصطدم بالكمين المنصوب له فوقع بين نارين ولم يبلغها الا بشق الانفس

وارسل حاكم الجزائر نجدات جديدة الى وهران فاشتد بها عضد الجنرال بونه فاضاف اليها ما كان عنده من قوى وخرج فعسكر بين البلد وراس العين فى الجهة الغربية من وهران فنادى السيد محيي الدين بالجهاد فتوافد اليه الناس فسار بهم الى وادى سيك فاقام فيه وعقد اللواء لنجله السيد عبد القادر فسار بالطلائع ونزل فى جوار وهران وقضى ليلته يستعد للهجوم و باشره فى الغد ودارت معركة عنيفة انتهت عند المساء بارتداد الفرنسويين الى ماوراء الاسوار فضرب الحصار على المدينة واقام حولها نحو شهر ثم ارتد الى القيطنية

٨

الحكومة الحسنية الجديدة

بهر السيد عبد القادر الحسنى الناس باقدامه وشجاعته و بما ابداه من كفاءة ومهارة فى المعارك التى خاضها وادارها فاتجهت اليه الانظار وتحدث الكل بمزاياه وتمنوا ان يكون اميرا لهم يقودهم فى الحرب و يسوس امورهم فى السلم

وتألف وفد من اعيان البلاد وزعمائها وشيوخها زار والده السيد محي الدين يرجوه ان يولى ابنه الفتى امارتهم مادام لا يرضاها لنفسه ولا يحمل اصرها فاجابهم الى ذلك وجرت البيعة تحت شجرة فى وادى غريس ، وكان والده اول مبايع له على السمع والطاعة ولقبه بناصر الدين

وركب الامير الجديد بعد البيعة وكان فى عنفوان شبابه وغض اهابه الى مدينة « معسكر » فدخلها بالحفاوة ثم خرج الى المسجد الجامع فصلى بالناس وخطب فيهم خطبة طويلة فدعا الى الجهاد وابان فضائله وهـذا هو صك البيعة الذى وقعه العلماء واقروه :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الذى لانبى بعده

الحمد لله الذى جعل نصب الامام من مهمات الدين ، لتصان به النفوس والاموال وتجتمع كلمة المسلمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله واصحابه اجمعين

و بعد فقد قال صلى الله عليه وسلم ان الله يحي بالسلطان ما لا يحي بالقرآن ، هذا فى الزمان الذى فاض فيه العدل ونضب فيه الجهل فما بالك بزماننا الذى كثر فيه الباطل وانتشر ، وخفى فيـه الحق ولم يظهر له اثر ، حتى ان اعداء الله الكافرين

ملكوا كثيرا من بلاد الاسلام ، وتشتت الكلمة واختل النظام ، ولم يجد الناس لقتالهم سبيلا ، ولا من يكون للجهاد دليلا ، فلجأوا الى الله تعالى وسألوه ان ييسر لهم من يقوم بامر دينهم فما وجدوا من تتفق عليه كلمة اهل الحل والعقد سوى السيد محيي الدين بن مصطفى بن المختار لكماله وكثرة ماعنده من الاعوان والانصار فطلبوا منه ان يبايعوه على السمع والطاعة ، فاعتذر اليهم لكبر سنه ، و بعد زمان طويل تكرر فيه طلبهم مرات ، ووقع الحاحهم تارات ، ورأى ان النظر فى هذا الامر تعين عليه واتاه بعض علماء غريس وهو من الصالحين فقال له ان اولياء الله تعالى قد اتفقوا على نصب ولدك عبد القادر لنصر دين الله ، ورأى ان ولده مستعد لهذا الامر ، فحينئذ وافقهم على نصبه ونصرته ، لكونه ذا عزم وشجاعة ، وعقل سليم ، وذات سليمة صالحا لتنفيذ الاحكام فاجتمع اهل الحل والعقد و بايعوه من غير طلب منه للامارة ، ولا متابعة للنفس الامارة ، بل بايعوه رغما منه ، وطلبوا ولده بالله تعالى وتوسلوا اليه برسول الله صلى الله عليه وسلم مدة تزيد على السنتين فوافقهم على بيعة ولده تطييبا لخواطرهم ورعاية لرفع الظلم عن الضعيف ، ودفعا للفساد والتعنيف ، فحضر للبيعة جميع اهالى غريس الحشم ، شرقى ، وغربى ، وعباسى ، وخالدى ، وابراهيمى وحسانى ، وعوفى ، وجعفرى ، وبرجى ، وشقرانى وغيرهم كبنى السيد دحو ، وبنى السيد احمد بن على ، والزرامطة ، ومغراوه ، وخلوية ، والمشارف ، وكافة اهل وادى الحمام ، واعلنوا جميعا بطاعته ، ونصرته ، والرعاية له بحيث انهم يحمونه بما يحمون به انفسهم واموالهم وان ينصروه نصرا مؤزرا

واتفق علماء الاقليم على بيعته وطاعته ولم يخالف منهم احد وهم فى حال طوعهم واختيارهم ، وفرحوا به اشد الفرح نظرا لما كانوا عليه من الضيق والترح ، وكل من سمع به من اهل الآفاق يزداد فيه رغبة ، وذلك لعلمهم بقوة عقله وشدة نجدته ، وصلاح رأيه ، فعلى من بايعه ان يبذل جهده فى نصرته ، وعضده ، لقول الصادق الامين الدين النصيحة لله ولرسوله ولائمة المسلمين ، ومن نكث فانما ينكث على نفسه

حضر ماذكر من العلماء والاشراف السيد الاعرج والسيد محمد بن حوا بن يخلف واخوته والسيد محمد الثعالبي والسيد عبد الرحمن بن حسن الدحاوى واخوته والسيد بن عبد الله بن الشيخ المشرقى وقرابته وكافة اولاد السيد احمد بن على حاصله جميع علماء غريس واشرافه حضروا لهذه البيعة الميمونة ورضوا بها وحدها وخصوصا كاتبه محمد بن عبد القادر عامله الله بلطفه فى الباطن والظاهر

كتب فى الثالث من رجب الفرد سنة ١٢٤٨ هـ الموافق ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٣٢

وكتب غيرهم من العلماء صكوكا اخرى بمثل ماتقدم

وجرت بيعة اخرى سموها البيعة الثانية العامة يوم ٤ فبراير سنة ١٨٣٣ فى مجلس عام عقد فى محل العموم من قصر الامارة جدد رجال الوفود القادمون من جميع الانحاء البيعة للامير وقدموا له الهدايا على جارى عادتهم فخطب فيهم خطبة تناسب المقام

انشاء الحكومة الجديدة

وانشأ الامير عقب ذلك حكومة جديدة على المنوال الآتى :

للوزارة : محمد بن العربى

للكتابة العامة : السيد احمد بن على بن ابى طالب والسيد الحاج مصطفى بن التهامى والسيد الحاج محمد الخروبى

للحجابة : محمد بن على الرحاوى

للمالية : الحاج الجيلانى بن فريحه

للخزينة الخاصة : محمد بن فاخة

الاوقاف : الحاج الطاهر ابو زيد

الاعشار والزكاة : الحاج الجيلانى العلوى

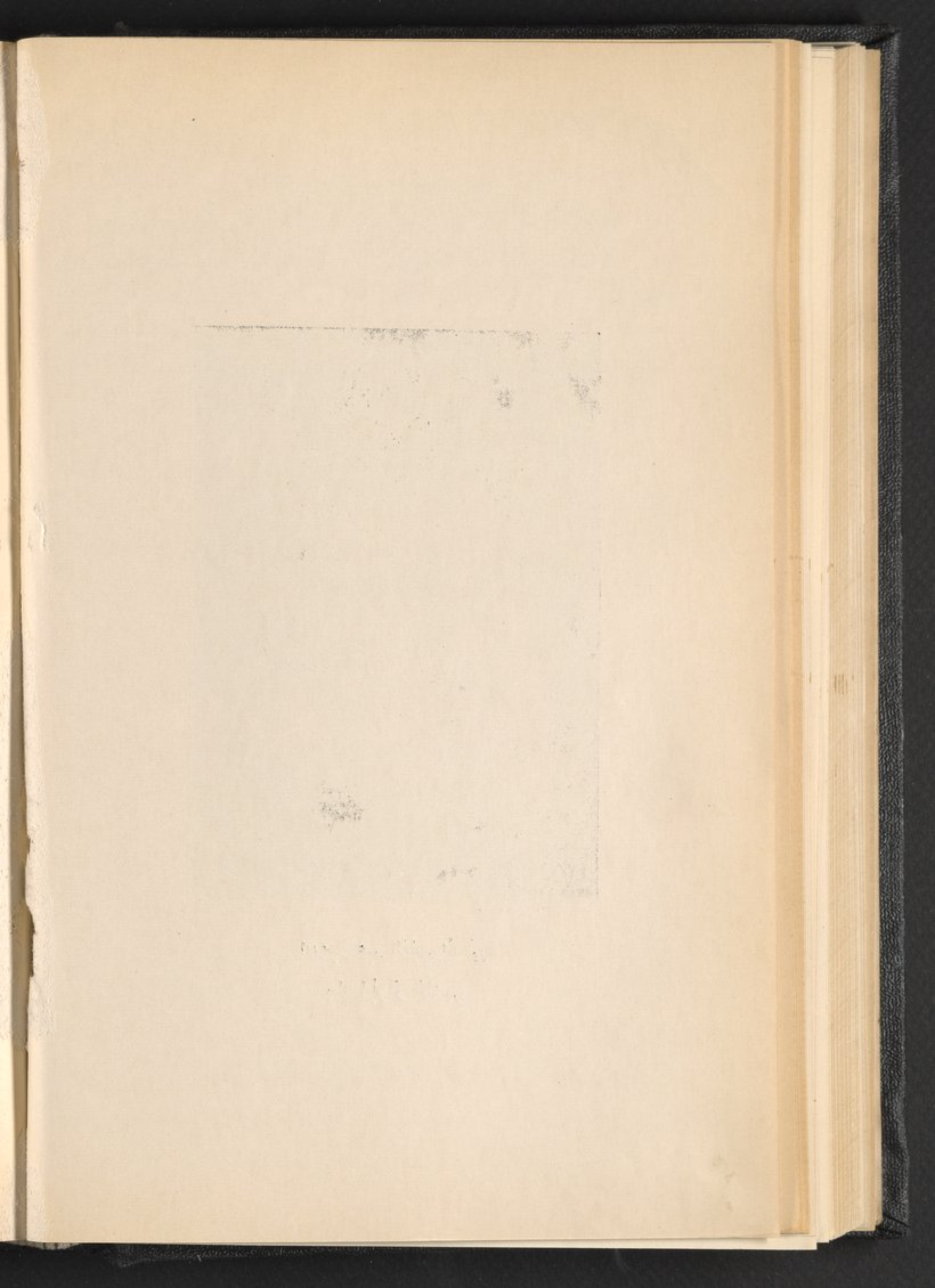
للخارجية : الحاج الميلود بن عراش

قاضى القضاة : السيد احمد بن الهاشمى المراحى

وانشأ ايضا مجلسا للشورى يضم ١١ عضوا من جلة العلماء برئاسة قاضى القضاة
ودون الدواوين وارسل العمال الى الامصار والبلدان فاطاعه الناس ووالوه فسار فيهم
بالعدل والانصاف ونظم الجنـد والقوى وتشمر لطرد العـدو المحتل ومنازلته ففعل
الاعاجيب



الامير عبد القادر الحسنى
بطل الجزائر الأشهر



٩

الامير عبد القادر الحسنى

هو السيد عبد القادر بن السيد محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن احمد المختار بن عبد القادر بن احمد المشهور بابن خده (نسبة الى مرضعته) ابن محمد بن عبد القوى بن على بن احمد بن عبد القوى بن خالد بن يوسف بن احمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوى ابن احمد بن محمد بن ادريس الاصغر ، ابن ادريس الاكبر ابن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن ابى طالب وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ فهو هاشمى قرشى عدنانى

واول من انتقل من اجداده من المغرب الاقصى الى الجزائر هو السيد عبد القوى الاول صاحب تفرسيت فقد نزح عند اشتداد الفتن فى المغرب الاقصى وتفاقم الامر بين ملوك الموحدين و بنى مرين ومن شاركهم فى الاندلس وعدوة الغرب ونزل بقلعة بنى حماد قرب سطيف من اعمال قسنطينة . ثم هاجر الى تاهرت فقابله امراؤها بالاكرام والاحترام ومنها انتقل الى تاكدمت وتوفى بها هو وولده محمد وانتقل نجل هذا احمد المعروف بابن خده الى وادى العبد قرب غريس فتديره واستقر فيه

ولد المترجم له فى قرية القيطنية من اعمال وهران يوم الجمعة ٢٣ رجب سنة ١٢٢٧ هـ (١٨٠٧ م) ونشأ نشأة علم وصلاح وتقوى ، واخذ الفقه عن والده ثم رحل الى وهران واخذ العلم عن علمائها ودون الحديث وحفظه و برع فى الادب فكان من كبار الكتاب المجيدين كما كان من كبار الشعراء المبرزين وقد الف كثيرا من الكتب والرسائل النافعة المفيدة آخرها كتاب المواقف فى علم الحقيقة ونظم كثيرا من القصائد الحماسية الخالدة وسافر مع والده الى الحجاز والشام وهو لايزال صغيرا

ولما اغار الفرنسويون على الجزائر فى سنة ١٨٣٠ واسقطوا حكومتها وخلت البلاد من حكومة شرعية تسوس امورها وتنهض باعبائها جاء اعيان البلاد وعلماؤها وذوو الرأى فيها الى والده السيد محيي الدين يسألونه ان يقبل بيعتهم فاعتذر اليهم بكبر سنه وضعف قواه ثم عادوا واقترحوا تولية ولده المترجم له لما خبروه فيه من المزايا فاقرهم فبايعوه فى شهر نوفمبر سنة ١٨٣٢ بيعة شرعية وارتضوه اماما وكان فى السادسة والعشرين من العمر فتقلد امورهم ورفع راية الجهاد وادار رحى الحرب والقتال مدة اربع عشرة سنة ما كل فيها ولا ونى وانشأ حكومة شرعية تعد من افضل الحكومات فاقام العدل ونفذ الشريعة و بسط الامن ، وكان مناديه فى غالب الاوقات ينادى فى الاسواق من له شكوى على خليفة او اغا (حاكم) او قائد او شيخ فليرفعها الى الديوان الاميرى من غير واسطة فان الامير ينصفه من ظالمه وان ظلم احد ولم يرفع ظلامته الى الامير فلا يلومن الا نفسه

واتخذ خاتما للامارة كبير الحجم نقش فى دائرته :

ومن تكن برسول الله نصرته ان لم تلقه الاسد فى آجامها تجم

وكتب على جوانبه : الله ، محمد ، ابو بكر ، عمر ، عثمان ، على ، وكتب فى وسط الدائرة : الواثق بالقوى المتين عبد القادر بن محيي الدين ، وناصر الدين هو اللقب الذى لقبه به والده

وانشأ فى مدة حكومته دارا لسك النقود فضربها نحاسا وفضة وذهبا وكتب على بعضها : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » وكتب على البعض الآخر « ان الدين عند الله الاسلام » وكتب على قطع اخرى « ربنا افرغ علينا صبرنا وثبت اقدامنا »

وانشأ فى تلمسان معملا لصنع الاسلحة والمدافع والبنادق وفى متحف الاسلحة فى باريس ثلاث مدافع اخذت من جيشه فى ايام الحرب كتب على كل منها فوق خزانته النارية « عمل فى تلمسان وقت امارة ناصر الدين السيد عبد القادر بن محيي الدين سنة ١٢٥٥ »

وبالاجمال فقد كتب صفحة لامعة فى تاريخ الشهامة العربية فانشأ دولة من لاشيء وقاوم الفرنسويين مدة اربع عشرة سنة ثم سلم مضطرا بعد ما قاتلهم على كل شبر وبعد ما انضم المراكشيون اليهم فى قتاله وجردوا القوى والجيوش لمطاردته

وفى يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٤٧ اقلته بارجة فرنسوية الى طولون فى طريقه الى الشرق طبقا لاتفاق التسليم المعقود بينهم وبينه ، فوقفت به فى ذاك الثغر يوم اول يناير سنة ١٨٤٨ فصعد حاكمها وانزله الى البر انتظارا لورود امر آخر بشأنه من باريس

وابلغوه وهو فى طولون ان الشعب الفرنسوى يعارض فى ارساله الى الشرق واقترحوا اليه ان يزور باريس وينزلها فاحتج على نقضهم لعهده بكتاب كتبه الى الدوق دومال ولى العهد طالبا الوفاء بالاتفاق المعقود فرد عليه مستمهلا

وسقطت حكومة الملك لويس فيليب وهو فى ليون يطالب بارساله الى الشرق فاصدرت الحكومة الجديدة امرا باعتقاله والذين كانوا معه فى برج طولون خوفا من ان يتخذهم الحزب الملكى اداة لمقاتلة الجمهورية

ونقل مع بعض رجاله الى امبواز فظل فيها حتى انتخب البرنس لويس نابوليون رئيسا للدولة الفرنسوية فى سنة ١٨٥٢ وكان بينهما صلات ود فدعاه الى زيارته فى باريس فزاره فاحتفى به ثم عاد الى امبواز بعد ما ابلغه انه اجاز له السفر الى الشرق فغادر فرنسا الى بروسة (تركيا) حيث تقرر ان يقيم فيها نهائيا

وفى يوم ٨ يناير سنة ١٨٥٣ وصل الى الاستانة فقوبل بالحفاوة الكبرى فزار السلطان عبد المجيد الذى بالغ فى اكرامه وبعد ماقضى ١٠ ايام فيها سافر الى بروسة ونزل فى القصر الذى اعد له بامر السلطان فلم ترق له كثيرا ففضل عليها دمشق وانتقل اليها مع رجاله واستقر فيها

وزار الامير بعد وصوله الى دمشق فلسطين كما زار الحجاز وادى فريضة الحج وزاد شهرة على شهرته بما اظهره من الشهامة والمروءة والنجدة فى اثناء الاضطرابات التى حدثت بدمشق فى سنة ١٨٦٠ بين المسلمين والنصارى فقد نهض مع رجاله لحماية هؤلاء

وانزلهم فى منازله ورد الاذى عنهم فاعترفت له الدول بجميل صنعه وارسل ملوكها ورؤساؤها ووزراؤها يشكرونه فجاءه كتاب من قيصر روسيا وآخر من وزير خارجية فرنسا ومن ملك بروسيا ومن ملك اليونان ومن قنصل انكلترا بدمشق باسم الحكومة البريطانية وكلها تشكره على ما اسداه من جميل واهدته كل دولة من هذه الدول اعظم وساماتها

وزار مصر فى سنة ١٨٦٩ بدعوة من الخديوى اسماعيل وشهد حفلة افتتاح قناة السويس ثم عاد الى دمشق واقام فيها حتى وافته منيته فانتقل الى جوار ربه الكريم يوم السبت ١٩ رجب سنة ١٣٠٠ و ٢٤ مايو سنة ١٨٨٢ ودفن باحتفال كبير عند الشيخ الاكبر محيي الدين بن العربى مبكيا عليه

وقد ترك من الذكور الامراء محمد والهاشمى ومحيي الدين وعلى واحمد وعبد الله وعمر وعبد الرزاق وعبد المالك كما ترك كثيرا من الآثار النافعة والكتب المفيدة الخالدة وكان مشهورا بالزهد والتعبد والتقوى والتصوف وله فى الصوفية قدم صدق راسخة

١٠

اتفاق وهران

اذكت بيعة السيد عبد القادر بالامارة روح الحماسة فى البلاد ونشطتها و بث فيها حياة جديدة وقوة جديدة ، ولا غرو فقد كان من عظماء الرجال ونوابغهم ومن ذوى الايمان الراسخ والعقيدة الصحيحة

وكان فى مقدمة ماعنى به انشاء جيش منظم على مثال الجيش الفرنسوى الذى كان يحاربه ، لانه ادرك بثاقب رأيه و بعد نظره ان الاعتماد على قوى القبائل وعلى المتطوعين لايفى بالحاجة فتم له ما اراد وانشأ جيشا كان عدته فى حروبه الطويلة التى رفعت شأن الجزائريين

وحمل الامير بقواه الجديدة على الفرنسويين وقاتلهم فى معارك كثيرة وساقهم حتى مدينة وهران فقبعوا فى داخلها لايستطيعون خروجا فاقالت حكومة باريس الجنرال بونه حاكم وهران واستبدلته بالجنرال دى ميشيل

اول معاهدة بين الامير وفرنسا

وعززت حكومة باريس جيشها فى الجزائر بنجدات قوية ارسلتها فعدل القواد الفرنسويون عن خطة الدفاع الى خطة الهجوم فحمل الجنرال دى ميشيل على مستغانم (بلدة من اعمال وهران وهى على بعد ٧٢ كيلو مترا منها الى الشمال والشرق وعلى مقربة من ساحل البحر) فاستولى عليها وحصنها فحاول الامير اخراجه منها فعجز عن اقتحام اسوارها فعاد الى عاصمته « معسكر »

حرب العصابات

وعمد الامير الى حرب العصابات فاشعلها وارسل عصاباته تعيث فى الاراضى التى استولى عليها الفرنسويون تقاتلهم وتزعجهم وتغير على القبائل التى خضعت لهم ودخلت فى طاعتهم

فتح باب المراسلة

وتذرع الجنرال دى ميشيل باعتقال العصابات لاربعة من الفرنسويين كانوا عائدين من ارزيو ففتح باب المراسلة مع الامير فكتب اليه يوم اول سبتمبر سنة ١٨٣٣ كتابا قال فيه : انى لا اتأخر عن مخاطبة سموكم بشىء تحثنى عليه بواعث الانسانية وان لم تدعنى اليه وظيفتى وهو اطلاق سبيل النفر الذى خرج عليهم كمين من جيوشكم وهم يحرسون رجلا عربيا فاسروهم ولا اظن ان قوة شهامتكم تأبى هذا وتضع امام طلبى شروطا لاننى كنت من قبل اخذت بعض اسرى من عرب الغرابة والزمالة فى ميدان الحرب ثم اطلقتهم من غير شروط ومن اجل هذا ارجو ان يطلق الامير سراح الاسرى »

ورد عليه الامير بكتاب قال فيه : ان ماوقع من الاسر وسفك الدماء ويتم الاولاد وترميل النساء وسائر ما حصل من المصائب والنوائب العمومية والخصوصية لاتبعة فيه علينا وانما التبعة والعهدة على القائد الفرنسوى

وعزز الجنرال كتابه الاول بثان وثالث طالبا اطلاق سراح المعتقلين لانهم لم يؤخذوا فى ميدان القتال وانما اخذوا بمكيدة ثم قال « وعلى ان اذكركم بان فرنسا هى اقوى دولة فى الدنيا فليس من الحكمة ان تواصلوا مقاومتها واذا كنت قادرا اليوم على الانتصار عليكم قبل وصول النجدات التى انتظر وصولها فماذا يكون شأنكم اذا فرغ صبر فرنسا نحو العرب وارسلت ما تعده لى

« واذا رغبتم فى الاحتفاظ بمركزكم السامى فليس لكم سوى اجابة دعوتى ومتى عقدنا المعاهدات عاد رجال القبائل الى زرع حقولهم الخصبة الخ »

ورد الامير على الكتاب الاخير برسالة هذا نصها :

« اما بعد فقد وصلنا كتابكم المتضمن افضل النصائح فقدرناها قدرها وعلمنا انكم تحثونا فى كتبكم الثلاثة على الافساح عن الاسرى وتندبون حظهم مع اننا نعتنى بشأنهم غاية الاعتناء والافساح عنهم ليس له اهمية لدينا غير ان الحالة التى نحن فيها لاتسمح لنا ان نردهم بدون فدية فاذا رغبتم فى الاتفاق اقبل تسليم الاسرى اليكم عند المعاهدة بيننا على ان ديننا يمنعنا عن طلب الصلح ابتداء ويسمح لنا بقبوله اذا عرض علينا وان الثقة التى منحتمونا اياها فى تحاريركم حملتنا على ان نبدأ بالمخابرة وان المفاوضة التى تطلبونها يقتضى ان تكون مبنية على شروط محترمة منا ومنكم ولا يحصل الاتفاق الا اذا عرفتمونى شروطكم وما تطلبونه منى وانا اعرفكم بمثلها والله المعين

« وكيف تفاخرونى بقوة فرنسا الا تقدرون القوة الاسلامية مع ان القرون الماضية اعدل شاهد على قوة الاسلام وانتصاراته على اعدائه . ونحن وان كنا ضعفاء على زعمكم فقوتنا بالله الذى لا اله الا هو ولا شريك له ، ولا ندعى بان الظفر مكتوب لنا دائما بل نعلم ان الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا ، غير ان الموت مسر لنا وليس لنا ثقة الا بالله وحده لاشريك له لا بعدد وعدد وان دوى الرصاص وصهيل الخيل فى آذاننا افضل من الصوت الرخيم فاذا صممتم على عقد صلات ودية دائمة بيننا وبينكم فافيدونا حتى نرسل اليكم رجلين من كبار قومنا مأذونين بالمفاوضة معكم وحينئذ تتم امانيكم بمعونة الله . ولا تظنوا باننا نأسف اذا اضطررنا الى ترك البلاد لاننا نعلم يقينا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده وقد سلمنا وراثتها فحيث ما كنا نجد امتنا

« ولقد ظهر لنا من مضمون كتبكم انكم تحتقرون قوة العرب مع دوام استعدادهم للقتال ومسابقتهم للنزال فى كل زمان ومكان ، واذا فتحتم التواريخ ترون

ما اجروه فى آسيا وجهات الشام من الجرأة والثبات والاقدام والفتوحات التى اظهرها الله على ايديهم

« وانى اعتذر لعدم جوابى على كتابكم السابق بانى كنت مشغولا فى الوقت الذى تسلمته ، وعند ما كتبت الجواب كان رسولكم ترك « معسكر » وتوجه لطرفكم »

ولم يجب الجنرال على هذا الكتاب بل اشعل نار الحرب فدارت معارك عنيفة ثبت فيها المجاهدون ونالوا بعض انتصارات خيبت آماله فطرق باب المراسلة مقترحا عقد معاهدة صلح وذلك بكتاب ارسل مع يهودى اسمه مردخاى فى شهر ديسمبر سنة ١٨٣٣ قال فيه : « اذا كان سموكم تريد ان تتفاوض فى امر المعاهدة فانا مستعد لذلك مع الامل انه يمكن الحصول على معاهدة موافقة يتوقف بها سفك دماء امتين اقتضت الارادة الالهية ان لا تكونا تحت سلطة واحدة »

وقابل اليهودى الامير فطلب منه ان يوافيه بتفاصيل اوفى من دون ان يرسل رسالة فعزز الجنرال كتابه بكتاب ارسله مع يهودى آخر قال فيه : « حيث انه لم يصلنى جواب من سموكم عن الكتاب الذى كتبته تبادر الى ذهنى انه لم يصل اليكم لا انه وصل اليكم ولم تهتموا به ، حيث انكم لاتفعلون شيئا لحفظ المقام الذى رفعتكم الظروف اليه اوفق من التسليم بطلبى لانه بواسطة المعاهدات المطلوبة التى نعقدها بيننا تمكن الاهالى من الالتفات الى فلاحتهم وزراعتهم فيتمتعون بلذة حاصلاتهم و يذوقون السلم بدلا من مرارة الحرب »

واستشار الامير رجاله فى الخطة التى يسير عليها واطلعهم على كتب الجنرال واقتراحاته فوافقوا على الدخول بمفاوضات معه توصلا لحل المشكلة بالحسنى واجازوا له الاتصال به فكتب اليه يقول :

« بعد التحية : وصلنى كتابك ايها الجنرال المحترم وفهمت ما ذكرته فيه واعلم ان افكارك مواطئة لافكارى موافقة لها ، و بذلك تحققت استقامتك فكن متأكدا

بان الشروط التي توفقنا العناية الالهية لاجرائها بيننا تتمسك بهـا بصـدق عظيم ولا تتجاوزها وها انا مرسل نحوك معتمدين وهما وزير الخارجية ميلود بن عراش والاغة خليفة بن محمود يتخابران معك فى الشروط التي يمكن اجراؤها وحينئذ تجرى المعاهدة وتذهب العـداوة من بيننا ونستبدلها بالصداقة التي لا تخل بمقامنا ، وينبغى لك ان تثق بى لانني والحمد لله لم تسبق لى خيانة فى عهدى ولا نقض لعهدى

المفاوضات

واجتمع المندوبان الجزائريان فى خارج وهران بالجنرال الفرنسوى ورجاله يوم ٤ فبراير سنة ١٨٣٤ فدارت بينهما مفاوضات طويلة انتهت بوضع المشروع الآتى وهو :

١ ــ ان العداوة من هذا اليوم تبطل بين الفرنسويين والعرب

٢ ــ يلتزم الفرنسويون باحترام ديانة المسلمين مع عوائدهم

٣ ــ يتعهد العرب برد الاسرى الفرنسويين

٤ ــ يكون السوق حرا

٥ ــ يلتزم العرب برد من يهرب من الفرنسويين اليهم

٦ ــ من اراد السفر فى الداخلية من الفرنسويين يجب ان تكون بيده رخصة مختومة من قنصل الامير ومن قنصل الجنرال

وحمل المندوبان هذا المشروع الى الامير لاقراره فدرسه ووضع عليه التحفظات الآتية :

١ ــ ان يكون للعرب الحرية بان يبيعوا و يشتروا كل ما يتعلق بالحرب

٢ ــ يكون متجر مرسى ارزيو تحت ولاية الامير كما كان من قبل بحيث لا يصير شحن شيء الا منه . واما وهران ومستغانم فلا يرسل لهما الا البضائع اللازمة لاهلهما

٣ – يتعهد الجنرال باعادة كل من يهرب اليه من العرب ولا تكون له سلطة على المسلمين الذين يحضرون عنده برضاء رؤسائهم

٤ – لايمنع مسلم من الرجوع الى بيته متى اراد

وحمل وزير خارجية الامير هذه التحفظات الى المعسكر الفرنسوى وابلغها الى الجنرال فدارت مفاوضات جديدة اتفق الفريقان فى ختامها على المشروع الآتى :

« ان قائد الجيش الفرنسوى المقيم فى وهران الجنرال دى ميشيل والامير عبد القادر بن محيي الدين اعتمدا واتفقا على ما يأتى ذكره من الامور :

١ – منذ يوم تحريره يصير ترك الحروب والخصومات بين الفرنسويين والعرب وكل من الجنرال دى ميشيل والامير عبد القادر يجتهد فى القاء الالفة بين شعبين اقتضت الارادة الالهية ان لا يكونا تحت سلطة واحدة ولاجل ذلك يتعين وكلاء من الامير عبد القادر فى وهران ومستغانم وارزيو كى لا تقع الخصومة بين الفرنسويين والعرب ، كما انه يقام وكيل عن فرنسا ضابط فرنسوى فى « معسكر » (عاصمة الامير)

٢ – تحترم ديانة المسلمين وعوائدهم

٣ – يتعهد الفريقان برد الاسرى

٤ – تمنح الحرية الكاملة للتجارة

٥ – يتعهد العرب بارجاع كل من يفر اليهم من المعسكر الفرنسوى . ويتعهد الفرنسويون بتسليم كل يفر اليهم من اهل الجرائم الهاربين من القصاص الى وكلاء الامير فى المدن الثلاث

٦ – من اراد من الاوربيين ان يسافر الى داخلية البلاد يجب ان يكون مصحوبا بتذكرة تكون عليها علامة وكلاء الامير والجنرال وبذلك يحصل على الحماية فى جميع الاقاليم

حرر فى وهران فى ١٧ شوال سنة ١٢٢٩ و ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٤

تنفيذ احكام الاتفاق

ونفذ الفريقان احكام هذا الاتفاق فورا فالغى الحصار الذى كان مضروبا على وهران ومستغانم وارزيو وعادت المواصلات بينها و بين الداخلية وعين الامير ممثليه فاختار مردخاى بن دران اليهودى لتمثيله فى الجزائر ومحمد بن تيح لوهران ، والاغة خليفة بن محمود لارزيو

وعينت فرنسا عبد الله ولسيون ممثلا لها عند الامير واصله من المماليك للمصريين لجأ الى الفرنسويين وتجند فى جيشهم

١١

مفاوضات جديدة

اتاح اتفاق وهران للامير عبد القادر فرصة عكف فى خلالها على توطيد قواعد حكومته الجديدة وعلى نشر نفوذه بين القبائل وفى المناطق المجاورة ولا سيما منطقة تيطرى المجاورة لمدينة الجزائر ، وكتب الى والى الجزائر الجديد وهو الكونت دوروان دى لوران كتابا حمله اليه الميلود بن عراش وزير خارجيته هنأه فيه بمنصبه وقال فيه انه اوعز الى مندوبه بان يفاوضه فى امور يتعين عليه اجراؤها لتوطيد الراحة فى جميع المقاطعات الداخلية وفى السهول والجبال والسواحل التى على ساحل الجزائر وجوارها ووهران والمدية وانه انما يفعل ذلك عملا باحكام الاتفاق ولتجنب اسباب الجفاء

ورد الكونت على الامير بكتاب قال فيه : « بلغنى معتمدكم ما تفضلتم به بشأن الجهة الشرقية وحيث ان جل مقاصد سموكم توطيد الراحة العامة كما هو مطلوب عند فرنسا ورجالها فلا تتوقفوا وانى اؤمل نجاح مقاصدكم ورفاهية شعبكم وسعادة البلاد ولك ان تعتقد بانك لاتقاوم فى كل ارض تود الاستيلاء عليها بشرط ان تكون قادرا على اخذها »

وفى اواخر سنة ١٨٣٤ زحف الامير الى مقاطعة تيطرى فاحتل بلاد جندل ثم قصد المدية فدخلها وجاءته الوفود فأسس فيها حكومة وولى عليها السيد محمد البركانى من اشرافها

وقابلت الدوائر الاستعمارية الفرنسوية فى الجزائر استيلاء الامير على المقاطعة الجديدة وسعيه لتوسيع نطاق نفوذه بالاستنكار فعقد الجنرال تريزيل حاكم وهران الجديد مجلسا عسكريا قرر نقض الاتفاق ومهاجمة الامير وكتب بذلك الى الحاكم

العام طالبا الاذن بالرجوع الى الحرب فراى هذا ان يتمهل وان يسبر غور الامير فارسل اليه الكبتن سنت ايبوليت مع ابن دران اليهودى واصحبهما بالمقترحات الآتية طالبا اقرارها فتحل محل معاهدة وهران القديمة وهى :

١ ـ يعترف الامير برئاسة ملك فرنسا لافريقية

٢ ـ تكون سلطة الامير محصورة بايالة وهران المحدودة بنهر شلف ونهر ارهير الى كوجيله

٣ ـ يسمح للفرنسويين بالسفر الى سائر جهات بلاده

٤ ـ اطلاق الحرية التامة للتجارة فى الداخلية

٥ ـ لا يصير تسليم ولا استلام شئ من الغلال والبضائع الا من الثغور التى بيد الفرنسويين

٦ ـ يدفع الامير ضريبة سنوية لفرنسا و يضع رهائن عندها

ولقد كانت الغاية من هذه المقترحات احراج مركز الامير فيرفضها فيتوسلون به لنقض الهدنة والرجوع الى الحرب . والظاهر انه ادرك ما يريدونه فلم يعجل بالرفض بل اكتفى بوضع مقترحات عليها وارسلها الى الكونت دى لوران مع رسوله وهى :

يشترط ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين :

١ ـ ان تبقى جميع الولايات الخاضعة له تحت سلطته وحكمه كما ان المدن التى استولى عليها الفرنسيس تبقى على حالها فى ايديهم

٢ ـ ان ولاة المدية ومليانة عند عزلهم تبعث اسماؤهم الى الحاكم العام ليعرفهم وتكون المواصلة مع الامير بواسطتهم

٣ ـ تكون التجارة حرة للجميع

٤ ـ يكرم الفرنسيس العرب و يكرم العرب الفرنسيس

٥ ـ للامير ان يشترى من الجزائر بواسطة وكيله فيها سائر ما يحتاج اليه من الآلات والمهمات الحربية

٦ ـ يرد الامير جيع الفارين اليـه من الفرنسويين كما ان الحاكم العام يرد الفارين اليه من العرب

٧ ـ اذا عزم الامير على السفر الى قسنطينة او غيرها يخبر بذلك الحاكم العام مع الافادة عن اسباب ذلك السفر »

وغادر الحاكم العام الجزائر عقب تلقيه هـذه المقترحات الى وهران ليكون عـلى مقربة من الامير فتسهل المفاوضات وكتب اليه يوم ٤ يوليو سنة ١٨٣٦ يقول « تسلمت جوابكم من يد رسولى الـكبتن سنت ايبوليت وقد جئت الى وهران لاجل ان اتمكن من المخابرة معكم بسرعة » فرد الامير عليـه مهنئا بالقـدوم ولم يدعه الى زيارته ولم يشر الى قضية المفاوضة

وانـكر الجنرال تريزيل على الحاكم العام قدومه الى وهران للاتصال بالامير وقال له ان ذلك يطمعه و يشجعه والح عليه بالرجوع فعاد من دون ان يعمل عملا

وحمـل الامير فى غضون ذلك عـلى قبيلتى الدوائر والزمالة وادبهما لانتقاضهما عليه فارسلتا رسـلا الى الجنرال تريزيل تطلبان منه ان يأذن لهما فى النزول بارض مسركين خارج وهران وان يخصص قوة من الجند لحمايتهما فاجاب بالقبول ، وخرج الى استقبالهما فاجتمع برؤسائهما فقدموا له الطاعة واتفقوا معه على الشروط الآتية :

١ ـ تعترف القبائل برئاسة ملك فرنسا وتلتجىء تحت حمايته

٢ ـ تخضع لمن يوليه عليها من رؤساء الاسلام

٣ ـ تقدم فى الوقت المعين المرتب الذى كانت تقدمه الى بكوات الترك

٤ ـ يقابل رجال القبائل الفرنسويين بالحفاوة ومثل ذلك يقابل الفرنسويون رجال القبائل

٥ ـ تباح تجارة الخيل وسائر المواشى وتجـارة المحصولات لـكل انسان عند القبائل اما البضاعة التى للشحن فلا تشحن الا من المراسى التى يعينها الحاكم العام

٦ ـ لاتـكون تجارة الاسلحة وسائر متعلقات الحرب الا بواسـطة الوظفين الفرنسويين

٧ ـ تلتزم القبائل بتقديم نجداتها متى دعاها والى وهران الى غزوة حربية في افريقية ويكون للفارس فرنكان وللراجل نصف ذلك . وكل واحد منهما يحمل خمس قذائف على الاقل و يعطى ١٠ قذائف ومن يقتل حصانه في الحرب يعطى بدلا منه

٨ ـ لاتتعدى القبائل على القبائل المجاورة لها فان اعتدت هذه عليها تبلغ الامر الى والى وهران فيأتى حالا لنجدتها

٩ ـ عند مايذهب الجند الفرنسوى الى العرب يعطى كل مايحتاج اليه من المؤن بالثمن العادل

١٠ ـ الاختلاف الذى يحدث في القبائل ان كان في قبيلة واحدة يصرفه قاضيها وان كان بين قبيلتين يصرفه قاضي وهران

١١ ـ ينتخب رئيس من كل قبيلة يسكن مع عائلته في وهران

واتصل نبأ الاتفاق الجديد بالامير فكتب الى الحاكم العام محتجا عليه وقال انه نقض صريح للاتفاق الذى عقدناه مع الجنرال دى ميشيل واقرته حكومة باريس ثم طلب اعادة القبيلتين عملا باحكام الاتفاق

ورد الحاكم على الاحتجاج بكتاب قال فيه : « ان المعاهدة التي اود عقدها معكم لاتخالف المعاهدة التي عقدتموها مع الجنرال دى ميشيل . نعم ان لفظة « فار » الواردة في المعاهدة اطلقت اطلاقا قد يخالف المقصود منها فقد يكون « الفار » لاينوى الالتجاء وانما اراد بسكناه ماهو جار بين الناس من تفضيل ولاية على اخرى ، وهذا اظنه لايضر ولا يكون فاتحا لابواب الخصام الذى لا اشك في انه يكون ممقوتا عند محبي السلام وانا على كل حال احافظ على تلك المعاهدة بكمال الشرف والعناية »

وكتب الامير اليه فقال : « انك ايها الحاكم تعرف الشروط التي ربط بها دى ميشيل نفسه باذن دولته وتعرف جيدا ان الحكومة الفرنسوية ملتزمة بان ترد الى كل مذنب التجأ اليها ولو كان رجلا واحدا فكيف بالعشيرة والقبيلة . وعلى هذا فان قبيلتى الدوائر والزمالة من جملة رعيتى التي احكم فيها بموجب شريعتى

« والآن ابلغك البلاغ فاذا رفعت الحماية عنهم فنحن على ماكنا عليه

من المعاهدة التى وقع الاتفاق عليها قديما والا فانى لا استطيع مخالفة شريعتى فى التخلى عنهم ، حتى انهم لو اعتمدوا على رأيكم لضعف آرائهم وقلة دينهم ودخلوا مدينة وهران فلا ارفع يدى عنهم ، ولا بد ان الحقهم واطالبهم بالرجوع عن خطأهم الفاحش فان كنت معتزما على انفاذ ما تصورته من ادخالهم تحت حوزتك فاطلب وكيلك من عندى واختر لنفسك ما يحلو وميادين المعامع تقضى بيننا ومسؤولية اهراق الدماء واتلاف الاموال راجعة اليك وواقعة عليك . والله يخلق ما يشاء و يفعل مايريد »

١٢

الرجوع الى الحرب

يظهر من قرائن الاحوال ان الفرنسويين كانوا عاقدى العزم على نقض المعاهدة والرجوع الى القتال لبسط نفوذهم على الجزائر وللتخلص من الدولة العربية الجديدة فلا تتعبهم فى المستقبل وخصوصا بعد ما رسخت قواعدها ونجحت نجاحا مذكورا فى تنظيم داخليتها وانشاء جيشها ونشر هيبتها

وعرف الامير ذلك وادرك انهم لابد مقاتلوه فلا تبقى للعرب فى الجزائر دولة يلجأون اليها ويحتمون بحماها ، فارسل فدعا الناس الى اجتماع عام وخطب فقال : « هؤلاء القوم قد عاهدناهم فنكثوا ، وصدقناهم فغدروا ، وصابرناهم فلم يصبروا وان تركناهم وشأنهم فلا نلبث ان نراهم قد فتكوا بنا على حين غفلة ، وهاهم قد خدعوا الدوائر والزمالة وغيرهم من ضعفاء الدين وحازوهم اليهم فما الذى يمنعنا من دفاعهم ومقاومتهم ونحن موعودون بالنصر على اعدائنا . فهيا يا ايها المسلمون الى الجهاد وهلموا اليه باجتهاد وارفعوا عن عواتقكم برود الكسل وازيلوا من قلوبكم دواعى الخوف والوجل » فاقر الحاضرون رأيه فامر باعداد العدة للقتال والتأهب للطوارئ خوف المباغتة . وايدت الحوادث ما ذهب اليه فتلقى معتمد فرنسا فى عاصمة الامارة امرا بالرجوع الى الجزائر فدعا الامير وكلاءه الثلاثة الى الرجوع بالمقابلة وامر بنصب العلم الاكبر خارج الحاضرة ونادى بالجهاد . وهكذا كان الفرنسويون هم البادئون بنقض الاتفاق وان كان بعض مؤرخيهم يلقى التبعة على الامير

وغادر الجنرال تريزيل وهران زاحفا الى الداخلية يوم اول يوليو سنة ١٨٣٦ يقود خمسة آلاف من المشاة وفرقة من الخيالة وبطارية وعلى مقدمته رجال قبيلتى الدوائر

والزمالة الذين انضموا الى فرنسا ودخلوا فى طاعتها ، فغادر الامير عاصمته للقائهم يقود الفى فارس والفا من المشاة ، ونزل فى بسيك عازما على الاقامة فيها انتظارا لوصول المتطوعين فلم يمهله تريزيل فالتقى الجيشان فى حرش مولاى اسماعيل قرب بسيك وتقاتلا فارتد الفرنسويون فى اليوم الثالث وتحصنوا فى غابة هنالك ثم انسحبوا الى وهران بطريق ارزيو فطاردهم الامير وسبقهم الى مجازنهر هيره المعروف بالمقطع فنازلهم وهزمهم شر هزيمة وغنم منهم غنائم وافرة

واقالت حكومة باريس الجنرال تريزيل حاكم وهران من منصبه عقب هذا الانكسار واستبدلته بالجنرال دى كورانج كما اقالت دى لوران حاكم الجزائر العام واستبدلته بالمارشال كلوزيل واصدرت اليه تعليمات بان يواصل الحرب بشدة

وفى يوم ٢٣ اغسطس سنة ١٨٣٦ وصل الى الجزائر المارشال كلوزيل القائد العام الجديد يصحبه الدوق دورليان ولى عهد فرنسا مع قوة من الجند ، فعكفا على درس الحالة ووضع الخطط للاعمال العسكرية الجديدة

وفى يوم اول ديسمبر غادرا الجزائر بحرا الى وهران لقيادة الحملة التى تقرر ان تزحف على معسكر (عاصمة الامير) وفى يوم ٢٧ منه بدأت سيرها وكانت عدة رجالها ١٢ الف مقاتل

واعد الامير عدته وجمع ٨ آلاف خيال والفين من المشاة وسار للقاء عدوه ، فلما تقارب الجيشان تخلى عنه معظم رجال القبائل وخذلوه خوفا من قوة الجيش الفرنسوى وعظيم استعداده ولم يبق حوله سوى الجند المنظم وهو غير قادر على لقاء الفرنسويين فارتد بانتظام وامر حاكم « معسكر » بالجلاء عنها فجلا عنها مع السكان ماعدا اليهود وفى يوم ٦ يناير سنة ١٨٣٧ دخلها المارشال فالفاها خالية وكان الغوغاء قد نهبوها واضرموا النار فى بعض احيائها فاقام فيها يومين ثم غادرها الى وهران فعاد اليها الامير

واعد المارشال كلوزيل حملة اخرى زحف بها يوم ١٢ منه الى تلمسان فدخلها بدون مقاومة وكان سكانها قد جلوا عنها بامر الامير

وقابل الامير برجاله الفرنسويين حينما اوغلوا فى شوارعها ودار قتال عنيف فى داخلها امتد من الصباح الى الزوال

وكان فى قلعة تلمسان جماعة من اعداء الامير لجأوا اليها حين استيلائه على مدينتها فاغتنموا الفرصة وفتحوا ابواب القلعة للجيش الفرنسوى فدخلها يومى ١٧ و ١٨ منه وتحصن فيها حتى يوم ٢٠ منه ثم خرج للقاء الجيش العربى فدارت معركة عنيفة تساوت فيها الكفة

وفرض المارشال كلوزيل غرامة حربية باهظة على تلمسان وامر ان يتولى جمعها زعماء الشيعة الذين كانوا فى القلعة وهم الذين اصطفاهم الفرنسويون واعتمدوا عليهم وارتكبت خطيئات كثيرة فى اثناء جباية هذه الغرامة

واقام المارشال حامية فى تلمسان بقيادة الجنرال كافنياك ولقيه الامير برجاله وهو عائد الى وهران فدارت معارك بين الفريقين استمرت ١٠ ايام وانتهت بارتداد الفرنسويين الى تلمسان فقضوا فيها ثلاثة ايام للراحة واعادوا تنظيم قواهم ثم غادروها يوم ١٠ فبراير فلقيهم الامير ونازلهم واستولى على جانب من ذخائرهم فبدلوا خطة سيرهم وقصدوا مرسى رشكون والامير يضرب فى اقفيتهم فدخلوه وتحصنوا فيه فضرب عليهم الحصار

ووصلت بعد ذلك السفن الى المارشال كلوزيل فركبها مع رجاله وسار الى وهران ، ولم يطل فيها الاقامة بل غادرها الى الجزائر بعد ما امر باعداد حملة لتطهير الطريق بين وهران وتلمسان وفتحه فسارت فى اوائل شهر ابريل وكانت تتألف من ثلاثة آلاف جندى مع بطاريتين فاستقبلها الامير فى وادى تافنا ودارت يوم ٧ منه معارك استمرت اياما وانتهت بارتداد الحملة الى وهران قبل بلوغها تلمسان بعد مافقدت مدافعها وجانبا من رجالها

واستبدلت الحكومة الفرنسوية عقب هذه الوقائع الجنرال دولورانج حاكم وهران بالجنرال بيجو وامدته بثلاثة آلاف جندى فجاء الى وهران واعد حملة زحف بها يوم اول يوليو الى تلمسان لانقاذ حاميتها المحصورة فدخلها بعد معركة فاز فيها على

الجزائريين الذين نازلوه على نهر سكال بقوى ضئيلة وفك الحصار عنها . وعاد الامير ثانية الى حصارها بعد سفر الحملة الى وهران فاقام حولها مدة تسعة اشهر بدون ان تفتح له

وغادر المارشال كلوزيل الجزائر فى تلك الايام الى باريس للاتصال بولاة الامور واقناعهم بامداده بنجدات جديدة فاعتذروا له باضطراب الحالة فى الداخلية واشاروا عليه بان يكتفى بما عنده من قوى فعاد الى الجزائر وعكف على تجهيز القوى واعدادها لغزو بلاد الجزائر الشرقية اى منطقة قسنطينة وكانت لاتزال مستعصية على الفرنسويين وكان يرجو ان يعوض بما يدركه من نصر فيها مافاته فى المنطقة الغربية فلم تلق حملته نجاحا فعاد الى الجزائر وفيها تلقى الامر باقالته فسافر الى فرنسا وحل محله الجنرال دومرمون

واغتنم الامير فرصة اشتغال الفرنسويين بحرب المنطقة الشرقية فارسل رجاله الى وهران فاحاطوا بها وحاصروها برا ومنعوا عنها الاقوات كما ارسل قوة اخرى لمحاصرة الجزائر ومضايقتها

عقد الهدنة

وانتدب الجنرال دوبروسوار حاكم وهران ابن دران اليهودى فقابل الامير واقنعه بعقد هدنة مع الفرنسويين تريح البلاد من عناء الحرب وتعيد اليها الهدوء ، فاتفقا على ان يفك الامير الحصار عن الاماكن المحصورة ويعود الى مراكزه ويقعد عن الحرب بشرط ان يطلق الفرنسويون سراح الاسرى الذين لديهم وعلى ان يكون ابن دران الوسيط فى البيع والشراء فيشترى للفرنسويين ماهم فى حاجة اليه من الميرة والحبوب ويشترى للامير ماهو فى حاجة اليه من معدات الحرب

ونفذت احكام الهدنة واتاح تنفيذها للامير ابتياع مايحتاج اليه من السلاح والذخائر والمعدات الحربية

ووصل والهدنة معقودة الجنرال دومرمون وجاء معه الجنرال بيجو وهو الذى

احتل تلمسان ، لسكى يتولى ولاية وهران بدلا من الجنرال دو برو سوار (شهر ابريل سنة ١٨٣٨) ووصلت نجدات جديدة قيل ان عددها بلغ ٨٠ الفا

وارسل الامير ابن داران بطل انفاق الهدنة لتهنئة الجنرال بالقدوم وليبلغه بانه اعتزم سك نقود باسمه للتداول فاستمهله ريثما يستأذن حكومته و بعد ايام اجابه بانها لاتوافق على طلبه

١٣

معاهدة تافنا

كتب الجنرال بيجو عقب وصوله الى وهران كتابا الى الامير هذا نصه :

« لقد وصلت الى وهران مكلفا من قبل دولة فرنسا باجراء احد امرين فاما صلح وسلام وهو الاولى ويكون خيره ونفعه عائدا على الامتين العربية والفرنسوية واما حرب عوان لاهوادة فيها ولا رحمة فارجو بعد انعام النظر ان تتنازلوا برد الجواب »

ورد الامير بكتاب قال فيه « وصلنى كتابكم واحطت به علما فقد ذكرتم ان دولة فرنسا امرتكم باجراء الصلح ان امكن والا فاستعمال السيف مع ان دولة فرنسا تعرف اننى اشد الناس رغبة فى حصول العافية واشدهم بغضا لسفك الدماء بدون موجب شرعى وانها لتعلم اننى راغب فى عقد الصلح واقامة دعائمه على اساس قوى لايتضعضع ويشهد بذلك ماخابرتها به على يد سفيرها فى طنجة فان ساعدت العناية الالهية على اجراء هذا الامر على يدكم فهو دليل على صفاء طويتكم لعباد الله تعالى وصدق خدمتكم للدولة والشعب معا فانظروا ماترغبون فيه واخبرونى به على الفور بواسطة رسولى اليكم حتى انظر فيه »

وارسل الجنرال مقترحات الى الامير لم يقبلها لثقلها وشدة وطأتها ورد عليه بمشروع لم يقبله وطال الاخذ والرد وتدخل حاكم الجزائر العام واخيرا وقعا على المعاهدة الآتية وتعرف بمعاهدة تافنا وهى :

١ – يعترف الامير بسلطة فرنسا على مدينتى الجزائر ووهران

٢ – يبقى لفرنسا فى اقليم وهران : مستغانم ومزغران واراضيهما . ووهران

وارزيو واراضيهما يحد ذلك شرقا نهر المقطع والبحيرة الذى يخرج منها جنوبا بخط يمتد من البحيرة المذكورة فيمر على الشط الجارى الى الوادى المالح على مجرى نهر سيدى سعيد و يمتد هذا النهر الى البحر بحيث يصير كل ماهو ضمن هذه الدائرة للفرنسويين

ويبقى لفرنسا فى اقليم الجزائر مدينة الجزائر مع الساحل وارض متيجة يحد ذلك شرقا وادى القدرة وما فوقه وجنوبا راس الجبل الاول من الاطلس الصغير الى نهر الشفة مع البليدة واراضيها وغربا نهر الشفة الى كوع مزغران ومن ثم بخط مستقيم الى البحر فيكون ضمنه القليعة مع اراضيها بحيث يصير كل مافى داخل هذه الدائرة من الاراضى لفرنسا

٣ ـ تعترف دولة فرنسا بسيادة الامير عبد القادر على اقليم وهران واقليم تيطرى والقسم الذى لم يدخل فى حكم فرنسا من اقليم الجزائر لجهة الشرق بحسب التحديد المعين فى الشرط الثانى ولا يسوغ للامير ان يمد يده لغير ما ذكر من ارض الجزائر

٤ ـ ليس للامير حكم ولا سلطة على اهل البلاد المملوكة لفرنسا ويباح للفرنسويين ان يسكنوا فى مملكة الامير كما يباح للمسلمين ان يستوطنوا فى البلاد التابعة لفرنسا

٥ ـ يمارس العرب الساكنون فى الاراضى التابعة لفرنسا ديانتهم بحرية تامة ولهم ان يبنوا جوامع بحسب مرتبهم الدينى برئاسة علماء الدين الاسلامى

٦ ـ على الامير ان يقدم للفرنسويين ٣٠ الف كيلة من القمح ومثلها من الشعير بمكيال وهران وخمسة آلاف رأس بقر، يسلم ذلك كله بمدينة وهران على ثلاث دفعات الاولى من غرة شهر اغسطس الى ٢٥ سبتمبر والقسطان الآخران يسلمان بانتهاء كل شهرين قسطا

٧ ـ يسوغ للامير ان يشترى من فرنسا البارود والكبريت وسائر مايحتاجه من الاسلحة

٨ ــ ان « الـكول اوغل » الذين يريدون ان يقيموا فى تلمسان او غيرها من المدن الاسلامية لهـم ان يتمتعوا باملاكهم بكمال الحرية ويعـاملون معاملة الحضر والذين يريدون الانتقال منهـم الى الاراضى الفرنسوية تـكون لهم الرخصـة ببيع املاكهم او ايجارها بمطلق الحرية

٩ ــ تتخلى فرنسا عن اسكلة رشكو ومدينة تلمسان وقلعـة المشور مع المدافع القديمة التى كانت فيها قديما ويتعهد الامير بنقل الذخائر الحربية والامتعة العسكرية التى للفرنسويين فى تلمسان الى وهران

١٠ ــ تـكون التجارة حرة بين العرب والفرنسويين ويتمتع الجميع بحرية التبادل فى البلادين

١١ ــ يكرم الفرنسويون العرب كما يكرم العرب الفرنسويين وكل ما امتلـكه او سيمتلكه الفرنسويون فى بلاد العرب يكفل لهم حفظه بحيث يتمتعون به بكل حرية ويلزم الامير بان يدفع لهم الضرر الذى تحدثه النوائب فيها

١٢ ــ يكون رد المجرمين من الطرفين بالتبادل

١٣ ــ يتعهد الامير بان لايعطى دولة من الدول الاجنبية جانبـا من الساحل الا بموافقة فرنسا

١٤ ــ لا يسوغ بيع محصولات او لوازم الاقليم ولا شراء شىء الا فى الاسواق الفرنسوية

١٥ ــ لدولة فرنسا ان تقيم فى المدن التى فى مملـكة الامـير وكلاء ينظرون فى شؤون الرعايا الفرنسويين وحل المشكلات التجارية فيما بينهم وكـذلك فان للامير ان يضع وكلاء من طرفه فى المدن التى تحت ادارة فرنسا

حرر فى تافنا يوم ٦ ربيع الاول سنة ١٢٥٤ واول يونيو سنة ١٨٣٨

واجتمع الامير بالجنرال بيجو على اثر توقيع هـذا الاتفاق فى تافنا وتبادلا التهـانى . وارسـل الاتفاق الى باريس فاقرته حكومتها وارسـل الملك هـدية للامير اسلحة مجوهرة واقمشـة حريرية مطرزة بالذهب واوانى صـينية فاخرة

مكتوبة بالذهب على كل صفحة منها كلمة من كلام الحكماء الاقدمين وطقم شاى من الذهب الابريز

وتسلم الامير الهدايا باحتفال حافل ونفذت احكام المعاهدة وجلا الفرنسويون عن تلمسان وسلموها للامير وعاد الهدوء الى البلاد وفتحت الابواب للتجارة

وهذا هو نص البيان الذى اذاعه الامير على سكان الجزائر بهذه المناسبة :

« الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد فان البشائر الاسلامية والمفاخر الايمانية ينبغى ان تشاع وتشاد ، ويطال فى ذكرها الاطراء والانشاد وينادى عليها بالتهانى فى كل ناد ، وترفع احاديثها الصحيحة ثابتة المتون عالية الاسناد ويسير بخبرها الركبان فى الاغوار والانجاد ، وتتحلى بحليها الشفاه والآذان والاجياد ، ليأخذ كل مسلم حظه من سواطع لوامع مسراتها ، وينال كل مؤمن نصيبه من مواهب مبراتها ، وخصوصا فيما يرجع الى اعلاء الدين وظهوره ، ورسوخ قواعد الاسلام وفروعه ، وما يعود الى الاعداء بالصغار والهوان ، ويلبسهم الخزى والخسران ، فان لذلك تأثيرا كبيرا فى قلوب الذين هدى الله يدل عليه « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » والى هذا اراد الله لكم التسديد والتوفيق ، وهداكم الى اقوم سبيل وطريق ، فقد ورد البشير بما شرح الصدر واعلا الاسلام لظهور القوة ورفع القدر من فتح تلمسان ، فى تاسع شهر صفر الخير سنة اربع وخمسين ومائتين على يد من رفع راية الاسلام واعزها حضرة مولانا ناصر الدين سيدنا الحاج عبد القادر بن محيي الدين بفضل الله وسعادة صاحب هذا الميدان ، بعد محاصرتها شهورا عديدة ، واياما مديدة ، بصلح اسفر عن العز وجه نجاحه ، وطلع فى فلك الاسلام طالع سعده وفلاحه ، فاصبحت به ثغور الدين بواسم ، وهبت به رياح بتتابع النصر بواسم ، واعلم ان خيل النصر تنجد فى كل حين وتغور ، وتوالى الشدائد على العدو فى المساء والبكور ، حتى ترده على اعقابه وتدخل عليه من ابواب الظهور والقابه ، فيتهافت فى الفرار تهافت الذباب على الشراب ، ويقنع من الغنيمة بالاياب

وقد اعلناكم بهذه البشرى واطلعناكم على هذه النعمة الكبرى ، لتأخذوا اوفر نصيب من معانيها اللطيفة، وترووا احاديث صحيحة موصولة باسانيدها الحنيفة، وتعلموا ان كيد الاعداء فى افتار،وان امرهم بمجرد اقباله يعقبه الادبار،فبمثل هذا تقر العيون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وما ورد البشير حتى انتشرت راية الاسلام فى معاهدها وشهد لله بالوحدانية فى مشاهدها، واقيمت الصلوات فى مساجدها ، فلله الحمد على هذه المنة العظيمة ، والمنحة الجسيمة ، نسأل الله ان يتم مسرات المسلمين بفتح وهران والجزائر ، ويجعلهما فى صحائف المجاهدين من الذخائر ، ويخلص الجميع من يد عصابه انه على مايشاء قدير وبالاجابة جدير » اه

١٤

حروب قسنطينة

وجه الفرنسيون عنايتهم فى خلال الدور الاول ١٨٣٠ — ١٨٣٤ الى امتلاك منطقة الجزائر لانها قائمة بين مقاطعتى قسنطينة ووهران ولان الاستيلاء عليها يسهل لهم امتلاكهما ، وما كادت اقدامهم تستقر هنا حتى التفتوا الى وهران فاستولوا عليها ولما شرعوا فى الزحف على داخلية هذه المقاطعة وقفت فى وجههم القوات التى جمعها الامير عبد القادر ونازلتهم فشغلوا بها عن كل ماسواها فكانت تلك الاحداث المريعة التى سردنا تفاصيلها

واول محاولة بذلها الفرنسيون للاستيلاء على مقاطعة قسنطينة كانت فى سنة ١٨٣٠ اى فى اوائل مجيئهم فقد ارسل الجنرال كلوزيل كتابا الى احمد باى حاكمها يدعوه الى الدخول فى طاعته فمزق الكتاب وقتل الرسول فاستشاط الجنرال غيظا وامر بعض البوارج فسارت الى بونة (عنابة) بقيادة الكونت دى ريمون فاستولت عليها سلما و بمساعدة سكانها الذين كانوا نافرين من حاكمهم لظلمه وبطشه وكان يتبع حكومة قسنطينة

ووطد الفرنسيون اقدامهم فى هذا الثغر وكانت خطتهم فى هذه المرحلة تقوم على امتلاك السواحل والثغور وقبعوا تحت حماية اسطولهم من دون ان يحاولوا زحفا الى الداخل

وتبدل الموقف بعد وصول المارشال كلوزيل فى سنة ١٨٣٦ و بعد ما اعتزم القوم تدويخ الجزائر وامتلاكها بالسيف فقد اعد حملة سار بها بحرا من الجزائر يوم ٨ نوفمبر سنة ١٨٣٧ الى عنابة فنزل فيها وفى يوم ١٥ منه احتل « قالمه » فاقام فيها

اياما ثم عرض جنده وسار الى الامام فصده القائد على بن عيسى من قواد احمد باى حاكم قسنطينة ودار قتال استمر حتى منتصف الليل وانتهى بارتداد الفرنسويين الى قالمة تاركين قتلاهم وجرحاهم وذخائرهم فاستقروا فيها وحصنوها واقاموا فيها حامية تتألف من فرقتين بقيادة الاميرالاى دو فيفر

وما كادوا ينتهون من حرب الامير و يعقدون معه اتفاق تافنا وقد امنوا به جانبه واطلق يدهم اطلاقا تاما حتى جمعوا ما كان عندهم من قوى واجناد فى مقاطعتى وهران والجزائر وسيروها الى عنابة بغية الاستيلاء على قسنطينة والقضاء على حكومتها وكانوا يحسبون حسابها

و زحفت الحملة فى اواخر شهر سبتمبر سنة ١٨٣٨ من عنابة الى قالمة ثم تقدمت الى مضيق عمار فاستولت عليه بدون قتال ولا عناء وهو من المراكز الحربية الخطيرة

وفى يوم اول اكتوبر تقدمت الى قسنطينة فخرج احمد باى بنخبة من رجاله للقائها

ودارت معركة حامية بين الفريقين حول قسنطينة استمرت ستة ايام بلياليها وفى اليوم السابع استولى الفرنسويون على الخندق فأوقف الجنرال القتال وكتب الى الباى والى على بن عيسى قائده والى الأعيان كتابا دعاهم فيه الى التسليم للنجاة من السيف فردوا عليه بكتاب هذا نصه :

« من الامة المحافظة على شرفها و بلدها الى العسكر المعتدى على حقوق غيره

« قد وصلتنا رسالتكم وفهمنا ماذكرتموه فيها وهو ان مركزنا امسى فى خطر عظيم ولكن استيلاءكم على قسنطينة المحمية بالأبطال العربية الذين لا يهابون الموت موقوف على قتل آخر واحد منا ، فاعلموا ان الموت عندنا تحت اسوار بلدنا احسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا »

واستؤنف القتال وشرع الفرنسويون فى ردم الخندق وتقدم القائد العام ومعه الدوق دى نمور الى الميدان فأصابته قنبلة مدفع فى صدره فخر صريعا يتخبط فى دمه فتقدم الجنرال بريكو ليحل محله فاصابته رصاصة فى جبهته فمات فتولى القيادة الجنرال

كاله فأمر بضرب العدو بالمدافع ، وحمل الكولونيل لامورسير بفرقته على السور فانفجر لغم اعده المجاهدون فاهلك كثيرين من المهاجمين فحمل الجنرال كومب بفرقته وواصل الفرنسويون الهجوم فاقتحموا السور واستولوا على المدينة بعد ما دمروها وفنى معظم رجال الحملة وانسحب احمد باى الى الزيبان وفيها جمع بقية رجاله وسار بهم الى بسكره حاضرة بلاد الزيبان فاستولى عليها فجاء صاحبها الى الجزائر يطلب من الفرنسويين اعادته الى بلاده فأهملوا شأنه لانهم ما كانوا يريدون الاشتباك فى حرب جديدة فقصد الى المدية وقابل الأمير عبد القادر ودعاه الى احتلال بلاده فجهز قوة عسكرية ذهبت الى بسكرة وكان احمد باى قد غادرها الى الصحراء ثم قدم الجزائر وسلم نفسه للفرنسويين وانتهى امره

١٥

مساعى الامير السياسية

كان القضاء على حكومة الباى احمد فى قسنطينة او حكومة شرقى الجزائر نذيرا بقرب القضاء على حكومة الأمير عبد القادر فى غربيها ، فان فوز الفرنسويين بالقضاء على احداهما يسهل لهم التخلص من الاخرى

ومع ان مؤرخى الامير عبد القادر عنوا بتدوين الصغيرة والكبيرة من أموره فانهم لم يذكروا ما يدل على انه سعى للاتفاق والتفاهم مع الباى احمد فى قسنطينة مع ان فى هذا التعاون لو تم فائدة للفريقين على السواء لأنه ينشأ منهما قوة كبيرة تستطيع الوقوف فى وجه الفرنسويين

ولا ريب ان قعود الفريقين عن السعى للاتفاق وحرص كل منهما على التمسك باستقلاله المحلى واحجامه عن التقرب من اخيه وجاره ووصل حبله بحبله مع ان غايتهما واحدة والخطر الذى يهددهما واحد ـ ان ذلك كان من جملة العوامل التى مكنت للفرنسويين فى الجزائر وجعلتهم يتغلبون عليها ، فقد وقف صاحب قسنطينة وقفة المتفرج فى خلال الحروب الطويلة التى دارت بين الفرنسويين و بين حكومة الغرب ، وابى ان يغير على هؤلاء او يهاجمهم فى اثناء حروبهم مع اخوانه ولو فعل لا نزل بهم خسارة عظيمة ولحملهم على الجلاء نهائيا فقد كان فى فرنسا يومئذ فريق كبير يقول بالجلاء عن الجزائر وتركها لابنائها تخلصا من المتاعب العظيمة التى اصابتهم فضلا عن ان حالة فرنسا الداخلية كانت مرتبكة مضطربة.واسرع الفرنسويون بعد اتفاقهم مع الأمير عبد القادر و بعد ما امنوا جانبه فجمعوا جموعهم وساروا الى

قسنطينة فهاجموها بين سمعه و بصره واستولوا عليها ودكوا حكومتها وهو ينظر اليهم ولا يحرك ساكنا ، كأن الامر لايعنيه ولا يتعلق به ، مع ان الأمر بالعكس . و بدلا من ان يرسل قواه للدفاع عنها وكانت تؤلف بطبيعتها خط دفاع قوى عن حكومته ، ارسل جنوده الى بلاد الزيبان لطرد احمد باى فدخلت بسكرة وطردته منها واستولت عليها ، ففر خائفا ولجأ بعد ذلك الى الفرنسويين مضطرا ، ولئن سر بعض رجال الامير وحاشيته بما تم لهم من الاستيلاء على المقاطعة الجديدة عقب سقوط حكومة قسنطينة فان سرورهم لم يطل اذ اتخذ الفرنسويون دخولهم اياها وسيلة لنقض المعاهدة والرجوع الى الحرب ، فحملوا عليهم وقاتلوهم وهزموهم فكانت صفقتهم هى الخاسرة

و بيان ما حدث ان المارشال فاله حاكم الجزائر العام يومئذ احتج على دخول رجال الأمير الى بسكرة وطلب خروجهم فورا فرد عليه الامير بأنكم استوليتم على مدينة قسنطينة والخط الممتد بينها وبين مرسى بونة (عنابة) لاغير فان ادعيتم ان جميع ما كان تحت سلطة احمد باى تابع لذلك فهو محل نظر واما ما استولينا عليه فانه بعيد عن دعواكم ولا حق لكم فيه اذ لا يعد من اعمال قسنطينة التابعة لحكومة باى احمد ولا كان تابعا لها بل كان حكام هذه البلاد من أهلها لا تعلق لهم به ولا يد له عليهم منذ انقرضت الحكومة من الجزائر ولهذا فليس لكم فى البلاد التى استوليت عليها يد تسمع عند اهل العدل

ولم يقنع هذا الجواب المارشال ولكنه سكت وأخذ يتحين الفرص لنقض المعاهدة ثم اقترح على الامير ارسال وفد الى فرنسا لتحية الملك فوافق بعد تردد وانتدب لهذه السفارة الحاج مولود بن عراش ناظر خارجيته فسافر يحمل هدايا ثمينة وعاد بمثلها ولما بلغ الجزائر اقترح عليه المارشال توقيع ملحق لمعاهدة تافنا يفسر الغامض من معانيها ثم سلمه مشروع هذا الملحق طالبا منه اقراره والتوقيع عليه وهذا نصه :

« ان المارشال فاله حاكم الجزائر ومعتمد الامير عبد القادر الحاج مولود بن عراش اتفقا على توضيح الكلمات المبهمة فى صك معاهدة تافنا على ماياتى :

١ — ان يكون الحد فى جهة الشرق من الجزائر ممتدا من مجرى نهر القدرة الى منبعه فى جبل طبيارين ومنه الى يسر فوق جسر بنى هنى وعليه فيكون خط التحديد الحالى فيما بين وطن فليسه ووطن بنى جعد وما بعد يسر الى البيبان وطريق الجزائر الى قسنطينة بحيث يكون برج ابن حمزة وجميع الاراضى الكائنة فى شمال وشرق الحدود المذكورة الى البحر تابعا لدولة فرنسا وان باقى اراضى بنى جعد وونوغا جنوبا وغربا من هذه الحدود يبقى تابعا للامير . وفى عمالة وهران يسوغ لفرنسا ان تمر عساكرها من ارض ارزيو الى ارض مستغانم واذا رأت مناسبا لها ان تصلح قسما من الطريق الكائن فى شرق المقطع فلها ذلك بدون تعد على ارض الامير

٢ — ان ما تعين على الامير ان يسلمه للعساكر الفرنسوية من الحنطة والشعير فى مدة ثلاثة أشهر والى الآن ما دفعه يلزم ان يكون تقديمه منجما على عشرين سنة فيقدم فى اول شهر يناير من كل سنة منها قسطا من كل صنف من الصنفين المذكورين وان يكون التسليم فى مدينة وهران

٣ — يطلب الامير جميع ما يحتاج اليه من الادوات والذخائر الحربية من الحاكم وهو يحضره و يسلمه الى وكيله فى الجزائر باثمانها الاصلية التى اشتريت بها فعلى هذه الوجوه يكون الاجراء بدون تغيير ولا تبديل

٤ — يظل العمل بباقى الشروط الاخرى الواردة فى المعاهدة »

وطلب المارشال من ابن عراش التوقيع على المشروع فاعتذر بانه غير ماذون ووعد بالسعى عند الامير لحمله على الموافقة فلم يرض الحاكم وأصر عليه بان يكتب فى ذيله بانه اطلع عليه واستحسنه فتوقف ثم كتب عليه ما نصه « اننى اطلعت على هذا الملحق واستحسنته ولست مسؤولا عن مصادقة اميرى عليه »

واجاز له المارشال السفر بعد هذا التوقيع وارسل معه صهره القائد دوسال ليقابل الامير وينال منه الموافقة على المشروع فحاول اقناعه بعدم فائدة ارساله قائلا ان الامير يقيم حول حصن ماضى وهو فى مكان سحيق ولا سبيل للوصول اليه فابى فسار الاثنان حتى مدينة مليانة ونزلا على حاكمها الجزائرى (الخليفة) وابى هذا ان يصرح للقائد الفرنسوى بالسفر الى الداخلية قبل وصول امر من الامير يبيح له ذلك ورجاه ان يبقى عنده فى انتظار صدور الامر

وغادر ابن عراش مليانة ليلا وعلى عجل وسار الى العاصمة وقابل الامير فوبخه هذا على استبداده فيما كتبه فاعتذر بانه لم يفعل ذلك الا اتقاء شر المارشال وللافلات من قبضته

وعاد القائد دوسال من مليانة الى الجزائر فقص على المارشال ماحدث له وذكر له ان ابن عراش تركه فيها وسار الى العاصمة فغضب لهذه المعاملة وكتب الى باريس ملحا بنقض المعاهدة وعكف فى خلال ذلك على انشاء الحصون والاستحكامات وحشد القوى والتأهب للحرب

وحذا الامير حذوه فشرع فى الاستعداد واصدر الاوامر الى قواده بلزوم الحذر والحيطة وهكذا اضطرب الجو وفترت الصلات ، ورأى المارشال فاله ان يعجم عود الامير قبل الاشتباك فى الحرب ، والظاهر ان حكومة باريس ماكانت تميل الى التعجيل باضرامها لاضطراب الحالة فى داخلية فرنسا فكتب الى الامير مقترحا عليه ان يوافق على زيارة القائد دوسال له لمناقشته فى امر الملحق ، فاجاب بالايجاب ، واستقبل المندوب حين وصوله بالحفاوة وامر بجمع مجالس الشورى والعلماء فلما اجتمعوا ادخل عليه واجلس الى جانبه ثم استشارهم فى « الملحق » وسألهم هل يقبله ام يرفضه وقال ان رفضه معناه الحرب فقالوا انهم يرفضونه وانه اذا كانت فرنسا توافق على التمسك بمعاهدة تافنا فان الامر ينتهى بيننا و بينها والا فلا مناص من الحرب

وقال الامير للرسول لقد سمعت باذنك رأى القوم وشاهدت كل شيء فعد الى مرسلك وابلغه ما وقفت عليه وقل له اننا لعهدنا حافظون وانه لايهمنا قبول اقتراحه ولا

الموافقة عليه والراى عندى ان تسعى لاقناعه بابقاء القديم على قدمه فذلك اولى وافضل لمصلحة الفريقين والبق بالجانبين

وقص هذا على المارشال ما شاهده ، واطلعه على راى الامير فكتب الى باريس بما جرى واقترح ابلاغ الامير بان فرنسا لا تقبل الحكام الذين اقامهم فى الاماكن المختلف عليها وان تلجأ الى تهديده فان لم يجد ذلك تأمر بالهجوم عليه فتستولى على برج حمزة وما يليه من البلاد الشرقية ثم تكتب بعد ذلك اليه بان ماجرى ليس نقضا للصلح بل تتميم له

الامير يكتب الى رجال فرنسا

وعرف الامير بما يحيكونه فى الخفاء وما يدبرونه لنقض المعاهدة والرجوع الى الحرب فكتب الى ملك فرنسا كتابا مطولا جاء فيه : ولما راينا الجنرال بيجو راغبا فى الصلح ورابنا بلادنا تحتاج الى ما به عمرانها وفيه راحتها ، اجبناه الى مطلوبه وعقدنا معه الصلح ظنا ان دولة فرنسا تحافظ على العهد كما اننا كذلك ، فاذا بعمالكم فى الجزائر بادروا الى مافيه خيبة الظن ، وعجلوا بما يؤدى الى الضرب والطعن ، فكاتبناهم فى ذلك فما سمعوا ، ولاطفناهم فى القول والفعل فما قنعوا ، بل جمعوا حولهم وقوتهم فيما يحملنا على الاجابة الى ما لا يجوز شرعا ان نجيب الى مثله وهو التخلى عن قسم عظيم من بلادنا والتسليم فى اخواننا واهل ديننا وحيث انه غلب على الظن انكم لاترضون بوقوع ما يكدر صفونا ، ويقطع مواصلتنا بادرنا الى ارسال هذه الرسالة الودية لتعلموا منها ما هو واقع بيننا وبين عمالكم وتتأكدوا اننا راغبون فى مسالمة فرنسا ومصافاتها ودوام معاملتها فى المتجر وغيره من اسباب العمران

« ولا تظن الدولة الفرنسوية ان رغبتنا فيما ذكرناه لضعف اعترى قوتنا ، او لقصور اخذ من حدة شوكتنا ، فاننا بحول الله وقوته لم نزل ولا نزال على ما تعهده عساكرها من عساكرنا من كونها تعطيها فى ميادين الهيجاء كيلا بكيل ، وتقابلها المثل

بالمثل غير اننا لما راينا ذلك لايجدى نفعا رغبنا فى المعاهدة طلبا للراحة والوصول الى ما فيه عمران البلاد كما أشرنا الى ذلك آنفا وكتبنا الى جلالتكم هذا اعلاما بالحال »

وعزز الامير كتابه هذا بثان بعد انقضاء مدة فلم يتلق جوابا . ثم اتصل به أن وزيرى الخارجية والحربية اقيلا من منصبيهما وان المسيو تيرس السياسى الشهير تقلد الوزارة الاولى وان المارشال جراردان حل فى الثانية فكتب الى الملك كتابا ثالثا كما كتب الى كل منهما كتابا مطولا مفصلا

ومما قاله فى كتابه الى الملك « كنت بعثت الى جلالتكم برسالتين ذكرت فيهما ما هو واقع بيننا و بين عمالكم فى الجزائر من الوحشة ورغبتنا فى زوالها من لدن جلالتكم بوجه العدل والانصاف ، كما أننا رغبنا أن تأمروهم بالعدول عن طريق الظلم والاعتساف، والى الآن ما وصلنى جواب عن واحدة منهما فظهر لنا من ذلك انهما لم يصلا اليكم لان كرم الاخلاق يأبى أن تكونوا بعد اطلاعكم عليهما تغافلتم عن رد الجواب و بناء عليه كتبت هذا علاوة على ما تقدم رجاء أن يصل وتطلعوا عليه وانه يحوز القبول . وقصارى ما اقول ان اعمالكم فى الجزائر اجهدوا انفسهم فيما ينقض الصلح المنعقد بيننا و بينكم من غير موجب من جهتنا البتة وانما حملهم على ذلك ماسولته لهم انفسهم من التعدى على حقوق عباد الله ومن مد اليد الى ما ليس لهم فيه وجه فالبلاد التى ذكرها الحاكم فى تذييله هى بلاد سبقنا نحن اليها ووضعنا أيدينا عليها وهى فى حكم الموات لا حاكم لها بمقتضى الشرع وذلك منذ انقرضت الحكومة من الجزائر وأعمالها ولم تدخل قط فى حوزة احمد باى حاكم قسنطينة ولا كانت بينه و بين أهلها مواصلة سياسية فبأى وجه ينازعوننا فيها ونحن أحق بها واهلها من وجوه لا تخفى على المنصف ذى القلب السليم . وهب انها كانت من اعمال قسنطينة التى استوليتم عليها واخذتموها من يد احمد باى فان احمد باى كان حاكما عليها بالتغلب ايام دخولكم الجزائر وهب انه كان عاملا عليها من قبل حكومة الجزائر فان تلك الحكومة انقرضت و بانقراضها انقرضت احكامها وحكامها فلا سلطة شرعية لاحمد باى عليها و بقاؤه فيها انما كان على سبيل الدعوى لنفسه والناس لم يقبلوه ان يكون

ولى امرهم ولا اعتبروه رئيسا عليهم مطلقا ، وتغلبه كان على نفس مدينة قسنطينة وبونه ولو وجد اهل تلك النواحى من المسلمين من يأخذ بأيديهم ويدفعه عنهم لسارعوا اليه كما وقع ذلك حين توجهنا الى النواحى التى تلينا ومن جملتها الاراضى التى نازعتنا فيها عمالكم بغير حق . وبالجملة فسلوك هؤلاء العمال حائد عن طريق الحق مغاير لأساليب العدل ومن العجب انهم تعدوا على نفر من عساكرى وحبسوهم بدون سبب شرعى ، ولا داع قانونى ، وعلى فرض ان لهم وجها فيما فعلوه فكان الواجب عليهم ان يخابرونا فى امرهم ونحن نجرى عليهم ما تقضى به الاحكام الشرعية او القانونية على حسب ذنوبهم

ثم انهم منعوا بيع الحديد والرصاص والنحاس فى اسواقنا كما انهم منعوا تجارنا من شرائه فى اسواقهم ، واهانوا رسلى اليهم ، واعرضوا عن رد اجوبة رسائلى التى وجهتها اليهم وجعلوا ضريبة على المكاتيب التى ترد من الداخلية الى الجزائر وغيرها من المدن التابعة لهم ومع هذا كله فانهم يكتبون الى جلالتكم انى عدو فرنسا اطلب حربها واسعى فى اسبابه فينبغى والحالة هذه ان تأخذوا من اعنتهم ، وتضربوا على ايديهم ، وتأمروهم بالعدول عن سوء التصرف معنا فان كمال مروءتكم على ما شاع عنكم من مكارم الاخلاق يقضى عليكم بذلك ، فان قال هؤلاء العمال اننا تأخرنا عن اجراء البعض من شروط المعاهدة قلنا اننا لم نؤخر ذلك الا لكون الجنرال بيجو تقاعد عن اجراء ما تعهد به ظنا انى غافل عن تلك المعاهدة المحرر عليها اسمه بخط يده وما علم انى اعتبر صحة مواعيد شخص هو وكيل ملك فرنسا

فانظر ايها الملك فيما ذكرته لك واسمح برد الجواب والتعريف فى مقاصدك والله يوفقك الى ما فيه راحة العباد — اه

وقال فى كتابه الى المسيو تيرس وزير الخارجية الجديد :

انى اهنئ فرنسا برجوعك الى وزارة الخارجية واعلم ان الاثقال المهمة التى تقضى بصرف الهمة وتوجيه الفكر الى تحسين الاحوال بيننا و بينكم تجعلنى انتظر

منك ما اهنئ به نفسى فانك على ما بلغنا تحب الهدوء والسكون وتسعى فيما يحسن العلائق بين شعبك وسائر الشعوب

« ولا يخفى ان الاحوال الجارية بيننا و بين عمالكم لا يصلحها و يحسنها الا تأييد السلم المنعقد بيننا و بينكم وتوطيده وتحاشى الاعتداء بكل وجه . واما استعمال الحيل مع الاغضاء عن اجراء شروط المعاهدة لاجل مطامع خارجة عن جادة الحق فلا جرم ان ذلك يفضى بنا و بكم الى ما لاخير فيه لنا ولكم

« وحيث ان الحق تعالى وهبك من الاخلاق الحميدة ما اكسبك الثناء الجميل من ابناء وطنك فينبغى لك ان تستعمل تلك الشيم الكريمة كذلك فى افريقية وبذلك ينتشر ذكرك الحسن بين الامتين وتعطر انديتهما بمدحك وكمالك ، وتحصل لك الشهرة المطلوبة لكل عاقل ، و يدوم ذكرك فى العالم ، و بالجملة فانى انتظر منك ما يسر السامع وتبتهج به المجامع من تجديد الروابط بيننا و بين دولتكم

وقال فى كتابه الى وزير الحرب :

« لما بلغنى ان ملك فرنسا قلدك وزارة الحرب انشرح صدرى لذلك لعلمى انك تميل الى المسالمة وتسعى فى اسبابها ومن يكون قادرا على نظارة الحرب فلابد ان يكون قادرا على تمكين الصلح وحمايته من اعتداء المعتدين

« هذا وان معاملة عمال الجزائر لنا وسوء تصرفهم معنا لابد ان يكون قد شاع وذاع وتأسف له كل عاقل ، وتكدر منه كل فاضل ، فان هؤلاء العمال بعد ان عقدنا الصلح مع دولة فرنسا واسسناه على شروط قبلها كل منا وجرى بها العمل قاموا يتعاطون اسباب حل ما عقدناه ، ونقض ما اسسناه ، و بنوا امرهم على الطمع الذى يمقته والظلم الذى يمجه كل عادل وحاولوا تغيير كثير من الشروط و بحثوا فى معانى الفاظها العربية ولا ادرى هل كان ذلك منهم لجهلهم باللغة العربية أم هو على سبيل

التعنت ، ومن العجب انهم ارتكبوا ذلك ولم يعلموا انه حطيط فى حق دولتهم العظيمة

« وبالجملة فنحن نستدعى حسن التفاتك الى المطاليب التى اكثروا علينا فيها ونرجو نفوذك القوى عند جلالة الملك يعضد مقاصدك السلمية والله تعالى يوفقكم الى فعل الخير »

١٦

فى طريق الحرب

لم يتلق الامير اجوبة عن هـذه الرسائل التى وجهها الى ملك فرنسا ورجاله باذلا النصح وداعيا الى المحافظـة على العهود وحقن الدماء لان القوم كانوا كما تدل الدلائل يميـلون الى التخلص من هذه الحكومة العربية الناهضـة وامتلاك البلاد والفوز بها

ووصل الى الجزائر فى تلك الايام الدوق دوارليان ولى العهـد للاشراف على الاعمال العسكرية الجديدة والاشتراك فيها فاعد المارشال فاله عقب وصوله حملة كبيرة خرج على رأسها من الجزائر يوم ٦ اكتوبر سنة ١٨٣٩ الى قسنطينة فمر بالبـلاد الشرقية التى هى موضع النزاع ولما بلغ مضيق البيبان (فى داخـل اراضى الحـكومة الجزائرية) قسم جيشه الى قسمين فسار قسم الى قسنطينة وعاد الثانى الى الجزائر . واشترك ابن الملك فى هذه الحملة

ووصل الخـبر الى الامير بما فعله الفرنسويون وبدخولهم اراضيه بدون اذنه خلافا للعقود المعقودة فسار من مليانة الى المدية (قرب الحدود) وكتب الى المارشال كتابا قال فيه : لقد تجاوزتم الحدود المعـلومة بين بلادنا و بلادكم بغير اذنى ، ولا تقدم مخابرة فى ذلك ولا علم ومررتم بابن الملك فى عسا كركم الـكثيرة فى بلادى من الجزائر الى قسنطينة بدون وجه يسوغ لـكم ذلك و يجوزه ولو اخبرتمونى ان ابن الملك يريد زيارة بلادنا لـكنت رافقته بنفسى او عينت احد خلفائى لمرافقته

« والذى يظهر ان القصد من فعلـكم هذا اظهار التعدى على حقوقى حتى اتأثر لذلك و ينجر الامر الى نقض المعاهدة والحال ان فعلـكم هذا هو نفسه ناقض للمعاهدة

مبطل لها . و بناء عليه اعلن لكم انى عزمت على استئناف الحرب و بالله المستعان فارفعوا وكلاءكم من بلادى واندروا قومكم المقيمين فيها والمسؤلية عليكم وحدكم »

وارسل الامير على الفور البلاغ الآتى الى الامة العربية الجزائرية ليتلى فى المجامع والمحافل ايذانا بالرجوع الى الحرب وهذا نصه :

« ليكن فى علم سائر الخلفاء والاغوات والقواد وكافة المسلمين اهل بلادنا الدائنين بطاعة الله ورسوله ثم بطاعتنا وفقهم الله للقيام بفريضة الجهاد واعانهم بالقوة والامداد ان الفرنسيس قد اظهروا عدوانهم ، واتضح اعتداؤهم فتجاوزوا الحدود المقررة بيننا و بينهم ومروا فى بلادنا من الجزائر الى قسنطينة بدون اذن منا

« فتأهبوا اعانكم الله للحرب وهيئوا سيوفكم للطعن والضرب واستعدوا للدفاع عن دينكم ووطنكم واجمعوا امركم للذب عن موردكم وعطنكم وحيث ان مافى بيت المال لايفى بنفقات الحرب ولوازمها فقد تعين عليكم ان تفرضوا على انفسكم ومن يليكم اعانة جهادية ، وسارعوا بالحضور الى المدية فانى انتظركم فيها ووطدوا طريق الراحة والامن فى سائر اعمالكم على الوجه الذى اكون به مطمئن البال

« واعلموا ان النجاح موقوف على اخلاص النية فوجهوا قلوبكم الى الله تعالى واطلبوا منه تأييد كلمته وتشييد اركان دينه »

ووصلت الاخبار الى الجزائر بما يعده الامير من معدات فانتدب المارشال فاله ابن دران اليهودى للسفر اليه ومقابلته وحمله كتابا اليه قال فيه: « واننى لم ازل احافظ على السلم وقد ارسلت كتابا الى حكومتى ولا ازال انتظر جوابها فاصبر قليلا فانى ارجو تسوية القضية بيننا بما يرضى ولا يخفى ان غوائل الحرب عاقبتها وخيمة »

و بلغ ابن دران المدية والامير فى مجلس الشورى فدخل عليه وسلمه الكتاب واضاف عليه ان مرور ابن الملك كان بقصد التنزه والتفرج ثم تفرق المجلس من دون ان يبت فى امر

واجتمع المجلس فى الغد فحضر الزعماء والاعيان و بعد المناقشة اجمعوا على قتال الفرنسيس لانهم نقضوا العهد فقال لهم الامير اننى لااتأخر عن اعلانها ولا اتخلف

عن الجهاد وسأكون امام الصفوف . غير ان لى حقا عليكم وهو ان تعطونى عهدا وميثاقا على الطاعة وبذل النصيحة وان لاتسلكوا معى ولا فى سائر امور الدولة والملة سبيل الخيانة والغدر وان لاتولوا الادبار يوم الزحف وان لاتتخلفوا عن الجهاد والذب عن الدين والبلاد عند ما اطلبكم . فاجابوه الى ماطلب واقسموا له

واصدر المجلس عقب هذا الاجتماع البيان الآتى الى الامة الجزائرية وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

« الحمد لله الذى انزل فى كتابه المبين ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما ، والصلاة والسلام على نبيه القائل الجنة تحت ظلال السيوف وعلى آله واصحابه واتباعه الذين قاتلوا فى سبيل الله الوفا بعد الوف وصفوفا بعد صفوف ، اما بعد فان الفرنسيس المعتدين على البلاد الاسلامية بعد ماعاهدناهم وسالمناهم نكثوا وجالوا فى بلادنا وعاثوا ، ومن نكث فانما ينكث على نفسه

« ومن المعلوم ان التهاون فى مثل هذه الامور والاغضاء عنه يزيدهم طغيانا واعتداء علينا فلذلك قد اجتمعنا فى مجلس عال بحضور سيدنا المعظم ومولانا المفخم ناصر الدين عبد القادر بن محيى الدين نصره الله لاجل المذاكرة فى هذا الامر المهم ، والخطب الملم فوفقنا الحق تعالى جل جلاله للجواب والهمنا جادة الصواب ، واتفقت كلمتنا واتحدت آراؤنا على اعلان الجهاد والقيام بواجبه على اكمل استعداد

« وقد بايعنا حضرة اميرنا على الوفاء بواجبات الجهاد الشرعية ، وعقدنا على الصدق فى ذلك النية ، وحررنا هذا الصك ليكون شاهدا علينا فيما ذكرناه فاجيبوا ايها المؤمنون داعى الله ، وانفروا خفافا وثقالا الى مادعاكم اليه ، ومن تأخر منكم . فانما اثمه على نفسه كما ان لومه فيما يحل به من العقوبة الاميرية عليها

« ومن الله نستمد العناية وهو ولى الهداية »

حرر فى يوم ١١ رمضان سنة ١٢٥٥ و ١٦ ديسمبر سنة ١٨٣٩ بالديوان الاميرى المنعقد فى مدينة المدية المحمية

بلاغ الحرب

وارسل الامير عقب اذاعة هذا البيان الـكتاب الآتى الى المارشال فاله ردا على الـكتاب الذى حمله اليه ابن دران قال :

اما بعد فقد وصلنى كتابكم صحبة الموسوى ابن دران واحاط علمنا بما فيه وقد كنت كتبت اليكم من مدة خمسة عشر يوما مافيه الـكفاية ، والآن اعرفكم تعريفا نهائيا ان سائر اهل الوطن قد اتفقت كلمتهم واجتمع رأيهم على اسـترجاع شرفهم بالحرب لانهم رأوا تجاوزكم الحدود المعينة فى معاهدة تافنا مبطلا لها ناقضا لاساسهم

واما انا فقد اجهدت نفسى فى تغيير آرائهم وصدهم عن قصدهم فلم يجد ذلك نفعا بل زادهم هياجا ورغبة فى اشهار الحرب وجعلوا العهدة فى تأخيره على وحـدى فبناء على ذلك اعلموا اننى ماحنثت ولا نـكثت عهدى معكم وانمـا ذلك كان منكم لامنى فاذنوا لوكلائى عندكم فى تعجيل الاو بة الى و بالله المستعان

١٧

مليانة والمدية

كان كتاب الامير الى المارشال نذيرا بالرجوع الى القتال بعد صلح دام نحو ١٨ شهرا (يونيو سنة ١٨٣٨ - ديسمبر سنة ١٨٣٩) ذاق الناس فيها طعم الراحة

وغادر مندوبو الامير فى الجزائر ووهران وقسنطينة مراكزهم عائدين الى المدية بعد وصول بلاغه الاخير الى المارشال واصدر كل فريق امره الى قواده ورجاله باشعال الحرب وكانا قد اتما الاستعداد لها وحشدا القوى الكافية لخوضها

وكانت الخطة العسكرية التى رسمها الامير لجيشه فى المرحلة الجديدة وابلغها قواده تقوم على مهاجمة المناطق الساحلية التى يحتلها الفرنسويون ومحاصرتهم فيها والسعى لحملهم على الاستسلام

اما الخطة التى وضعها اركان حرب الجيش الفرنسوى فتقوم على مهاجمة المدن الكبرى فى الداخلية واحتلالها وتحصينها والامتناع فيها

واول قبيلة باشرت الحرب هى قبيلة حجوط فقد عبر رجالها نهر الشقة الذى كان يعتبر حدا بين المنطقتين وشنت الغارة على قبيلة اولاد غانم الخاضعة لفرنسا وغنمت ماشيتها وانعامها والتقت فى رجوعها بحشد من القبائل الموالية لفرنسا فدار قتال انتهى بانهزام هؤلاء وقتل قائدهم . ولما وصلت اخبار هذا الحادث الى الجزائر جهز الفرنسويون حملة لقتال قبيلة حجوط فالتقى الفريقان عند نهر الشقة ودارت معركة اصيب فيها الفريقان بخسائر فادحة ثم ارتد الفرنسويون الى الجزائر بلا طائل

وهاجم رجال الامير فى المنطقة الشرقية سهل متيجة وغنموا ما كان فيه من

ماشية وقتلوا من صادفوه ووصلوا الزحف حتى ابواب الجزائر فاوقعوا الرعب والاضطراب

وكثرت الغارات والمناوشات فى خلال الشهرين الاولين لنشوب القتال (ديسمبر ويناير) فلزم الفرنسويون الدفاع فى خلال هذه المرحلة والمعركة الوحيدة الكبيرة التى خاضوها هى معركة مليانة فقد غادر المارشال الجزائر يوم ٢ فبراير سنة ١٨٤٠ لمهاجمة « المدية » عاصمة الامير فبلغ البليدة ومنها واصل الزحف فصمد له قائد مليانة وقاتله يوما كاملا انهزم فيه رجال القبائل من البربر وثبت الجند المنظم . وفى الغداة رجع المارشال بجموعه الى الجزائر

ووصلت فى اوائل شهر ابريل الى الجزائر النجدات الكبيرة التى ارسلت من فرنسا لمواصلة القتال وعددها ٢٠ الف مقاتل وجاء معها الدوق دومال وشقيقه الدوق دورليان نجلا الملك فشرع المارشال فى اعداد الحملات الكبرى لتطبيق خططه العسكرية

وفى اوائل شهر مايو زحف المارشال يقود ١٢ الف مقاتل الى المدية حاضرة (تيطرى) وكان الامير فى انتظاره فدارت معركة عنيفة يوم ١١ منه عند ثنية موازيه استمرت اياما وقاتل الفريقان فيها اشد قتال ، وفى يوم ١٨ منه بلغ الفرنسويون المدية فدخلوها وكانت خالية من السكان فاقاموا فيها حامية عددها خمسة آلاف من المقاتلين وعادوا الى الجزائر فلقوا فى رجوعهم ما لقوا فى تقدمهم من مقاومة عنيفة وكان العرب قد احتشدوا فى كل مضيق لمنازلتهم

المارشال بيجو فى الميدان

واستبدلت حكومة باريس المارشال فاله بالمارشال بيجو بطل معاهدة تافنا واحد القواد الفرنسويين الذين وفقوا فى حروب الجزائر وارسلته اليها ، واطلقت يده اطلاقا تاما وامدته بقوة قدرها بعض المؤرخين بثمانين الف مقاتل علاوة على الجند القديم ، فكان ذلك برهانا على اعتزامها مواصلة الحرب والنضال

ووصل القائد الجديد فى اوائل شهر يناير سنة ١٨٤١ مع اركان حربه ، فاغتنم الامير فرصة وصوله وكان يعرفه معرفة شخصية فقد التقيا حين توقيع المعاهدة فارسل اليه كتابا يهنئه فيه بمنصبه ويدعوه الى الصلح والسلام ومما قال :

« بلغنى انكم جئتم من فرنسا الى الجزائر لقتالنا بما ينوف عن ثمانين الف جندى زيادة على العساكر السابقة فيها فاعلموا اننى بعونه تعالى وقوته لا اخشى كثرتكم ولا اعتبر قوتكم لعلمى انكم لاتضروننى بشىء الا ان يضرنى الله به ، ولا يلحقنى منكم الا ماقدره الله على وقضاه

« واننى منذ اقامنى الله فى هذا الامر وجعلنى ضدا لكم قاتلتكم بعسكر يكون عدده ثلثا من عسكركم التى تكافوننى به ومدة ملكى كما لايخفى ثمانى سنين ومدة ملككم يتعدى مئات من السنين وعساكركم كثيرة ، وآلاتكم الحربية قوية ، ومع هذا البون العظيم ، الذى بينى وبينكم فانى اعرض عليكم امورا فاختاروا منها :

« اما ان تعطونى ما احتاجه من ادوات الحرب بالشراء ثم انظم عسكرا يكون نصف عسكركم الذى تحاربوننى به وحينئذ نتحارب

« واما ان تبقوا فى مواضعكم التى تغلبتم عليها وابقى انا فى بلادى التى تحت حكمى ثم لايقترب احدنا من الآخر مدة اثنتى عشرة سنة فيبلغ عمر ملكى عشرين سنة وحينئذ اقاتلكم فان غلبتم فلا عار عليكم اذ يقال غلبكم رجل له قوة عشرين سنة فيحصل لكم الفخر عند الملوك واما اليوم فانتصارى عليكم يعد فضيحة لكم عند الدول وانتصاركم على لا يعد فخرا حيث انكم غلبتم رجلا عمر ملكه ثمانى سنين ولا قوة عنده يقابلكم بها

« ومن الامور التى اقترحها عليكم انكم تبعثون من قبلكم من يعد عسكرى ثم اخرجوا من عندكم فى مقابلة كل واحد رجلين من عسكركم واعطيكم العهد انى لاازيد عسكريا واحدا على ما تعدون وحينئذ الغالب يملك الوطن

« ومن الامور التى اقترحها عليكم ان يخرج المارشال للبراز ويخرج له واحد من خلفائى فان غلب صاحبكم فلا انازعكم فى طريقكم من الجزائر الى قسنطينة ومن اراد

من المسلمين اهـل تلك النواحى البقاء تحت حكمكم فلا تتعرض له وان اراد الخروج منها و يلحق ببلادى فانتم لاتتعرضون له

« ومنها ان ابن الملك يبارزنى فان غلبته فانـكم ترجعون بعسكركم الى بلادكم وتتركون سائر المدن التى فى يدكم الآن بما فيها من الذخائر والمهمات وان غلبنى فانـكم تستريحون منى ، ويبقى لـكم الوطن من غير منازع

« فان اخترتم واحدة من هذه الامور فلا بد ان يحضر قناصل الدول ليشهدوا عليكم بقبولـكم ذلك . واما نحن فلا نخالف كلمتنا . وان استضعفتمونا ولم تبالوا بما قلناه اعتمادا على قوتـكم فنحن قوتنا بالله القادر على كل شيء وهو ولينا وناصرنا »

وابى المارشال بيجو ان يجيب على هذه الاقتراحات او يرد على الرسالة والظاهر انه رآها مما لا يمكن قبوله

واول معركة خاضها المارشال بيجو بالذات هى معركة « خـده » فقـد غادر الجزائر يوم ٢٨ ابريل سنة ١٨٤١ يقود حمـلة كبيرة قاصدا مليانه فتلقاه الامير محاولا صده فلم يفلح بل بلغهـا بعد عناء وشـدة و بعد ما اقام فيها حاميـة وحصنها عادا الى الجزائر ولم يطل الاقامة فيها بل غادرها الى مستغانم وسار معه الدوق دومال والدوق دى نمور فاستولى عليها ثم غادرها الى قلعة تاكدمت لجلا العرب عنها قبل وصوله فدخلها بدون حرب ثم توجه الى « معسكر » عاصمة الامير فدخلها ايضا وكانت خالية ثم عاد الى مستغانم فصمد له الامير عند مضيق عقبة (خده) ومضيق فرقوق ودارت معركة شديدة خسر فيها الفريقان خسارة كبيرة وعاد الفرنسويون بعدها الى مستغانم

وكتب الامير عقب هذه المعركة الى المارشال بيجو يقول : اما بعد فان كانت دولة فرنسا ليس عندها من الارض ما يكفى رعاياها وارسلتـكم لتغصبوا اراضينا وتبذلوا فى ذلك نفوسكم واموالـكم فنحن نتخلى لهـا عمـا هو فى ايديها الآن من السواحل ونبقى معها فى حال جيران ، ينتفع بعضهم من بعض ، وان ابت الا ان تستولى على جميع وطننا فنحن نبذل وسعنا فى مدافعتها وحماية ارضنا منها الى ان يقضى الله بيننا و بينها بما شاء فان البلاد بلاده والعبيد عبيده

« ولا يخفى عليكم ايها الحاكم ان مهاجمتكم لبلادنا كما انها سبب لاتلاف الكثير من جنودكم وذخائركم فكذلك نحن وهذا شيء لا يرضى به عاقل فضلا عن فاضل ودولتكم تدعى انها اول دولة فى العالم تحب الانصاف وتستعمله وتحافظ على ميزان العدل وتحكم به ، ففعلها هذا يكذب دعواها و يبطل مدعاها ، وانتم وغيركم من رجالها نراكم دائما تساعدونها على الاعتداء والاغتصاب وتبذلون انفسكم فى ذلك ابتغاء مرضاتها ولو كان عندكم ادنى نظر سديد ماوافقتموها على اتلاف جنودها فى الحرب ومواسم الامراض المختلفة التى لا تذر ولا تبقى

« فياهل ترى باى شيء تعوضون ما تخسره بلادكم من الاموال والرجال والكراع فان كان يرضيها منكم ان تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر او من تراب الاراضى التى اغتصبتموها فافعلوا

« وانى اراك ايها الحاكم تبذل جهدك فى تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا ظنا منكم ان ذلك اقوى سبب لخضوع اهل البلاد اليكم ، والحال ان هذا ليس بشيء عندهم فان هممهم ليست متعلقة بلذائذ الاطعمة والاشربة مثلكم بل يكفيهم مايسدون به رمقهم ويقيم اودهم ، كيفما كان

« على انه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة فى الآبار المعدة لها ما يكفيهم سبع سنين آتية وما تأخذونه انتم من ذلك فهو جزء من جملة اجزاء ولا اراكم فى هذا الامر الا كمن ملأ قدحه من البحر معتقدا انه ينقصه

« وبالجملة فنحن لانترك قتالكم مادمتم فى طغيانكم تعمهون وفى سبيل اعتدائكم تمشون والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبانها فنحن اهلها من المهد الى اللحد ، وحروبنا كما علمتم لانرجع فيها الى قانون يحصرها بل نحن فيها مخيرون مطلقون نصرفها كيف شئنا ، واما انتم فقد بذلتم اموالكم وافنيتم قوة شبابكم فى تعلم طرقها القولية وعند اشتباك الصفوف تعاجلكم عن مراجعتها الرماح والسيوف

« ومما علم من كتب التواريخ القديمة ان العرب يبتهجون فى معامع القتال كما يبتهج العروس ليلة عرسه فلا يخطر فى بالكم انهم يتضجرون منها او يتركونها من

ذات انفسهم مادامت الاقدار الالهية مساعدة لهم فان حكمت عليهم بغير ذلك فمن المعلوم ان الارض لله من بعدهم يورثها من يشاء من عباده فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه والسلام على من اتبع الهدى واتقى سبيل الردى »

حرر فى ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢٥٧ وفى آخر يونيو سنة ١٨٤١

وغادر المارشال بيجو مستغانم الى شمال « معسكر » ثم قصد الناحية الجنوبية وانتهى فى سيره الى بلدة « سعيدة » وكان الامير قد اختطها واسكن فيها مهاجرى مستغانم ووهران فدخلها ودمرها

و بينما كان المارشال يوغل فى تقدمه كان الامير يغير على قبيلتى الدوائر والزمالة فى دائرة وهران وهى من القبائل الموالية للفرنسويين ، واتصل ذلك بالمارشال بيجو فعاد الى مستغانم واستقر فيها

وفى يوم ٢٠ يناير سنة ١٨٤٢ غادر المارشال بيجو « معسكر » بجيش كثيف الى تلمسان ، وكان الامير قد امر باخلائها فدخلها بلا مقاومة وحصنها واقام فيها حامية قوية بقيادة الجنرال بادو

وغادر المارشال تلمسان الى بلاد الجهة الشرقية على طريق الخط الفاصل بين بلاد الصحراء و بلاد التل فوصل الى قلعة سبدد وتبعد عن تلمسان نحو ٤٠ كيلو مترا فقاتل عرب تلك النواحى واخضعهم ثم توجه الى قلعة سعيدة وتبعد نحو ٨٠ كيلو مترا عن « معسكر » فاخضع قبائلها ثم سار الى بلدة القيطنة فاحرقها

١٨

حروب الصحراء

تم للمارشال بيجو بفعل القوات العظيمة التى امدته فرنسا بها و بفضل الانظمة التى اتبعها والخطط التى نفذها الاستيلاء على القسم العامر من الجزائر واحتلال المدن والمراكز الكبرى وتحصينها واقامة الحاميات الكبرى فيها والسيطرة على طرق المواصلات فلجأ الامير والذين اقاموا على الولاء له الى الصحراء فلا تصل اليهم قوات العدو ولا ينالهم باذى او مكروه

وضرب الامير خيامه فى معبر الاطلسى عند جبال وانشريس قرب التل ، وجمع قواه المشتتة فتواردت عليه الوفود وجاءه عدد كبير من المؤمنين المخلصين الذين انفوا الذل فنسقهم وانشأ منهم جيشا جديدا كان يرسل عصاباته من وقت الى آخر لمهاجمة مراكز الفرنسويين وللغارة على القبائل التى والتهم وقدمت لهم الطاعة

وحسب المارشال بيجو حساب الحركة الجديدة وقرر التعجيل بالقضاء عليها ولادراك ذلك عبأ قواه الكبرى فى سنة ١٨٤٣ وقسمها الى ثلاث فرق زحفت الى جبال وانشريس لاحتلالها واخراج الامير منها

وقاد المارشال بيجو بالذات احدى الفرق وهى التى اتخذت بيت شلف (على حدود الصحراء) قاعدة لها وقاد الجنرال شانكرنى الفرقة الثانية واتخذت من البليدة قاعدة وقاد الثالثة الجنرال لامورسير وسارت من « معسكر » فدارت بين هذه القوى وقبائل الصحراء معارك شديدة

واغتنم الامير فرصة ايغال الفرنسويين فى الصحراء واشتباكهم مع القبائل فارتد الى جهة « معسكر » مكتسحا ما فى قرية البرج من قوة واستاق الماشية واخذ

الاموال ثم اضرم فيها النار وسار على وجهه الى جهة الشرق فمر ليلا بمعسكر المارشال بيجو فى شلف وشن الغارة على قبائل تلك النواحى الموالية للفرنسويين واثخن فيها قتلا وسبيا

ولم يفز المارشال بيجو بما امله من اخضاع الصحراء وتشتيت قوى الامير وتمزيقها فعاد بجيوشه الى المراكز الكبرى التى انشأها فى انتظار سنوح الفرص

وعكف الامير على تنظيم قواه ورجاله فى المراكز التى اختارها فانشأ شبه مدينة فى وسط الصحراء عند معبر الاطلس تتألف من ثلاثة أقسام :

١ ـ الزمالة

٢ ـ الدائرة

٣ ـ المحلة

فالاولى خاصة بالامير وآل بيته وحاشيته والثانية خاصة بابناء الشعب والثالثة بالجند واتخذ فى الاخيرة مضارب لصنع السلاح واخرى لخزن المهمات الحربية والذخائر واعد فسطاطا واسعا لاجتماع المجلس العام واتخذ مسجدا ورتب مضارب للباعة واهل السوق بعيدة عن الزمالة والدائرة وما يتعلق بهما فكانت تجبى اليها الذخائر وسائر ما يلزم الانسان و يقصدها التجار حاملين صنوف البضائع وما تدعو الضرورة اليه فنمت واتسعت

الامير يستنجد

وكتب الامير من عاصمته الجديدة كتابا الى السلطان عبد المجيد يخبره بما وصل اليه حال الوطن الجزائرى الذى هو جزء من ممالك الدولة و يطلب المساعدة والمعونة فلم يتلق جوابا

وكتب ايضا الى سلطان المغرب الاقصى يستنهض همته لمساعدته ويحثه على النهوض معه لقتال العدو المشترك لاتصال المغربين الاوسط والاقصى ومما قاله له : « انك لاتأمن على بلادك اذا استولت فرنسا على الجزائر ووطدت اقدامها فيها » فلم يتلق جوابا

واعد فى شهر ابريل سنة ١٨٤٢ ومن مقامه فى الصحراء حملة من ثلاثة آلاف جندى منظم وضم اليها عددا من المتطوعة وسار على رأسها فاحتل وادى شلف ثم تجاوز جبال مليانة الى متيجة و بث العيون فى جهاتها وشن الغارات على نواحيها فانضم اليه الكثيرون

وغادر الجنرال شانكرنى الجزائر يقود حملة كبيرة لمطاردة الامير فلم يدركه اذ كان يتنقل من مكان الى مكان ثم عاد الى مقره فى الصحراء حاملا غنائم وسبايا كثيرة بعد ما اضرم النار فى مراكز الفرنسويين التى مر بها

وعبا المارشال بيجو قواه كلها والف منها حملة قسمها الى ثلاثة اقسام فقاد القسم الاول الدوق دومال ابن الملك وقاد القسم الثانى الجنرال لامورسير وقاد هو القسم الثالث وامر قائدى القسم الاول والثانى بان يلحقا بالامير و يطارداه فى كل مكان اما هو فسار الى بلاد متيجة الغربية فاخضع القبائل واعادها الى الطاعة . ثم انشأ مدينة جديدة باسم الدوق دورليان بين نهر مينة ونهر شلف لحماية قبائل الجنوب من بطش الامير وحشر فيها حامية قوية ، واقام قوة اخرى فى مدينة تاهرت فى حدود التل وثالثة فى مرفاتندى بين شرشال ومستغانم وكل ذلك لمضايقة الامير ومنعه من دخول الجانب المعمور

والتقى الامير بالجنرال لامورسير فى نواحى الرحلة من مقاطعة « معسكر » فاقتتلا و بينما كان الامير ينازل الجنرال كانت حملة الدوق دورليان تسرع فى الصحراء قاصدة مدينة الامير الجديدة فبلغتها صباح ١٥ مايو واخذتها على غرة ولم يكن فيها سوى ٥٠٠ من ضعفاء الجند وقد اغتروا بلباس الجند القادم فقد البس الدوق دورليان خيالته لباس الخيالة العرب اتماما للحيلة فاستقبلوهم بالتهليل والتكبير فلما اقتربت الصفوف حمل الفرنسويون حملة شديدة عليهم فتفرقوا فى رؤوس الجبال بعد ما قتل معظمهم

وغنم الفرنسويون غنائم وافرة فى جملتها مكتبة الامير الخاصة مع اسلحة مجوهرة وغير ذلك من التحف والاموال وآلات الحرب . و يقول بعض المؤرخين ان

جنود الحملة اقتسموا الذهب والفضة « بالبرنيطة » لكثرته واسروا نحو ثلاثة آلاف اسير بينهم بعض الكبراء

ووصلت اخبار هذه النكبة المريعة الى الامير وهو يرابط فى غابات السرسو فاضطرب اضطرابا شديدا واعتزل فى مضربه يصلى ويدعو وشاع الخبر بين الجيش فاقبل القواد وهم جزعون على مصير اسرهم وابنائهم وعيالهم الى خيمة الامير فخرج اليهم فوجموا فقال لهم بعد ماهدأت قلوبهم وسكن اضطرابهم « سبحان الله فقدنا كل شىء كنا نحبه وتعلقت افكارنا به وكان يعوق حركاتنا ويقف فى صدورنا عن الوصول الى مطلوبنا . وصرنا الآن احرارا متجردين لاشغل لنا الا مقارعة الاعداء ومصارعتهم »

ثم التفت الى احد الجالسين وكان الحزن قد اخذ منه مأخذه وقال له على اى شىء تحزن نحن نعلم ان من فقدناهم من الرجال هم الآن فى الفردوس الاعلى . واما الاموال فسيخلفها علينا الكريم الوهاب . وان هذا الخبر لم يبلغنا الا بعد وقوعه بثلاثة ايام ففات تداركه الآن ، ولو كنا حاضرين لحاربنا عن نسائنا واولادنا واموالنا ودافعنا عنهم ، وارينا الفرنسيس ما لم يكن فى حسابهم ، وامضينا عليهم يوما مهولا ، ولكن لامفر من القدر ، وحكم الله لابد من نفوذه . وهذا الامر الذى وقع بنا مدخول عليه منتظر الوقوع منذ دخل العدو بلادنا »

وكتب الامير الى خلفائه (قواد جيشه) بما وقع وقال لهم « وحيث ان الله تعالى انفذ امره فى الزمالة فينبغى علينا ان لانجبن بل نكون من الآن فصاعدا اشد مما كنا عليه فى قوة القلوب وكثرة الاستعداد للحروب »

١٩

الى حدود المغرب الاقصى

استنفد عرب الجزائر الجهد فى الكفاح والنضال وقاوموا المغير على اراضيهم مقاومة لم يعرف التاريخ لها مثيلا وهزموه فى معارك كثيرة وقتلوا الالوف من رجاله وضباطه ، واوقعوا الرعب فى صفوفه ، وملأوا السهل والفضاء بجثث قتلاه ، بيد ان امتداد اجل القتال هذا الامتداد الطويل ووفرة مصادر الفرنسويين وكثرة عددهم ، وفقر الجزائريين وقلة عددهم ، واستيلاء عدوهم على الثغور والموانىء ثم امتلاكه القواعد الكبرى وتحصينها - ان ذلك ضمن له التفوق والفوز فاجلى المجاهدين الى الصحراء ثم هجم عليهم فى مكمنهم واستباح حماهم وشتتهم هنا وهنالك ، وكان يظن انه لن تقوم لهم قائمة فخيبوا ظنونه ولم يستكينوا للحادثات فقد جمع الامير مابقى عنده من قوى ، بعد ما انزل الاهل والعيال من الذين سلموا من الغارة فى الجهة الغربية فى اطراف بلاد الحساسنة حيث يأمن عليهم ، وسار الى ناحية « معسكر » لمهاجمة الفرنسويين

ووصلت الاخبار الى امير الآلاى هيبرى قائد حامية « معسكر » بزحف الامير وتقدمه فاعد عدته وطير الخبر الى الجنرال بيدو والاميرالاى تايور فى تلمسان فخرجوا جميعا بالقوى العظيمة للقاء قوات الامير وما كانت تزيد عن ١٥٠٠ مقاتل ثم تلاحقت بهم الفرق التى كانت فى وهران وقسنطينة فجدوا فى لقائه فادركوه فى مكان اسمه « الجعافرة » فاشتد القتال وقاتل الامير عبد القادر بنفسه فى هذا اليوم وثبت ثبات الابطال وقتل فرسه وهو يصول ويجول فوقع بين الصفوف فانتدب للدفاع عنه ١٠٠

من الجنود الفرنسويين كانوا انضموا اليه مع ضباطهم واسلموا وقاتلوا دونه حتى قتلوا عن آخرهم

وواصل الامير القتال على فرس آخر جيء به اليه واستمر يقاتل حتى الليـل فانسحب مع الذين ظلوا احياء من رجاله مسـتترين بستاره ، متجهين الى حدود المغرب الاقصى

٢٠

من الامير الى سلطان المغرب الاقصى

ضيق الفرنسويون بعد انسحاب الامير ، على احد كبار قواده وكان لايزال فى بلاد الحساسنة الخناق فلجأ الى بلاد الجعافرة فلحقوا به فاستمرت الحرب اياما عديدة وانتهت باستشهاد القائد وهو من الابطال الذين احسنوا البلاء فلحق الذين ظلوا احياء من اتباعه بالامير فامرهم بالانتقال الى حدود المغرب الاقصى والنزول فى الجهة الجنوبية

وعسكر الامير فى الخط الفاصل بين التل والصحراء على حدود المغرب الاقصى وجمع بقية انصاره وشرع يغير بهم على مراكز الفرنسويين وعلى القبائل التى دانت لهم فيقتل وينهب فاعد الجنرال لامورسير حملة كبيرة زحف بها سرا لمنازلته ، وكان يرابط يومئذ مع فريق من رجاله يبلغ نحو الف بين فارس وراجل فى التل ، فبيته عند الفجر وكان الامير حينئذ نائما وكان من عادته ان ينام بعد صلاة الصبح ، فدار قتال عنيف بين الفريقين قاتل فى ابتدائه راجلا لعجزه عن الوصول الى فرسه

وانكشف الفرنسويون بعد ساعة وارتدوا فركب فرسه وتقدم الصفوف وهزم اعداءه ثم قصد ارض بنى عامر ، فهاجم قوة فرنسوية كانت ترابط هنالك وانتصر عليها وغنم منها غنائم وافرة ثم عاد الى معسكره وكان فى بلاد حميان الغرابة فانتقل به الى داخل اراضى المغرب الاقصى

ولحق الجنرال لامورسير بالامير حين اجتيازه الحدود وقاتله قتالا شديدا محاولا صده عن الدخول والاستيلاء على المعسكر وانتهت المعركة ، وقد شاركت النساء فيها الرجال ، بنجاة المعسكر ودخوله فى جبال بنى زكرى ثم بلاد تكفايت قرب وجده فى

الجنوب الغربي ثم اوغل الى عيون الملوك ثم الى عين زوره قرب الاطلس الاكبر وذلك فى اواخر سنة ١٢٤٣

وكتب الامير بعد وصوله الى عين زوره الى سلطان المغرب الاقصى عبد الرحمن كتابا وصف فيه حالته وطلب منه المساعدة والنجدة ، فكتب اليه قائلا « وانا نتمنى الحضور بانفسنا فى غمار المسلمين ومباشرة القتال بايدينا بين صفوف المجاهدين ولكن مانحن فيه من قمع العصاة وكف البغاة جهاد بل افضل من جهاد الكفار حسبما نص على ذلك امامنا مالك رحمه الله ، ولو كمل قتالهم وانتظم على الاستقامة حالهم لسرنا واياهم لنصرة الدين وقمع الكفرة المعتدين ، و بذلك ينال الموفق غاية امله ، ونية المرء خير من عمله »

واستقر الامير فى مقره الجديد ، ورتب رجاله ، وصار يغير بين فترة وفترة على مراكز الفرنسويين ثم بدا له ان يهاجم القبائل التى كانت خارجة على الحكومة المغربية ويخضعها ، فاخضع بعضها وكتب الى السلطان يخبره بما حصل فلم يتلق جوابا فادرك ان عمله لم يلق قبولا فعدل عنه ووقف جهوده على منازلة اعداء بلاده فاقلقهم وازعجهم فكتب المارشال بيجو الى حكومته طالبا منها السعى عند حكومة المغرب لتخرجه من بلادها لان التغافل عن حركته قد يولد امورا لايستهان بها ، وعملا بالاوامر التى صدرت الى السفير الفرنسوى فى طنجه قابل السلطان وطلب اخراج الامير فرد عليه بان بلاد الريف قد خرجت من يدى ودخلت فى يد الامير عبد القادر ولست بقادر على عمل شئ لكم

٢١

فرنسا تهاجم المغرب

يحاد المغرب الاقصى بلاد الجزائر من الشرق والجنوب الشرقى و بينهما صلات واشجة وعلاقات متينة

ولقد انتهى امتداد الفتح العثمانى فى افريقية الشمالية عند حدود المغرب الاقصى فاحتفظت هذه البلاد باستقلالها بعكس الجزائر التى خضعت للترك وظلت مشمولة بنفوذهم الاسمى حتى جاءها الفرنسويون سنة ١٨٣٠ فاستولوا على ثغورها وسواحلها واوغلوا فى داخلها فلزمت الدولة العثمانية جانب الحياد وابت ان ترد على اصوات الاستغاثة التى كان يرسلها المجاهدون الجزائريون

وعطف سكان المغرب الاقصى حكومة وشعبا على الجزائريين فى نضالهم ، وكانت هنالك صلات محكمة العرى بين الامير عبد القادر و بين مولاى عبد الرحمن سلطان المغرب فكانا يتكاتبان و يتراسلان وكان الامير يرسل الفتاوى الى قاضى فاس فى كل مايعرض له فتصل اليه الاجوبة ، ولما اضطر فى النهاية للالتجاء الى الحدود المغربية وجدها مفتتحة امامه ووجد امنا وامانا فرحب به القوم وانزلوه على الرحب والسعة واكرموه ، ورفعوا منزلته لبلائه الحسن فى الدفاع عن الدين والوطن وتبادل مع السلطان الرسائل الودية

وخاف الفرنسويون العاقبة وحسبوا حساب غارات الامير فسعوا عند السلطان لطرده ورجاله فاعتذر بالعذر الذى بسطناه فيما تقدم فلم يقنعهم فقرروا اقتحام الحدود ومطاردة الامير ورجاله فى داخلها واعدوا لذلك جيشا قاده الجنرال لامورسير

والجنرال بيدو فسارا حتى نزلا فى مكان اسمه السيدة مغنية فى شمالى تلمسان وعلى حدود المغرب الاقصى فاقتحموه ، ودمروا مقام هذه السيدة ودنسوه

واستنكر المغاربة ماجرى وهاجوا وماجوا ، والظاهر انهم كانوا يعظمون المقام . فكتب السلطان الى عامل وجده يأمره بان يخاطب الفرنسويين فى الامر ويكلفهم الانسحاب والخروج من الحدود فابوا

وجمع عامل وجدة ماكان عنده من جنود وحمل بهم على الفرنسويين يرجو اخراجهم فتغلبوا عليه وهزموه

ووصلت الى المارشال بيجو اخبار ماحدث فى وجدة فسار بحرا الى وهران ومنها قصد الى مقام السيدة مغنية واتصل مباشرة بابن الكناوى عامل وجدة واقترح عليه العمل لانهاء المشكلة بالطرق السلمية ثم طلب منه ان يجتمعا فاجابه الى ذلك

وانتدب المارشال بيجو الجنرال بيدو لمقابلة ابن الكناوى وجاء كل منهما ومعه جانب من خيالته واغار الخيالة المغاربة على خيالة الفرنسويين الذين جاءوا مع الجنرال فاقتتلوا قتالا مرا امام رؤسائهم الذين كانوا يتحادثون وانتهت المعركة بانهزام المغاربة وارتدادهم الى وجدة

وكتب المارشال بيجو الى ابن الكناوى مستغربا حدوث ماحدث وسائلا عن السبب فرد عليه معتذرا ومتنصلا وقال ان التبعة تقع على رجاله فهم البادئون والظاهر انهم كانوا يودون ان يثأروا لقتلاهم فرد عليه بان المهم عنده هو النظر فى امر الامير عبد القادر وتحديد الحدود بين الجزائر والمغرب الاقصى طبقا لما كانت عليه فى العهد التركى القديم

ومما قاله المارشال فى كتابه اننا لانود التعرض لكم ولا الاعتداء عليكم وانما نلح عليكم بعدم قبول الامير عبد القادر فى بلادكم وعدم مساعدته علينا فاننا نعد اقامته عندكم حربا علينا وعداوة لنا

« وبالجملة فان فرنسا تريد منكم اخراج الامير عبد القادر من بلادكم الى الجنوب الغربى ، هذا اذا لم تشتتوا شمل جيشه

« ونريد منكم ايضا ان لاتقبلوا من ينتقل الى بلادكم من رعاياه فان اجبتم الى ذلك فنحن نرتبط معكم ونجرى الصداقة بين بلادينا ونحافظ على شرف السلطان وان لم توافقوا فنحن لكم اعداء »

وابى المغاربة قبول اقتراحات فرنسا ورأوا فيها مساسا بكرامتهم ، فحمل المارشال بيجو على وجدة فدخلها بعد ما فر اهلها ، وجاءت سفن الاسطول الفرنسوى فضربت طنجة بمدافعها وهدمت بعض اسوارها فاهاج هذا الاعتداء سكان فاس واثار حماستهم فتنادوا الى الحرب والجهاد فجند السلطان ٢٠ الف مقاتل بقيادة نجله وولى عهده الامير محمد وارسله الى وجدة لاخراج الفرنسويين

وكتب الامير عبد القادر الى السلطان يحذره من عاقبة التورط فى حرب الفرنسويين ويشير عليه باسترجاع الحملة التى ارسلها اذ لاقبل لها بمقاومة الفرنسويين والتغلب عليهم فلم يستمع الى نصحه، وواصلت الحملة تقدمها حتى بلغت وادى السيلى (قرب وجدة) فلاقاها الفرنسويون ونازلوها فى معركة استمرت النهار بطوله وانتهت بارتداد المغاربة فغنم الفرنسويون اسلحتهم ومدافعهم

وبينما كانت المعركة دائرة هنا كان الاسطول الفرنسوى يضرب مدينة الصويرة ويدمرها . وخاف السلطان العاقبة فكتب الى الفرنسويين يطلب وقف الحرب وعقد الصلح فاجابوه الى ذلك وتم الاتفاق على الشروط الآتية :

١ ـ سرعة ارتحال العساكر المغربية من وجدة وما اليها فى الحدود

٢ ـ معاقبة الذين اعتدوا على الحدود الفرنسوية

٣ ـ اخراج الامير عبد القادر من البلاد واذا بقى فيها فلا تساعده الحكومة المغربية بشىء

٤ ـ تحدد الحدود بين الجزائر والمغرب الاقصى

وكتب السلطان بعد ابرام هذا الاتفاق الى الامير عبد القادر يدعوه الى زيارته فى فاس لمشافهته فى الحالة فرد معتذرا والظاهر انه خاف القبض عليه والغدر به

٢٢

المعارك الختامية

لم يخلد الامير الى الراحة والسكون بعد دخوله الى اراضى المغرب ، بل عكف على تنظيم قواه ونشر دعوته ، ثم اغار بمن تجمع عنده على مراكز الفرنسويين فى الجزائر فغاربهم وازعجهم فكتبوا الى السلطان يلحون عليه باخراجه فارسل اليه رسولا يدعوه الى الخروج فاعتذر

وظلت عصابات الامير وسراياه تراوح مراكز الفرنسويين وتغاديهم حتى خريف سنة ١٨٤٧ ففى شهر سبتمبر من تلك السنة سار بنفسه لمهاجمة ثغر الغزوات وهو ميناء صغير للجزائر فى الحدود فعرف الفرنسويون اسره فنهضوا للقائه فاشتبك معهم عند مكان اسمه تل الغزوات وانتصر عليهم وسار الى بلاد بنى عامر (الجزائر) وكان على صلة بهم فالتقى فى طريقه بقوة فرنسوية تتألف من ٦٠٠ جندى كانت تسير الى تلمسان فاستسلمت اليه بدون قتال فغنم كمية كبيرة من الذخائر كانت تحملها

واقلق ظهور الامير بهذا المظهر ولاة الامور الفرنسويين بالجزائر وكانوا يعتقدون بان امره قد انتهى وانه لم يعد فى طاقته ان يعمل عملا فكتبوا الى باريس يطلبون ان تمدهم بنجدات جديدة فلبتهم وجهزت قوات عسكرية كبيرة واعادت المارشال بيجو الى منصب الحاكم العام فى الجزائر لواسع خبرته وكانت قد نقلته الى فرنسا لانتهاء مهمته

واعد الجنرال لامورسير بعد وصول الامدادات حملة سار بها من وهران الى تلمسان للغارة على معسكر الامير فى الصحراء فاجتمع فى تلمسان بالجنرال كافيناك قائد

الحدود وسارا معا حتى مقر الامير و بلغ قائده الخبر فارتحل الى الاطلس فى الجهة الشمالية من الريف فلم يدركوه

شهداء الغار

واغار الجنرال كافيناك فى رجوعه على اولاد سيدى يحيى ، فلجأ نحو ٥٠٠ منهم بين رجال ونساء واطفال وعجز الى غار هنالك اسمه « غار العقبة البيضاء » فوضع الفرنسويون حطبا وتبنا على فم الغار واضرموا النيران فدخل الدخان الى داخله فاختنق جميع الذين كانوا فيه وقضوا نحبهم

وقد اثبتت دائرة المعارف البريطانية هذه الحادثة المريعة ونشرت تفاصيلها برمتها فليرجع اليها من يشاء

ووضع المارشال بيجو خطة عسكرية جديدة للزحف على حدود المغرب من أربع جهات ومطاردة الأمير وكان لايزال يواصل الغارة على الجزائر ويبث الهول والرعب .

وتقضى الخطة الجديدة بان يزحف الجنرال لامورسير من طريق والجنرال بيدو من آخر ويقود يوسف العنابى القسم الثالث ويتولى المارشال بيجو بالذات قيادة القسم الرابع ومهمته قطع خط رجعة الأمير فى الصحراء على أن يكون الاحداق به الغاية الكبرى .

وطاردته هذه القوات العظيمة ولا يقل عددها عن مائة وعشرين الف مقاتل وجرت وراءه فى كل مكان ، وفى كل جهة فضايقها كثيرا بسرعة تناقلاته وخفة حركاته وأخيرا التقى به الجيشان الثالث والرابع فى أبى الشطوط من بلاد أولاد شريف فوقع بينه و بينهما قتال شديد فى وادى رهيو فأفلت من الشباك التى نصبت له وسار الى فليسة و بيجو وراءه يطارده ولكن بلا جدوى

والتقى به الجيش الثالث فى كوجيله فنازله وقاتله فافلت منه واغار بعد المعركة على قبيلة صدامة فى وادى العبد ثم غزى قبيلة الاحرار فاكتسح من لحقه منها ثم قصد

الجهة الشرقيـة حتى وصل الى جبال زواوة فـنزل فى جبـل جرجرة حيث كان يرابط خليفته السـيد احمد بن سالم فانضم اليه كما انضم اليه خمسة آلاف من فرسان زواوة فغزا بهم سهول متيجة وطارد القوات الفرنسوية التى كانت هناك حتى قرب مدينـة الجزائر ثم رجع الى جبل جرجرة ومنه ارتحل الى الشمال ونزل بارض فليسه من قبائل زواوه بالقرب من دلس وتبعد عن مدينة الجزائر نحو ٤٠ كيلو مترا وأخذ يغير على قبائل متيجة .

وجهز حاكم الجزائر حملة بقيادة الجنرال جانفيل صبحت الامير ، وكان يعسكر على ضفة نهر « ميسر » اليمنى وأخذته على غير استعداد فركب فرسـه وقاتل بنفسه فقتل فرسه فركب غيره ثم ارتد بالذين بقوا معه الى جهة نهر سباد

و بينما كان الجنرال جانفيل يقاتل الامير و يطارده فى هذه المنطقة هاجم المارشال بيجو جبل جرجرة واستولى عليه ، وانضم الى جانفيل بعد المعركة وسار الاثنان الى الجنوب لمطاردة الامير فارتد الى الصحراء وهو يقاتل و يغزو . ثم قصد الى منازل اولاد نايل فى جبـل عمور فقدم اثقاله وتأخر مع ٧٠ فارسا لحمايتها فادركه الجنرال يوسف العنابى قائد الجيش الثالث برجاله فنازله فاستشهد من رجاله ٤٠ ولم يبق معـه سوى ٣٠ فلجأ الى بعض الاودية وغاب فيه

وأوغل بعـد هذه الحادثة فى الصحراء وسار مغربا فنزل عـلى اولاد السيد الشيخ البكرى فى بلدتهم المعروفة بالابيض فاكرموا وفادته وحفوا به وسـأله كبيرهم بالله ان لايعرض بلدتهم لانتقام الفرنسويين و بلائهم فهم يخربونها و يدمرونها اذا عرفوا باقامته بينهم ورجوه ان يرحـل عنهم رحمة بهم فغادرهم وسار الى مقره الاصلى حيث ينزل معسكره ورجاله فى ماوراء جبل بنى يزناسن

وعرف الامير عند وصوله الى معسكره بان خليفته السيد الحاج مصطفى التهامى فتك بمن كان عنده من الاسرى الفرنسويين بسبب ما علمه وهو ان سلطان المغرب قادم لانقاذهم فاسرع فـكـتب الى ملك فرنسا لويس فيليب الـكتاب الآتى :

« الحمد لله وحده ، من ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين الى جلالة ملك

فرنسا لويس فيليب احسن الله مقاصده فى كل مايؤول الى سعادته وجعله من الذين يتبعون السبيل

« المعروض لجلالتكم انى كنت مستعدا لقبول شروط الصلح وطالما تعاطيت اسباب تقريره وسعيت وراءها فلم يجد ذلك نفعا لشدة ما انطوت عليه بواطن عمال الجزائر على استمرار الحرب الى الآن

« وفى اثناء الوقائع بيننا وبين عساكركم كان يقع فى ايدينا اسرى كثيرة منكم نبادل بها اسرانا الذين فى ايديكم وفى السنة الماضية كاتبت نوابكم بمبادلة الاسرى فلم يردوا لى جوابا فراجعتهم مرارا فما افادت المراجعة شيئا بل سجنوا رسلى واهانوهم وهذا اعظم دليل عند العرب بين المتحاربين على نقض العهد من فاعله حيث ان الرسل شانها ان تعاد الى مرسلها بلا اهانة ولا ايذاء

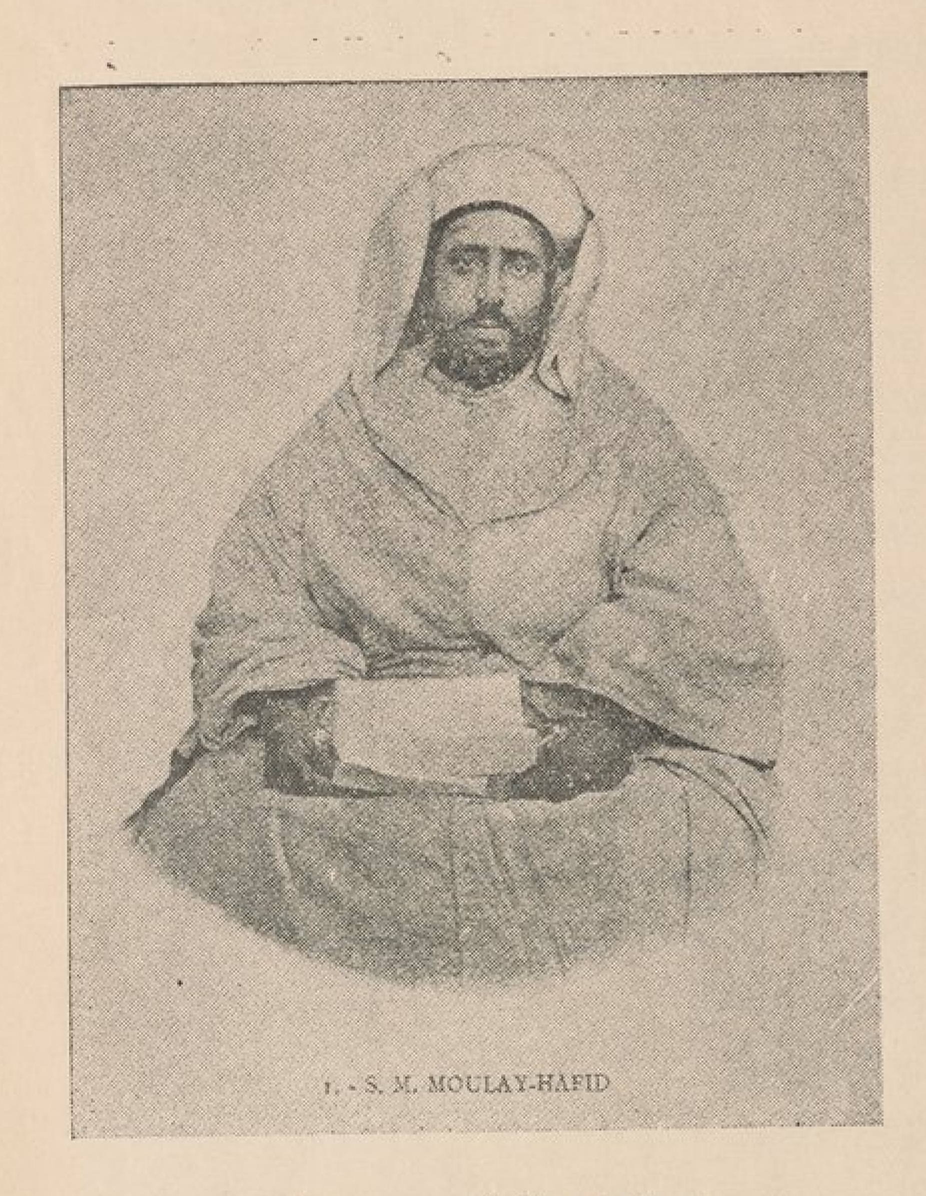
« وبعد ذلك شاع ان الفرنسويين عازمون على انقاذ اسراهم جبرا من ايدى العرب ثم فشا بين الناس ان سلطان مراكش عازم على انقاذهم من يد خليفتى رغما عنه فكان هذا مع سوء سلوك نوابكم سببا لما وقع بالاسرى من غير اذن منا ولاعلم لنا .

« والآن قد اطلقنا عشرة ضباط مع الرئيس كوبرلى دى كوفرى وهم يعلمون بما اجريناه من الوسائل والتدبيرات الحسنة لاجل الوصول الى الفدية بمن عندكم من اسرى المسلمين ويعلمون حسن معاملتنا لسائر الاسرى الذين يقعون فى ايدينا ، ويعرفون ان عدم رد جواب نوابكم عن مكاتيبنا فى هذا الامر هو الذى عارض حسن المقاصد فيما بيننا وبينكم واوجب ما اوجب من غير اختيار ولاقصد »

واطلق الامير سراح الاسرى العشرة كما وعد وارسلهم مع حراس الى ثغر مليلة فوصلوا على احسن حال وكتبوا اليه شاكرين

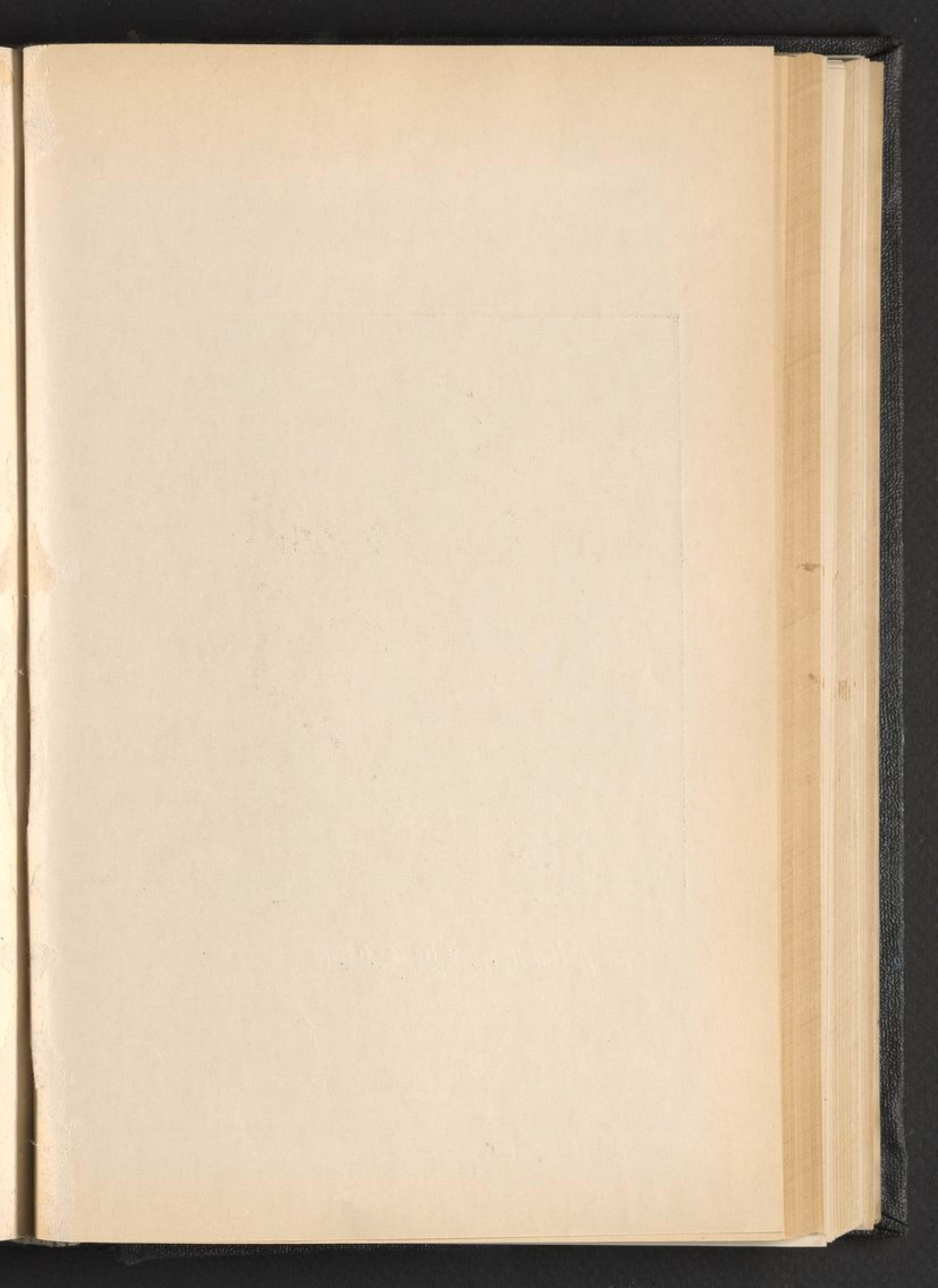
بين الامير وسلطان المغرب

ولما عجز الفرنسويون عن التخلص من الامير مع مابذلوه من جهود وحشدوه من جنود عادوا الى السعى عند سلطان مراكش فالحوا عليه وهددوه طالبين



1. - S. M. MOULAY-HAFID

السلطان عبد الحفيظ بن مولاى الحسن



منه طرده فكتب اليه يقول انه لاسبيل الى خلاصك الا باحد امرين فاما ان تسلم نفسك الينا واما ان تخرج من الحدود فان ابيت ان تجرى احدهما طوعا فنحن نجريه كرها

واوعز السلطان الى القبائل التى ينزل الامير فى جوارها بان تجافيه وتمنع عنه الميرة وتقف عن مساعدته ففعلت وضايقته فكتب الى السلطان مرارا يسأله منعها فلم يرد فكتب اليه فى النهاية يقول :

« اما بعد فقد كاتبتكم اولا والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا وتعديها على من تبعنى وسوء معاملتهم لهم لانهم كلهم اولاد دين واحد وشريعة واحدة فلم ياتنى جواب عن ذلك ولم يحصل لهم ردع من طرفكم ومع هذا كله انا صابر ومتحمل لما يجرونه كراهة سفك دماء المسلمين مدة ستة اشهر طمعا فى رجوعهم عن البغى والطغيان الى العدل والاحسان مع قدرتى عليهم فى كل آن

« فان لم تردعهم الآن عن افعالهم وترجعهم عن قبيح تصرفاتهم التزم المحاماة عن حقوقى والمحافظة على شرف اتباعى ولذلك بادرت باخباركم والسلام عليكم »

وكتب المارشال بيجو الى قبائل بنى يزناسن يطلب منهم اخراج الامير من اراضيهم ويهددهم بغزوها واكتساحها اذا ابوا وكتب اليهم بمثل ذلك السلطان عبد الرحمن وقال لهم انه امر خاله الشيخ زيان باخراجه ومن معه من دائرة ايالته السعيدة وامرهم ان يكونوا معه فى طرده وقتاله

ولما ضاقت الحلقة بالامير حمل على القبائل المحيطة به فأخضعها ونال ما اراده منها فسكنت اليه وقدمت له جميع ما يحتاجه فارتاح واطمان وحسنت حالته ، وبلغ ذلك مسامع السلطان فجهز حملة ولى قيادتها الاحمر وهو من اشهر قواده وارسله لقتاله ، وكان ينزل بين ارض بنى توزين ومطالسه فاخذ اهبته للقائهم

وكتب الامير الى القائد يدعوه الى المسالمة ويعتذر اليه بالعجز عن الخروج بضعفاء المهاجرين ، الى الصحراء ويظهر له سلامة الصدر ويؤكد له انه لم يخطر فى باله مابلغ السلطان عنه فهو لايبغى سوى السلامة والعافية والبقاء تحت ظل السلطان فلم يجد ذلك واصر هذا على القتال فكرر السعى عنده وارسل يقسم بانه ما اضمر للسلطان

شرا ولاسعى فى افساد القلوب عليه ثم حـذره من قتال المسلمين المهاجرين فى ارض لاتنالها الاحكام من احقاب فابى الا أن ينفذ ماجاء لاجله فلم ير الامير بدا من منازلته فاختار ٢٠٠ من فرسانه وصبحه فى تافرسيت واخـذه على غرة فاستولى عـلى معسكره وهجم بعض رؤساء جيشه على القائد فقتله واحتز راسه وجاء بنسائه واولاده الى مقره فارسلهم الى فاس وغنم فى هذه المعركة غنائم كثيرة

واغارت قبيلة كايعة عـلى مقر الامير فى اثناء غيابه عنـه ونهبته فكتب الى رؤسائها برد ما نهبوه فابوا فجمع جموعه واغار عـلى القبيلة ونـكل بها واسر معظم رؤسائها ولم يطلق سراحهم الا بعدما اعادوا له كل ما أخذوه منه

وانتقل الامير والذين معه بعد هذا الحادث الى « زايو » وهو موضع مطل على سهل تريفه فزاره محمد بن عبد الرحمن رئيس قبيلة الاحلاف واقترح عليه ارسال احد خلفائه الى سلطان مراكش ليعتذر له عمـا حدث ويستعطفه ويسأله العفو فندب لهذه السفارة خليفته البوحميدى فسار الاثنان الى فاس فلم يحفل السلطان بالمندوب ثم امر باعتقاله وسجنه ودس له السم فى السجن فمات فحزن الامير لفقده وكان من اعظم رجاله

واعد السلطان خمسين الفا من المقاتلة بقيادة ولديه محمد وهو ولى العهد واحمد وهو الاصغر فسارا حتى قلعة سلوان وهى على مسافة ١٥ كيلو مترا من منزل الامير .

وجمـع هـذا رجاله واخبرهم بوصول الجيش المراكشى وقال انه عزم على مباغتته قبل أن يصل فاقروا خطته ثم احضر جملين وشد على كل منهما حزمتين من « الحلفا » بعد ان رشهما بالقطران والزفت

ولما بلغ برجاله مقر المراكشيين وكان الوقت ليلا امرهم بالهجوم بعد ما قدم الجملـين واضرم النار فى الحلفا فجاسا خـلال الخيام فنفر المراكشيون وارتاعوا وتركوا المعسكر بمـا فيه من الامتعـة والمهـمات واوغـل الامير ورجاله بينهـم يقتلون ويضربون حتى انتهوا الى سرادق ولى العهـد واخيـه فاشتد القتال بينهـم وبين الحرس المحيط بهما من نصف الليل الاخير الى الفجر فانسحب وعاد الى مقره

ووصل عند الظهر فريق من رجال القبائل الى مقره يطلبونه فصمد لهم ونازلهم فانهزموا فارتحل برجاله من زايو وسار على محاذاة نهر معلويه حتى نزل قرب مصبه فى البحر

واعاد ولى العهد النظام الى جيشه ودعا رجال القبائل النازلة هنالك فلبوه فسار بهم الى لقاء الامير فارسل هذا معسكره الى ناحية عجرود (قرب حدود الجزائر) ووقف على ضفة النهر الشرقية للقاء المهاجمين ووقفوا على الضفة الغربية ودارت معركة عنيفة بينهما وخاض بعضهم النهر وكثر القتل وزحزح الامير ورجاله عن الضفة فارتدوا الى السهل واصيب فرسه فوقع من تحته فركب غيره فاصيب الثانى والثالث والرابع ودام القتال حتى المساء فنفد ما بيد رجاله من رصاص وسقط معظمهم صرعى وما كان عددهم عند ابتداء القتال يزيد عن ٢٣٠٠ بين فارس وراجل

وواصل السير وامامه معسكره يذود عنه ويحميه الى ان بلغ جبل بنى خالد من بلاد بنى يزناسن وهو من ارض الجزائر اى انه غادر ارض مراكش

و بينما كانت المعارك تدور فى الارض المراكشية بين الامير وجيش السلطان كان الجنرال لامورسير يرابط على الحدود المراكشية الجزائرية مع ٥٠ الف جندى لمراقبة الحالة ولقتاله وصده اذا حاول دخول الجزائر

ونزل الامير على الشيخ مختار بودشنيس فى بلدته تفجيرت وهو شيخ بنى خالد وكان من اصدقائه فلقى منه اعراضا وجفاء لانه خاف نقمة الفرنسويين وعدوانهم ولما ضاقت به السبل جمع الذين بقوا من رجاله واستشارهم فى الخطة التى يسير عليها بعد ما اغلقت فى وجهه جميع السبل والابواب وتخلى عنه الجميع وقال لهم لا ارى الا التسليم لقضاء الله تعالى والرضى به واقد اجهدت نفسى فى الذب عن الدين والبلاد و بعد المداولة اتفقوا على ان يكون التسليم للفرنسويين فارسل الامير رسولا الى الجنرال لامورسير للمفاوضة فى شروط التسليم فقابله بالبشر والترحاب وارسل سيفه مع

الرسول علامة الامان مع ورقة ختمها على بياض ليشترط فيها ما يشاء من شروط تعهد بقبولها مقدما

وترددت الرسل مدة ثلاثة ايام بلياليها بين الامير والجنرال واخيرا تم الاتفاق على ما يأتي :

١ ـ يحمل الامير وعائلته الى عكا او الاسكندرية

٢ ـ لا يتعرض الفرنسويون لمن يريد السفر معه من الضباط والجند

٣ ـ يكون الذين يبقون فى الوطن من رجال الامير آمنين على أنفسهم واموالهم

و بعد عقد هذا الاتفاق وقد عقد يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٤٧ غادر الامير والذين معه تفجيرت الى مرسى جامع الغزوات فكان فى انتظاره نجل الملك لويس فيلب والجنرال لامورسير والجنرال كافيناك فاستقبلوه بالحفاوة ولما استقر بهم المجلس قال الامير لابن الملك لقد اخذنا من الجنرال لامورسير عهدا وميثاقا فلا اخشى ان ينقضه ابن ملك فرنسا وعظيمها فاجابه انه يحبذ الاتفاق ويقره ويتعهد بتنفيذه ثم قدم الامير سيفه له وقال اننى احسب هذا شرفا قدم لفرنسا وفخرا عظيما

واهدى الأمير فى الغداة لابن الملك جواده الادهم وساعته مع طبنجته فقبلها شاكرا ثم سأله عن الذين يرافقونه الى الشرق فذكر له اسماء ٢٠٠ منهم

وفى اليوم الثالث لوصوله الى مرسى الغزوات ركب بارجة فرنسوية اقلعت به و بالذين انضموا اليهم الى طولون فبلغها يوم اول يناير سنة ١٨٤٨ و بعد ما قضى مدة فى فرنسا سمح له بالسفر الى تركيا فجاء الاستانة ثم بروسة ثم دمشق وفيها توفى كما جاء فى سيرته

٢٣

الحكم الفرنسوى فى الجزائر

كان سفر الامير ورجاله الى الشرق خاتمة نضال عنيف بين الجزائريين وفرنسا استمر ٢٠سنة كاملة ١٨٢٧ – ١٨٤٧ وانتهى باستيلائها على هذا القطر العربى الجميل واخضاعه ، فكان اول قطر عربى سقط فى براثن الاستعمار الغربى

وتنقسم الاعمال العسكرية التى جرت الى ادوار خمسة :

١ – دور الاعمال البحرية وقد ابتدأ فى سنة ١٨٢٧ وانتهى بالاستيلاء على مدينة الجزائر فى سنة ١٨٣٠

٢ – دور الاعمال العسكرية الاولى وقد ابتدأ فى سنة ١٨٣٠ وانتهى بظهور الامير عبدالقادر فى سنة ١٨٣٣ وانشائه حكومته وتوليه زعامة الحركة الموجهة لمقاومة الاحتلال الفرنسوى

٣ – الدور الذى قاد فيه الامير الجزائريين بالذات وانتهى بعقد انفاق تافنا سنة ١٨٣٨

٤ – الدور الرابع وقد ابتدأ بنقض اتفاق تافنا وبالرجوع الى القتال فى سنة ١٨٤٠ وانتهى بالتجاء الامير ورجاله فى سنة ١٨٤٣ الى المغرب الاقصى

٥ – الدور الخامس وقد امتد نحو اربع سنوات واتخذ فيه الامير بلاد الريف فى المغرب الاقصى قاعدة له وحارب الفرنسويين حرب عصابات وانتهى بنهوض المراكشيين لقتاله فارتد الى الجزائر فاستقبله اعداؤه الذين كانوا يرابطون على الحدود فسلم اليهم مضطرا لعدم امكانه مواصلة القتال

تلك هى الادوار الخمسة التى مرت بها الحرب الاستعمارية التى اوقدها الفرنسويون فى الجزائر ، وكانت بعد حروب نابليون فى مصر وعكا ، اول حرب استعمارية فى الاقطار العربية وادرك اقطاب الجزائر مايولده استيلاء فرنسا على قطرهم من خطر على الاقطار العربية فى افريقية الشمالية وعرفوا ان فوزها عليهم مؤذن بفوزها على تونس والمغرب الاقصى فبذلوا كل ما فى استطاعتهم لمقاومتها ولكنها تغلبت عليهم فى النهاية فاستسلموا مكرهين بعد ما كتبوا اشرف صفحة فى تاريخ البطولة العربية

ولا يقل عدد الجنود الذين ارسلهم الفرنسويون فى خلال هذه الحرب الى الجزائر عن مائتى الف مقاتل على اقل تقدير فقد الجانب الاكبر منهم ، يضاف اليهم رجال الفرقة الاجنبية الذين ارسلوا ايضا للقتال فذهب معظمهم طعمة للنيران

وانشأ الجنرال بيجو فرقة من البربر ومن بعض شذاذ المغاربة ضم اليها عدد من رجال القبائل الذين خضعوا مكرهين وظل يتعهدها وينميها حتى صارت اشبه بجيش مستقل تولى قيادها « العنابى » احد شيوخ القبائل الذين والوا فرنسا وهكذا كانت هنالك ثلاث قوى تقاتل المجاهدين الجزائريين وهى : الجيش الفرنسوى والفرقة الاجنبية وفرقة الوطنيين المجندين فى الجيش الفرنسوى ثم انضم اليه المراكشيون فى النهاية فصاروا اربع قوى لا يستهان بها ولا يقل مجموعها عن ٣٠٠ الف مقاتل

وهنالك قوة خامسة عظيمة الشأن استعان بها المارشال بيجو ــ ونعنى بها قوة المال ــ فقد استخدمها فى استمالة بعض الشيوخ والزعماء وضعفاء الايمان من ابناء البلاد فافادته كثيرا ،ومعنى ذلك ان الفرنسويين فى فتحهم العسكرى كانوا يسيرون والذهب فى يد والسيف فى اليد الاخرى فمن اطاع اكرموه وكالوا له المال ، ومن ابى وقاوم نكلوا به وحرقوا قريته او منزله واوصلوا اليه انواع الاذى

ومن تحصيل الحاصل القول ، بانه لم يكن هنالك اية نسبة بين القوى الخمس الكبرى التى جردها الفرنسويون على الجزائر و بين الحفنة الصغيرة من الرجال

الذين بايعوا الامير على الثبات فما نكثوا ولا ونوا فان اكبر جيش استطاع ان يجنده ويسير على رأسه لقتال الفرنسويين مازاد عن ١٥ الف مقاتل ، دع ماهنالك من فرق كبير بين النظام الذى كان يسود الجيش الفرنسوى والقوى الموالية له وجودة سلاحه ووفرة معداته وبين قوات المجاهدين وكانت مجردة من هذه المزايا تقريبا

واستعان الامير بحرب العصابات فى قتال الفرنسويين وربما كان اول من استخدمها فى الحروب الاستعمارية ، فقد اشهرها على اعدائه ، بعد ماستولوا على المدن وخطوط المواصلات الرئيسية واقصوه الى الصحراء وقاتلهم بها فاسرع الجنرال بيجو فنظم عصابات من ابناء البلاد وارسلها لقتال العصابات الوطنية فأتعبتها وازعجتها ولا يفل الحديد الا الحديد وهكذا قاتل الفرنسويون الامير بكل سلاح ، وحاربوه بجميع ادوات الحرب فتغلبت قوتهم على حقه

ورسم الجنرال بيجو بعد ما قضى على حركة المقاومة خطة تقوم على فرنسة الجزائر اى تحويلها الى قطر فرنسوى ونزع الصبغة العربية منها ، وبدأ فأنشأ مكتبا للشؤون العربية يعمل فيه ضباط يجيدون اللغة العربية ثم نقل ٤٠ الف فرنسوى الى الجزائر فاقطعهم افضل الاطيان والاراضى ويسر لهم اسباب المعيشة فكانوا طليعة الاستعمار الفرنسوى الاهلى وتتابع المهاجرون بعدهم ، والمورد العذب كثير الزحام ، ولا يقل عدد الفرنسويين هنالك اليوم عن نصف مليون يملكون معظم الاراضى الخصبة التى انتزعتها الحكومة من اصحابها العرب بثمن او بغير ثمن

ولما آل الحكم فى فرنسا الى نابوليون الثالث وكان صديقا لمولاى عبد القادر وهو الذى سمح له بالسفر الى بلاد الشرق بعد ما قضى نحو خمس سنوات معتقلا ، فى فرنسا ـ نفذ سياسة جديدة تقوم على الاكتفاء بالاستعمار الاقتصادى وعلى عدم محاربة العروبة وابقاء الجزائر قطرا عربيا كما هو وله فى هذا الشأن خطبتان الاولى فى سنة ١٨٦٣ والثانية سنة ١٨٦٥ وقد دعا كبار الماليين ورجال

الاقتصاد الى العمل فى ميدان الجزائر وساعدهم كثيرا ومنحهم امتيازات جمة

وفى عهد نابوليون هذا اى فى سنة ١٨٦٨ منحت الجزائر دستورا يخولها نوعا من الاستقلال الداخلى على انهم عادوا فى سنة ١٨٧٢ فالحقوها بوزارة الداخلية الفرنسوية مباشرة باعتبار انها مقاطعة فرنسوية ولا تزال كذلك حتى الآن. ويرأس حكومتها موظف فرنسوى تعينه حكومة باريس ويرجع اليها

٢٤

من صلح المرسى الى الحرب العظمى

عكف الفرنسويون بعد انصرافهم من حرب الامير عبد القادر ، على اخضاع القبائل الجبلية والصحراوية وكانت لاتزال نافرة منهم ، مستعزة بجبالها ، معتمدة على مناعتها، فاخضعوها واذلوها

واول ثورة نشبت فى الجزائر على الحكم الفرنسوى بعد التجاء الامير الى المغرب الاقصى هى الثورة التى قادها ابو زيان فى واحات زيان (شرقى الجزائر) فساق الفرنسويون القوى عليها فاطفأوها

وثار عليهم بعد ذلك محمد بن عبد الله فى لغوات فارسلوا عليه القوى فطاردوه فلجأ الى مدينة ورغله فاقتحموها فى سنة ١٨٥٤ وقضوا على الثورة

وسيروا القوى لاخضاع القبائل البربرية النازلة فى وادى الساحل ووادى سيباو فدارت حروب بينهم وبينها استمرت نحو ١٤ سنة (سنة ١٨٤٤ - ١٨٥٧) سالت فيها الدماء انهارا وفاز الفرنسويون فى النهاية وفر ابو بغلة احد الذين اداروا رحى تلك الحروب وسلمت قبائل الجرجورة بعد ما استنفدت الجهد فى النضال بشرط الابقاء على عاداتها وتقاليدها وعدم التعرض لشؤونها الداخلية

وثار بنو سناسن (غربى الجزائر) على الحكم الفرنسوى سنة ١٨٥٩ فارسلت فرنسا القوى العظيمة لتأديبهم فنكلت بهم واخضعتهم

وثار اولاد سيدى الشيخ على فى جنوبى وهران سنة ١٨٦٤ فارسلت فرنسا القوى لقتالهم فنازلوها وصدوها وتغلبوا عليها فعززتها بقوات اخرى ، وظلت المعارك مستمرة حتى سنة ١٨٦٧ اى حتى زيارة الامبراطور نابوليون الثالث الجزائر فى

سنة ١٨٦٦ فقد عمل فى خلال زيارته هذه (هى الثانية) على التقرب من العرب واستمالتهم وقال انه يعد نفسه ملك العرب كما هو ملك الفرنسويين ، وابطل كثيرا من المظالم والمغارم وادخل كثيرا من التبديل والتغيير على الانظمة الادارية فاطمأن العرب قليلا وسكنوا

ولما فاز الالمان على فرنسا فى سنة ١٨٧٠ واسروا الامبراطور نابوليون وسقطت الملكية فى فرنسا وحلت محلها الجمهورية الثالثة (الجمهورية الحاضرة) تنادى الجزائريون للثورة بقيادة سيدى المقرانى قائد ميجانه الذى ظن ان الفرصة سانحة للتخلص من الحكم الفرنسوى والقضاء عليه

وانضم الشيخ الحداد وولده سى عزيز ومعهم اتباع الطريقة الرحمانية الى سيدى المقرانى وايدوه فى ثورته فاتسعت وشملت معظم اجزاء مقاطعتى الجزائر وقسنطينة واحاط الثائرون بجميع المراكز الفرنسوية وهزموا الفرنسويين فى كثير من المعارك وفازوا عليهم فحشدت حكومة باريس الجنود وارسلتها الى الجزائر وكانت الحرب الفرنسوية ـ الالمانية قد انتهت ، وولت قيادتها العامة الاميرال (غويدون) لما اشتهر به من القسوة والشدة والعنف ، فوقعت بينه و بين الثوار معارك كثيرة كانت الحرب فيها سجالا .

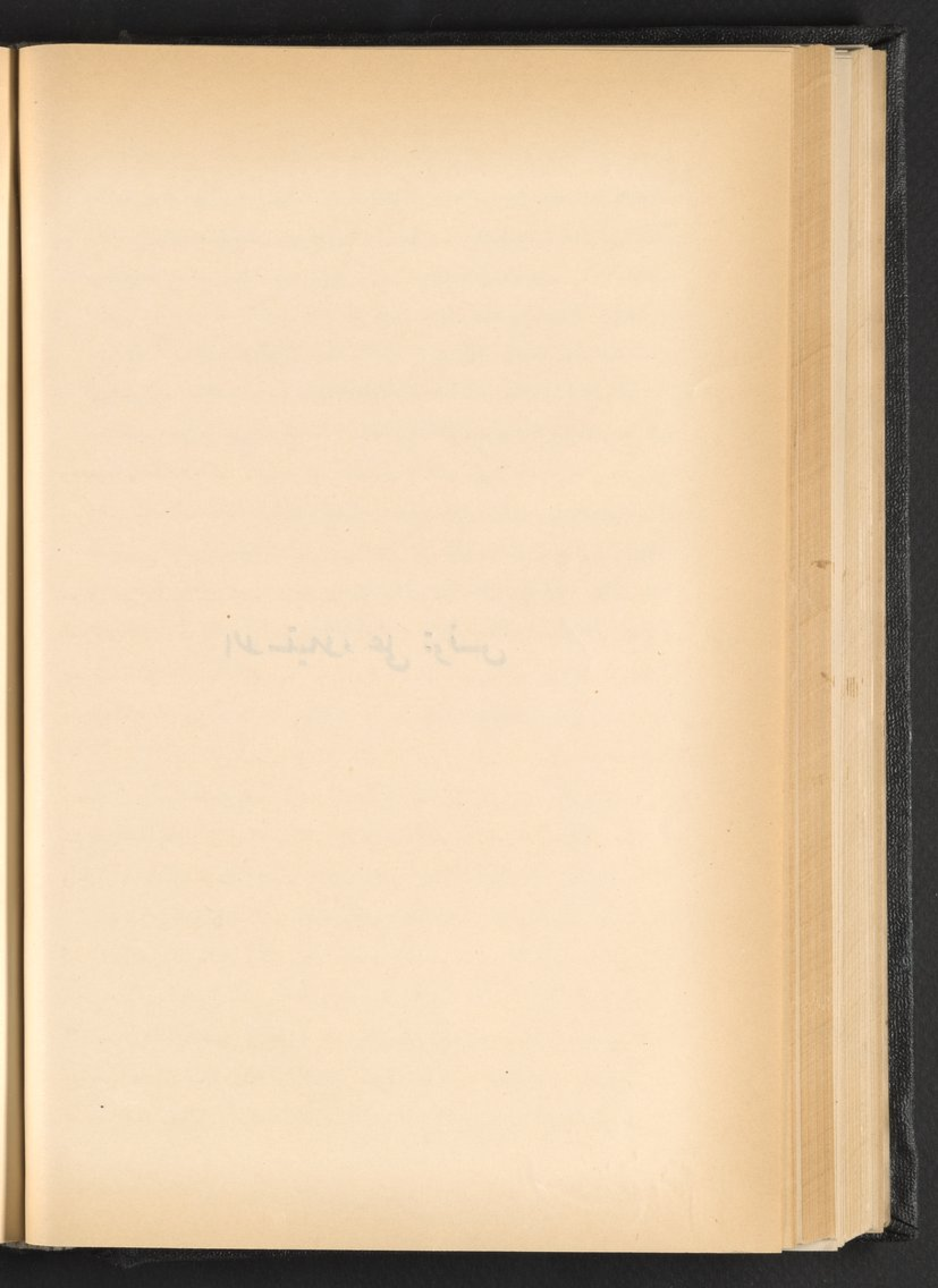
وضيق الفرنسويون على الثوار وشددوا عليهم مستعينين بكثرتهم ووفرة مصادرهم ، فتغلبوا عليهم وسقط سيدى المقرانى نفسه شهيدا فى معركة وادى سفلات فخلفه فى زعامة الحركة اخوه ابو مزراق ، فادار رحى الحرب واشعلها فى كل مكان وصدق فى الكر والفر ولكن الفرنسويين تغلبوا عليه واسروه يوم ٢٠ يناير سنة ١٨٧٢

ومما يستحق الذكر ان الامير محمد الحسنى النجل الاكبر لمولاى الامير عبد القادر الحسنى غادر دمشق فى تلك الايام وجاء الى الجزائر واشترك فى الثورة وقاتل فيها فلم يرق ذلك فى عين والده لانه اعتبر عمله نقضا لعهده مع الفرنسويين وانتقمت فرنسا من القبائل شر انتقام بعد اخماد الثورة فالغت استقلالها

(الادارى الداخلى) وجعلتها تحت سلطة الموظفين الفرنسويين مباشرة ، كما فرضت عليها غرامات باهظة اثقلت ظهرها واستنفدت ثروتها وافقدتها ماشيتها وسائر ماتملكه وجعلتها ترزح تحت اعباء الديون ولو اكتفت بذلك لهان الامر ولكنها انتزعت منها اراضيها ومزارعها فقد اغتصبت منها نحو نصف مليون هكتار (الهكتار الواحد نحو ١٠ آلاف متر مربع أو فدانان ونصف فدان مصرى) ووهبتها الى المستعمرين الفرنسويين ليستغلوها ويستعمروها وذلك طبقا لخطة رسموها ونفذوها وتقوم على طرد العرب من المناطق الزراعية القابلة للسكنى واجلائهم الى داخل الصحارى ليموتوا جوعا وعطشا واحلال الفرنسويين محلهم .

وقد لاقت هذه الخطة استنكارا من بعض احرار الفرنسويين ومنصفيهم وفى مقدمتهم الفيلسوف غوستاف لو بون فقد حمل عليها حملة شديدة فى كتابه « البسيكولوجيا السياسية » واظهر مضارها وناشد قومه العدول عنها وسنعود الى معالجة هذه القضية فى الجزء الثالث من هذا الكتاب حين الكلام على اليقظة القومية فى الجزائر بعد الحرب العظمى

الاستيلاء على تونس



١

تونس فى التاريخ

تقع تونس بين بلاد الجزائر وطرابلس الغرب والصحراء والبحر المتوسط ، وهذه حدودها : من الغرب الجزائر ومن الجنوب طرابلس الغرب والصحراء الكبرى ومن الشمال والشرق البحر المتوسط

وعاشت تونس والجزائر قرونا كثيرة خاضعتين لنظام حكم واحد ، فقد دخلتا معا فى حوزة القرطاجنيين ثم انتقلتا الى حكم رومه فالحكم البيزانطى ، واتخذ العرب القيروان عاصمة لهم فى افريقية الشمالية بناها الفاتح العربى عقبة بن نافع فى سنة ٥٠ هـ بعد فتحها على يد عبدالله بن ابى سرح سنة ٢٨ هـ وظل هذا شأنها طول العهد الاموى واوائل العهد العباسى

ونقل الفاطميون العاصمة الى المهدية حينما اسسوا دولتهم الجديدة فى افريقية ، وكانت فى اول الامر تضم تونس والجزائر ثم تداولت على المغرب الاوسط دول شتى حتى جاء العثمانيون فى القرن العاشر الهجرى فبسطوا نفوذهم السياسى على تونس والجزائر وطرابلس الغرب

وحكم تونس كما حكم الجزائر امراء اقطاعيون اشتدت بينهم المنافسات وكثرت الحروب والفتن الداخلية وكان كل منهم ينافس صاحبه و يعمل ليتفرد بالامر وظل الحال على هذا المنوال حتى سنة ١١١٧ هـ ففى ٢٠ ربيع الاول من تلك السنة اتفق التونسيون فقلدوا حسين بن على الحكم وهو رأس العائلة الحسينية الحاكمة حتى الآن ومؤسسها واقر الباب العالى هذا الاختيار ، وكانت له السلطة الاسمية ووافق عليها ، فصارت الامارة وراثة فى اولاده

واتخذ الفرنسويون من مقامهم فى الجزائر (جارة تونس) واسطة للتدخل فى شؤون هذا القطر مستغلين تصرفات سيئة صدرت من بعض الولاة ووقوع اضطرابات داخلية وظروف خاصة اخرى ، فنجحوا وفازوا وتم لهم ماارادوه من دون كبير عناء ، ولا عظيم مشقة بعكس ما حدث لهم فى الجزائر

٢

مقاطعة تونس

تعد مقاطعة تونس من اجود المقاطعات العربية فى شمالى افريقية ومن اخصبها ارضا وافضلها مناخا وهواء ومركزا وموقعا واكثرها معادن وثروة وغنى

وتبلغ مساحتها السطحية ١٦٧٤٠٠ كيلو متر مربع ولا يقل عدد سكانها عن ثلاثة ملايين من العرب المسلمين عدا الاجانب ويبلغون ٣٠٠ الف يضاف اليهم ١٢٥ الفا من اليهود .

ومدينة تونس (العاصمة) تعد من اعظم مدن هذه المقاطعة بل من اعظم مدن افريقية الشمالية، ومن اشهر مدنها صفاقس وسوسة والقيروان و بنزرت والمهدية وقابس

وهاجر الفرنسويون متلاحقين الى تونس بعد الاستيلاء عليها فصار عددهم يحصى بالالوف ، بعد ما كان يحصى بالعشرات وهم يملكون نحو مليون هكتار من اجود اراضيها ، من اصل عشرة ملايين هكتار ولهم الشركات المالية الكبرى ، والمشروعات الاقتصادية الكثيرة ، والمتاجر الواسعة والمناصب الحكومية واليهم تجبى اموال البلاد وخيراتها

٣

بين تونس وفرنسا

لم تنشأ صلات مباشرة بين تونس وفرنسا فى العهد الحديث الا بعد ماتم للفرنسويين الانتصار على الجزائريين فى تلك الحروب الطويلة التى وقف فيها حكام تونس على الحياد وابوا ان يعملوا عملا لمساعدة اخوانهم وجيرانهم

ونشأت اول صلات مباشرة بين البلادين عند زيارة انجال الملك لويس فيليب لتونس فى عهد احمد باى بن مصطفى المتولى سنة ١٢٥٢ هـ والمتوفى سنة ١٢٧١ (سنة ١٨٣٧ — ١٨٤٦) فاحتفل بزيارتهم وبالغ فى اكرامهم ، ثم غادر عاصمته الى فرنسا تلبية لدعوة والدهم (١٦ ذى القعدة سنة ١٢٦٢ — او سنة ١٨٤٦) فنزل فى طولون وسافر منها الى باريس فاحتفى به القوم (كان ذلك قبيل ختام الحرب الجزائرية) وبالغوا فى اكرامه

وسعى احمد باى للاخذ بالنظم الاورنية الحديثة وادخالها الى بلاده فنظم الجيش على اسس جديدة وابتاع عمارة بحرية وانشأ مرسى حربيا بغار الملح واحدث دار صناعة لانشاء السفن بحلق الواد واسس معامل لصنع السلاح كما انشأ مدينة خاصة بجوار تونس وسماها المحمدية وابطل الرقيق وامر بعتق جميع المماليك

واضعف تحقيق هذه المشروعات العديدة ـ وكلها يحتاج الى مال ـ الخزينة والقاها فى ارتباك فاضطرت الحكومة الى فرض ضرائب جديدة على الصادر والوارد واحتكرت الملح والدخان والجلد والصابون وقاولت(لزمت) هذه الضرائب لاناس مقابل مال يعجلونه فأساءوا الاستعمال وظلموا الشعب وارهقوه فتألم وتذمر ولكن بلاجدوى

وحل محمد باى محل احمد الاول حينما توفى فالغى الجيش الجديد وابطل كثيرا من المغارم واصـــدر « عهد الامان » يوم ٢٠ المحرم سنة ١٢٧٤ و ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٧ وتعهد بالعمل بموجبه وهو اشبه بخط كلخانه الذى اصدره السلطان عبد المجيد فى ذلك العهد وينص على مساواة السكان فى الحقوق العامة وعلى الحرية الدينيـة والمذهبية

وحل محمد الصادق باى فى دست الحكم محل محمـد وكان عهده قصيرا فبـدأ بتطبيق عهـد الامان والنظام الدستورى فأنشأ مجلسا اعلى من ٦٠ عضوا للنظر فى مصالح البلاد اطلقوا عليه اسم « المجلس الكبير »

وزار نابوليون الثالث الجزائر فى تلك الاثناء فذهب اليها وقابله فهنأه بالاصلاحات التى ادخلها ونفذها

وساءت الحالة المالية واضطربت فى عهد هـــذا الباى ، فلجأت الحكومة الى عقد القروض ، فكان نذير الشر فعقدت قرضا بمبلغ ١٨ مليون من الفرنكات من فرنسا بفائدة كبيرة ثم عقدت قرضا آخر منها بقيمة ٣٥ مليون فرنك لم يصـل منه الى الخزينة سوى جزء قليل وتسرب الجانب الاكبر الى جيوب كبار الحكومة والسماسرة

وكان الفرنسويون يعملون فى خلال ذلك بدون توان لتوسيع نطاق نفوذهم وكانوا قد نالوا بعض امتيازات ادارية وسياسية فكان منهم الضباط فى البحرية وفى الجيش وموظفون فى المصالح الاخرى ، وكان منهم ايضا معظم اساتذة المدرسة الحربيـة وبقية المدارس الاخرى

ولم تقف الحكومة عند حد عقد القروض الخارجية وانفاق الاموال وتبذيرها بدون حساب بل عمـدت الى زيادة الضرائب ولا سيما ضريبـة « المجبى » بدون استشارة مجلس الامة الكبير وبدون موافقته فساء ذلك رجال البـلاد ، فثار رجال القبائل على الحكومة ، وانتقضوا عليها بقيادة عـلى بن غداهم شيخ قبيلة ماجر ، طالبين الغاء الضرائب الثقيلة فقاومتهم وحاولت اخضاعهم بالقوة فعجزت . ثم تداخلت

الدول للاصلاح والتوفيق فارسلت الدولة العثمانية بارجة حربية مع مندوب سام للتوسط بين الحكومة والشعب لانهاء الثورة واخيرا تم الاتفاق على الغاء الضرائب الاضافية التى شكا منها الشعب ، وكانت هذه الثورة من اشرف الثورات الشعبية واكرمها فلم يقع فيها اعتداء على انسان ولم يظلم احد ، ووقف الشعب التونسى صفا واحدا حتى نال مطالبه

ولا ريب ان توالى الاضطرابات والفتن ، والاسراف فى انفاق الاموال بدون حساب زاد الحالة المالية اضطرابا فعجزت الحكومة عن دفع اموال القروض المستحقة كما عجزت عن دفع النفقات الاخرى فتدخلت انكلترا وفرنسا وايطاليا والفت لجنة مالية بالاتفاق مع الحكومة الفرنسوية للاشراف على الحالة المالية وتنظيمها وتصفية الديون واحصائها ، وما كانت تقل عن ١٣٥ مليونا من الفرنكات بددت فى خلال سنوات

وسعى بعض عقلاء التونسيين فى تلك الفترة للاستعانة بالدول ذات المصالح فى البحر المتوسط لكى يتخذوها اداة لمقاومة الخطر الفرنسوى الذى كان يتفاقم يوما بعد يوم ومهدوا لذلك بارسال الامير حسين باى لزيارة رومة زيارة رسمية كما اختصوا بعض الايطاليين بمناصب ادارية فى الحكومة التونسية لاذكاء نار المنافسة بين ايطاليا وفرنسا وحمل الاولى على الوقوف فى جانبهم وخاف الفرنسويون عواقب السياسة الجديدة فقرروا التعجيل بالعمل ، وفاه رئيس وزرائهم يومئذ المسيو جول فرى بهذه الجملة « يجب ان لا ندع مفتاح بيتنا يقع فى يد اجنبية » (يريد بذلك ايطاليا)

ووقعت فى تلك الاثناء اضطرابات على الحدود بين القبائل الجزائرية والتونسية ويقال ان لبعض العمال الفرنسويين يدا فى اذكائها وتوسيع نطاقها ولما بلغت مداها نهض الفرنسيون للتدخل باسم توطيد الامن وساقوا جيشين على تونس : تقدم الاول بقيادة الجنرال برويار غربا بطريق خمير الى باجه ومنها الى مجاز الباب فخفرية ثم الى القصر السعيد

ومشى الثانى بقيادة الجنرال لوجرد من بلاد الزاب قادما من جنوبى الجزائر ومتجها الى قلب البلاد التونسية (تونس الوسطى) فتقدم حتى الكاف واستقر فيها

وواصل الجيش الاول تقدمه من دون عناء حتى القصر السعيد (قصر الباى) وهو على ٣ كيلو مترات من مدينة تونس « العاصمة » فضرب نطاقا حوله ثم سلم قائده الجنرال برويار انذارا الى الباى مع مشروع معاهـدة اعده من قبـل للتوقيع عليه فى خلال ساعتين فقط والا نفذ ما يراه من التدابير الضرورية

٤

تونس تحت الحماية الفرنسوية

ارسل الباى حينما تلقى انذار الجنرال بروبار فدعا المجلس الاعلى ، وكان يتألف من الوزراء وكبار العلماء والاعيان ، الى الاجتماع فورا ، فلما اجتمعوا لديه اطلعهم على الانذار واستشارهم فى الخطة التى يسير عليها فاشار العربى بن زروق (وزير المعارف) بالرفض والمقاومة ، وقال له ان الافضل لك ان تغادر القصر السعيد الى تونس فى الحال فتحشد الجند وتتأهب للنضال ولا تدع بلادك تذهب غنيمة باردة

— ولكن الخزينة فارغة

— ان رجال الدولة اغنياء وفى استطاعة كل منهم ان يدفع مبلغا كبيرا من المال

— والجند قليل

— نجمعه حالا

— أو تريد ان تلطخ لحيتى بدمى ، (وامسك بلحيته البيضاء بيده)

— وما شأن نفس واحدة فى سبيل مليونين من المسلمين

توقيع المعاهدة

وتناول البـاى المعاهدة على الاثر فوقعها وابلغ ذلك الى الجنرال برو يار فطيره برقيا الى باريس

و بينما كانت المباحثات دائرة فى مجلس الباى حول قبول المعـاهدة او رفضها

كان المسيو كلنسو السياسى الفرنسوى المشهور يحمل بشدة فى مجلس النواب على الوزارة لتدخلها فى شؤون بلاد صديقة بلا سبب قائلا انها بعملها هـذا تفتح على فرنسا باب شر وتوقعها فى مشا كل مع ايطاليا وانكلترا و يطلب اصدار امر بسحب الجيش واسترداده مما احرج مركز الحكومة واوقعها فى ارتباك فتوارى رئيسها عن الانظار ترقبا لما يؤول اليه الحال فى تونس

ووصلت والمناقشات دائرة برقية الجنرال بر ويار معلنة توقيع الباى المعاهدة وقبولهـا بلا عناء ولا مشقة فاسقط فى يد المسيو كلنسو وهتف المجلس للحكومة واقر خطتها .

وعود فرنسوية

ويقول بعض الراسخين فى العلم انه كانت هنالك اتفاقات سرية بين مصطفى بن اسماعيل رئيس مجلس الوزراء التونسى يومئذ و بين الفرنسويين ، وان هؤلاء وعدوه بان ينقلوا اليه ولاية العهد اذا ساعدهم وايد مشروعهم ، واقنع الباى بقبوله ، ومعنى ذلك انهم وعدوه بالعرش التونسى بعد وفاة الباى وكان هـذا شيخا طاعنا فى السن ، مقابل انضمامه اليهم ، فلم يقصر هـذا من ناحيته فى اقناع « مولاه » بقبول مشروع الحماية وكان ذا سلطان عليه

ولا بد لنا من القول ان بلوغ خيرالدين باشا التونسى منصب الصدر الاعظم فى تركيا خلال تلك الفترة ، وكان خصما للباى ولرئيس وزرائه ، جعـل الاول يحسب حساب العواقب و يخاف النزول عن العرش ، كما انزلوا اسماعيل باشا عن سرير الخديوية المصرية يومئذ ، وعرف الفرنسويون فيه هذا الضعف فاستغلوه وافهموه ان دخوله تحت حمايتهم ينقذه من سلطة الباب العالى ويجعله فى نجوة من نفوذ خير الدين

ولـكى يهونوا الامر عليـه ، تعهدوا له سرا بينهم و بينـه بان يسحبوا جيش الاحتلال من تونس بعد ما يوقع على المعاهدة وتستقر الحالة فى البـلاد و يسود

الامن وهكذا انشأوا جوا صالحا باتفاقهم مع الباى ومع رئيس مجلس الوزراء الذى تولى بنفسه تمهيد الامور لهم

معاهدة القصر السعيد

وهذا نص معاهدة الحماية او معاهدة القصر السعيد وقد وقع عليها يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨١ :

ارادت الدولتان ، دولة الجمهورية الفرنسوية ودولة باى تونس ، ان يقطعوا باب الشغب والقلق الواقع قريبا فى حدود الدولتين وفى الشطوط التونسية ، وارادوا ان يربطوا العلائق القديمة ، علائق المودة والجوار الحسن ، فاعتمدوا على ذلك وعقدوا هـذه المعاهدة لنفع الجهتين وعلى موجب ذلك فان رئيس الجمهورية الفرنسوية عين مندوبه الجنرال بروبار للاتفاق مع حضرة الباى السامية فاتفقا على الشروط الآتية وهى :

المادة الاولى ــ المعاهدات الصلحية والودادية والتجارية وغيرها المعقودة بين الجمهورية الفرنسوية وحضرة الباى يتحتم اقرارها واستمرارها

المادة الثانية ــ لكى يسهل على دولة الجمهورية اتمام الوسائل الموصلة الى المقصود الذى يفى بالمهمتين العظيمتين ، لحضرة الباى ترضى بان السلطة العسكرية الفرنسوية تضع العساكر فى المراكز التى تراها لازمة لتعزيز الراحة وتوطيدها والامان فى الحدود والشطوط وجلاء العساكر يكون باتفاق السلطتين العسكريتين الفرنسوية والتونسية على ان الدولة الفرنسوية قادرة على تقرير الراحة فى البلاد

المادة الثالثة ــ تتعهد دولة الجمهورية لحضرة البـاى بان يستند عليها دائما فى الدفاع عن جميع ما يتخوف منه من الضرر سواء فى نفسه او فى عائلته او فى ما يوجب قلق دولته .

المادة الرابعة ــ دولة الجمهورية الفرنسوية تضمن اجراء المعاهدات الموجودة الآن بين الدولة التونسية والدول الاوربية المختلفة

المادة الخامسة ـ يمثل دولة الجمهورية الفرنسوية لدى حضرة الباى وزير معين للنظر فى اجراء هـذه المعاهدة وهو يكون واسطة بين الدولة الفرنسوية وذوى الامر والنهى من الفرنسويين وكذا فى كل الامور المشتركة بين المملكتين

المادة السادسة ـ يعهد الى النواب السياسيين والقناصل الفرنسويين فى الممالك الاجنبية بحماية أعمال تونس وشؤون رعيتها ، وفى مقابل ذلك فحضرة الباى يتعهد بان لا يعقد معاهدة عمومية من غير اعلام دولة الجمهورية بها ، ومن غير ان يحصل على موافقتها من قبل

المادة السابعة ـ دولة الجمهورية الفرنسوية وحضرة الباى يبقيان لانفسهما الحق فى ان ينظما المالية التونسية ليمكن لهما بذلك دفع الدين التونسى العام وهـذا التنظيم يضمن حقوق أصحاب الدين التونسى

المادة الثامنة ـ تحمل القبائل العاصية بالحدود والشطوط على دفع غرامة حربية وتعقد دولة الجمهورية مع حضرة الباى فيما بعـد شروطا على تقديرها وطرق جبايتها ودولة الباى تضمن ذلك

المادة التاسعة ـ تتعهد دولة الباى بمنع ادخال سلاح وآلات حربية الى المملكة الجزائرية من جزيرة جربا وقابس وبقية المراسى الجنوبية فى المملكة

المادة العاشرة ـ تعاد هـذه المعاهدة بعد ابرامها من قبل الجمهورية الفرنسوية الى تونس فى أقرب وقت وتسلم الى حضرة الباى السامية .

تركيا والمعاهدة

ولم يعمل الباب العالى فى خلال الازمة التونسية عملا ايجابيا ماديا لانقاذ تونس ودفع الخطر المحيق بها بل اكتفى بارسال البرقيات الواحدة تلو الاخرى الى البـاى

يأمره فيها بعـدم توقيع المعاهدة المعروضـة عليـه و يقول بان المسالة تحـل بالطرق الديبلوماسية وبارسال البرقيات الاحتجاجية الى دول اوربا ، وقد واصل الاحتجاج فعلا بعد توقيعها وابى ان يعترف بالامر الواقع او يقره وظل هـذا شأنه حتى عقد معاهدة سيفر (مايو سنة ١٩٢٠) فاعترف بالحماية الفرنسوية واقرها

٥

صدى اعلان الحماية

حرص الفرنسويون على ان لا يقعوا فى تونس فيما وقعوا فيه بالجزائر وعلى ان لايستهدفوا هنا لما استهدفوا له هنالك فاستعانوا بالوسائل السياسية وتوسلوا بكل ما يخطر بالبال التوسل به لتحقيق اغراضهم من دون كبير خسارة ، فلم يدفع ذلك عنهم مكروها فقد قابلت البلاد التونسية اقرار الباى للمشروع بالاستنكار الشديد ، والاستياء الزائد، وارتفعت صيحات الاحتجاج من كل مكان مطالبة بالغاء ماوقع والعدول عنه ، فلم يجد ذلك نفعا فوقعت الثورة فى اجزاء البلاد الوسطى وفى المنطقة الشرقية وقام رجال القبائل ينازلون الجيش الفرنسوى ويقاتلونه ، فوالت الحكومة الفرنسوية ارسال النجدات فبلغ عدد جيشها ٨٠ الف مقاتل بعد ما كان عشرين الفا يوم زحف للمرة الاولى

ودارت معارك عنيفة بين الثوار والفرنسويين فى القيروان وجلاص والسواس وغيرها اشترك فيها عدد من رجال الجيش التونسى الذين غادروا معسكراتهم للدفاع عن اوطانهم ، فاسرع الفرنسويون لحلوا هذا الجيش وفرقوا وحداته

تدمير مدينة صفاقس

واشتركت حامية مدينة صفاقس فى الثورة وانضمت الى الثوار واعلنت خروجها على حكومة الباى فجاءت بعض سفن الاسطول الفرنسوى وضربت المدينة بقنابلها فدمرت جانبا منها واخضعتها

الباى يتدخل

وضاق الفرنسويون ذرعا بالثورة وخافوا من خطر امتدادها واتساعها فحملوا الباى فاصدر منشورا استنكرها فيه وحمل على زعمائها والقائمين بها ونعتهم بالخائنين وقال ان عملهم يطيل اجل الاحتلال ثم طلب من الشعب الاخلاد الى السكينة والتخلى عن الثوار ، وتركهم وشأنهم وقال ان ذلك افضل السبل لتقصير امد الاحتلال وعودة البلاد الى الحالة الطبيعية

واثر هذا المنشور فى نفوس كثيرين من البسطاء وخدعوا به فانفضوا من حول رجال الثورة وتخلوا عنهم فلجأوا الى طرابلس الغرب ومنها سافروا الى الاستانة فنزلوا بضيافة الباب العالى وسعت الحكومة الفرنسوية بعد استقرار الحال فاعادتهم جميعا الى اوطانهم

خسارة الفرنسويين

واستمرت هذه الاضطرابات نحو سنة خسر فيها الفرنسويون نحو ثلاثين الف مقاتل وبذلوا نحو ١٠٠ مليون فرنك فى اخمادها

اما خسارة التونسيين فهى كبيرة ايضا وقد دمر كثير من مدنهم وقراهم ودفعوا غرامات كبيرة للفرنسويين

٦

معاهدة قصر المرسى

لم يف الفرنسويون للباى بما وعدوه به من سحب الجيش عقب توقيع المعاهدة بل فعلوا العكس فوسعوا نطاق احتلالهم حتى شمل البلاد من اقصاها الى اقصاها ووضعوا يدهم على ثكنات الجيش ومراكزه واستولوا على كل ما كان له ، وصاروا يتصرفون فى شؤون البلاد تصرف المالك الاصلى من دون ان يقيموا لاحد وزنا

ولم يفوا ايضا لرئيس الوزارة مصطفى بن اسماعيل بما وعدوه به بل اقالوه من منصبه غداة الاحتلال فسافر الى فرنسا يحرق الارم غيظا وكمدا و بعد ماقضى فيها مدة عاد الى تونس وقضى بقية حياته مهانا محتقرا شأن جميع الذين يخونون اوطانهم و بلادهم

وادرك الباى بعدلأى انه كان مخدوعا وانهم هزئوا به وعرف ان فرنسا لن تجلو عن بلاده بسهولة وادرك انه جنى عليها باعماله وتصرفاته جناية لاتغتفر فمات غما وكمدا فى اواخر سنة ١٨٨٢ اى بعد انقضاء سنة ونصف على الاحتلال فخلفه فى محله ولى العهد على باى و يقال ان الفرنسويين اشترطوا عليه قبل اجلاسه على العرش ، ان يوافق على تعديل معاهدة باردو وهددوه بابن عمه محمد باى فلم يسعه الا الموافقة فوقع على التعديل الجديد يوم ٨ يونيو سنة ١٨٨٣ وهو موجز وقد تعهد فيه بقبول الارشاد الذى تزوده به فرنسا فى الشؤون المالية والداخلية والاشغال والمعارف وهكذا اطلقت المعاهدة الجديدة و يسمونها معاهدة قصر المرسى يد فرنسا فى التدخل بالامور الداخلية كما اطلقت معاهدة القصر السعيد يدها فى الامور الخارجية

وتألفت الوزارة الجديدة برئاسة محمد العزيز بوعتور وهو اول تونسى يلى هذا المنصب ، وكان الرؤساء السابقون من المماليك الترك او الشراكسة ، ونفذ للفرنسويين جميع مطالبهم

تعديل الوضع الحكومى

واستند الفرنسويون الى المعاهدة الجديدة فراحوا يتدخلون فى الشؤون الادارية فوضعوا نظاما جديدا للحكومة بدلا من النظام القديم . فصار مجلس الوزراء التونسى يتألف من وزيرين تونسيين ومن ثلاثة فرنسويين هم المقيم العام ويتولى وزارة الخارجية ، وقائد جيش الاحتلال ويتولى وزارة الحربية ، واميرال اسطول البحر المتوسط الفرنسوى ويتولى وزارة البحرية

والوزيران التونسيان هما رئيس الوزارة ورئيس كتاب الباى وقد اطلقوا عليه لقب وزير القلم وهو بدون وزارة

وحولوا وزارات المالية والداخلية والمعارف والاشغال العامة الى مصالح ولوا كلا منها موظفا فرنسويا فقبضوا بذلك على زمام الحكومة وصاروا اصحاب الامر والنهى فى البلاد

الاحتجاج على ماوقع

وهال ماوقع العقلاء والعلماء وذوى الرأى فعقدوا اجتماعات لبحث الحالة انتهوا فيها الى وضع مذكرة حملها وفد منهم الى الباى بالاحتجاج على ماجرى وطلب الغائه والاخذ من الاصلاح بما يتفق مع عادات البلاد وتقاليدها وروحها

وقد اشترك فى هذه الاجتماعات الشيخ محمد السنوسى وكان من زعمائها وامير الالاى على بن مصطفى و بعض اعضاء المجلس الكبير وعدد من العلماء وكبار الموظفين ورؤساء المصالح والتجار

وبكى الباى حينما تلا عليه الوفد المذكرة الاحتجاجية ووعد بان يبذل كل مافى وسعه لاصلاح الحالة طبق ارادة الامة

سياسة الشدة

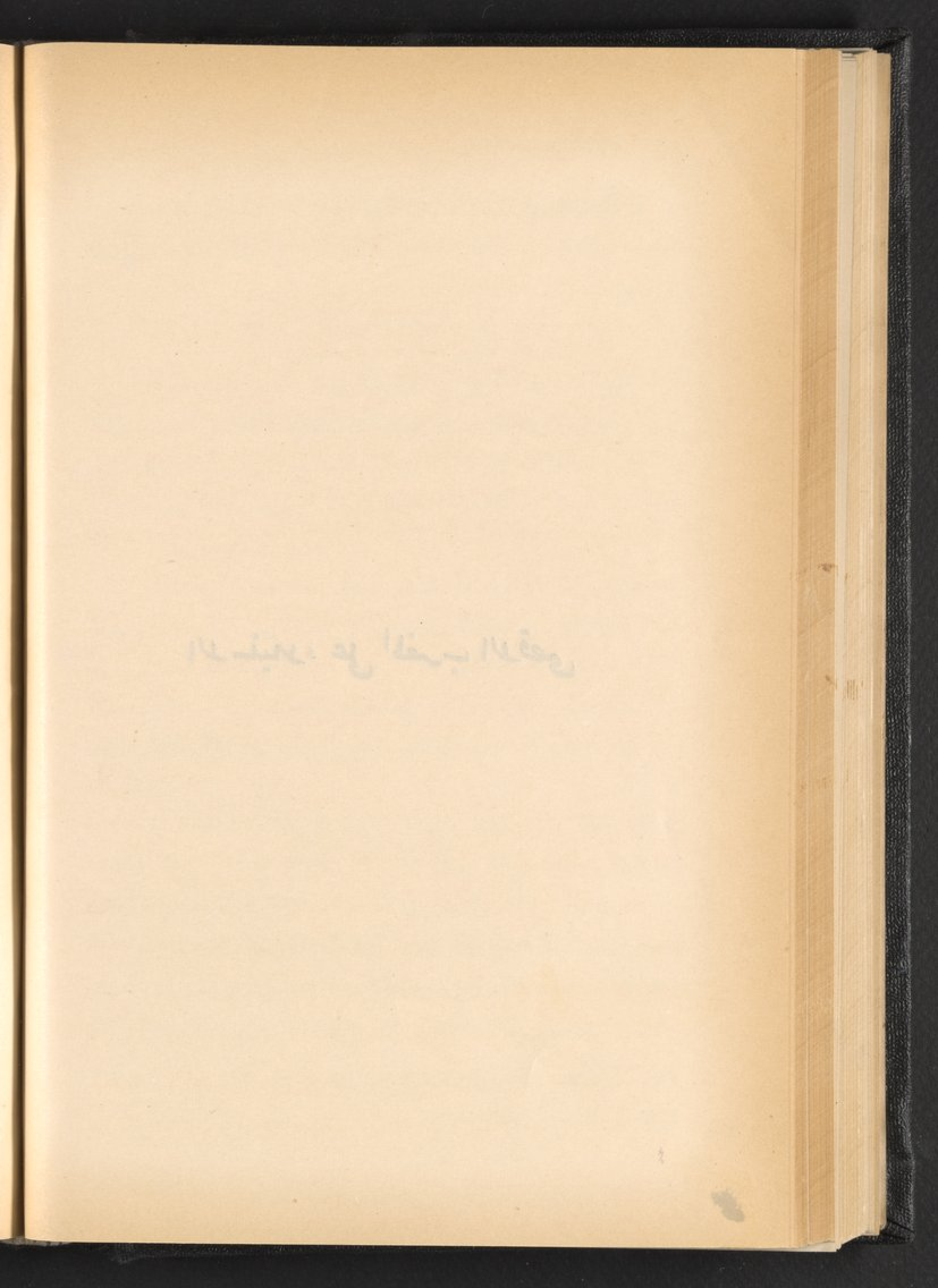
وقبصت السلطة فى مساء اليوم الذى قابل فيه الوفد الباى على الشيخ محمد السنوسى ونفته الى قلعة قابس وعلى الكولونيل على بن مصطفى ونفته الى جزيرة جربا وصدر مرسوم بعزل جميع الموظفين الذين اشتركوا فى هذه الحركة و بين الذين عزلوا الدلاجى محافظ تونس والشيخ الورتانى مدير الاوقاف العام وغيرهم من رؤساء المحاكم وكبار الموظفين

وقابلت تونس هذا العمل بالهدوء والسكون فشجع ذلك الفرنسويين واطلق يدهم فى تنفيذ مشروعاتهم الاستعمارية الكثيرة وفى مقدمتها نزع الاراضى من اصحابها الوطنيين بواسطة المجلس العقارى (المحكمة العقارية) الذى اسسوه لهذه الغاية وتسليمها للمستعمرين من الفرنسويين فتدفقوا زرافات ووحدانا وسيطروا على البلاد اقتصاديا كما سيطرت عليها حكومتهم سياسيا وانتزعوا الوظائف الحكومية من ايدى التونسيين

ولا يقل عدد الموظفين الفرنسويين فى تونس اليوم عن ١٢ الف يتقاضون ما لايقل عن ٤٠٠ مليون فرنك سنويا . وقد كان من نتائج هذا العمل ان صارت اللغة الفرنسوية لغة رسمية للبلاد

وآلم هذا الاستئثار الكرامة التونسية وانشأ فى البلاد حركة وطنية جديدة قادها وتولى زعامتها السيد عبد العزيز الثعالبى وهى الحركة التى سنفصل اخبارها فى الجزء الثالث

الاستيلاء على المغرب الاقصى



١

نظرة تاريخية

المغرب الاقصى هو القطر العربى الوحيد الذى سلم من الغارة التركية على الاقطار العربية فى افريقية الشمالية فلم تشمله ، ومن تسلط الغلمان الترك فلم يحكموه ولم يسودوه كما حكموا الاقطار المجاورة له وسادوها فكانوا علة نكبتها وسبب شقائها

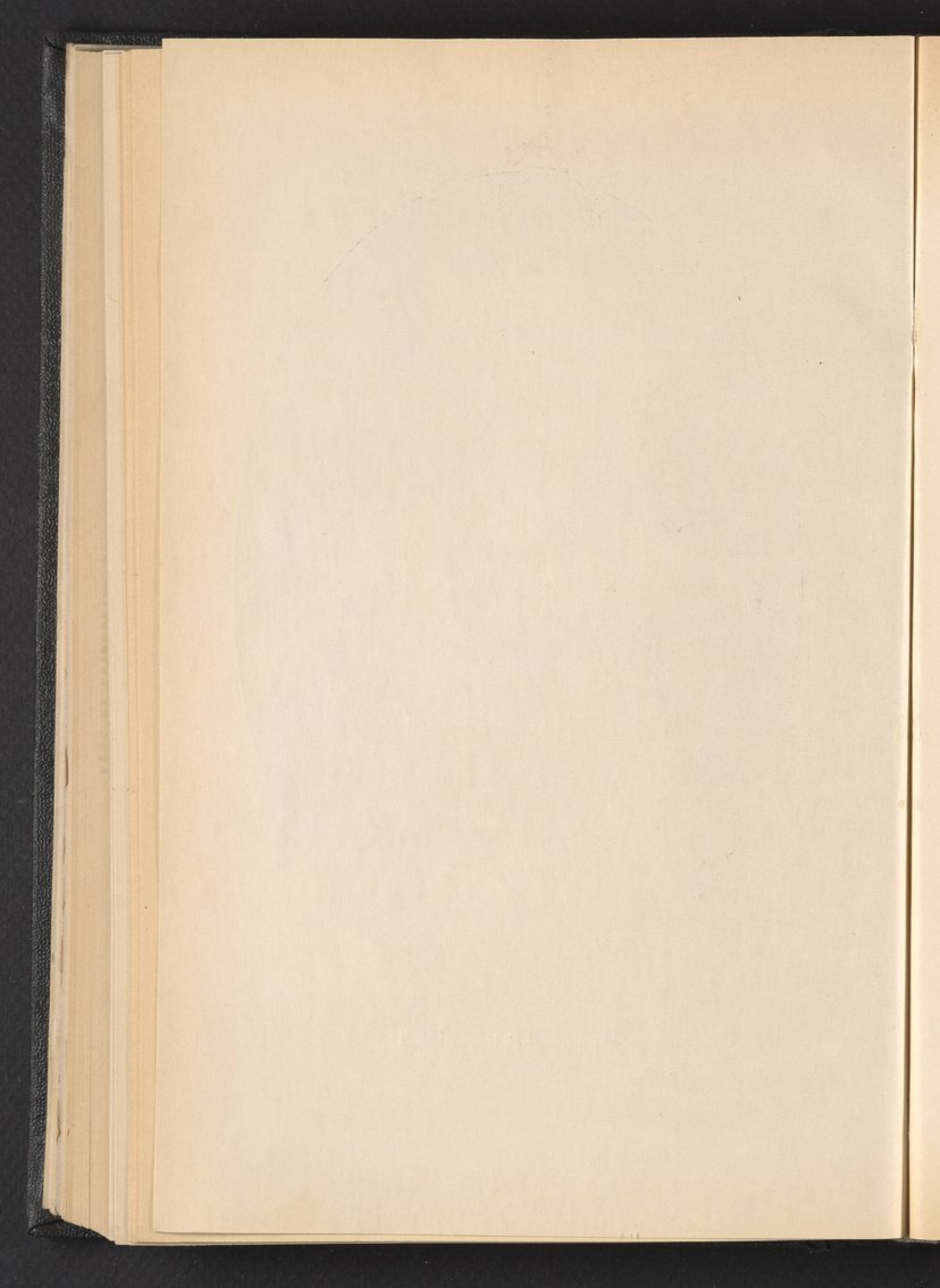
ولقد دخل هذا القطر العظيم فى حكم العرب والاسلام فى القرن الاول للهجرة اى فى عهد الفتوحات الاموية الاولى فاستقرت اقدام العرب فيه ، وتعاقبت عليه دولهم المستقلة واولها دولة الادارسة ومؤسسها ادريس الاكبر بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط بن على انشأها فى سنة ١٧٢ وآخرها دولة الاشراف الحسنيين الفيلالية نسبة الى مدينة تافيلالت مسقط رأس الولى محمد بن محمد الشريف فقد رفع قواعدها سنة ١٠٥٠ هـ و ١٦٤٠ م اى من ثلاثة قرون ونيف ولا يزال الحكم فى يد ابنائه ولا يزالون يتوارثون عرشها حتى الآن وآخرهم مولاى محمد بن يوسف سلطانها الحالى

وصان ملوك هذه الدولة استقلال دولتهم فى الفترة الاولى ووطدوا قواعدها ورفعوا شأنها واخمدوا الفتن الكثيرة التى شبت فى داخلها ، مع تمسكهم بالقديم ومحافظتهم عليه واهمال بعضهم – ولا سيما فى العصور المتأخرة – الاخذ باسباب التقدم والنهوض التى اخذ بها جيرانهم الاور بيون . ولا يخفى ان المغرب الاقصى اقرب اقطار العرب الى اور با على الاطلاق و يفصل بينهما مضيق لا يزيد عرضه عن ١٤ ميل ونعنى به مضيق جبل طارق او مضيق الزقاق ومنه عبر العرب الى اور با للمرة الاولى سنة ٩٢ هـ يوم غزوها وفتحوها فضفته اليمنى لاسبانيا والاخرى للمغرب الاقصى

وضعف شأن العرب فى القرون الاخيرة ، وحسنت حالة اسبانيا وقد اخذت من النهضة الحديثة بما لم يأخذوا به ، وسبقتهم فى هذا المضمار ، فتحركت شهوة المطامع فى نفوس الاسبانيين وظنوا ان فى طاقتهم امتلاك المغرب والفوز به واعادته الى سلطانهم كما كان قبل الفتح العربى فحملوا عليه بخيلهم ورجلهم ، وهاجموه غير مرة فوقعت بينهم وبين المغاربة حروب كانت سجالا واحتفظ المغرب باستقلاله فى الجملة وهزم اعداءه الا بعض مناطق صغيرة على الساحل ظلت فى ايديهم

وانشأت غارة الفرنسويين على الجزائر سنة ١٨٢٧ – ١٨٤٧ وتدخل هؤلاء فى شؤون افريقية الشمالية صلات جديدة بينهم وبين المغرب الاقصى ، فتضاعف اهتمام فرنسا بشؤون هذا القطر العربى العظيم ، ووضعت نصب عينها امتلاكه والفوز به ، فتم لها ذلك بعد ٦٠ سنة ونيف ، سعت فى خلالها سعيا حثيثا وعملت كل مايخطر بالبال عمله من وسائل مشروعة وغير مشروعة ، والغاية تبرر الواسطة كما يقول السياسيون

ونصف فى هذا الفصل الادوار الطويلة التى مرت بها قضية المغرب الاقصى ونأتى على ذكر المؤامرات العديدة والمؤتمرات الكثيرة التى عقدت للنظر فى « المشكلة المغربية » ومعالجتها ، وقد كانت من ابرز المشكلات السياسية واعظمها شأنا فى العشر الاول من القرن العشرين حتى خيف فى بعض الاحيان ان تؤدى الى اثارة حرب اوربية عامة لاتبقى ولا تذر ، ولكن اوربا عرفت فى النهاية كيف تتقيها وكيف تتفق على امتلاك هذا القطر بدون كبير نصب فانتزعت فرنسا استقلاله فى سنة ١٩١٢ ولا تزال تسيطر عليه حتى يوم الناس هذا





السلطان مولاى الحسن بن محمد

٢

دولة المغرب الاقصى

يقع المغرب الاقصى فى الزاوية الشمالية من قارة افريقية وتبلغ مساحته السطحية نحو ٨٠٠ الف كيلو متر مربع وامتداد سواحله ١٨٧٥ كيلو مترا منها ٤٢٥ على البحر المتوسط و ٦٠ على المضيق والباقى على المحيط الاطلسى

وتبلغ مساحة الاراضى التى يسيطر عليها الفرنسويون من املاك المغرب ٤١٥ الف كيلو متر مربع ومساحة الاراضى التى يسيطر عليها الاسبانيون ١٠٤ر٦٠٠ كيلو مترا وهنالك ايضا منطقة طنجة الدولية ومساحتها ٣٨٠ كيلو مترا . والباقى صحراء جرداء لاتزال مستقلة فى شؤونها الداخلية

ويقدرون عدد سكان المغرب الاقصى باثنى عشر مليونا من النفوس بينهم نحو ٧٠ الف فرنسوى ونحو مائة الف اسبانى ولا يقل عدد اليهود فى هذه البلاد عن ١٢٠ الفا والباقون عرب مسلمون

واعظم مدن المغرب هى مراكش وفاس والقصر الكبير ومكناس ووزان وتازه ورباط الفتح والدار البيضاء والجديدة ووجدة والصويرة وترودانت فى المنطقة الفرنسوية

وتيطوان وشيشوان ومليله والعرائش واجدير وامطير فى المنطقة الاسبانية وطنجة وهى عاصمة المنطقة الدولية

ويمثل السلطان فى المنطقة الاسبانية « خليفة » يقيم فى مليله تحت حماية اسبانيا ونفوذها

ويمثله ايضا مندوب يقيم فى مدينة طنجة

٣

المغرب الاقصى والمؤتمرات الدولية

ما كاد الفرنسويون يفوزون بامتلاك الجزائر وقد لقوا عناء زائدا فى سبيلها ، ويخلصون من مقاومة الامير عبد القادر ونضاله ، حتى اتجهوا نحو تونس والمغرب الاقصى يعملون لامتلاكهما مستعينين بالاختبارات والتجارب العديدة التى جربوها فى الجزائر

ولقد نافست فرنسا على امتلاك المغرب دولتان اوربيتان كبيرتان : اسبانيا فى المرحلة الاولى والمانيا فى المرحلة الثانية فارضت الاولى بان تنازلت لها عن جزء من بلاد المغرب . وهو الجزء الذى يجاورها ، كما ارضت الالمان بعد ذلك بتنازلها لهم عن قطعة ارض فى الكونغو انتزعت منهم بعد الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤

مؤتمر مدريد ومؤتمر الجزيرة

واول مؤتمر دولى عقد للنظر فى امر المغرب الاقصى هو مؤتمر مدريد المعقود فى سنة ١٨٨٠ ثم مؤتمر الجزيرة فى سنة ١٩٠٦ وكانت الغاية من الاول تنظيم صلات المغرب الاقصى بدول اوربا وتنظيم مسألة حماية الرعايا الاوربيين الذين ينزلونه وتقرير حقوق المفوضيات والقنصليات الاجنبية

اما غاية المؤتمر الثانى فكانت وضع حد للتنافس القائم بين الدول الاوربية وتنظيم شؤونه الاقتصادية وضمان استقلاله

وقد انتهى الاول كما انتهى الثانى بمعاهدة وقعتها الدول وتعهدت بتنفيذها ولكنها لم تلبث ان اهملتها وتناستها

وتختلف الظروف التى عقد فيها المؤتمر الاول عن الظروف التى عقد فيها المؤتمر الثانى ، فقد اجتمع الاول فى الوقت الذى كان فيـه الفرنسو يون منهمكين باعـداد المعـدات فى باريس وفى الجزائر للاستيلاء على تونس وقد فازوا بذلك فى السنة التالية اى فى سنة ١٨٨١ كما تقدم اما الثانى فقد اجتمع بعد ذلك بربع قرن فى ظروف غير تلك

والواقع ان مؤتمر مدريد هو اول مؤتمر دولى عقد للنظر فى المسألة المغربية بل هو اول مشروع نقل هذه القضية من دائرة المنافسات الدولية الضيقة الى الساحة الدولية العامة فصار امرها يهم الدول كلها على السواء بعد ما كان قاصرا على دولتين اثنتين

نعم قد يحتج البعض بان مؤتمر مدريد عالج ناحية خاصة من نواحيها ولم يعالجها بحـذافيرها ، وهو اعتراض وجيه ومعقول ولـكنه لايتنافى مع دوليتها فقـد اتاحت للدول الاوربية فرصة للتدخل فيها فتمسكت به المانيا فى سنة ١٩٠٥ للمطالبة بمعالجتها فى مجتمع دولى فـكان لها ما ارادت فاجتمع مؤتمر الجزيرة وعالجها من شتى وجوهها

معاهدة مدريد

وهذا نص المعاهدة التى انفق عليها فى مؤتمر مدريد :

«ان امبراطور المانيا وملك بروسيا ، ورئيس الجمهورية الفرنسوية ، وامبراطور النمسا وملك المجر وملك البلجيك ، وملك الدانمرك ، وملك اسبانيا ، ورئيس جمهورية الولايات المتحدة ، وملـكة بريطانيا ، وملك ايطاليا ، وسلطان المغرب الاقصى ، وملك هولاندا ، وملك البورتغال ، وملك اسوج ونروج

حيث انهم يشعرون بضرورة تنظيم الحماية التى لهم فى المغرب الاقصى واقامتها على قاعدة ثابتة وموحدة وتنظيم بعض الشؤون المرتبطة بها ، فقد عينوا مفوضين عنهم للمؤتمر الذى يفتتح فى مدريد و بموجب هـذه الصفة اجتمع هؤلاء و بعـد التثبت من اوراق اعتمادهم اتفقوا على مايأتى :

المادة الاولى ـ ان الشروط التى يمكن بموجبها منح الحماية هى تلك المنصوص عليها فى المعاهدة البريطانية ـ المغربيـة والمعاهدة الاسبانية ـ المغربيـة وفى الاتفاق المعقود بين الحكومة المغربية وفرنسا والحكومات الاخرى فى سنة ١٨٦٣ و يستثنى من ذلك التعديلات التى ادخلت بموجب هذا الاتفاق

المادة الثانية ـ لممثلى الدول الاجنبية ورؤساء البعثات السياسـية ان يختاروا تراجمهم وموظفيهم من الرعايا المغاربة او من غيرهم

ولا يتمتع هؤلاء بأى حق من الحقوق ولا يعفون من الضرائب او من الرسوم عدا الذى نص عليه فى المادتين ١٢ و ١٣

المادة الثالثة ـ ليس للقناصل او نواب القناصل او للوكلاء القنصليين او لنوابهم من الذين يقيمون فى داخل السلطنة المغربية ان يختاروا سوى مترجم واحد وجندى واحد وخادمين من رعايا السلطان ، وسكرتير محلى اذا كانوا فى حاجة اليه

ولا ينال هؤلاء اى حق من الحقوق ولا يعفون من الضرائب والرسوم عـدا مانص عليه فى المادتين ١٢ و ١٣

المادة الرابعة ـ اذا عين احد الممثلين الاجانب احد رعايا السلطان لمنصب وكيل قنصل فى احدى المدن الساحلية فان هـذا الوكيل يتمتع مع عائلته بالحرية والرعاية . ولـكنه لايتمتع بحق من الحقوق ولا يعفى من الضرائب والرسوم عدا المنصوص عليه فى المادتين ١٢ و ١٣

ولا يحق له ان يستخدم لادارة وظائفه جنديا محميا

ويتمتع القائمون باعمال نواب قناصل من رعايا السلطان مدة توليهم مناصبهم بنفس الحقوق التى يتمتع بها رعايا السلطان الذين يعينون وكلاء قناصل

المادة الخامسة ـ تعترف الحـكومة المغربية للوزراء المفوضين وللقائمين بالاعمال وللممثلين الآخرين بالحق الممنوح لهم بالمعاهدات وذلك بمنحهم مطلق الحق فى اختيار الاشخاص الذين يستخدمونهم سواء فى اعمالهم الخاصـة او فى خـدمة حكوماتهم بشرط ان لا يكونوا من شيوخ القبائل او من موظفى الحـكومة المغربيـة او الجنود

تحت السلاح او الفرسان ويستثنى من ذلك الجنود الذين تعدهم الحكومة لحراستها ، ولا يجوز لهم استخدام احد من رعايا السلطان اتهم بارتكاب جريمة من الجرائم

ومن المتفق عليه ان القضايا المنظورة امام المحاكم الاهلية والمرفوعة على هؤلاء قبل دخولهم فى الحماية تفصل بواسطة هذه المحاكم

ولا يجوز بحال من الاحوال منع تنفيذ الحكم الذى يصدر عليهم وعلى السلطة المختصة ابلاغه فورا الى المفوضية او القنصلية او الوكالة التى يعود اليها امرهم

واما بشأن المحميين الذين ترفع عليهم القضايا قبل الغاء الحماية عنهم فان المحكمة التى بدأت فى نظرها تفصل فيها

ان مبدأ الحماية لاينفذ على الاشخاص الذين تلاحقهم النيابة العامة لارتكابهم جنحة أو جناية قبل ان يحاكموا امام السلطات المحلية وقبل ان تنفذ بحقهم العقوبات اذا حكم عليه بعقوبة ما

المادة السادسة ـ تشمل الحماية عائلة المحمى نفسه ويحترم محل مسكنه

ومن المتفق عليه ان عائلته تتألف من زوجته واولاده والقصر من اقاربه الذين يعيشون معه فى داخل منزله ولاتنتقل بالارث والاستثناء الذى تقرر فى معاهدة سنة ١٨٦٣ لايصح ان يعتبر سابقة

واذا منح سلطان المغرب استثناء آخر فلكل دولة من الدول المتعاقدة الحق بان تنال امتيازا مماثلا له

المادة السابعة ـ يبلغ الممثلون الاجانب وزير الخارجية كتابة اسماء الذين يقع اختيارهم عليهم للخدمة

ويبلغونه ايضا فى كل سنة قائمة باسماء الذين يحمونهم والذين يتولى وكلاؤهم حمايتهم فى داخل بلاد السلطان . وهذه القوائم تبلغ الى السلطات المحلية ولا تعتبر تحت الحماية سوى الواردة اسماؤهم فيها

المادة الثامنة ـ على مأمورى القنصليات ان يقدموا فى كل سنة الى سلطة البلد الذى يقيمون فيـه قائمة باسماء الذين يتمتعون بالحماية مختومة بأختامهم ، فتبلغها الى وزارة الخارجيـة لترى اذا كانت موافقة للاصول المتبعة ام لا وهذه تبلغها الى الممثلين الاجانب فى طنجة

وعلى كل قنصل ان يبلغ السلطات عن التغيير والتبديل الذى يحـدث فى الاشخاص المشمولين بالحماية فى دائرة قنصليته فورا

المادة التاسعة ـ لا يتمتع بالحماية الخدم والمرضون والخدم الاهليون الآخرون ، والسكرتاريون او المترجمون الاهليون وكذلك الحال فى المستخدمين او الخدم المغاربة الذين هم رعايا اجانب

وعلى كل فليس للسلطات المحلية ان تعتقل مستخدما او خادما عند موظف اهلى فى خدمة مفوضية او قنصلية او احـد الاجانب او أحـد المشمولين بالحماية الاجنبية من دون ابلاغ السلطة التابع لها

واذا ارتـكب مغربى فى خدمة احـد الرعايا الاجانب جريمة قتـل او جرح او سرقة فيعتقل فورا و يبلغ امره السلطة المختصة او القنصلية التابع لها بلا ابطاء

ولا يدخل ادنى تعديل على حالة المحميين المثبتة فى المعاهدات وفى اتفاق سـنة ١٨٦٣ فيما عدا الشروط المالية المنصوص عليها فى المواد الآتية

المـادة العاشرة ـ ان الملـكية فى المغرب الاقصى معترف بها لجميع الاجانب

ان اقتناء الاجانب للمتلـكات يجب ان يتم بموافقة تصـدر مقدما من الحـكومة وتـكون سندات التملك خاضعة للقواعد والاحوال المنصوص عليها فى قوانين البلاد

ان جميع المسائل التى قد تنشأ عن هـذا الحق تقرر فى دائرة القوانين بمساعدة وزير الخارجية وطبقا لما هو منصوص عليه فى هذه المعاهدة

المادة الحادية عشرة ـ ان الاجانب المشمولين بالحماية الاجنبية من اصحاب الاملاك او المستأجرين لاراض زراعيـة وكذلك الذين يشتغلون بالزراعة يدفعون الضرائب

الزراعية و يقدمون كل سنة الى قناصلهم مذكرة يضمنونها بيانات صحيحة عما يملكونه و يدفعون مايستحق عليهم من الضرائب

ويجبر الذين يقدمون بيانات كاذبة على دفع الضرائب المستحقة عليهم مضاعفة باسم غرامة عن الاملاك التى لم يبينوا عنها وفى حالة التكرار تضاعف

يعقد اتفاق خاص بين وزير خارجية جلالة السلطان و بين ممثلى الدول الاجنبية لتنظيم طرق دفع الضرائب وللاتفاق على موعد الدفع

المادة الثانية عشرة ـ ان الاجانب والمشمولين بالحماية الاجنبية يدفعون ضريبة عما يملكونه من المواشى

ان مقدار هذه الضريبة ونوعها وطرق جبايتها من الوطنيين والاجانب يحدد باتفاق خاص بين ممثلى الدول الاجنبية و بين صاحب الجلالة الشريفية

ولا يمكن زيادة هذه الضريبة الا باتفاق خاص يعقد مع ممثلى الدول

المادة الثالثة عشرة ـ لاتسمع دعوى التراجمة والسكرتارين الاهليين او الجنود التابعين لشتى المفوضيات والقنصليات بانهم تابعون لمفوضية او قنصلية مالم يبرزوا وثيقة موقعة من رئيس البعثة او من السلطة القنصلية التى ينتمون اليها

المادة الرابعة عشرة ـ على كل مغربى نال جنسية فى الخارج وعاد بها الى بلاده ان يختار بعد انقضاء المدة اللازمة للحصول على جنسية ، بين الخضوع التام لجميع قوانين الامبراطورية و بين مغادرة البلاد ما لم يكن قد نال موافقة الحكومة مقدما على التجنس بالجنسية الاجنبية

و يحتفظ المغاربة الذين نالوا جنسيات اجنبية حتى عقد هذه المعاهدة ، وطبقا للقواعد المتبعة فى قانون البلاد بجنسياتهم وتنتج لهم جميع النتائج بدون اى قيد

المادة الخامسة عشرة ـ لا يمكن منح حماية غير نظامية او شبه حماية بعد الآن

لاتعترف السلطات المغربية بحماية اخرى ، مهما كانت طبيعتها ، سوى مانص عليه فى هذا الاتفاق و يحتفظ باستعمال حق منح الحماية فى حالات خاصة فيمنح مكافأة لخدمات خاصة اداها مغربى لدولة اجنبية او لاسباب اخرى استثنائية

ان نوع الخدمات التى اسديت والرغبة بمكافأة مسديها تبلغ مقـدما الى وزير الخارجية فى طنجة ليكون فى استطاعته ان يبـدى ملاحظته عند الحاجة . ويكون القرار الاخير بعد ذلك للحكومة التى اسديت لها الخدمة

ولا يجوز ان يتجاوز عـدد هؤلاء المحمين اثنى عشر شخصا لـكل دولة و يظل هذا العدد حدا اعلى

ان المحميين الذين نالوا الحماية عملا بالقاعدة التى نظمت بموجب هذا الاتفاق ، ستكون بدون تحديد عدد المحميين الحاليين الذين هم من هذه الطبقة ، واحـدة لهم ولعائلاتهم ويتمتعون بما يتمتع به المحميون الآخرون

المادة السادسة عشرة ـ يعترف فى المغرب الاقصى بحق اولى الامم بالتفضـيل لـكل دولة اشتركت فى مؤتمر مدريد

المادة السابعة عشرة ـ يبرم هذا الاتفاق . ويتم التبادل على نسخه المصدقة فى طنجة بأقصر ما يكون من الوقت

حرر فى مدريد يوم ٣ يوليو سنة ١٨٨٠

تلك هى معاهدة مدريد ، وربما كان هذا اول نص ينشر لها ، باللغة العربيـة فقـد ترجمناها من الـكتب الفرنسوية لعدم وجود نص عربى لهـا ، اما معاهـدة الجزيرة وهى اطول من هذه كثيرا فقد لخصناها واثبتناها فى مايلى

٤

فرنسا والمغرب الاقصى والدول

لم تنشأ صلات حقيقية بين فرنسا والمغرب الاقصى ، ولم يقع احتكاك مادى بينهما الا بعد الغارة الفرنسوية على الجزائر فقد هدد الفرنسويون مولاى عبد الرحمن بمهاجمة بلاده اذ لم يسترد ابن عمه السيد سليمان الذى ارسله فى سنة ١٨٣٢ الى تلمسان حاكما للمغرب الاوسط فاسترده بغية تجنب الاشتباك معهم وحرصا على مصلحة بلاده

ولجأ الامير عبد القادر الى الاراضى المغربية حينما ضيق الفرنسويون الخناق عليه فى سنة ١٨٤٣ واقفلوا المسارب والمسالك فى وجهه ، فرأى من المغاربة عطفا وتأييدا فاتخذ بلادهم قاعدة للغارة على مراكز الفرنسويين فى الجزائر فصاحوا ويلا وثبورا وطلبوا من السلطان ان يخرجه من بلاده او يسلمهم اياه فماطل وسوف فكانت الحوادث التى اثبتناها فى تاريخ الجزائر (انظر ص ١٩٧) وقد انتهت بعقد معاهدة شهر مارس سنة ١٨٤٥ ويسميها المؤرخون الفرنسويون معاهدة لالا - مارينا وقد جاء فيها « حيث انه ليس فى الامكان تحديد الحدود تينت الساسى فانه يجوز للجنود الفرنسوية ان تطارد الجزائريين الذين يلجأون الى الاراضى المغربية وتلحق بهم فى داخلها ».

وعقدت فى سنة ١٨٦٢ معاهدة اخرى بين فرنسا والمغرب الاقصى لتنظيم مسألة الذين يدخلون فى الحماية الفرنسوية من المغاربة

وعقدت فى سنة ١٩٠١ و ١٩٠٢ معاهدتا رفوال - الجباسى لتنظيم شؤون الحدود الجزائرية المغربية والاشراف عليها

وفضلا عن ذلك فقد اتفق مولاى الحسن والد السلطان عبد العزيز وخليفته السلطان عبد الرحمن مع فرنسا على ان ترسل بعثتين عسكريتين الى المغرب الاقصى تكون احداهما تابعة للسلطان نفسه تقيم فى عاصمته وتقيم الثانية فى رباط

وجدد السلطان عبد العزيز لفرنسا هذه المهمة فى سنة ١٩٠٣ ومنح البعثة العسكرية الفرنسوية الجديدة جميع ما كان للبعثة القديمة من حقوق

ولم يقتصر النشاط الفرنسوى على هذه الناحية بل اتجه الى البلاد الاجنبية عاملا على تذليل كل عقبة تحول دون تحقيق آمال الفرنسويين ، فلا يستهدفوا لمقاومة خارجية تعرقل مساعيهم ، كما حدث فى اثناء الحملة على مصر ، وتكلفهم ضحايا ثمينة غالية كما وقع فى الجزائر

ولقد بذلت وزارة الخارجية الفرنسوية فى الفترة بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٥ وهى التى تقلدها المسيو دلكاسه جهودا كبيرة فى هذا الشأن تكللت بالنجاح والتوفيق فعقدت ثلاث معاهدات مع ثلاث حكومات لتسوية المسألة المراكشية وهى :

١ ـ الحكومة الايطالية

٢ ـ الحكومة الاسبانية

٣ ـ الحكومة الانكليزية

ومما يستوقف النظر فى هذه الاتفاقات انها قامت على قاعدة « المقايضة » و بعبارة اخرى ان هذه الدول الاربع وهى فرنسا وايطاليا وانكلترا واسبانيا تقايضت على البلاد العربية نفسها ، لا على اى شيء آخر

فقد نص الاتفاق المعقود مع ايطاليا على اطلاق يد فرنسا اطلاقا تاما فى المغرب الاقصى مقابل اطلاق يد ايطاليا فى طرابلس الغرب وبرقة

ونص الاتفاق المعقود مع اسبانيا على اقتسام المغرب بينها وبين فرنسا فتكون لاسبانيا المنطقة التى تجاورها ، مقابل سكوتها عن اعمال فرنسا فى المنطقة المغربية الاخرى وعدم منافستها لها

والاتفاق المعقود مع انكلترا وهو اعظمها شأنا ينص على ان الحكومة

الفرنسوية تطلق يد انكلترا فى مصر ولا تنافسها فيها مقابل اطلاق انكلترا ليدها فى المغرب الاقصى وتعهدها بتأييدها لها فى تنفيذ سياستها الاستعمارية

وهكذا اقتسمت هذه الدول الاربع المصالح والمنافع والمغانم فى البلدان العربية واهلها نائمون غافلون ، وقد نفذت هذه الاتفاقات بحذافيرها ففاز الفرنسويون بالمغرب وفاز الاسبانيون بنصيبهم منه ، واستولى الايطاليون على طرابلس وبرقة ولا يزال الانكليز فى مصر

٥

نصوص الاتفاقات الدولية

كانت الخطة التى اتبعها الفرنسويون فى معالجة القضية المغربيــة خــلال العشر السنوات الاول من القرن الحالى تقوم على ركنين اساسيين : داخلى وخارجى

اما الداخلى فقوامه السعى لبسط النفوذ الفرنسوى على البلاد المغربية بطريق التدخل التدريجى وهو مايسمونه الفتح السلمى

واما الخارجى فمداره استمالة الدول التى لها نفوذ او مطامع فى المغرب الاقصى واقناعها بالتنازل لفرنسا عما تدعيه من حقوق ومصالح ثمة وتأييدها لها فى سياستها القائمة على امتلاك هــذا القطر العربى العظيم مقابل امتيازات اقتصادية وسياسية تتنازل لها فرنسا عنها فى جهة اخرى

ونجحت فرنسا فى هذه السياسة وادركت بواسطتها ما ارادت ووفرت على نفسها كثيرا من العناء وتم لها بواسطتها ايضا التغلب على المانيا حينما نزلت الى الميــدان فى سنة ١٩٠٥ محاولة منافستها والوقوف فى وجهها فانسحبت (المانيا) تجرر ذيل الفشل مقابل تعويض بسيط تافه لا من حساب العــرب بل من حساب الزنوج فى افريقيــة

وهذه خلاصة الاتفاقات المعقودة بحسب تاريخ عقدها :

١ — الاتفاق الايطالى — الفرنسوى

كانت ايطاليا اول دولة اوربية عاقدت فرنسا على المغرب الاقصى فقد جرت مفاوضات طويلة فى هذا الشأن بين باريس وروما انتهت بعقد اتفاقين :

الاول ــ فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٠

والثانى ــ فى اول شهر نوفمبر سنة ١٩٠٢

ومدار هذين الاتفاقين تعهد فرنسا لايطاليا بان تطلق يدها فى معالجة المسألة الطرابلسية وان لاتتدخل فيها مقابل تعهد ايطاليا لها بان تطلق يدها فى معالجة القضية المغربية ولا تتدخل فيها

٢ — الاتفاق الانكليزى — الفرنسوى

شجع هذا الاتفاق الوزارة الفرنسوية فضاعفت الجهود لعقد اتفاقات اخرى ، فبدأت بمفاوضة الانكليز للتوصل الى عقد اتفاق يطلق يدها ايضا فى معالجة هذه القضية ، وللانكليز مصالح ومطامع فى المغرب المجاور لجبل طارق ومعارضتهم تقدم وتؤخر وقد لاقت فرنسا من منافستهم الامرين فى كل مكان نافسوها فيه

ويقول المسيو تارديو فى كتابه « مؤتمر الجزيرة » وقد اعتمدنا عليه فى كتابة هذا الفصل ان المفاوضات لعقد اتفاق مع انكلترا ابتدأت فى لندن فى شهر يوليو سنة ١٩٠٣ بين المسيو دلكاسه وزير خارجية فرنسا و بين اللورد لنسدون ، واستمرت بعد ذلك فى لندن بين هذا و بين المسيو بول كامبول سفير فرنسا لدى بلاط سان جمس فانتجت الاتفاق الانكليزى ــ الفرنسوى . وقد وقع عليه يوم ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ فكان عاملا جوهريا فى نجاح السياسة الفرنسوية وفوزها ، وهذا هو بنصه :

المادة الاولى ــ تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية انها لاتنوى تعديل حالة مصر السياسية

وتعلن الحكومة الفرنسوية من جانبها انها لاتتدخل فى عمل انكلترا بمصر لابطلب تحديد اجل الاحتلال البريطانى ولا بأى طريقة اخرى وتوافق على مشروع المرسوم الخديوى الملحق بهذه التسوية ، والمنطوى على الضمانات الضرورية

لانقاذ مصالح حملة اسهم الدين المصرى ، بشرط ان لا يدخل عليه بعد وضعه موضع التطبيق اى تعديل بدون موافقة الدول الموقعة على اتفاق لندن سنة ١٨٨٥

ومن المتفق عليه ان الادارة العامة للآثار القديمة فى مصر تظل فى المستقبل كما كانت فى الماضى ، موكولة الى عالم فرنسوى

وتظل المدارس الفرنسوية فى مصر متمتعة بنفس الحرية التى كانت لها فى الماضى

المادة الثانية — تعلن الحكومة الفرنسوية انها لاتنوى ادخال تعديل على حالة المغرب الاقصى السياسية

وتعترف حكومة صاحب الجلالة البريطانية من جهتها بانه يعود الى فرنسا بصفتها دولة مجاورة لمراكش ، حق الاشراف بمنوال واسع على اقرار الهدوء والسكينة فى هذه البلاد ، ومساعدتها فى جميع الاصلاحات الادارية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى هى فى حاجة اليها

وتعلن بانها لاتتدخل فى عمل فرنسا من هذه الناحية بشرط ان لايمس هذا العمل ما لها من حقوق فى المغرب الاقصى وهى الحقوق التى نالتها بموجب المعاهدات والاتفاقات والتقاليد بما فى ذلك حق النقل البحرى بين الثغور المغربية وهو الحق الذى منح للبواخر الانكليزية فى سنة ١٩٠١

المادة الثالثة — تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية من جهتها بانها تحترم ما لفرنسا من حقوق فى مصر نالتها بموجب المعاهدات والاتفاقات والتقاليد بما فى ذلك حق النقل البحرى الممنوح للبواخر الفرنسوية بين الثغور المصرية

المادة الرابعة — تعلن الحكومتان المتقدمتان رعاية لمبدأ حرية التجارة سواء فى مصر وسواء فى المغرب الاقصى بانهما لا توافقان على ادخال اى تعديل يتنافى مع عدم المساواة فى الحقوق الجمركية او فى الرسوم الاخرى بما فى ذلك تعريفة النقل فى سكك الحديد

وتتمتع تجارة كل امة من الامتين سواء مع مصر او مع المغرب الاقصى بنفس المعاملة التى تعامل بها المؤسسات الفرنسوية والانكليزية فى افريقية

يعقد اتفاق بين الحكومتين لتنظيم شروط هذا النقل وتحديد نقاطه

ان هذا التعهد المتقابل معتبر لمدة ٣٠ سنة واذا لم يعلن نقضه قبل انتهاء هذه المدة بسنة واحدة على الاقل فانه يجدد لمدة خمس سنوات

وعلى كل حال فان كلا من الحكومة الجمهورية الفرنسوية فى المغرب الاقصى والحكومة البريطانية فى مصر تحتفظ لنفسها بالاشراف على امتيازات الطرق وسكك الحديد والمرافئ فتعطى بشروط تصون مصالح الدولة العامة فى هذه المشروعات الكبرى

المادة الخامسة ــ تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية انها ستبذل نفوذها لكى لاتكون حالة الموظفين الفرنسويين المستخدمين فى الحكومة المصرية دون حالة الموظفين الانكليز بل يعاملون نفس معاملة هؤلاء الحسنة. وحكومة الجمهورية الفرنسوية من جهتها لاتعارض فى تطبيق مثل هذه الشروط على الموظفين الانكليز الذين هم فى خدمة الحكومة المغربية فى الوقت الحاضر

المادة السادسة ــ رغبة فى ضمان حرية المرور بقناة السويس تعلن الحكومة البريطانية انها توافق على الشروط الواردة فى معاهدة ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٨٨ وعلى وضعها موضع التطبيق

وحيث ان حرية المرور ضمنت على هذا المنوال يعلن تطبيق الجملة الاخيرة من الفقرة الاولى والفقرة الثانية من المادة الثامنة من هذه المعاهدة

المادة السابعة ــ رغبة فى ضمان حرية المرور من مضيق جبل طارق فان الحكومتين المتعاقدتين لاتنشئان حصونا او تحكيمات عسكرية فى اجزاء الساحل المغربى بين مليلا والمرتفعات القائمة على الضفة الشمالية لنهر سيبو

وعلى كل فلا يطبق هذا التعهد على النقاط التى يحتلها الاسبانيون الآن فى الضفة المغربية للبحر المتوسط

المادة الثامنة ـ ان الحكومتين المتعاقدتين الشاعرتين بشعور الصداقة الخالصة نحو اسبانيا تأخذان بنظر الاعتبار لمصالحها المنبعثة عن وضعها الجغرافى وعن ممتلكاتها الارضية فى الساحل المغربى على البحر المتوسط

وتبلغ الحكومة البريطانية الاتفاق الذى قد يعقد فى هـذا الشان بين فرنسا واسبانيا

المادة الثامنة [١] ـ الحكومتان المتعاقدتان تتوسلان بوسائلهما الديبلوماسية لتنفيذ الشروط الواردة فى هذه التصريحات عن المغرب الاقصى ومصر

باريس فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤

٣ — الاتفاق الفرنسوى — الاسبانى

وعملا بما جاء فى هذا الاتفاق اسرعت وزارة الخارجية الفرنسوية ففتحت باب مفاوضات جديدة مع اسبانيا لعد اتفاق على المسألة المغربيـة ، ولاسبانيا صلات وثيقة بمراكش

وانتهت هـذه المفاوضات بالاتفاق التام ووقع المسيو دلكاسه وزير خارجية فرنسا وسفير اسبانيا فى باريس يوم ٣ اكتوبر سنة ١٩٠٤ على بيان رسمى يتضمن موافقة اسبانيا على السياسة الفرنسوية فى المغرب الاقصى وهذه ترجمته :

« حيث ان حكومة الجمهورية الفرنسوية وحكومة جلالة ملك اسبانيا متفقتان على تحديد مدى الحقوق وعلى ضمان المصالح الناتجة لفرنسا من امتلاكها الجزائر ولاسبانيا من ممتلكاتها على الساحل المغربى

« وحيث ان حكومة صاحب الجلالة الاسبانية وافقت على الاتفاق الانكليزى ـ الفرنسوى المعقود يوم ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ بشأن المغرب الاقصى ومصر وهو الاتفاق

(١) هكذا وردت فى النص الفرنسوى

الذى ابلغ اليها بواسطة الحكومة الفرنسوية فانها تعلن انها لا تزال معتنقة لمبد المحافظة على سلامة الامبراطورية المغربية تحت سيادة السلطان »

وغنى عن البيان ان فوز فرنسا فى عقد هذه الاتفاقات كان من جملة العوامل التى ضمنت لها النجاح فى تنفيذ سياستها الاستعمارية اذ وقتها شر المنافسات الدولية فتقدمت للعمل بعزم قوى وجنان ثابت

٦

فرنسا تتدخل باسم الاصلاح

....

تسلحت فرنسا بهذه الاتفاقات المثلثة وتقدمت للتدخل فى شئون المغرب الاقصى باسم الاصلاح وصيانة مصالح الاوربيين والقضاء على الفوضى وهى شنشنة الغرب القديمة ووسيلته للتدخل فى البلاد العربية عند ما تعوزه الوسيلة للتدخل

وكانت الخطة التى انتهجتها فرنسا فى هذه المرحلة تقوم على الفتح السلمى وعدم التورط فى حرب داخليـــة وذلك بالابقاء على الحكومة المغربية نفسها وعلى سيادة السلطان ، وقد رأى الفرنسيون بعد طول تجارب ان هذا افضل الطرق واقلها كلفة لبلوغ اغراضهم فارسلوا وزيرهم المفوض فى طنجة (المسيو سان رينه تالنديه) الى فاس ويقيم سفراء الدول ووزراؤها عادة فى الاولى ، ولا يسافرون الى فاس لمقابلة السلطان الا بتصريح خاص ولأمر ضرورى وجوهرى ـ وذلك فى اواخر شهر مارس سنة ١٩٠٥ ـ فقابل السلطان وطالبه باسم الحكومة الفرنسوية بتنفيذ المشروعات التى تقترح فرنسا تنفيذها

طلبات فرنسا

وقابل الوزير الفرنسوى جـلالة السلطان عبد العزيز يوم ٢٩ مارس وسلمه المطالب الفرنسوية وهى :

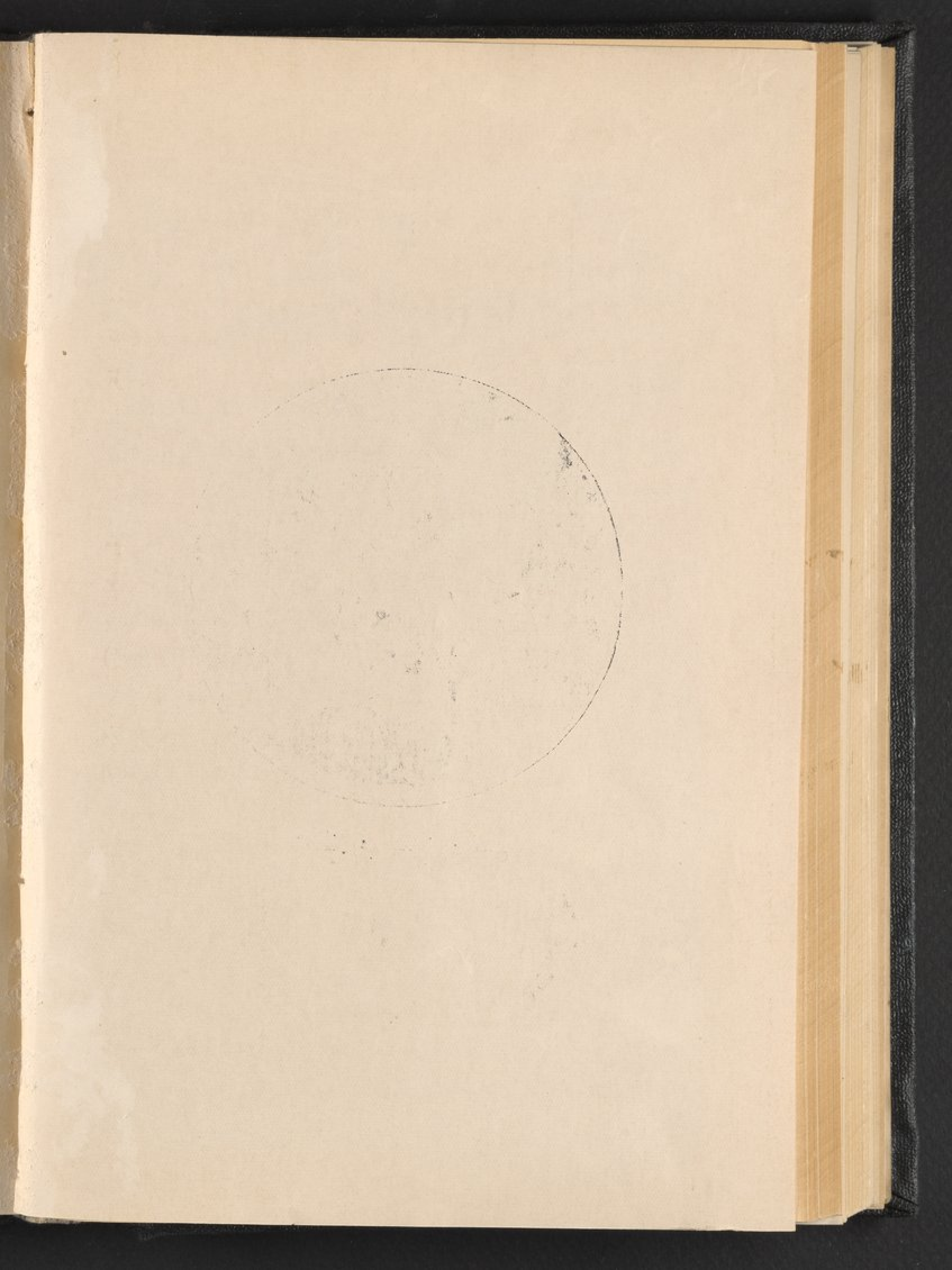
١ ـ زيادة عدد اعضاء البعثة العسكرية الفرنسوية

٢ ـ اناطة جميع الشؤون العسكرية بالبعثة

٣ ـ اقامة مراقبين فرنسويين فى المدن الداخلية لمراقبة الادارة المالية



السلطان عبد العزيز بن الحسن



٤ ـ انشاء بنك مغربى رسمى (بنك الدولة)

٥ ـ احصاء السكان ومد اسلاك البرق بين المدن والبنادر الكبرى

وقضى الوزير الفرنسوى اياما فى فاس يلح فى قبول مطالبه ثم غادرها عائدا الى مقره فى طنجه بعد ما وعده السلطان بان يرسل اليه جوابه ، وكانت المانيا قد بدات تتدخل فى المسألة المغربية ، وكان السلطان يرجو خيرا من تدخلها وقيل انها وعدته بان تؤيده بدون قيد ولا شرط فى مقاومته لفرنسا

رفض المطالب

ودعا السلطان اشراف البلاد واعيانها الى اجتماع عقده فى قصره واطلعهم على مطالب فرنسا فاتفقت كلمتهم على ردها ورفضها فابلغ ذلك الوزير الفرنسوى يوم اول يونيو من تلك السنة قائلا انه ليس فى طاقته قبول هذه المطالب وانه يرجو ان كل اصلاح يرام ادخاله فى بلاده يكون بمصادقة سائر الدول الموقعة على معاهدة مدريد سنة ١٨٨٠ (انظر ص ٢٤٣)

ولم يقف السلطان عند هذا الحد بل وجه مذكرة الى الدول الموقعة على معاهدة مدريد تفصل ما اجمله فى جوابه للفرنسويين وتعرب عن رغبته فى ان تكون طلبات الاصلاح مقترحة من جانب الدول كلها لا من جانب فرنسا وحدها

واسرعت انكلترا فانضمت الى فرنسا وايدتها فى مطالبها فارسلت وزيرها المفوض فى طنجه الى فاس فقابل السلطان وابلغه رسميا ان الحكومة البريطانية تؤيد الحكومة الفرنسوية فى طلبها اجراء الاصلاحات وتشير على جلالته بقبولها بدون تردد وقال له ان على الحكومة المغربية ان لا تنتظر اى مساعدة من انكلترا فى هذا الشأن والقصد من هذا التدبير ظاهر وهو تأييد فرنسا

وحذا الوزير الاسبانى حذو زميله الانكليزى فزار فاس وقابل السلطان وابلغه تأييد حكومته لفرنسا فى طلبها الاصلاح

٧

المانيا فى الميدان

ظلت المانيا حتى اواخر القرن التاسع عشر اقل الدول الاوربية العظمى اتصالا ببلاد العرب وتدخلا فى شؤونها لاعتبارين جوهريين :

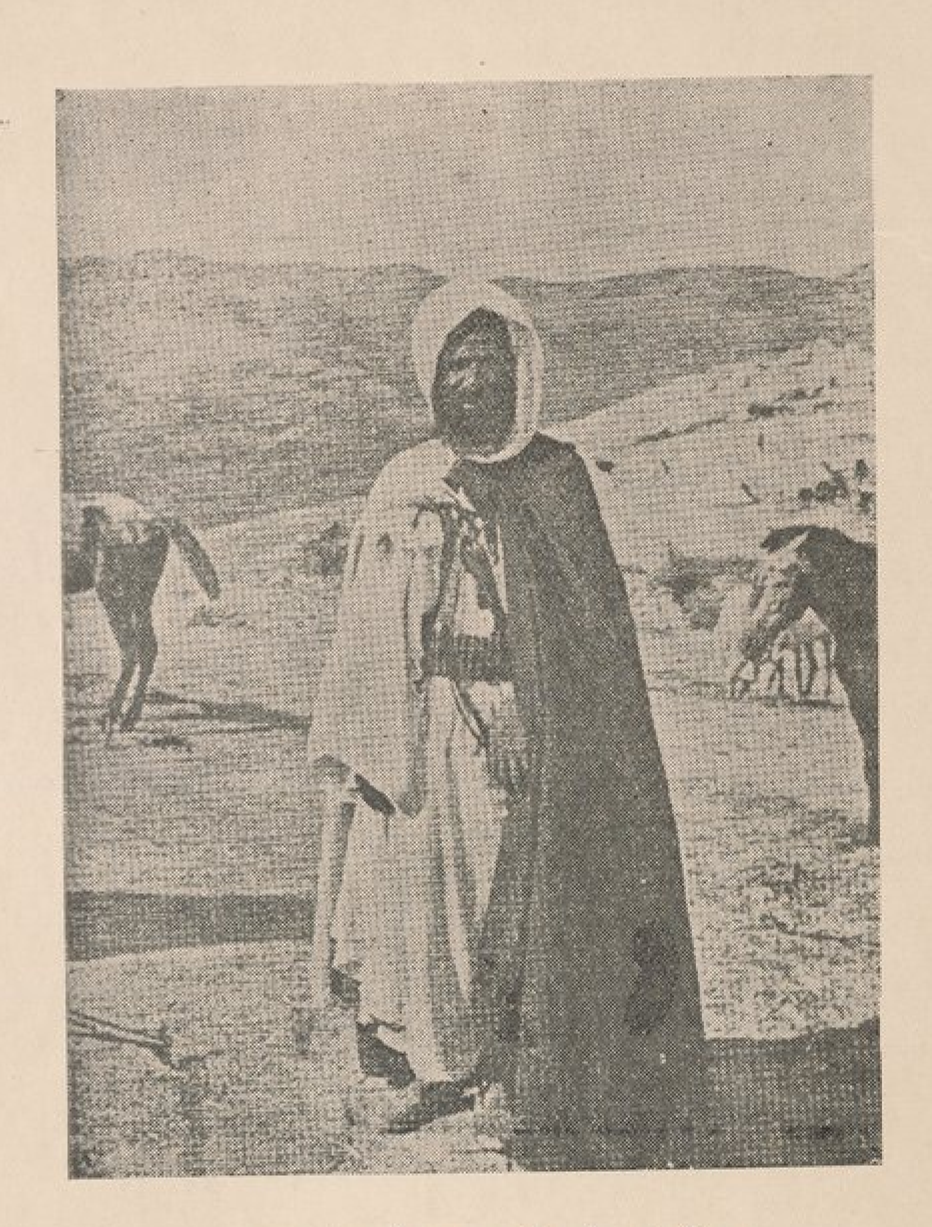
الاول : لانها احدث الدول العظمى نشأة فقد تكونت فى باريس سنة ١٨٧١ عقب الانتصار الحاسم الذى ناله البروسيون على فرنسا

والثانى : لانها بطبيعة مركزها الجغرافى وبحكم وقوعها فى قلب قارة اوربا بعيدة عن بلاد العرب سواء الواقعة فى شمالى افريقية وتلك التى فى غربى آسيا فما كان هنا اتصال ولا احتكاك ولا روابط علمية ولا اقتصادية ولا تاريخية بينهما

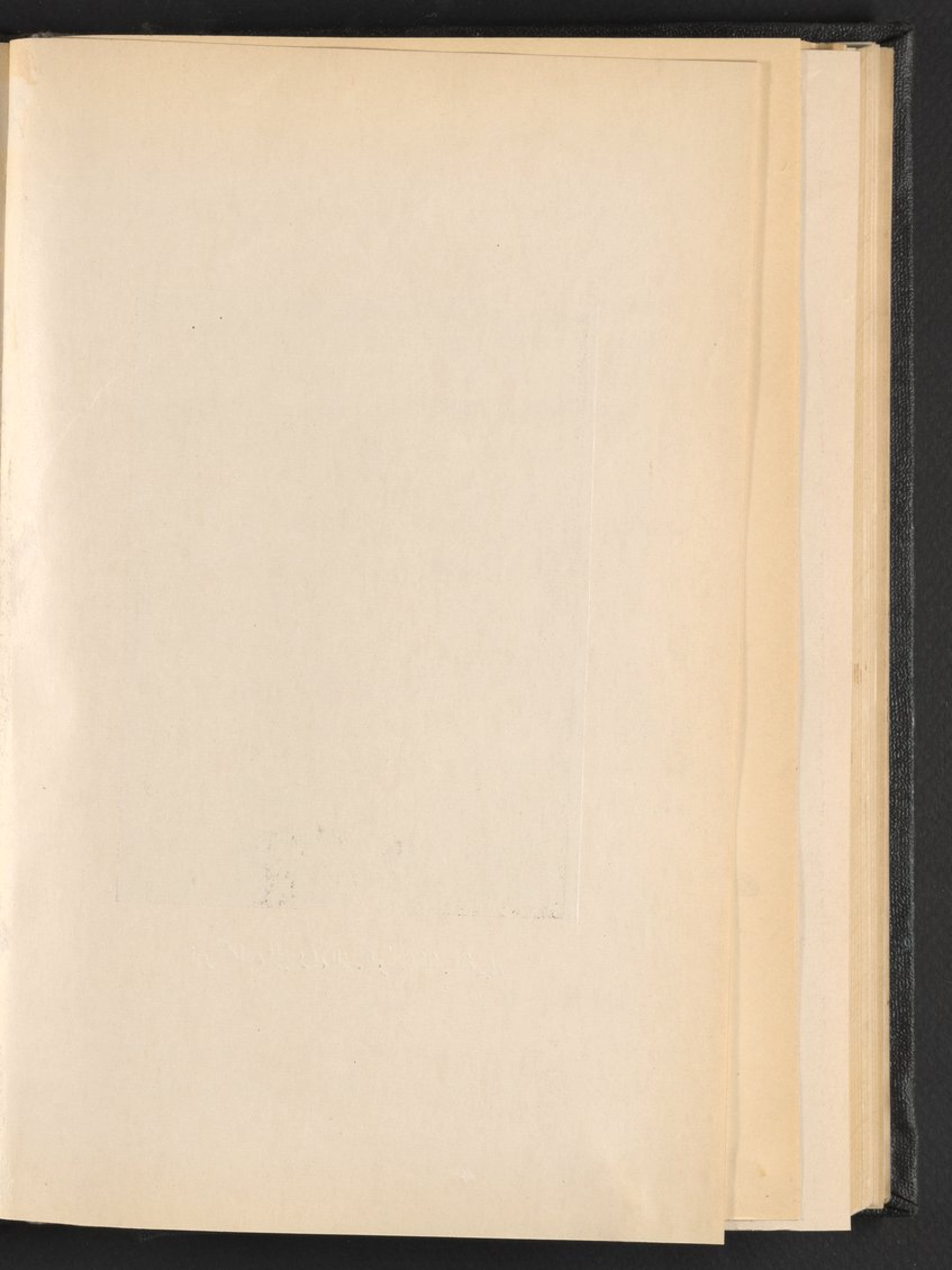
والمرة الاولى التى تدخلت فيها بروسيا وقد حلت المانيا محلها فى الشؤون العربية كانت يوم انضمت الى انكلترا وتطوعت تحت رايتها لمنازلة محمد على باشا الكبير سنة ١٨٤١ فكانت من جملة الدول التى قاتلت العرب ووقفت فى سبيل نهضتهم كما انضمت الى الدول الاوربية فى تدخلها بالمسألة اللبنانية سنة ١٨٦٠

ووقف البروسيون موقف المتفرج من فرنسا فى شمالى افريقية حينما شرعت فى غزوها فلم يتعرضوا لها ولم ينافسوها حينما اغارت على الجزائر واصلت اهلها تلك الحرب العوان ، ولم ينفسوا عليها عملها فى تونس وابتلاعها ذلك الاقليم العربى العظيم

ويقول المؤرخون الفرنسويون فى معرض التدليل على عدم اكتراث المانيا لشؤون بلاد العرب المغربية ان البرنس بسمارك مؤسس النهضة الالمانية صرح بمناسبة اجتماع مؤتمر مدريد فى سنة ١٨٨٠ بانه لا مصلحة لالمانيا فى المغرب الاقصى وانها



ابو حماره الجيلانى الزرهونى الثائر المغربى



لاتنوى التدخل واصدر تعليمات الى سفير دولته فى مدريد وممثلها فى المؤتمر بان يؤيد مندوب فرنسا فى المؤتمر ويقف الى جانبه ويقترح ما يقترحه . وقالوا انه اراد من ذلك التقرب من فرنسا واحكام صلات الود معها

وتبدل موقف الالمان ازاء المغرب الاقصى بعد مانهضوا نهضتهم الصناعية والتجارية الكبرى فى اواخر القرن الماضى وانشأوا اسطولا تجاريا ضخما الى جانب اسطول حربى قوى فصارت بواخرهم تروح وتغدو الى ثغور المغرب الاقصى ونزلها تجارهم وصناعهم فاسسوا المتاجر واتصلوا بالحياة المغربية وبجلالة السلطان ورجاله وتقربوا منهم

وازعجت حركة « الالتفاف » التى قام بها المسيو دلكاسه وزير الخارجية الفرنسوية فى اوائل القرن الماضى، لتطويق المانيا بسلسلة من المعاهدات[1] ولعزلها عن الدول فهاجوا وماجوا ، وصاحوا ويلا وثبورا وعرفوا ان القصد من هذه الاتفاقات اضعافهم والتمهيد لضربهم والانتقام منهم ، فرأوا ان خير مايفعلونه لاقلاق فرنسا وازعاجها هو التدخل فى المسألة المغربية ـ وكانت فرنسا يومئذ تعد المعدات لاحتلال المغرب والفوز به ـ والوقوف فى سبيلها

وشجع الالمان على تحدى فرنسا ومناوأتها خروج روسيا ، حليفة فرنسا وصديقتها من حربها مع اليابان (سنة ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥) مكسورة مهيضة الجناح

---

(١) عقد المسيو دلكاسه فى اثناء توليه وزارة الخارجية الفرنسوية من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٠٦ سلسلة معاهدات مع الدول ضد المانيا هذا بيان عنها :

١ ـ معاهدة تحالف مع روسيا

٢ ـ اتفاق لندن مع انكلترا فى سنة ١٩٠٤ فكان قاعدة للتحالف الودى الذى قام بينهما بعد ذلك وقد نشرنا نصه آنفا

٣ ـ انشأ صلات صداقة متينة مع ايطاليا واطلق يدها فى طرابلس الغرب فاستمالها بذلك الى جانبه

وشبوب الفتن فى داخل بلادها ، فقد منح هذا الانكسار المقرون بالاضطراب الداخلى الالمان قوة فنزلوا الى الميدان الافريقى فلقوا عطفا وترحيبا من المغاربة الذين عرفوا ما يحيكه لهم الفرنسويون فى الخفاء وما يعملونه لامتلاك بلادهم

بدأت المانيا تدخلها فى القضية المغربية بالاعتراض على الاتفاق الانكليزى ـ الفرنسوى المعقود سنة ١٩٠٤ فزعمت انه لم يبلغ اليها وانها لاتعترف به ولا تقر ما جاء فيه ولا توافق على اطلاق يد فرنسا فى المغرب الاقصى تفعل ماتشاء لان فى ذلك تهديدا لمصالحها الاقتصادية والتجارية وخطرا عليها

ورد الفرنسويون على هذا القول بانهم اطلعوا البرنس نادولنى سفير المانيا فى باريس على نص الاتفاق قبل توقيعه وسألوه رأيه فيه فلم يعترض عليه بل ولم يبد ملاحظة ، ثم اعادوا وابدوا فى احترامهم لمبدأ حرية التجارة فى المغرب الاقصى وقالوا ان المصالح الالمانية لن تستهدف لاى خطر من جراء اتساع النفوذ الفرنسوى

وبينما كانت المناقشات دائرة بين صحف برلين وصحف باريس على المسألة المغربية هذه تحتج على سياسة فرنسا فى المغرب وهذه تدافع عنها وصل الامبراطور غليوم الثانى فجأة الى ثغر طنجه يوم اول ابريل سنة ١٩٠٦ فاحدث وصوله دويا فى دوائر السياسة الاوربية وفسره بعضها بانه تحد صريح تتحدى به المانيا فرنسا

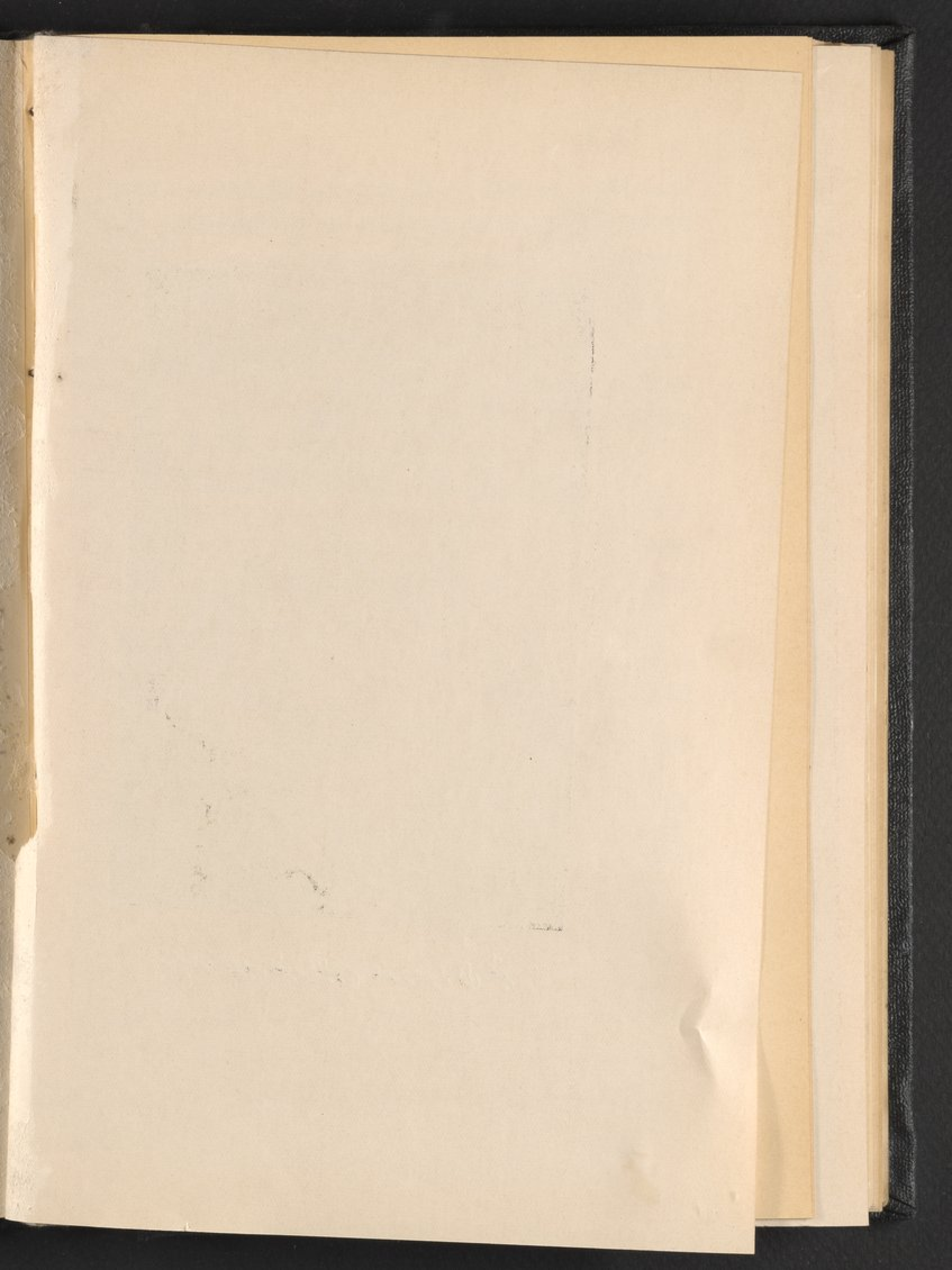
ونزل الامبراطور بعد ظهر ذاك اليوم الى البر فاستقبله مولاى عبد الملك عم السلطان وعميد العائلة الحسنية على رأس وفد من اعيان البلاد ورحب به باسم جلالته قائلا :

« ان رجال الحكومة المغربية سروا قاطبة بزيارة جلالته سرورا عظيما » ثم سلمه كتاب ترحيب ارسله السلطان اليه

ورد الامبراطور على خطبة الامير فقال « يسرنى ان التقى فى هذا الثغر برجل جليل القدر تربطه روابط النسب بالبيت الادريسى الشريف . وارجوه ان يحمل شكرى الى مولاى عبد العزيز لاهتمامه بى وارساله وفدا خاصا للسلام على . واؤكد له بانى اهتم بشؤون المغرب اهتماما شديدا وارجو له التقدم والنجاح



استقبال الامبراطور غليوم عند وصوله الى طنجه



« لقد جئت ازور سلطانا مستقلا استقلالا تاما ، ولى الامل ان يكون المغرب الاقصى فى عهده ميدانا حرا رحبا تتسابق الامم فيه مسابقة سلمية ولا يكون لأحد مزية على الآخر ، غير مزية الجد والنشاط »

وخطب الامبراطور فى الجالية الالمانية حينما استقبلها فى دار سفارة المانيا فقال :

« انى قصدت من زيارتى لهذا الثغر ان ابين جليا انى عازم عزما اكيدا على صيانة مصالح المانيا فى المغرب الاقصى وانى اريد ان افاوض السلطان نفسه لانى اعده سلطانا مستقلا

« اما الاصلاحات التى ينوى جلالته ادخالها الى بلاده فانى ارى انه يجب عليه ان يتدبرها مليا وان يراعى ميول شعبه وعواطفه الدينية حتى لا يكون ادخال الاصلاحات سببا للفتن والقلاقل »

وغادر الامبراطور فى اليوم نفسه طنجة عائدا الى بلاده

٨

فى طريق مؤتمر الجزيرة

كان للقنبلة التى القاها الامبراطور غليوم فى طنجه دوى فى دوائر اوربا السياسية فتحدث بعضها بامكان وقوع حرب جديدة بين فرنسا والمانيا تعيد الى الاذهان ذكرى حرب السبعين

وتدرع الفرنسويون بالصبر ورأوا ان مصلحتهم تقضى بالتأنى والتروى وعدم الاشتباك مع الالمان فى حرب لم يستعدوا لها الاستعداد الكافى خصوصا وقد كانت حليفتهم روسيا مطأطئة الرأس من جراء الانهزامات الشنيعة التى اصيبت بها فى الشرق الاقصى كما قلنا آنفا

ولم يخذل الانكليز الفرنسويين فى هذه الازمة ولم يتخلوا عنهم فزار باريس الملك ادوارد السابع يوم ٢٦ ابريل من تلك السنة اى بعد زيارة الامبراطور غليوم لطنجه بمدة ٢٦ يوما فقط يحمل اليها عطف قومه ويعلن تأييد حكومته لحكومتها فى موقفها وفى سياستها ، فرد بذلك ردا ضمنا على الامبراطور غليوم

وكذلك اعلنت ايطاليا وكانت لاتزال حليفة المانيا انها تؤيد فرنسا فى سياستها وتقف الى جانبها فى المسألة المغربية ـ اى انها خذلت صديقتها وحليفتها فى ساعة الشدة لما ترجوه من مساعدة فرنسا لها فى الاستيلاء على طرابلس الغرب

ووقفت اسبانيا ايضا الى جانب فرنسا فى هذه الازمة فتألفت من هذه الدول الثلاث ومن فرنسا نفسها كتلة قوية لمقاومة المانيا . ووقفت النمسا الى جانب المانيا فى هذا المعترك

وسعت المانيا سعيا حثيثا فى الولايات المتحدة لاقناع حكومتها بالتدخل فى القضية

المغربيـة باسم الدفاع عن حرية التجارة وعن قضية الباب المفتوح ولمقاومـة مطامع فرنسا فى امتلاك المغرب مظهرة ما فى امتلاكها له من خطر على مصالح الدول الاخرى الاقتصادية والتجارية

ولقـد جاء فى المذكرة التى سلمها سفير المانيا فى الولايات المتحدة الى وزارة الخارجية الاميركية : ان المانيا تطالب بحرية التجارة للجميع

وكذلك خاطبت المانيا الدول الاخرى الموقعة على معاهدة مدريد وهى الدانمرك وهولنـدا والسويد والبورتغال طالبة اليها الانضمام لها فى السعى لتأييـد مبدأ حرية التجارة فى المغرب ومقاومة الخطر الفرنسوى

وعرف الانـكليز والفرنسويون بما يدبره الالمان فى دوائر وشنطن فسعى سفير انـكلترا بالاتفاق مع سفير فرنسا عند وزارة الخارجية الاميركية لاقناعها برفض المذكرة الالمانية وعدم التدخل فى المسألة المغربيـــة لندرة المصالح الاميركية وقلتها فى المغرب الاقصى فشهدت دوائر واشنطن السياسية نضالا عنيفا بين الالمان من جهة و بين الفرنسويين والانـكليز من جهة اخرى وكل منهما يسعى لاستمالتها الى جانبـه : هؤلاء يريدونها على التدخل والوقوف الى جانبهم وتأييدهم فى سياستهم ، وهؤلاء يريدونها على رفض طلب المانيا والتزام الحياد فى هذا المعترك الذى ليس لها فيه ناقة ولا جمل

ودارت مفاوضات بين رجال الحـكومات وطال الاخذ والرد وانتهى هذا الدور باتفاق فرنسا والمانيا على عقد مؤتمر الجزيرة وهو المؤتمر الذى اجتمع يوم ١٥ يناير سنة ١٩٠٦ فـكان عقده فاتحة تحول جديد فى القضية المغربية

٩

الاتفاق بين المانيا وفرنسا

شجع السلطان وعد الالمان له بتأييده وشد ازره فى الدفاع عن استقلال بلاده وصيانة كرامتها فابلغ فرنسا رسميا انه لايستطيع قبول لائحتها الاصلاحية (انظر ص ٢٥٩)وطلب ان تصدر الاقتراحات الخاصة بالاصلاح من جانب الدول الموقعة على معاهدة مدريد لامن جانب فرنسا وحدها ، ومعنى ذلك انه يريد الاحتفاظ « بدولية » المسألة المغربية فلا تبقى بينه و بين فرنسا فتتغلب عليه بوسائلها الكثيرة و بقواها المادية وتتحكم فيه وفى بلاده

ويؤكد بعض المؤرخين الفرنسويين ان صاحب فكرة عقد مؤتمر دولى للنظر فى المسألة المغربية هو السلطان عبد العزيز نفسه وانه اراد بذلك مقاومة النفوذ الفرنسوى وغل يد فرنسا والماطلة فى ادخال الاصلاح على ان بين هؤلاء ايضا من ينادى بان الالمان هم الذين اوحوا اليه بهذه الفكرة ودفعوه الى عرضها ووعدوه النصر فى المؤتمر فيتخلص من سيطرة الفرنسويين و ينجو منهم

ودارت محادثات بين الحكومتين الفرنسوية والالمانية لتسوية المشكلة بالطرق الديبلوماسية وذلك عقب زيارة الامبراطور وانتهت بعقد اتفاقين الاول يوم ٨ يوليو سنة ١٩٠٥ والثانى يوم ٨ سبتمبر من تلك السنة وقد سلمت بهما فرنسا بدولية المسألة المغربية فكان فى ذلك فوز نسبي للسياسة الالمانية

واقترن هذا الفوز بفوز آخر للالمان وهو اخراج المسيو دلكاسه من وزارة الخارجية الفرنسوية واقصاؤه عنها وهو المشهور بعداء المانيا ، فقد استقال يوم ٦ يونيو

سنة ١٩٠٥ مكرها فساعد خروجه وحلول المسيو روفيـه (رئيس الوزارة الفرنسوية يومئذ) محله فى وزارة الخارجية على تهدئة الاعصاب وتنقية الجو ، وعلى تقريب مسافة الخلف بين الفريقين

وهـذه نصوص الكتب التى تبودلت بين فرنسا والمانيا بشأن المؤتمر والاتفاق المعقود بينهما :

١

باريس فى ٨ يوليو سنة ١٩٠٥

من المسيو روفيه رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية الى الامير رادولنى سفير المانيا فى باريس :

ادركت حكومة الجمهورية من المحادثات التى دارت بين ممثلى الحكومتين سواء فى باريس وفى برلين بان الحكومة الامبراطورية لن تتبع فى المؤتمر الذى اقترح سلطان المغرب الاقصى عقده خطة تناقض مصالح فرنسا الشرعية فى المغرب الاقصى ، ولا تعارض حقوقها الناتجة عن المعاهدات او الاتفاقات بل تتبع خطة تتفق مع المبادىء الآتية :

سيادة السلطان واستقلاله

صيانة امبراطوريته

الحرية الاقتصادية بدون اى تميز

اصلاح البوليس والاصلاح المالى الذى ينظم لمدة قصيرة باتفاق دولى

الاعتراف لفرنسا بمقام عملى فى المغرب الاقصى نشأ عن ملاصقة الجزائر له واتصالها الوثيق به وعن العلاقات الخاصة بين البلدين المتجاورين وعن المنافع الخاصة التى تحمل فرنسا على الاهتمام بان يسود النظام فى الامبراطورية الشريفية

وعلى كل حال فان حكومة الجمهورية تنكر الاعتراضات السابقة التى اعترضت بها على عقد المؤتمر وتقبل ان تذهب اليه عن طيبة خاطر

٢

باريس فى ٩ يوليو سنة ١٩٠٥

من الامير رادولنى سفير المانيا فى باريس الى المسيو روفيه رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية :

كلفتنى الحكومة الامبراطورية ان اؤكد لكم بمناسبة قبول حكومة الجمهورية الذهاب الى المؤتمر الذى اقترح سلطان المغرب الاقصى عقده ، تأكيد تصريحاتها الشفهية المنطوية على انها لاتنشد غاية معينة ترمى من ورائها الى نقض مصالح فرنسا المشروعة فى المغرب الاقصى او المعارضة فى حقوق فرنسا الناشئة عن المعاهدات او الاتفاقات بل تسير على خطة تتفق مع المبادىء الآتية :

سيادة السلطان واستقلاله

صيانة امبراطوريته

الحرية الاقتصادية بدون اى تحيز

اصلاح البوليس والاصلاح المالى الذى ينظم لزمن قصير باتفاق دولى

الاعتراف لفرنسا بمقام عملى فى المغرب الاقصى نشأ عن ملاصقة الجزائر لها واتصالها الوثيق بها وعن العلاقات الخاصة بين البلدين المتجاورين وعن المنافع الخاصة التى تحمل فرنسا على الاهتمام بان يسود النظام فى الامبراطورية الشريفية

٣

واتفقت الحكومتان بعد تبادل هذين الكتابين على اذاعة التصريح الآتى :

ان حكومة الجمهورية الفرنسوية والحكومة الامبراطورية الالمانية اتفقتا على ماياتى :

١ ــ دعوة بعثتيهما المقيمتين فى فاس للرجوع الى طنجة عند ما يجتمع المؤتمر

٢ ــ ان يسدى ممثلاهما السياسيان بالاشتراك والاتفاق النصح للسلطان بان يضع البرنامج الذى يقترحه للمؤتمر طبقا للقواعد المحددة فى الكتابين المتبادلين بين رئيس

مجلس الوزراء ووزير الخارجية الفرنسوية و بين سفير المانيـا فى باريس يوم ٨ يوليو سنة ١٩٠٥

٤

اتفاق ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠٥

وهـذا نص الاتفاق الذى عقد فى باريس يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠٥ بشأن المؤتمر بين الحكومتين الفرنسوية والالمانية :

اتفقت الحكومتان الفرنسوية والالمانية على ان تقترحا على السلطان ان يضع برنامج المؤتمر طبقا للمبادىء المنصوص عليها فى الكتابين المتبادلين بينهما يوم ٨ يوليو سنة ١٩٠٥ وهى :

١ ـ تنظيم البوليس خارج منطقة الحدود بموجب اتفاق دولى

٢ ـ تنظيم مراقبة تهريب السلاح ومنعه

ان امر هذا التنظيم فى مقاطعة الحدود يظل بلا نزاع من مهام فرنسا فى المغرب الاقصى

٣ ـ الاصلاح المالى او مساعدة الحكومة المغربية فى انشاء بنك للدولة مع امتياز باصدار اوراق مالية ، على ان يتولى اعمال الخزينة ويمنح حق سك النقود بما يعود نفعه على المخزن

يتولى بنك الدولة اصلاح الحالة المالية

تستخدم الاعتمادات المالية المفتوحة للمخزن فى توزين الميزانية وفى دفع نفقات جنود البوليس ولبعض الاشغال المستعجلة وخصوصا اصلاح المرافىء واستغلالها

٤ ـ دراسة افضل السبل لاصلاح نظام الضرائب واستحداث ايرادات جديدة

٥ ـ ان يتعهد المخزن بان لايهب اى مرفق من المرافق العامة لمصلحة شخصية

٦ ـ التقيد بمبدأ « المناقصة » فى الاشغال العامة بدون نظر الى الجنسية

كتب فى باريس يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠٥

روفيه رادولنى

٥

ووضع مندوبا الحكومتين فى اليوم نفسه وبالاتفاق المذكرة الايضاحية الآتية :

بلغت المفاوضات التى دارت بين فرنسا والمانيا لوضع برنامج المؤتمر الذى يعقد للنظر فى شؤون المغرب الاقصى مداها اليوم فتم الاتفاق على برنامج يتضمن :

تنظيم البوليس ، وضع نظام لمراقبة تهريب السلاح وقمعه ، الاصلاح المالى ويقوم على انشاء بنك للدولة ، دراسة افضل السبل لزيادة الضرائب وايجاد موارد جديدة للدولة المغربية واخيرا تحديد بعض المبادىء لانقاذ حرية التجارة

فاما فيما يختص بمقاطعة الحدود ، فانه عدا التحفظ الخاص المنصوص عليه فى مشروع البرنامج فانه من المتفق عليه ان مسائل البوليس تظل مما يعالج مباشرة ورأسا بين فرنسا والسلطان ولا تدخل فى برنامج المؤتمر . ويظل ايضا من شؤون فرنسا والسلطان وحدهما تطبيق النظام الحاضر بالاشراف على تهريب السلاح وقمعه فى هذه المقاطعة

والحكومتان على اتفاق فى ان تطلبا من اسبانيا ان توافق على اختيار الجزيرة مكانا لاجتماع المؤتمر

وقد سويت مسائل القرض والمرفأ على المنوال الآتى :

١ ـ طلبت الحكومة المغربية مدفوعة بالضائقة المالية الشديدة المحيقة بها عقد سلفة بواسطة اجنبى يقيم فى طنجه ، لاجل قصير وقدمت ممتلكاتها العقارية الخاصة فى المدن الساحلية ضمانة فلجأ هذا الاجنبى الى نقابة مالية المانية يطلب منها تقديم المال فعقد اتفاق بين نقابة من اصحاب البنوك الالمانية واصحاب البنوك الفرنسوية اشترك فيه الفريقان فى عمل هذه العملية المالية التى ستظل محتفظة بطبيعتها وهى سلفة ذات اجل قصير بضمان خاص ، تدفع حين عقد القرض المقبل او بواسطة بنك الدولة الذى نص فى برنامج المؤتمر على انشائه

ولا صلة لهذه العملية بمسالة حق التفضيل لاتحاد اصحاب البنوك الفرنسوية

٢ ـ واما مايتعلق بانشاء حاجز للامواج فى ثغر طنجه فقد سبق للحكومةالمغربية ان كتبت كتابا يوم ٢٦ مارس سنة ١٩٠٥ الى المفوضية الالمانية بطنجه تطلب فيه من بيت برغود روثمان ان يبدى رأيه فى احد المشروعين المعروضين عليها وايهما الافضل وحيث انه اجيز لاحدى الشركات الفرنسوية فى خلال تلك الفترة ان تدرس هذا المشروع فقد تقرر اعطاء مهلة لفحص سندات هذه الشركة فاذا لم تقدم سندات مماثلة لسندات الشركة الالمانية يعهد الى هذه بتنفيذ المشروع

٣ ـ ان مشروع البرنامج والاقتراح الخاص بمكان اجتماع المؤتمر متروكان بدون تحديد مدة لرأى الحكومتين المتعاقدتين بشرط الحصول على موافقة السلطان والدول الاخرى الموقعة على معاهدة مدريد

تغادر البعثتان الفرنسوية والالمانية فاس عائدتين الى طنجة، حينما يتقدم مشروع برنامج المؤتمر الى السلطان و يتفق على مكان اجتماعه

١٠

قرارات مؤتمر الجزيرة

....

هذا نص الكتاب الذى ارسله وزير خارجية المغرب الاقصى يوم ٤ يونيو سنة ١٩٠٥ الى ممثلى الدول الموقعة على معاهدة مدريد وهى انكلترا والمانيا والنمسا واسبانيا وفرنسا وهولندا والولايات المتحدة والبرتغال واسوج والدانمرك وروسيا و بلجيكا فى طنجه بدعوتها للاشتراك فى مؤتمر الجزيرة :

حضرة

امرنى جلالة مولاى ان ادعو الدول الكريمة الى عقد مؤتمر يشترك فيه مندو بوها مع مندوبى الحكومة المغربية للنظر فى اجراء الاصلاح الذى عزم جلالته على اجرائه فى سلطنته ، وفى مسألة تدارك النفقات اللازمة لذلك الاصلاح مع مراعاة الاحوال الحاضرة

فالرجاء ان تبلغوا حكومتكم ماعرض عليكم وتستأذنوها فى حضوره وأن تبلغونا جوابها حالما يصل اليكم والسلام

حرر فى قصر السلطان بفاس يوم ٣٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٥

وقد استغرق الاتفاق على اختيار المكان الذى يجتمع فيه المؤتمر وقتا طويلا فقد اقترح الفرنسويون ان يعقد فى مدريد وايدهم فى ذلك الاسبان

واقترح السلطان ان يعقد فى طنجة باعتبارها مقر ممثلى الدول وعاصمة المغرب الاقصى السياسية وايده الالمان واقترح بعضهم ان يعقد فى مدينة العرايش واخيرا تم الاتفاق على ان يعقد فى مدينة الجزيرة

اسماء مندوبى الدول التى اشتركت فيه

وهذه اسماء مندوبى الدول الذين شهدوا هذا المؤتمر التاريخى :

مندوبو المغرب الاقصى

الحاج محمد بن العربى الطوريسى (مندوب السلطان فى طنجة وسفيره المفوض) الحاج محمد بن عبد السلام المقرى (وزير الدفاع) والحاج محمد الصفار والسى عبد الرحمن بنيس

مندوبو المانيا

الكونت جوزيف دى رادوفتز سفير المانيا لدى الفاتيكان . والكونت تاتنباخ سفيرها فى المغرب الاقصى والكونت كريستيان

مندوبا النمسا والمجر

الكونت فيلسرشايب سفير النمسا لدى الفاتيكان والكونت بوليستا كوزيبورزكى سفيرها فى المغرب الاقصى

مندوبا بلجيكا

البارون جوستان سفير بلجيكا لدى الفاتيكان والسنيور كونراد سفيرها فى المغرب الاقصى

مندوبو اسبانيا

الدوق جوان مانويل . والدوق المودوفارو ريو وزير الخارجية . والدوق جون بيديز كاباليرو وزير اسبانيا المفوض فى بلجيكا

مندوبا الولايات المتحدة

المستر هنرى هويت سفير الولايات المتحدة فى ايطاليا . والمستر صمويل جوميرى وزير اميركا المفوض فى المغرب الاقصى

مندوبا فرنسا

المسيو بول ريفوال سفير فرنسا الممتاز فى سويسرا . والمسيو اوجين رينول وزيرها المفوض

مندوب انكلترا

السر ارثر نكلسون سفير انكلترا فى روسيا

مندوبا ايطاليا

المركيز فيسكونتى فينوستا والسنيور جوليو ملموسى وزيرها المفوض فى المغرب الاقصى

مندوب هولندا

المستر جونكر هينال تيستا وزير هولندا المفوض لدى الفاتيكان

مندوب البرتغال

الكونت طوفرا وزير البرتغال المفوض فى الفاتكان

مندوبا روسيا

الكونت كاسينى وزير روسيا المفوض لدى الفاتيكان . وباسيل باشراشت وزيرها المفوض فى المغرب الاقصى

مندوب السويد

المسيو روبرت ساجر مندوب السويد لدى الفاتيكان

مندوبو البابا

وكان هنالك وفد غير رسمى يمثل البابا قوامه بعض القسس الاسبانيين برئاسة اسقف منهم لمطالبة المؤتمر بحرية الاديان فى المغرب الاقصى وحق انشاء كنائس

افتتاح المؤتمر

وفى يوم ١٥ يناير سنة ١٩٠٦ افتتح المؤتمر فى الجزيرة [1] باحتفال رسمى فاقترح الكونت رادوفيتز مندوب المانيا ان يكون الدوق المودوفار وزير خارجية اسبانيا ومندوبها رئيسا للمؤتمر فوافق الجميع على ذلك

خطبة الرئيس

وصعد الرئيس الى المنصة وارتجل الخطبة الآتية :

« ان الدول اظهرت اهتماما عظيما بتوطيد اركان النظام فى المغرب الاقصى وتثبيت دعائم السلم ودفع البلاد فى السبل المؤدية الى الفلاح والهناء . ولا ريب ان ذلك يقع موقعا حسنا عند السلطان لان الفائدة التى تعود عليه منه لاتقل عن الفائدة التى ترجوها الدول الاجنبية بسبب ما ينشأ عن الاصلاح من توسيع نطاق التجارة

---

(١) الجزيرة فرضة من ولاية قادس الاسبانية على بعد ستة اميال من جبل طارق غربا وهى مبنية بالحجر ومنظرها جميل بالنسبة الى مدن اسبانيا الصغيرة وكانت اول موقع استولى عليه العرب فى اسبانيا بعد عبورهم البحر وظلت فى ايديهم نحو ٦٥٠ سنة ثم استردها الاسبان

وزيادة اسباب الثروة لاسيما وان الدول متفقة على ان الغرض الذى ترمى اليه لاينال الا اذا كان الاصـلاح مبنيا على حفظ استقلال السلطان وسلامة البلاد ومساواة الجميع فى الحقوق التجارية

« والحـكومات التى انتدبتنا لحضور هذا المؤتمر لم تكلفنا وضع نظام جديد تغيير هيئة الادارة فى المغرب الاقصى تغييرا تاما بل اكتفت بان طلبت منا البحث فى الطرق التى يجب اتخاذها لاجراء مانظنه ضروريا وقريب المنال من ضروب الاصلاح وهو بحث يعود بفائدة عظيمة ان شاء الله وان لاح لأول وهـلة انه ضيق النطاق لانه اذا انشئت نقط للبوليس فى الجهات التى يختارها المؤتمر ومنع تهريب السلاح وتيسر المال اللازم للقيام بالنفقات العمومية وتحسين ارصفة الموانى استتب الامن فى البلاد وراجت سوق التجارة ولاحت طوالع السعد والهناء للامة المغربية

« ولذلك يجب على كل منا ان يضع نصب عينيه احترام مصالح الآخرين ويسعى الى التوفيق بينها و بين مصالح دولتـه الخصوصية مع المحافظـة عـلى استقلال السلطان وسلامة المغرب الاقصى، لاتلبية لرغائب الحـكومات التى انتدبتنا الى هذا المؤتمر فقط بل قضاء لواجب المروءة وتحقيقا للآمال التى عقدها العالم على هذا المؤتمر

« وان اسبانيا تعـد نفسها سعيدة بقبول الدول دعوتها الى البحث فى المسألة المغربيـة واصلاح المغرب كما سبق وعودتنا الدول الرأى الصائب فى هـذه المسألة يوم معاهدة مدريد فالامل الا ينتج مؤتمر الجزيرة الا كل ما يوافق المصلحة العامة ويخلد الذكر الحسن على صفحات التاريخ لمؤتمر الجزيرة واعضائه »

ثم خطب المسيو ريفوال مندوب فرنسا فقال ان حكومته جاءت الى هذا المؤتمر وهى راغبة رغبة شديدة فى المحافظة على المبادىء الثلاثة الآتية :

١ ـ سلامة سلطنة المغرب الاقصى

٢ ـ سيادة السلطان

٣ ـ الباب المفتوح فلا تعطى الاعمال العمومية الا بالمناقصة العامة

وخطب منـــدوب المانيا فأيد اقوال المنـدوب الفرنسوى وطلب من المؤتمر تسجيلها

ثم خطب المندوب المغربى فأعرب عن سروره باجماع الدول على حفظ سيادة السلطان وصيانة استقلال المغرب الاقصى

تهريب السلاح

وكانت مسألة تهريب السلاح فى مقدمة المسائل التى عالجها المؤتمر فقـد دار البحث عليها فى الجلسة الثانيـة فتم الاتفاق بدون عناء على منع تهريبه وعلى فرض عقوبات شديدة على الذين يهربونه ووضع لذلك نظاما فى ١٧ مادة وافق عليه الاعضاء بالاجماع

تنظيم البوليس

والمسألة الثانية التى عالجها المؤتمر هى مسألة تنظيم البوليس المغربى وكانت اعقد المشاكل واصعبها بسبب ماقام عليها من خـلاف بين الالمان والفرنسويين فقـد اقترح الالمان ان يعهد بهذه المهمة الى هيئة دولية وقالوا ان قيام دولة واحدة باصلاح البوليس والاشراف على الامن يعزز نفوذها ويرجح مصالحها ويضعف هيبة السلطان ويخرق حرمة الاستقلال فلا تبقى والحالة هذه فائدة من تقرير سياسة الباب المفتوح

واصر الفرنسويون على ان يتولوا تنظيم البوليس بحجة رجحان مصالحهم وقالوا ان اشتراك اكثر من دولة واحـدة فى تنظيم البوليس يذهب بالغاية المقصودة منه ويجعله عرضة للدسائس وبعـد انقضاء شهر او اكثر فى المناقشات تم الاتفاق على ان يعهد بمهمة تنظيم البوليس وتدريبه لضباط وصف ضباط فرنسويين واسبانيين فى ثمان من المدن الساحلية وان يكون تحت سيادة السلطان وان يقوده ضابط سويسرى كبير وذلك بموجب نظام خاص وافق عليه المؤتمر بالاجماع

ويقضى هـذا النظام بان يكون جنود البوليس من المغاربة المسلمين وان يعين

الضباط وصف الضباط الاسبانيون والفرنسويون لمدة خمس سنوات من تاريخ ابرام معاهدة المؤتمر

ولا يزيد عدد جنود البوليس الذين يجندون عن الفين وخمسمائة ولا ينقص عن الفين يوزعون على الثغور بحسب اهميتها ولا يقل العدد فى كل ثغر عن ١٥٠ ولا يزيد عن ٦٠٠

ويتراوح عدد الضباط الفرنسويين والاسبانيين بين ١٦ — ٢٠ اما عدد صف الضباط من الفريقين فيتراوح بين ٣٠ — ٤٠

ويعهد بالتفتيش العام على هذه القوات مدة السنوات الخمس الى ضابط كبير من الجيش السويسرى تختاره حكومة الاتحاد السويسرى بطلب جلالة السلطان ويلقب بلقب « مفتش عام » ويكون مقره فى طنجة ويرسل تقريره سنويا عن حالة البوليس الى عميد السفراء فى طنجة

وهذه اسماء الثغور المغربية التى يقام فيها بوليس اوربى :

طنجة وتيطوان والعرايش ورباط والدار البيضاء ومزاغان ومغادور وصدفى

ويكون البوليس فى الاولى مختلطا اى من الاسبانيين والفرنسويين ويكون فى الثانية والثالثة اسبانيا ومختلطا فى الدار البيضاء وفرنسويا فى رباط والثغور الباقية

بنك الدولة

وكثر الاخذ والرد واشتدت المناقشة بين الالمان والفرنسويين حول مشروع بنك الدولة فقد اقترح الالمان ان يكون دوليا وان تكون مدة امتيازه ٥٠ سنة من تاريخ موافقة المؤتمر على انشائه وان يكون مقره فى طنجة وان تقدم الدول المشتركة فى المؤتمر رأس ماله على قدم المساواة وان يعد شخصا معنويا فى بلاد كل من الدول المشتركة فى المؤتمر وان تناط شؤونه بمدير ومجلس ادارة ومجلس مراقبة وان يتألف مجلس ادارته من مندوبى الحكومات التى تقدم المال بنسبة مندوبين

اثنين لكل دولة و يتألف مجلس المراقبة من سفراء الدول بطنجة اما المدير فيختاره مجلس الادارة

وعارض الفرنسويون فى هذا الاقتراح وطلبوا ان تكتتب فرنسا بخمس امواله واقترحوا اقتراحات اخرى

واخيرا تم الاتفاق على ان لايقل رأس مال البنك عن ١٥ مليون فرنك ذهبا وان لا يزيد عن العشرين على ان يزاد هذا المال فى المستقبل بقرارات تصدرها الجمعية العمومية

ووضع المؤتمر نظاما خاصا لهذا البنك يقع فى ٣٧ مادة ووافق عليه بالاجماع

الاصلاح المالى

وبحث المؤتمر ايضا مسألة تحسين الدخل وايجاد موارد مالية جديدة للحكومة المغربية تستعين بها على ادخال الاصلاح ، واقترحت حكومة المغرب فرض ضرائب على الاجانب والمحتمين بالحماية الاجنبية من الوطنيين فرفض المؤتمر اجابة طابها ما لم تتخذ التدابير اللازمة لتسهيل تملك الاجانب فى السواحل المغربية . فقال محمد الطوريس اذن لماذا جئنا الى هذا المؤتمر ؟ ان اجراء الاصلاح الذى يطلبه السلطان وتشيرون علينا باجرائه يستلزم مالا وقد قطعتم عنا موارده فكيف نستطيع اجراءه بلا مال

ووضع المؤتمر نظاما خاصا للاصلاح المالى فى ١٦ مادة نص فيه على انه يجوز للحكومة المغربية ان تضع ضريبة جمركية قدرها اثنان ونصف فى المائة على الواردات الاجنبية بشرط ان ينفق دخلها على اصلاح الثغور والمرافئ

ونص فيه ايضا على ان للحكومة المغربية ان تحتكر تجارة الدخان وتجارة الافيون و « الكيف » وان تضع ضريبة على الرعايا الاجانب فى بلادها بشرط موافقة ممثلى الدول الاجنبية و بعد ان يتم تنظيم ضريبة « الترتيب »

ونص فيه ايضا على انه يحق للاجانب التملك فى البلاد التى يسكنونها وان ينشئوا المبانى بشرط ان تكون موافقة للعادات والتقاليد المحلية الاسلامية

وقيد هذا النظام سلطة الحكومة المغربيـة فى الشؤون المالية وفى كل ماله صلة بالاجانب وتجارتهم ورعاياهم فلا يحق لها ان تبت فى امر من هذه الامور الا بالاتفاق مع ممثلى الدول الاجنبية فى طنجة وموافقتهم

الشؤون الجمركية

وعالج المؤتمر مسألة الجمارك والتعريفة الجمركية والتهريب ، ووضع لها نظاما فى ٢٧ مادة يقضى بتأليف لجنة للتثمين ولوضع التعريفة الجمركية تتألف كما يأتى :

ثلاثة مندوبين تنتدبهم الحكومة المغربية وثلاثة مندوبين تعينهم الهيئة السياسية ومندوب لبنك الدولة المغربية ومندوب للقرض المغربى لسنة ١٩٠٤

وعلى هذه اللجنة ان تؤلف «لجنة شرفية» يتفاوت عدد اعضائها بين ١٢ – ٢٠ من القاطنين بالمغرب الاقصى لاستشارتها عند الحاجة فى التثمين وان يختار اعضاؤها من القوائم التى تضعها المفوضيات الاجنبية وتضمنها اسماء اعيان الاجانب ومن القائمة التى يضعها ممثلو السلطان للاعيان المغاربة

ويعين هؤلاء لمدة ثلاث سنوات ويمكن تعديل التعريفة التى تضعها مرة كل ستة اشهر

ويقضى هذا النظام ايضا بانشاء لجنة دائمة يطلق عليها اسم « اللجنة الجمركية» تقيم فى طنجة ويعين اعضاؤها لمدة ثلاث سنوات . وتتألف من مفوض خاص لجلالة السلطان ومن عضو يمثل الهيئة السياسية والقنصلية تختاره الهيئة الاولى ومن مندوب لبنك الدولة ويحق لها ان تضيف اليها من تشاء لمدة موقتة

وتشرف هـــذه اللجنة على سير الاعمال فى الجمارك ولهـا حق اقتراح ماتراه ضروريا لاصلاح نظام الخدمة ولضمان النظام ولمراقبة الاعمال الجمركية

ويقضى هذا النظام ايضا بمحاكمة الاجانب الذين يرتكبون جرائم جمركية امام السلطات الاجنبية التى يتبعونها اما الوطنيون فيحاكمون امام السلطات الوطنية

وجاء فيه ايضا ان تطبيق هذا النظام فى مقاطعات الحدود المغربية — الجزائرية هو من الشؤون المختصة بالمغرب وفرنسا . كما ان تطبيقه فى الريف هو من الشؤون الخاصة بالمغرب واسبانيا

وجاء ايضا انه يمكن تعديل هذا النظام بموجب اتفاق يعقد بين المخزن والهيئة السياسية بعد انقضاء سنتين على وضعه موضع التطبيق بشرط ان يتم ذلك بقرار تصدره الهيئة باتفاق الاراء

المقاولات والاشغال العامة

ودرس المؤتمر ايضا مسألة المناقصات والمقاولات وطرق تلزيمها ووضع لها نظاما فى ١٤ مادة جاء فيه : ان الدول الموقعة على هـذا الاتفاق رغبة منها فى ضمان مبدأ الحرية الاقتصادية تعلن بانه لن يمنح فى الامبراطورية المغربية اى امتياز شخصى ، وانه فى حالة دعوة الحكومة المغربيـة رؤوس الاموال الاجنبية او الصناعات الاجنبية للقيام باحـد الاعمال العامة او لتنفيذ مشروع من المشروعات العمرانية كانشاء طرق وسكك حديد ومرافئ وتلغراف وغير ذلك فان الدول الموقعة على هـذا الاتفاق تحتفظ بسلطة الدولة فى الاشراف على هذه المشروعات الكبرى التى تظل منفعتها عامة

وتخضع الامتيازات الاقتصادية والمقاولات فى جميع انحاء الامبراطورية الشريفية لمبدأ المناقصة العامة ولايستثنى من ذلك احد ويتبع هذا المبدأ فى جميع الاعمال والاشغال والمقاولات طبقا لما هو منصوص عليه فى هذا النظام

وعلى الحكومة المغربيـــة ، حينما تقرر تنفيذ مشروع من المشروعات العامة ان تطلع عليه الهيئة السياسية فى طنجة ثم ترسل اليها الشروط والخرائط والتصميمات وجميع الوثائق المتعلقة به وبالمناقصة وبذلك يتاح لجميع شعوب الدول الموقعـة على الاتفاق الاطلاع عليه والاشتراك فيه اذا ارادت وذلك فى خلال مدة كافية تحددها . ولا

يجوز ان تحتوى الشروط بحال من الاحوال على شرط يعبث بمبدأ حرية المناقصة او يميز شعبا على شعب

وجاء فيه ايضا ان على الحكومة المغربية ان تصدر مرسوما « فرمان » يحدد شروط امتيازات المناجم وطرق استغلالها وعليها ان تسترشد فى وضع هذا المرسوم بالتشريع الاجنبى الخاص بالمناجم

وجاء ايضا ان نزع الملكية لا يكون الا لمنفعة عامة و بعد اثبات ضرورته بالطرق الادارية وانه يجب وضع نظام خاص لنزع الملكية بالاتفاق مع الهيئة السياسية

وجاء فى الفصل السابع ان قرارات المؤتمر توضع موضع التنفيذ فى اليوم الذى تبرم فيه وآخر موعد لذلك يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٠٦ وجاء فى المادة الاخيرة ان جميع المعاهدات والاتفاقات والتسويات المعقودة بين المغرب الاقصى والدول الموقعة على هذا الاتفاق تظل نافذة وانه فى حالة وقوع تعارض بين حكم من احكامها وبين هذا الاتفاق فاحكام هذا هى التى تنفذ

الختام

هذه هى المسائل التى عالجها المؤتمر فى خلال اجتماعه وقد امتد ٨١ يوما ووضع لها اتفاقا يقع فى ١٢٣ مادة لم نر فائدة من ترجمته ونشره برمته لطوله فاكتفينا بهذه الخلاصة الوافية التى وضعناها لكل باب من ابوابه فهى تغنى عن التطويل والاسهاب

وفى يوم ٧ ابريل عقد المؤتمر جلسته الختامية فخطب الرئيس خطبة وجيزة شكر فيها مندوبى الدول على ما ابدوه من الهمة والنشاط فى انجاز المهمة التى نيطت بهم

١١

لاغالب ولامغلوب

كان مؤتمر الجزيرة مضمارا تسابقت فيه الحكومتان الفرنسوية والالمانية وجرتا حتى النهاية ثم انتهى بعقد الاتفاقات التى لخصناها آنفا وهى لا ترضى الالمان ولا الفرنسويين ولا المغاربة

لقد دخل الالمان المؤتمر معتزين بقوتهم العسكرية ، وبضخامة اسطولهم ، وبرقيهم الصناعى ، وبالحماسة التى تجيش فى صدورهم ، ومعتقدين بانهم سينالون بطريق التهديد كل مايرغبون نيله من حقوق وامتيازات ويقضون على النفوذ الفرنسوى ويجتثونه

وجاء الفرنسويون الى الجزيرة يعتمدون على المحالفات والمعاهدات السرية التى عقدوها مع الدول لابتلاع المغرب الاقصى فكان هذا الصدام الشديد وهذا النضال الضعيف الذى استمر ٨١ يوما ثم اسفر عن النتائج التى سبق لنا وصفها لعدم اخلاص الذين اشتركوا فيه ولتأييد كل منهم جهة رأى ان مصلحته الخاصة تقتضى تأييدها من دون نظر الى الغاية الحقيقية التى عقد المؤتمر لأجلها

لقد انقسم المؤتمر منذ الساعة الاولى التى اجتمع فيها الى ثلاث كتل قوية :

١ ـ كتلة فرنسا وانصارها

٢ ـ كتلة المانيا والنمسا

٣ ـ كتلة الدول المحايدة

وقد تألفت الكتلة الاولى من فرنسا وانكلترا وروسيا واسبانيا فقد وقفت هذه الدول الثلاث وراء فرنسا تؤيدها وتشد ازرها بدون قيد ولا شرط . ووقفت

البرتغال ايضا فى صف هـــذا الفريق رعاية لصلاتها بانـكلترا ووقفت فيـه ايضا بلجيكا

والدولة الوحيدة التى وقفت فى جانب المانيا فى هـذا المعترك هى النمسا ولـكن لابدون قيد بل بقيود وشروط فقد حاولت ان تمثل دور الوسيط بين المانيا ومنافسيها متجنبة بقدر جهدها اغضاب فرنسا بحجة انه لامصالح خاصـة لهـا فى المغرب الاقصى تدفعها الى المغامرة

اما ايطاليا وقد كانت فى ذاك الوقت حليفة لالمانيا والنمسا فقد وقفت بين بين وكانت التعليمات التى اصدرتها الى مندو بيها تقضى عليهما بان يلزما الحياد و بان يسعيا للتوفيق وهو مافعلاه

لقد كانت ايطاليا بين تيارين متناقضين: فهى من جهة حليفة لالمانيا والنمسا و بينها و بينهما عقود ومواثيق كما انها من الجهة الاخرى مقيدة بمعاهدة مع فرنسا تعهدت فيها بان تطلق يدها فى المغرب الاقصى و بان لاتعارض فى كل ماتعمله لامتلاكه

ورأت ايطاليا ان خـير ما تفعله فى المؤتمر هو التزام الحياد فلا تؤيد المانيـا تأييـد الانـكليز والروس للفرنسويين فتغضب فرنسا غضبا قد يحملها على عرقلة احتلالها لطرابلس الغرب ، ولا تؤيدها بدون قيد ولا شرط فتغضب المانيا حليفتها وصديقتها

وارضت خطة الحياد التى اتبعتها ايطاليا الفرنسويين ونالت استحسانهم وكانت عاملا من عوامل التقريب بين باريس ورومة كما ساءت الالمـان وآلمتهم فنفروا من ايطاليا واعرضوا عنها

ومما يصح ايراده للاستشهاد به على امتعاض المانيا ونفورها من حليفتها ايطاليا ان الامبراطور غليوم ارسل عقب ختام مؤتمر الجزيرة برقية الى رئيس الوفد النمسوى للمؤتمر يشكره فيها على موقفه وعلى غيرته و يهديه وساما من اعظم الاوسمة الالمانيـة ولم يفعل شيئا من ذلك مع المندوب الايطالى

وهاج فى تلك الاثناء بركان فيزوف وقذف بحممه فأحرق كثيرا من المـدن

والقرى وكانت نكبة كبيرة نكبت بها امة الطليان فلم ترسل المانيا كلمة تعزية لحليفتها ولم تواسها ولم تتبرع بمال لمساعدة المنكوبين بعكس فرنسا التى اسرعت فارسلت الاعانات وجادت بالاموال

ويمكن القول ان الجفاء الذى غشى صلات هاتين الدولتين فى مؤتمر الجزيرة كان من جملة العوامل التى ساعدت على فصمها فى النهاية اذ خذلت ايطاليا حليفتها عند ابتداء الحرب العظمى فلم تدخلها الى جانبها ثم انضمت بعد ذلك الى جانب الفرنسويين والانكليز وقاتلت معهم

والدولة التى لزمت جانب الحياد التام فى المؤتمر هى الولايات المتحدة فقد ابت ان تنضم الى فريق من الفريقين وان تؤيد رأيا على رأى لانه لامصلحة لها فى الامر

وكان من دول الحياد ايضا هولندا واسوج

فهذا البيان الموجز يدل على ان كفة فرنسا كانت الراجحة فى المؤتمر وان الاكثرية المطلقة كانت لها ولانصارها وان اضعف كتلة كانت كتلة المانيا ولولا قوتها وعزيمة رجالها وصلابتهم وتهديدهم ووعيدهم لما استطاعوا الوقوف فى وجه فرنسا وانصارها وكانوا يفوقونهم عددا واتحادا وتضامنا

وقد ادى هذا التكافؤ التقريبى فى القوى الى اطالة اجل المؤتمر والى كثرة الاخذ والرد فكان الالمان يعارضون فى كل مشروع يقترحه الفرنسويون وكان هؤلاء يقفون مثل هذا الموقف من كل اقتراح المانى

لقد اراد الالمان ان يضعفوا نفوذ فرنسا فى المغرب الاقصى عن طريق المؤتمر فعجزوا عن ذلك لوقوف اكثر الدول وراءها تشد ازرها واراد الفرنسويون ان ينالوا عن طريقه ايضا تفويضا من الدول باطلاق ايديهم فى المغرب الاقصى يفعلون مايشاءون فوقفت المانيا فى وجههم وحالت بينهم و بين مايشتهون وكان الحل الذى وضع حلا وسطا ارضى الفريقين ظاهرا واهمل المصالح المغربية التى عقد للعناية بها اهمالا شنيعا مريبا

وتناول رئيس وزراء المانيا هذا الموضوع فى خطبة خطبها يوم ٥ ابريل سنة

١٩٠٦ فى مجلس الرخستاغ اى عقب ختام المؤتمر فبسط الغاية التى حملت المانيا على التدخل وتكلم عن النتائج التى اسفر عنها المؤتمر ومما قاله ان هنالك ثلاث عوامل بعثتنا على التدخل وهى :

١ – ان لنا مصالح اقتصادية فى تلك البلاد لابد ان تزداد فى مستقبل الايام لان البلاد المغربية لاتزال بكرا وستنمو تجارتها مع نمو العمران

٢ – ولاننا وقعنا مع غيرنا من الدول معاهدة دولية تضمن للجميع المساواة فى المغرب الاقصى

٣ – ولان بيننا و بين الحكومة المغربية معاهدة تجارية تضمن لنا ان نعامل معاملة اولى الدول بالمراعاة ولذلك لم يكن فى وسعنا ان نسمح لاحد ان ينفرد بالنفوذ فى المغرب الاقصى بلا مشورتنا ورضائنا لان ذلك يمس كرامة السلطة الالمانية و يقلل من هيبتنا

ومما يستحق الذكر ان سقوط وزارة المسيو روفيه الفرنسوية فى اثناء انعقاد المؤتمر سهل اسباب نجاحه وقرب بين المانيا وفرنسا فقد اسرع رئيس الوزارة الجديدة المسيو ساريان فاصدر تعليمات الى مندوبى فرنسا فى المؤتمر بقبول كل اقتراح يؤول الى حسم الخلاف و يمهد السبل للاتفاق بشرط عدم الاجحاف بحقوق فرنسا السياسية الناشئة عن مركزها الخاص فى الجزائر

على ان الخلاف لم يلبث ان تجدد بعد ذلك بين المانيا وفرنسا وكثر الاخذ والرد بينهما وعقدت عدة اتفاقات سياسية مما سنفصله فى الفصول الآتية

١٢

المغاربة والمؤتمر

لايخفى ان الغاية التى عقد المؤتمر لاجلها هى النظر فى اصلاح المغرب الاقصى اداريا وماليا وتقرير ما يعود على اهله بالخير والسعادة والهناء وضمان استقلاله تحت سيادة السلطان واحترام هذه السيادة والاستقلال والمحافظة عليهما فهل فعل ذلك ؟ وهل حقق آمال المغاربة ؟

لقد دلت ابحاث المؤتمر على انه حصر عمله فى دائرة صغيرة لم يتعداها وهى التوفيق بين فرنسا التى كانت تسعى لامتلاك المغرب الاقصى بالاتفاق مع بعض الدول التى تواطأت معها على ذلك و بين المانيا التى كانت تزاحمها وتنفس عليها وتعمل لتحول دون فوزها بهذه الغنيمة العظيمة ، فتزيدها قوة وترفع مكانتها

فالالمانيون فى تدخلهم بالمسألة المغربية وفى سعيهم لاقصاء الخطر الفرنسوى عن المغرب ما كانوا يعملون لخيره وما كانوا ينشدون اصلاحه وسعادته ، وانما كانوا يناضلون ضرتهم الكبرى فرنسا و يعملون ليحولوا بينها و بين الغنيمة فلا يشتد ساعدها بها

ولقد اعترف بعض الكتاب الالمان بهذه الحقيقة وجاهر بها فقالوا ان المانيا ارادت من تدخلها بالمسألة المغربية ان تثبت لفرنسا قوتها وتبين لها بانها لا تستطيع بالاتفاق مع الدول الاخرى وتجاهلها مقام المانيا - امتلاك المغرب والفوز به ، فالمانيا القوية والقادرة تريد ان يحسب حسابها فى كل مشروع مهما كان . فاهتمام المانيا بهذه الناحية وحدها من القضية واعتبارها مسألة الاصلاح ثانوية ووسيلة لمقاومة النفوذ الفرنسوى هى العامل الاصلى فى اخفاق المؤتمر ، فقد شغل بالتوفيق بين

الفرنسويين والالمان والتقريب بينهما عن كل غاية اخرى يؤيد ذلك ان جميع المندوبين الذين شهدوا المؤتمر - ماعدا مندوبي فرنسا والمانيا - شهدوه بصفة متفرجين وكانت التعليمات التي يحملونها صريحة تقضي عليهم بان يقروا مايتم الاتفاق عليه بين الالمان والفرنسويين والتوسط عند الحاجة للتوفيق ، وهو ماحدث بالضبط فلم يقترح احد من هؤلاء اقتراحا يذكر ولم يشترك في مناقشة بل جعلوا همهم الاوحد السعي للتسوية والتوفيق

ولقد تنبه بعض ساسة اوربا الى هذا الامر فقال بعد مادرس معاهدة مؤتمر الجزيرة « ليس فيها مايدل على ان الدول قصدت اصلاح المغرب الاقصى وترقية شؤونه بوضع نظامات دولية تؤول الى ذلك بل كل ماهنالك ان مواد هذا الاتفاق تؤول الى ترويج متاجر الاوربيين في ثغور المغرب الاقصى وتعزيز نفوذهم وهيبتهم وتسهل سبل التدخل في شؤونه لهم وشتان بين هذه النتيجة والغاية التي عقد لاجلها

ولا ريب أن انتهاء مؤتمر الجزيرة على المنوال الذي انتهى به خيب آمال المغاربة من جهة المؤتمر نفسه ومن جهة المانيا التي كالت لهم الوعود كيلا ومنتهم بالاماني المعسولة ووعدتهم بان تأخذ بضبعهم وتنقذهم من الخطر الفرنسوي وتساعدهم في المحافظة على استقلالهم وكرامتهم وتسهل لهم سبل اصلاح بلادهم ، فلما جد الجد سلمت بمعظم ماطلبته فرنسا واقترحته ، فاثر هذا التسليم ، وان لم ينطو على معنى الهزيمة ، في نفوس المغاربة وعد فوزا لفرنسا فاندفعت في تنفيذ سياستها الاستعمارية واسرفت في التدخل فاهاج ذلك المغاربة فقاتلوها وكانت تلك الاحداث المريعة التي نفصلها في هذه الصفحات

١٣

احتلال وجده

بلغ السنيور ملموسى معتمد ايطاليا فى المغرب واحد مندوبيها الى مؤتمر الجزيرة مدينة فاس يوم ٣ يونيو سنة ١٩٠٦ فقابل السلطان عبد العزيز فى قصره وقدم اليه عهد مؤتمر الجزيرة لينظر فيه ويبرمه

وشاعت اشاعات كثيرة فقيل ان السلطان يميل الى رفضه ثم قيل انه قد يقترح تعديله ولكنه ابرمه يوم ٢٢ منه برمته وعهد الى الحاج محمد على المقرى مندوبه فى طنجه بان يتصل بوكلاء الدول ويتفق معهم على الخطة التى تتبع فى ادخال الاصلاحات وتنفيذها فارتاح لذلك هؤلاء وظن الاكثرون ان دور التشاد والتنافس قد انتهى وان المغرب قادم على استقرار حقيقى . بيد ان سير الحوادث خيب الظنون واثبت عزم الفرنسويين على امتلاك هذه البلاد باى طريقة كانت فقد اغتنموا فرصة حوادث افرادية حدثت فى تلك الاثناء فقرروا التدخل باسم حماية الاوربيين وخاطبوا اسبانيا فى الامر ليمنحوا تدخلهم صفة دولية فوافقتهم وارسلتا (فرنسا واسبانيا) مذكرة الى الدول الموقعة على قرارات مؤتمر الجزيرة جاء فيها ان غايتهما من العمل حماية نفوذ السلطان وتوطيد الامن فى البلاد لان اعتلاله يضر بمصلحة الاوربيين

وغادر طولون يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٠٦ اسطول فرنسوى يتألف من ثلاث بوارج : سوفرين ، وسان لويس ، وشارلمان الى اسبانيا فالمغرب الاقصى ، وفى يوم ٨ ديسمبر وصل الى ميناء طنجه فانضم الى الطرادين الفرنسويين المرابطين هناك وهما جان دارك وغاليلى

وارسلت اسبانيا الباخرتين بلايو ومونيسا بقيادة الاميرال متى وتم الاتفاق بين مدريد و باريس بان يعهد بالقيادة العامة للقوتين البحريتين (الفرنسوية والاسبانية) الى الاميرال توشار قائد الاسطول الفرنسوى

وتناقلت الالسن ان فرنسا واسبانيا اتفقتا على انزال جنود الى طنجة فعارضت المانيا فى ذلك مخافة ان يضطر الجنود الى احتلال ولاية من الولايات المغربية لحفظ النظام

ودارت مباحثات طويلة فى ذلك الحين بين الدول ذات الشأن وقيل ايضا بان الانكليز حشدوا اسطولا فى جبل طارق للتدخل ولتأييد فرنسا عند اللزوم

وانتدب السلطان السيد الجباسى وزير حربيته فجاء على رأس قوة الى طنجه لمطاردة الاشقياء الذين كانوا يرابطون حولها وهم الذين تذرع الفرنسويون بوجودهم للتدخل وكانو يرابطون على مقربة من طنجه فنجح فى مهمته ووطد الامن والنظام فسعت المانيا عند فرنسا واسبانيا لحملهما على استرداد اسطوليهما فغادرا طنجه يوم ٢٤ يناير سنة ١٩٠٧ ماعدا بارجتين بقيتا هنالك احداهما فرنسوية والاخرى اسبانية

ولابد لنا من القول ان الدول الاوربية نالت من المخزن (حكومة المغرب الاقصى) فى خلال هذه الازمة تصريحا بتنفيذ الجزء الخاص باصلاح البوليس المغربى وتنظيمه من قرارات مؤتمر الجزيرة، فعين الفرنسويون الضباط وصف الضباط الذين يشتركون فى هذا المشروع ومثلهم فعل الاسبانيون ، واختارت الحكومة السويسرية الكولونيل موللر ليكون مفتشا عاما للبوليس

وقبل ان يحسم هذا الحادث وقع شجار فى مدينة مراكش بين طبيب فرنسوى اسمه موشان و بعض المغاربة انتهى بقتل هذا فقامت قيامة فرنسا وقعدت وعدتها احسن فرصة لتنفيذ اغراضها، وكانت قد اتمت حشد جيوشها فى مناطق الحدود واعدتها على قدم الاستعداد بقيادة الجنرال ليوتى

ونظر مجلس الوزراء الفرنسوى فى الامر وقرر فى جلسته المعقودة يوم ٢٥ مارس

سنة ١٩٠٧ وضع الانذار الآتى وابلاغه الى حكومة فاس وهو :

١ ـ عزل حاكم مدينة مراكش وسجنه فى طنجه لانه كان يحرض الاهالى على الدكتور موشان

٢ ـ يجرى قنصل فرنسا فى موغادور البحث والاستقصاء فى مراكش لمعرفة المجرمين وتحديد المسؤولية

٣ ـ معاقبة قتلة الدكتور موشان والمسيو شار بونيار وعقاب الذين اعتدوا على المسيو لاساسى جيرنكور

٤ ـ دفع غرامة تعينها الحكومة الفرنسوية عن مقتل الدكتور موشان

٥ ـ التعجيل فى تنظيم بوليس جديد طبقا لقرار مؤتمر الجزيرة

٦ ـ تنفيذ مواد الاتفاقين المعقودين بين فرنسا والمغرب سنة ١٩٠١ و ١٩٠٢ اللذين يقضيان بوضع بوليس على الحدود

٧ ـ عزل الشريف مولاى ادريس ونفيه رسميا لانه جعل همه فى موريتانيا ، مظاهرة القبائل الثائرة فى ادرار على الحكومة الفرنسوية مع ان الحكومة المغربية ارسلته لتهدئة الحالة

٨ ـ توقيف ارسال الاسلحة من حكومة المخزن الى ماء العينين

٩ ـ انجاز المطالب المختلفة التى قدمت للمخزن من زمن طويل ـ اهـ

كيف تم احتلال وجده

وفى صباح ٢٩ مارس سنة ١٩٠٧ وصل الى وجده فيلق عسكرى فرنسوى بقيادة الجنرال ليوتى فاستولى عليها بدون حادث وجاء حاكم المدينة فسلم على قائده وقال انه يستسلم لحكم الله وقضائه وقدره

ووصل الطرادان جان دارك ولالان الفرنسويان قبل ذلك بيومين الى طنجه لتأييد الحملة العسكرية وشد ازرها

وخطب المسيو بيشون وزير خارجية فرنسا يومئذ خطبة فى مجلس الشيوخ

الفرنسوى دافع فيها عن سياسة الوزارة فى المسألة المغربية وعن احتلال وجده وقال ان هنالك اعتداءات كثيرة وقعت على فرنسويين ولم نحصل فيها على ترضية كافية، ثم اورد قائمة المطالب وقد سردناها آنفا وختم خطبته داعيا اوروباكلها (وهو يعنى بذلك المانيا) الى الاتحاد لصيانة مصالح الاوربيين فى المغرب الاقصى ولاجبار اعظم امة من الامم الاسلامية توحشا واشدها تعصبا على احترامهم ؟!

قبول طلبات فرنسا والاحتجاج على الاحتلال

وفى اول ابريل ارسل وزير خارجية المغرب كتابا الى المعتمد الفرنسوى فى طنجة رد فيه على البلاغ الفرنسوى النهائى وقال فيه ان حاكم مراكش سيستبدل بآخر وان ابنه سيذهب الى طنجه للاعتذار بدلا عنه لاعتلال صحته

وقال ان حكومته قبلت ما طلبته فرنسا من ارسال قنصلها من مغادور الى مراكش لتحقيق الحادث فى مكانه وانها اصدرت امرا الى السيد الطوريسى بان يفحص المطالب الفرنسوية الاخرى

ثم ختم الوزير المغربى كتابه مظهرا الدهشة والاستغراب من احتلال الفرنسويين لوجده وقال انه اذا طال امده فقد ينتج نتائج وخيمة

منشور السلطان

واصدر السلطان عقب ذلك منشورا تلى فى الجوامع يوم ٨ ابريل جاء فيه ان قتل رعايا فرنسا هو الذى سبب احتلال وجده وانها ستجاب الى العادل من مطالبها فتدفع لها الدية مالا ورجالا. ثم اظهر اسفه لقتل الدكتور موشان وقال انه ما كان يحق لفرنسا ان تعمل ما عملته وانه يرجو ان تبادر الى اخلاء وجده حالا

فرنسا ترفضه

ورفضت فرنسا قبول التعويض الذى عرضته الحكومة المغربية وعدته غير كاف

وخطب المسيو بيشون وزير الخارجيـة في جنازة الدكتور موشان حين وصولها الى باريس « فقال ان احتـلال وجده يدوم حتى تنال الترضية التامة مهما كانت النتائج ومهما جر »

وشرع الفرنسويون في شق الطرق غـداة دخولهم الى وجـده وانشاء المباني اشارة الى طول بقائهم فيها

وفي شهر يونيو من تلك السنة زار الحاج محمد المقرى والسيد ناصر غنام دار المفوضية الفرنسوية في طنجه وابلغا السفير ان الحكومة المغربية قبلت المطالب الواردة في الانذار الفرنسوى بدون قيد ولا شرط وانها مستعدة لتنفيذها فورا وطلبا جلاء الجيش الفرنسوى عن وجده فلقيا مطلا وتسويفا وظهر ان القوم يعملون لتوسيع نطاق احتلالهم لا الى تضييقه وانهم غير مكتفين بما نالوه

١٤

الخوارج الثلاثة

ابو حمارة ـ الريسوني ـ مولاى الحفيظ

اضعف احتلال الفرنسويين لوجده مركز حكومة السلطان عبد العزيز وزاده وهنا وارتباكا واطمع اعداءها بها فقام سوق الفتن وراج وكثرت الاضطرابات الداخلية وكان للاجانب يد فى اذكائها وتوسيع نطاقها

لقد كان فى المغرب الاقصى يومئذ زعيمان كبيران يقاتلان الحكومة ويناصبانها العداء :

مولاى محمد المطالب بعرش المغرب الاقصى وكان يلقب بابى حمارة وينزل فى منطقة زلوان من بلاد الجنوب ، وقد استطاع هذا الدعى ان يخضع القسم الشمالى الشرقى من البلاد وان يجمع كتلة من المرتزقة كان يغير بهم على مراكز الحكومة لاسترداد العرش المغربى الذى كان يزعم انه صاحبه واحق به من مولاى عبد العزيز

وكان ابو حمارة هذا يعتمد على مساعدة الفرنسويين فكانوا يمدونه بالسلاح وبالمال لقتال الحكومة المغربية يؤيد ذلك اطلاق باخرة خفر السواحل المغربية النار فى سنة ١٩٠٥ على باخرة فرنسوية كانت تنزل السلاح الى ابى حمارة فى ميناء مغربى مجاور للمنطقة التى كان يعمل فيها

ودارت معارك عديدة بين قوات الحكومة وبين رجال هذا الدعى كان النصر فى اكثرها له لان قوات الاولى كانت سيئة التسليح فاقدة النظام

ونحن فى غنى عن القول ان طول امد النضال اضعف قوى الحكومة كما اضعف قوى ابى حمارة، وبعبارة اخرى اضعف قوة الامة المغربية فقتلى الفريقين هم من

ابنائها والبلاد المدمرة هى بلادها . وهكذا كان هـذا الدعى من جمـلة الادوات التى استعان بها الفرنسويون لتقويض صرح الاستقلال المغربى باسم ايصاله الى العرش. ولما بلغوا امنيتهم واستولوا على البـلاد قلبوا له ظهر المجن واعرضوا عنه ، فاختفى من المسرح وانطفأ ذكره

واما الثانى فهو الريسونى واسمه الاصلى احمـد بن محمـد بن عبد الله وهو من السادة الادارسة وسمى بالريسونى نسبة الى جدته

ظهر الريسونى فى قبائل انجرا النازلة فى جوار طنجه وجمـع حوله طائفـة من اشداء الرجال فطار اسمه وكثر التحدث عنه فعينه المخزن فى احـد المناصب الادارية هنالك فزاد ذلك فى شهرته . ثم قامت قيامة الاوربيين فى طنجه عليـه واتهموه بانه اعتدى على بعضهم واحتجوا على حكومة السلطان لضعفها وارسلوا اساطيلهم يهددون البـلاد فجهز المخزن قوة عسكرية كبيرة بقيادة السيد الجباسى وزير الحربية فجاء الى طنجه ثم سار الى مقر الريسونى فهاجمه بقواه فقاوم هذا مقاومة شديدة فى اليوم الاول ورد جيش السلطان ، ولما جن الليل غادر مقره مع رجاله واوغل فى الجبال ، فطارده الجباسى مدة اشهر فلم ينل منه منالا فعاد الى فاس فرجع الريسونى الى مقره القديم

وارسلت الحكومة المغربيـة السر هنرى ماكلين قائد جيش السلطان وهو انـكليزى لمقابلة الريسونى والتفاهم معـه فاعتقله وابقاه رهينة لديه واعلن انه لايطلقه ما لم يعينه السلطان حاكما على طنجه ويدفع فدية كبيرة عنه

وزاد اعتقال قائد جيش السلطان على هـذا المنوال ، وقد وقع بعـد احتـلال الفرنسويين لوجده فى اضعاف مركز الحكومة المغربية و بذلت وسائل كثيرة لاطلاق سراحه وتوسط شريف وزان فلم يحصل على فائدة ثم توسطت سفارة انكلترا فى طنجه واتصلت بمندوب الريسونى نفسه ودفعت مبلغا ماليا وافرا فدية عنه فاطلق سراحه وقد ظل هذا الزعيم على قيد الحياة حتى ظهر الامير محمد عبد الكريم الخطابى فاراد الاسبان استخدامه والاستعانة به فى قتاله فاسره فى سنة ١٩٢٤ ثم توفى بعد ذلك وانتهى امره

وكانه لم يكف المغرب وجود هذين الخارجيين يقطعان فى احشاء مملكتهما

و يمزقان قواها و يمهدان للاجانب سبل الاستيلاء عليها فانضم اليهما ثالث هو مولاى عبد الحفيظ بن مولاى الحسن شقيق السلطان ونائبه فى الجنوب فقد نقض هذا بيعة اخيه ، فى اشد الساعات حراجة ، ونادى بنفسه سلطانا على المغرب وشرع يجهز القوى والجند لقتال اخيه وقهره فكف هذا عن مقاومة الفرنسويين وكانوا يحتلون جانبا من بلاده ويهددون باحتلال اجزاء اخرى ، وعكف على اتخاذ الوسائل التى يتقى بها كيد اخيه وشره ، فزاد ذلك فى جرأة الفرنسويين ، ولا نشك فى ان لهم يدا فى تدبير هذه المكائد والدسائس وانهم كانوا يؤيدون الخوارج الثلاثة و يشجعونهم ، مع ما كانوا يتظاهرون به من الميل للسلطان وحكومته .

ونحن فى غنى عن القول ان الفتنة التى اوقدها الاخير كانت شر الفتن لانها شبت فى زمن دخول الفرنسويون الى البلاد ، ولان زعيمها يتمتع بنفوذ عظيم فهو ابن السلطان السابق وشقيق السلطان اللاحق وامير على الجزء الجنوبى من البلاد ، مما يجعل له مقاما ممتازا و يسهل له التغلب على اخيه وهو ما وقع فعلا ، فقد اودت فتنة هذا بعرش اخيه فحل محله ونفذ للفرنسويين كل طلباتهم ، ثم لم تلبث الفتنة ان اكتسحت عرشه فهوى بعد ما قيد بلاده بقيود العبودية وسجل اسمه فى سجل المارقين فكانت صفقته الخاسرة وكان الفرنسويون الرابحين

١٥

الفرنسويون يحتلون الدار البيضاء

تعد الدار البيضاء ثغر المغرب الاقصى الاكبر وعاصمته التجارية والاقتصادية ولذلك كانت مطمح انظار الفرنسويين ومرمى ابصارهم من الاول الى الآخر وكانت اول ثغر فكروا فى احتلاله بعد احتلال وجده

ونالت احدى الشركات الفرنسوية فى سنة ١٩٠٧ اى بعد مؤتمر الجزيرة امتيازا من الحكومة المغربية باصلاح مرفأ ذلك الثغر وانشاء حاجز للامواج و بدأت فمدت سكة حديد ضيقة لنقل الصخور والحجارة من مقلع هنالك الى الرصيف

وانكرت القبائل التى تنزل حول الدار البيضاء وهى الشاوية و بنو مظاب وزناتة ومدبونة هذا التصرف وتألف وفد من رؤسائها ذهب الى عامل المدينة (الوالى) وطلب منه الغاء المشروع وتهدد بقتل العمال الذين يعملون ان لم يعدلوا عن العمل فى خلال مدة لاتزيد عن ١٥ يوما ويتهم بعض الكتاب الاور بيين العامل بانه جسم لهم الامر بدلا من ان يخففه فخرجوا مستائين و بدلا من ان ينتظروا حتى ختام المدة التى ضربوها اوعزوا الى بعض اتباعهم فالقوا فى طريق القطار حجارة لمنع سيره ثم دخل بعضهم المدينة يوم ٢٨ يوليو سنة ١٩٠٧ مناديا بالجهاد فى سبيل الله فضربوا برتغاليا وجرحوه وانقضوا على القطار عند وصوله فقتلوا خمسة من الفرنسويين وثلاثة من الطليان وثلاثة من الاسبان واحدثوا قلقا واضطرابا فغادر اليهود والاجانب المدينة الى طنجه وحدثوا بما جرى فابحر على الفور الطراد غاليلة الى الدار البيضاء وكان مولاى الامين عم السلطان قد وصل اليها ومعه ٣٠٠ جندى فاقتحمها وقبض على عامل المدينة وقائد القبائل واخرج العرب بخدعة

واجتمع القناصل بعـد وصول الطراد الفرنسوى للنظر فى نزول الجنـود الفرنسويين الى المدينـة فعارض قنصل المانيـا بقوله انه لاخطر على الاوربيين بعد ما تراجعت القبائل : ولـكن هذه عادت فى الليل فجددت الهجوم فطلب قنصل فرنسا من مولاى الامين المحافظة على القنصلية فاجابه هذا اليك ماشئت من جنود المخزن فلم يرض بذلك بل طلب منه الاذن لخمسين جنديا فرنسويا من بحارة الطراد بالنزول الى المدينة لحراسة القنصلية فاجابه بالموافقة

ولما اشتدت حملة القبائل وكانت الجنود لم تنزل حتى تلك الساعة جاء الشريف الى القنصل وقال له : انى واحد منـكم فاحمونى واعط المدرعة الاشارة بارسال ٥٠ بحارا فقد امرت بفتح باب المرسى لدخولهم وارسلت لحراستهم فى طريقهم الى القنصلية ١٥ جنديا ينتظرونهم على الرصيف

ولما دخـل الجنود من باب المرسى قابلهم المغاربة بالنار فحملوا عليهم برؤوس الحراب وشقوا طريقا وساروا الى دار القنصلية فبلغوها بعد منتصف الليل

الضرب من البحر

وشرع الطراد الفرنسوى باطلاق النار على الاحياء العربيـة فتفرقت الجماهير وفتح باب المرسى وخرج جميع الاجانب واليهود الى البواخر

ووصل بعـد ذلك طراد اسبانى . وطراد فرنسوى ومدرعة فرنسوية واحتـل الفرنسويون المدينة وشاركهم فى الاحتلال ٧٠ جنديا اسبانيا . ثم تتابع وصول الجند والبوارج فرنسوية واسبانية حتى امتلا بالسفن والجند البحر والبر فشرعوا فى منازلة القبائل وتأديبها وشق طريق الى الداخلية فدارت معارك شديدة بين الفريقين حارب المغاربة فيها حروب الابطال

تلك هى خلاصـة حادثة الدار البيضاء وقد احسن الفرنسويون استغلالهـا واستخدامها فنشروا فى عرض اوربا وطولهـا دعاية شـديدة ضد المغاربة واتهموهم بالوحشية وسفك الدماء وارتـكاب الفظائع وكـره الاوربيين ومقتهم وقالوا انهـم فى

المغرب يؤدون واجبا انسانيا و يعملون لنشر الحضارة والمدنيـة فى بلاد تـكره الحضارة وتعاديهما وتريد ان تظل على جهلها وغرورها وتعصبها

وانضم الانـكليز الى الفرنسويين فى هـذه الحمـلة وايدوهم فنشرت الصحف الانـكليزية مقالات كثيرة حملت فيها على المغاربة وابدت اعجابها بعمـل فرنسا التى تقوم فى تأديب المغاربة « بمهمة مدنيـة » واهابت بالعالم المتمدن ان يلتف حولها و يؤيدها

ولزم الالمان الصمت ازاء ماجرى فى الدار البيضاء ولم يبدوا ولم يعيدوا وظهر فى دوائر برلين السياسية رأى جديد يقول بالتفاهم مع فرنسا ونيل تعويض منها مقابل اطلاق يدها فى المغرب الاقصى ما دامت مقاومة المانيا لاتجدى ولا تحول دون احتلالها للمغرب وما دامت مصممة على احتلاله ارادت المانيا ام ابت ووافقت ام لم توافق

١٦

المعارك حول الدار البيضاء

استبسلت قبائل الدار البيضاء فى قتال الفرنسويين الذين نزلوا الى البر وبذلت جهدا مشكورا فى نضالهم املا بان تظفر بهم وتقـــذف بهم الى البحر فتتقى شرهم فحالت مدافع الاسطول بينها و بين ادراك هـذه الامنية وكانت تشترك فى كل معركة تدور ، وتقـذف المجاهدين بقنابلها فتفتك بهم فتكا ذريعا ، وما كانوا يملكون مدفعية تكفيهم مؤونة المدفعية الفرنسوية . كما ان تتابع وصول النجدات من فرنسا عزز مركز الفرنسويين فارتدت القبائل الى اطراف المدينة ورابطت حولها فى اماكن لاتبلغها قنابل الاسطول ، واقامت تنتظر زحفهم لتنازلهم وتوقع بهم

واستمر القتال حول الدار البيضاء شهر اغسطس بطوله ودمرت المدينة تقريبا ولم يبق شئ من عمرانها القديم . وقدرت خسائر المغاربة فى هـذه المعارك باكثر من اربعة آلاف مقاتل ، اما خسارة الفرنسويين فغير معروفة بالضبط لانهم كتموها

احتلال مؤقت

وارسلت فرنسا يومئذ بلاغا رسميا الى الدول قالت فيه ان احتلال الدار البيضاء وقتى ينتهى متى استقرت الامور وسكنت الاحوال

وارسل سفير فرنسا فى طنجه مذكرة الى وزير الخارجية المغربيـة طلب منه الطلبات الآتية :

١ ـ اصدار اوامر مشددة الى العمال (الحكام الاداريين) فى الدار البيضاء

وضواحيها بان يكونوا تحت رعاية القائد الفرنسوى و يعاونوه على كسر شوكة الثائرين اذا اقتضى الحال

٢ ـ اتخاذ الوسائل الفعالة لصيانة الرعايا الفرنسويين فى فاس وداخلية البلاد

٣ ـ انجاز ماوعدت به الحكومة من التعويض فى مسألة الدكتور موشان

٤ ـ اتخاذ التدابير لاجراء الاصلاحات المتفق عليها فى مؤتمر الجزيرة

مذكرة فرنسوية اخرى

وابلغ وكلاء فرنسا السياسيون دول اتفاق الجزيرة فى شهر اغسطس ان احوال المغرب الاقصى تقتضى اجراء احتياطات اعظم من الاحتياطات التى قررها المؤتمر واكدوا من جديد ان فرنسا ستحافظ على سلطة السلطان وعلى استقلال المغرب الاقصى وتنظم البوليس فى الدار البيضاء بالاتفاق مع اسبانيا

ثم عادت فرنسا فارسلت مذكرة الى الدول نفسها ايدت فيها اقوال وكلائها وابدت عزمها الصادق على صيانة نفوذ السلطان والمحافظة على وحدة بلاده ، واعادة النظام وحرية التجارة فى الدار البيضاء ومعاقبة المحرضين وموقدى نار الفتنة وتنظيم البوليس بالاتفاق مع اسبانيا

١٧

المغاربة وحوادث الدار البيضاء

....

وصلت انباء مذابح الدار البيضاء الى فاس (عاصمة المغرب الاقصى) مكبرة ، معظمة فضج الناس لها وقاموا وقعدوا وصاحوا ويلا وثبورا ، وتنادوا الى الدفاع والجهاد فى سبيل الله لرد العدو الظالم المغير ، الذى استباح كرامة البلاد ودنس ارضها

واصدر السلطان امرا الى رئيس الوزراء بان يدعو الوزراء والعلماء ورجال الدولة وقضاة الشرع وشيوخ المذاهب والتكايا والزوايا ومجلس العرش للاجتماع وابداء رأيهم فى الحادث على موجب السنة والشريعة

وعقدت الجلسة فى موعدها المقرر فافتتحها ابن غرنبيط كبير الوزراء ثم وقف السيد عبد الكريم بن سليمان وزير الخارجية فالقى بيانا سلطانيا عن الحوادث والمشكلات التى طرأت على بلاد المغرب مع الدول الاجنبية جاء فيه :

« وبينما يهتم المخزن اشد الاهتمام ويتدبر كيفية تنفيذ المطالب الفرنسوية التى يتوقف على تنفيذها الجلاء عن مدينة وجده التى احتلتها الجنود الفرنسوية بعد مقتل الطبيب موشان فى مدينة مراكش اذا بالبريد يحمل اليوم الى جلالة مولانا امير المؤمنين ان قبائل الشاوية فى احواز الدار البيضاء قد فتكت بتسعة من الفعله الاجانب وهجمت بعد ذلك على المدينة لاخراج الروميين منها فجزع السكان لذلك وخافوا على اشيائهم وعيالهم فانتشب القتال بين الفريقين وهاج العرب عند ما رات بارجة حربية فرنسوية تقترب من المدينة ثانى الايام فاجتاحت المدينة سلبا وسبيا فاضطر ذلك البارجة المذكورة الى انزال بعض البحارة منها للمدافعة عن ديار القناصل حيث التجأ اكثر الروميين فثار لذلك سائر العرب وانصبوا على دار قنصل فرنسا

خصوصا فجعلت البارجة تقذف قنابلها على أسوار المدينة لتردع القبائل الثائرة فكثر فيها القتل والفتك واستفحل الامر على رجال المخزن فاحتلت الجنود الفرنسوية والاسبانية الدار البيضاء بعد ان مثلت بالقبائل تمثيلا فظيعا

« ولقد صدرت اوامرنا اليكم ايها العلماء خصوصا لتمدونا بما يقتضى على الامة فعله مستندين فى قولكم الى اوامر الشرع الشريف »

وقاطع قاضى القضاة الوزير ابن سليمان وقال وقد اخذته الحدة : اما وقد وصلت الحال الى هذا القدر فليس لنا سوى الجهاد فى سبيل الله ولنا فى الحديث الكريم عبرة ان كنتم مسلمين فقد ورد فيه وهو اصدق قائل « ان هذه البلاد لاتخرج من ايدى اولاد المجاهدين »

وقال التازى (وزير المالية) — علينا ان نختار من الويلين اصغرهما فان احتلال وجده والدار البيضاء ، ويل على الامة وبلاء على المغاربة امتحننا الله به بجهل الجاهلين . وارى الويل كل الويل فى النداء بالجهاد ترمون هذه الامة فى دركات الفناء وتوردونها موارد الهلاك بيد اننا لم نعرف بعد افكار اوربا فى هذا الصدد ولا اطلعنا على غاية الدولتين المشتركتين فى الاحتلال والاولى بنا ان ندرس هذا الامر ونفتش فى مذاهب الشرع ونتدبر العواقب والنتائج قبل التسرع ففى السرعة الندامة

واشتد الخلاف بين الوزير والقاضى فوقفت الجلسة ثم عقدت فى اليوم التالى وبعد مناقشة طويلة تقرر ماياتى :

١ — خروج السلطان من مدينة فاس والجولان فى بلاده ليرد الرهبة المخزنية الى قلوب القبائل

٢ — ارسال مذكرة الى الدول التى اشتركت فى مؤتمر الجزيرة لتسعى عند فرنسا لحملها على التقيد بنصوص قرارات المؤتمر

٣ — تأجيل اجراء الاصلاحات مدة ١٥ عاما لان الامة لم تتهيأ له

وفد مغربي فى طنجه

وغادر فاس الى طنجه وفد تألف من ١٢ عالما حمل الى مندوبى الدول مذكرة بالقرارات التى تقررت فى مجلس العرش وابلغهم اياها ثم عاد الى العاصمة من دون ان ينال منالا او يغير وضعا

وحال دون خروج السلطان للتجول فى البلاد طبقا لقرار مجلس العرش عدم وجود اموال فى خزينة الدولة فقد كانت خالية خاوية لاتستطيع القيام بنفقات الرحلة الملكية وتقضى التقاليد المغربية بان تكون بالغة منتهى الابهة والعظمة ، وان لا يقل موكب الملك عن ٢٠٠ الف يسيرون فى ركاب صاحب العرش اذا سار و ينزلون اذا نزل ولذلك اجلت الى فرصة اخرى اكثر ملاءمة

فتنة الحفيظ

وقبل ان تستفيق فاس من هول الصدمة التى اصابتها باحتلال الدار البيضاء فوجئت بصدمة اشد هولا وهى نقض المولى عبد الحفيظ امير المغرب الجنوبى لبيعة اخيه وشقه عصا الطاعة ومناداته بنفسه سلطانا على المغرب الاقصى فهاجت البلاد وماجت وقيل انها دسيسة اجنبية يراد بها القاء بأس المغاربة بينهم وتفريق كلمتهم فيسهل امتلاك بلادهم واستصفاء اراضيهم

١٨

بيعة المولى عبد الحفيظ

هاج المغرب وماج ، وقام وقعـد ، حينما جاءه نبأ الدار البيضاء وعرف ما فعلته قنابل الفرنسويين وحرابهم بسكانها وقبائلها فقد ارتكبوا من الاعمال ما جعل بعض احرار الفرنسويين انفسهم يشنع عليهم ويبرأ من تصرفاتهم ، وحسبك ان المسيو جوريس النائب الاشتراكي وزعيم المعارضة فى مجلس النواب الفرنسوى يومئذ حمل حملة عنيفة على جيش الاحتلال وقواده هزت المجلس هزا وزلزلت مركز الحكومة وكادت تودى بها لولا ان انصارها من اقطاب الاستعمار وشيعته التفوا حولها ولم يقصروا فى الدفاع عنها

واتجهت انظار المغاربة نحو فاس لمعرفة ماتعمله لكشف الضر والعار عن الوطن المعتدى عليه ، ولوقف الحرب الدائرة هنالك ولدفع الخطر الذى يهدد سلامة الدولة واستقلالها

لقد كان الموقف رهيبا ، والساعة من احرج الساعات ، فالفرنسويون يحتلون وجده فى الجنوب وينزلون الدار البيضاء فى الساحل ويزحفون الى الامام بدون توان عاملين على ترسيخ اقدامهم فى البلاد التى يصلون اليها ، ونطاق الاضطرابات الداخلية فى اتساع ، والخزينة فارغة ، والجيش فى حالة لا تمكنه من وقف العدو وصده . وغنى عن البيان ان احوج ماتحتاج اليه بلاد هذا شأنها هو اجتماع الكلمة، وتوحيد الصفوف لمواجهة النازلة والتغلب عليها وحل الازمة بالطرق والاساليب السياسية قبل ان يتسع نطاقها ويشتد خطرها ويصعب التغلب عليها

نعم : هذا ما كان الواجب الدينى والقومى يقضى على كل مغربى وفى مقدمة الجميع الامراء والعلماء ان يعمله فى ذلك الظرف الرهيب لانقاذ الوطن ودفع ما يحيق به من اخطار . بيد ان المولى عبد الحفيظ تغافل عن هذه الاعتبارات جميعها فنقض بيعة اخيه وشق عصا الطاعة ونادى بنفسه سلطانا على المغرب معتقدا ان الفرصة السانحة من افضل الفرص لتحقيق شهواته ونزعاته

لقد ولى السلطان عبد العزيز اخاه عبد الحفيظ وهو اكبر منه سنا ، امارة الجنوب عقب توليه العرش ، وعامله افضل معاملة وهو يرجو ان يكون له عضدا وان يشد ازره فى النوائب والملمات فكان اول الخارجين عليه ، واول من طعنه فى ظهره ، واول من عقه من ابناء ابيه واسرته

ان هنالك اتصالا وثيقا بين حادث الدار البيضاء وقد حدث يوم ٢٨ يوليو و بين حادث المناداة بالمولى عبد الحفيظ سلطانا على المغرب الاقصى يوم ١٦ اغسطس اى ان الثانى وقع بعد الاول بثمانية عشر يوما فقط ، فكأن عبد الحفيظ اراد ان يستغل فرصة النازلة الكبرى التى نزلت بوطنه ، لبناء عرش يقيمه على انقاض الكرامة الوطنية وهذا تفصيل ماجرى

علماء مدينة مراكش يخلعون السلطان

كانت هنالك صلات وثيقة بين عمال فرنسا وجواسيسها و بين المولى عبدالحفيظ امير الجنوب فكانوا يزورونه فى مدينة مراكش ويفهمونه من طرف خفى بانه احق من اخيه بالسلطنة لانه الاكبر والارشد و يقولون فى عرض الحديث انفرنسا مستعدة لتأييده وشد ازره

وحدثت حوادث الدار البيضاء ، فقام لها الرأى العام وقعد والح على الحكومة بمعالجتها ووقف الاعتداء الاجنبى فلم تستطع ان تعمل عملا ايجابيا فنفر الناس منها فزاد

ذلك فى ضعفها وعجزها . واعتقد المولى عبد الحفيظ بان الفرصة السانحة هى خير فرصة يتوسل بها لنيل اوطاره ، ولضرب اخيه الضربة الكبرى واسقاطه والحلول محله، فارسل فدعا اشراف مراكش وعلماءها واعيانها الى اجتماع عام فلما ادخلوا عليه ، حادثهم فى امر النازلة التى نزلت بالبلاد وتظاهر بالغيرة والحماسة وتخلص من ذلك الى الطعن فى اخيه واتهمه بالتواطئ مع الاجانب و بيع البلاد لهم وسألهم ان يفتوه فى امره وهل تجب له طاعة بعد ما ظهر من امره ام لا ؟ وهل يجب على المسلمين ان يختاروا لهم سلطانا غيره ، يحمى البلاد و يدافع عنها

ولما كانت الفتوى على قدر النص رد العلماء على الامير فافتوا بان عبد العزيز اساء التصرف وسلك خطة غير محمودة العواقب ومن اجل هذا يعد انزاله عن العرش امرا مشروعا اقتضته المصلحة لدفع الخطر الذى يهدد الاسلام وابداله بسلطان كفء وهذا نص الفتوى :

« يجب على الرعية طاعة السلطان مادام يسير فى احكامه على موجب الشرع الشريف ساعيا وراء مصالح الامة والبلاد ، والشريعة تقول بخلعه ان بدا منه خلاف ذلك فمولاى عبد العزيز ووزارته المخزنية قد ضيعت حقوق الامة وباعت مصالح المسلمين للكفرة وعليه وجب خلعه وابداله بسلطان يتولى شؤون المسلمين »

بيعة عبد الحفيظ

وخطا عبد الحفيظ الخطوة الثانية فسعى لحمل العلماء والامراء على بيعته بالسلطنة بدلا من اخيه ، بعد ما افتوا بخلع هذا ، وجرت البيعة فعلا ، فى مدينة مراكش نفسها يوم الجمعة ٥ رجب سنة ١٣٢٥ و ١٦ اغسطس سنة ١٩٠٧ ونودى بالمولى عبد الحفيظ سلطانا على المغرب الاقصى بدلا من اخيه الذى عد مخلوعا

وانشأ السلطان الجديد حكومة على الفور فعين للداخلية القائد الكندافى

وللخارجية الفقيه التازى وللحربية القائد الجلاوى واختار حاشيته و بطانته من الرجال الذين كانوا ملتفين حوله

ابلاغ الخبر الى اخيه

وكتب المولى عبد الحفيظ الى رجال القبائل بما تم ودعاهم الى الدخول فى طاعته ثم كتب الى اخيه عبد العزيز كتابا هذا نصه :

« بحول الله وحسن ظن الناس بنا قد اجمع علماؤنا وقضاتنا على مبايعتنا للقيام بمصلحة المسلمين فان صادقت على ذلك كنت العزيز وان كابرت اضطررتنا ان نسوق اليك وننزل عليك بخيلنا ورجلنا والسلام »

فتوى علماء فاس

ولما وصلت اخبار ماحدث فى مراكش الى فاس دعا السلطان عبد العزيز العلماء والاشراف الى الاجتماع فلما اجتمعوا اخبرهم بما كان من اخيه وطلب اليهم ان يفتوه فاصدروا الفتوى الآتية :

« ان مولاى عبد الحفيظ مغتصب يريد السلطنة بدون موجب شرعى فيعد بحسب الشرع عدوا لله ولرسوله تجب محاربته على المسلمين »

وطبعت هذه الفتوى ووزعت فى المدن والامصار وتليت فى جوامع البلاد التى ظلت على الولاء للحكومة المخزنيـة ومساجدها كما تليت الفتوى الخاصة بخلع السلطان عبد العزيز فى المساجد والبلدان التى دخلت فى طاعة الحكومة الحفيظية الجديدة وجوامعها وهكذا كانت هنالك فتويان متناقضتان احـداهما من علماء مراكش والاخرى من علماء فاس وهما قدوة اهل المغرب وموضع ثقتهما واحترامهما فلا بدع اذا احـدث صدورهما قلقا واضطرابا وزاد الموقف تعقيدا وتشويشا وجعل الناس حيارى

لايعرفون باى فتوى يأخذون ولا على اى قول يعولون . وهنالك فريق من الباحثين
فى القضية المغربية يعد علماء المدينتين مسؤولين ادبيا وماديا عما حل ببلادهم بتفريظهم
وتهاونهم فقـــد جعلوا انفسهم اداة بيد السياسـة فاستخدمتهم للاضرار بقضية امتهم
وتوسلت بهم لتنفيذ أغراضها

١٩

بيعة الاخوين

رأى الفرنسويون فى الخلاف الذى شجر بين الاخوين، وشغل المغاربة عن كل ماعداه ، فرصة لتوسيع نطاق نفوذهم ، وترسيخ اقدامهم ، فتظاهروا بالوقوف على الحياد التام واعلنوا انهم لا ينصرون فريقا على فريق بل يعدون النزاع الدائر على العرش مسألة داخلية تختص بالمغاربة انفسهم فايهما فاز والتفت الامة حوله وايدته فهو السلطان الشرعى الذى يتصلون به و يعترفون بسلطنته ، فاخذ كل منهما يسعى للتقرب من فرنسا وخطب ودها ، ويعمل لكى تؤيده وتقف الى جانبه وتنصره على اخيه باذلا كل مايطلب منه بذله من حقوق البلاد وكرامتها ومصالحها فى سبيل مصالحه الشخصية

ونحن نذكر هنا بايجاز ما فعله كل منهما فى تلك الفترة :

١ — مساعى عبد الحفيظ

كان اول ما عمله السلطان الجديد بعد ما اخذ بيعة المراكشيين كتابه الى اخواله زعماء قبائل الشاوية ، وكانوا يقاتلون الفرنسويين حول الدار البيضاء ، ويحاربونهم حربا عوانا ، يطلب منهم ان يخلدوا الى السكينة ويكفوا عن القتال ويسعوا للتفاهم مع فرنسا ويقول ان ذلك خير لهم وابقى فلباه بعضهم ونبذ اقوله الآخرون

كتابه الى معتمدى الدول

واعلن السلطان الجديد فى كتابه الى معتمدى الدول فى طنجه بانه يحترم جميع المعاهدات التى عقدها والده مولاى الحسن مع الدول الاوربية ويعد بتنفيذها وقال ما نصه :

« انه نظرا الى التقصير الذى بدى من السلطان ومخزنه فى فاس فقد ارتأت الرعية كما يفرض عليها الشرع وتقضى به السنة المحمدية ان تنادى بى سلطانا على جميع المغرب الاقصى الامر الذى ارجو من السفراء ابلاغه الى دولهم لقضاء جميع علاقاتها مع حكومتى وحدها »

ثم طلب من الدول ان تظل على الحياد فى النضال الدائر بينه و بين اخيه حتى اذا استقام الامر لاحدهما عمل على اصلاح البلاد وانهاء المسائل الدولية الخاصة والمختلطة

وفوده الى اوربا

وارسل على الاثر وفدا قوامه اثنين من انصاره لزيارة عواصم الدول الكبرى المتصلة بشؤون المغرب وهى انكلترا وفرنسا والمانيا واقناعها بالاعتراف به فوصل الوفد الى ميناء بليموث فى انكلترا يوم ١١ اكتوبر سنة ١٩٠٨ وسافر الى لندن فاعلنت وزارة الخارجية البريطانية انها غير مستعدة لاستقباله لعدم وجود صفة شرعية له

وقوبل الوفد بمثل ذلك فى المانيا فقد اقفلت الابواب فى وجهه . اما فى باريس فقد ابلغ بان عليه ان يعود الى المغرب الاقصى وان يتصل بولاة الامور هنالك فعاد خائبا

ولم يفت ماجرى فى عضده فالف وفدين آخرين ارسلهما الى اوربا للمرة الثانية فى شهر ابريل من سنة ١٩٠٩ اى بعد انقضاء ستة اشهر على زيارة الوفد الاول فقصد احدهما برلين واتصل بوزارة الخارجية الالمانية ففتحت له الابواب طبقا لخطة مرسومة

واستقبله البارون لنجورت سكرتير المفوضية الالمانية فى طنجه باسم الحكومة الالمانية فتكلم الوفد قائلا : ان مولاى عبد الحفيظ صار سيد البلاد المغربية وان على المانيا ان تفعل ما يقتضى فعله لضمان جلاء الفرنسويين عن تلك البلاد فرد عليه البارون قائلا: ان الحكومة الالمانيـة سترى اذا كانت بلاغتهما تقتضى مفاوضة فرنسا و باقى الدول التى وقعت انفاق الجزيرة اذ الحكومة الالمانيـة ساعية فى المحافظة على قرارات ذلك الانفاق كما هو معلوم . وهى تتمنى ان يعود النظام الى المغرب قبل كل شىء وذلك لا يكون الا بالكف عن المنازعات الاهلية »

وارسلت الحكومة الالمانيـة تبلغ امر هذه المقابلة الى سفيرها فى باريس وتطلعه على مادار فيها ، فلم ينل ذلك ارتياح الفرنسويين وانتقدته صحافتهم وعدته تدخلا من المانيا فى شؤون المغرب الداخلية غير محمود العواقب

وسلك الوفد الحفيظى الذى قصد باريس خطة اخرى تختلف عن خطة زميله الذى قصد برلين فاخـذ يتملق الفرنسويين و يتحبب اليهم و يظهر رغبة سيده فى الانفاق والتعاون معهم ، ولم يشر الى مسألة الجـلاء ولم ترد على لسانه ، وقد انتقدت احدى صحف باريس هذا التناقض المشين فى خطط الوفدين : وفد برلين ووفد باريس وعابته على المغاربة

وابى رجال فرنسا الرسميون استقبال الوفد فترك كتابا وجهه الى رئيس الجمهورية فى وصف مهمته ثم عاد الى المغرب صفر اليدين بسبب اصرار فرنسا على عدم الاعتراف بالسلطان الجديد ، رغبة منها فى الحصول على اكبر مايمكن الحصول عليه منه

وآلم ماجرى المولى عبد الحفيظ وعرف ان الفرنسويين يعبثون به وان مساعيه بالتقرب منهم وخطب ودهم ذاهبة ادراج الرياح فارسل الى معتمدى الدول فى طنجة البلاغ الآتى :

انى اخاطبكم الآن باسم الشعب المغربى الذى يتألم مما حل ببيوته من الخراب والآفات، وما اصاب اهله وذويه من الرزايا والنكبات . فهو يتألم لان مامنى به لاينطبق

على قواعد العـــدل فى العالم كله ولا على المعاهدات الدوليـــة المعروفة . وهو لم يعامل الاور بيين بالعسف والجور ولا فسح لدولة من الدول مجالا للتعرض لشؤوننا

فانا اوجه انظاركم الآن الى هذه الضربة الهائلة التى يشكو الشعب المغربى منها معولا فى انصافه عـلى ما اشتهر عنكم من حرية الضمير واحترامكم للحقيقة . ولعمرى لا ادرى كيف يسعكم السكوت عما حدث فى هذه البلاد ولا يزال يحدث حتى الآن . فان ابنـاء قومكم استوطنوا بين ظهرانينا وشاركونا فى تجارة بلادنا فصادقناهم ومددنا ايدينا الى مصالحتهم لاعتقادنا انهم لايقصـــدون اغتصاب اراضينا وقد عاملناهم على موجب ما تقضى به معاهـدة مدريد الحاوية لشروط سكناهم فى المغرب ولم نجحف بشىء من حقوقهم

قد سمعتم بما شاع عن المناداة بالجهاد وانا اقول لكم ان الغرض من هـــذه المناداة لم يكن الا لتسكين ماجاش فى نفوس المغاربة من السخط على الاجانب لانهم اغتصبوا ارضنا واحتلوا بلادنا وحاولوا ازالة مانحترمه من تقاليدنا وعاداتنا على ان جل ما اشتهيه هو اعادة الراحة لشعبى وحملهم على اجتناب الفتن والحروب

ان مقصد الجنود الذين يحتـــلون الدار البيضاء بدعوى نشر السلام وحماية الاجانب هو مقصدى وغايتهم منتهى املى لان الواجب يقضى على باعادة مياه السكينة الى مجاريها فى انحاء المغرب كله ، و بعبارة اخرى انى مسؤول بحماية المسلمين والاجانب معا والذود عن املاكهم والدفاع عن ارواحهم فانا لا اطلب الا ان يجرى العـدل فى مجراه فتؤمر تلك الجنود بالجـــلاء عن الدار البيضاء وتغادرها لاصحابها الشرعيين الذين توارثوها عن الآباء والاجداد فاذا جـلوا عنها فلا يخشى من حدوث فتنة او نشوب حرب على الاطلاق واذا اصروا على البقاء فيها فاؤكد لكم ان السلام ضرب من المستحيل

وقد راقبتم مجرى الاحوال مدة ستة اشهر فهل قابلتم فى اثنـاء ذلك بين الدار البيضاء وغيرها من المدن التى لم يتعرض الاور بيون لهـا ولا احتلوا ارضها . اولم تروا الاجانب والوطنيين فى هـذه المدن على سلام ووئام بخـلاف ما ترونهم عليه فى الدار

البيضاء وجوارها . فالشعب المغربى لايروقه ذلك الاحتلال ولا يرضى بتلك المعاملة وكل عاقل فى الامة الفرنسوية يدرك هذه الحقيقة ولكنه لا يستطيع معالجة هذا الداء

اما الفرنسويون الذين يتهموننا باننا نكره الاوربيين فاقوالهم زور وبهتان لان اعمالنا تشهد باننا لسنا كما يقول هؤلاء المرجفون الذين يلفقون احاديث ويذيعون اشاعات لاتخرج عن حد الوساوس والاوهام

فانا اسألكم الآن سؤالا واؤمل ان تجيبونى عليه جوابا صريحا وهو : اى قانون دولى مختلط يخول التدخل بالسلاح بين الامة المغربية وسلطانها الذى خلعته عن العرش . هذا هو سؤالى ولا شك ان جوابكم عليه سيكون مقرونا بالنظر الدقيق فى معنى العدل واصوله اه

٢ — سعى السلطان عبد العزيز

ولم يقصر السلطان عبد العزيز من ناحيته فى اتخاذ ما رآه ضروريا من التدابير للاحتفاظ بعرشه والتغلب على اخيه والتخلص من مزاحمته ومنافسته وكانت الاستعانة بالفرنسويين اول ماخطر بباله لانهم قادرون بما يملكونه من قوى ووسائل ومال على انقاذه وتثبيت دعائم العرش المضطرب

الاستعانة بالعلماء ومسألة الجهاد

وارسل السلطان لجمع علماء فاس وطرح عليهم السؤالين الآتيين :

س — هل يجب على الامام ان ينادى بالجهاد فى مثل هذه الظروف الحاضرة ؟ وهل يستوجب احتلال الدار البيضاء ووجده اعلان الجهاد ؟

ج — لايجوز المناداة بالجهاد مالم يتعد الكفرة حدود المسلمين او ينقصوها او يتحاملوا على الدين القويم ، ولا يعد احتلال وجده والدار البيضاء من نوع الاغتصاب لانه احتلال وقتى وهو ضمان لبعض مطالب المخزن ، حتى اذا قام بها رجعت الى البلاد

على ان السلطان اذا اراد ان يدعو الناس الى الجهاد فذلك له لان طاعته واجبة عليهم بموجب البيعة التى له فى رقابهم

س ـ ماذا يعد مركز عبد الحفيظ بالنسبة لأخيه المعروف عند المغاربة بامير المؤمنين

ج ـ ان المولى عبد الحفيظ مغتصب يريد السلطنة بدون مبرر شرعى

الخروج الى رباط

ورأى السلطان ان الاعتماد على الفتاوى وحده لا يكفيه ولا يغنيه وانه لابد له من مضاعفة العمل والنشاط فازمع الخروج الى رباط الفتح وتعد من مراكز المواصلات الكبرى فى المغرب وتقع فى منتصف الطريق بين فاس ومراكش وتفصل بين شمالى المغرب وجنوبيه وذلك ليهدد اخيه ويحول دون اتساع نطاق حركته

وفى يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩٠٧ غادر العاصمة ومعه عشرة آلاف من اتباعه الى رباط فبلغها يوم ٢٢ منه فاستقر فيها ، وعكف على نشر دعايته، وتجهيز الحملات واعداد القوى لقتال انصار اخيه الذين كانوا يغيرون على البلاد ويخضعونها الواحدة بعد الاخرى

اتصاله بالفرنسويين

وارسل السلطان الى طنجه يطلب من المسيو رينولت وزير فرنسا المفوض ان يزوره فسافر بحرا الى الرباط وقضى اياما فى ضيافته ومع ان ما دار بينهما ظل مجهولا فلم يعلن عنه شىء الا ان المفهوم هو ان السلطان طلب من الوزير ان تساعده فرنسا لكبح جماح اخيه ، وتعقد له قرضا ماليا فى اسواقها لتجهيز الجيوش والقوى والاستعانة بها فى قتاله فوعده بذلك ولكنه لم يف فاضطر السلطان الى ارسال مجوهراته وحلاه لبيعها فى اسواق باريس فدفع التجار فيها ثمنا بخسا فعاد بها الذين حملوها

وغادر الوزير الفرنسوى رباط الفتح الى طنجه بعد ما اقام مدة تسعة ايام فى

ضيافة السلطان ومنها ركب البحر الى فرنسا فاتصل بوزارة الخارجية وحضر اجتماعات عقدها مجلس الوزراء يومئذ لبحث المسألة المغربية لم تحقق للسلطان عبدالعزيز ما يطلبه فقد اكتفت فرنسا بالاعلان بانها لاتزال تعترف به سلطانا على المغرب الاقصى وقالت انها تأبى التدخل بقوة السلاح بين الاخوين

وقيل يومئذ ان وزير فرنسا اقترح على السلطان عبدالعزيز فى اثناء اجتماعهما فى رباط ابدال رئيس الوزراء السيد فضول بن غرنبيط والحاج محمد الطوريسى وزير الخارجية بغيرهما لانهما معروفان بعدم الميل الى فرنسا فابدلهما بسواهما من المعروفين بالاتصال بها والعطف عليها كما ابدل غيرهما من كبار الموظفين لهذه الغاية

منشور سلطانى الى اهل طنجه

وارسل السلطان عقب وصوله الى طنجة الكتاب الآتى ليتلى على منابرها وهى عادة مغربية قديمة قال :

الحمد لله وحده

كتاب شريف ، مولوى نيف

خليفة وصيفنا الارضى ، القائد قدور بن الغازى بطنجه ، وفقك الله ، وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته

وبعد فاننا بعناية الله لما حللنا رباط الفتح بخير وسلامة ، وتواصل اسباب اليمن والعز والكرامة ، صرفنا الهمة الى اصلاح الامور المتعلقة بقبائل الحوز ، معتمدين على الله فى النجاح والفوز ، فابتدأنا بتوجيه مدد وافر من العسكر السعيد لثغر الصويرة بقصد عمارتها وصيانتها عن تخلل رياح الفساد والضلال ، وحراسة حماها من طوارق المحال ، وولينا بالثغر المذكور وصيفنا الافلح ، القائد قدور بن الغازى، لنجدته ، وحزمه وصرامته ، والقينا اليه الزمام ، فى حفظ ذلك النظام ، وان اهل الصويرة لم تستفزهم الرياح الوخيمة ، ولم يعدلوا فى سمعهم وطاعتهم وتمسكهم بحبل الاستقامة على المناهج المستقيمة ، وكلهم على كلمة واحدة فى دفاع المفسدين من بلادهم وبقائها مطهرة من دنس تنطعهم وعنادهم

وكذلك خديمنا الانجد ، القائد احمد انفلوس ، الحامى على مذهبه فى الطاعة ، وملازمة الجماعة ، وهو على استعداد كامل لضرب الحزب الفاسد ان حام فى حمى تلك البلاد ، او ظهر له اثر فى هضاب منها او وهاد

واهل سوس قاطبة لم يخلعوا يدا من طاعة ، ولا زالوا متمسكين بحبل الاستقامة ومتابعة اهل الجماعة ، ولم يلتفتوا الى شقاوة اهل الثورة المراكشية ، ولم تعمل فيهم عوامل تلك الزخاريف التى هى بالبهتان موشية ، وما زالوا على عهد طاعتهم عاضين بالنواجز ، متبرئين من كل مكابر ومعاند

وكبراء ذلك الصقع جميعا كالمرابط ولد الحسين والهاشم ونحوه من الاعيان كلهم يتبرأون من تلك الدعوى الباطلة فى السر والاعلان

ثم وجهنا محلة (حملة) صغيرة من الجيوش والعساكر والقبائل صحبة خديمنا القائد محمد بن البغدادى للربط بها فى وسط القبائل الشكادية مقدمة لمباشرة الامور مع اهلها بالوجوه الناجحة ، والمساعى الصالحة ، والانتقام من اهل الفساد على الاطلاق

ثم اردفناها بحملة اخرى على ذلك الخط فى الاستعداد صحبة عمنا مولاى عبدالمالك للربط بمديونة ردءا للاولى وعززناها باخرى على طريق اولاد ازمور من العسكر والقبائل صحبة ابن عمنا مولاى عبد القادر بن سليمان . ونحن قائمون على ساق فى استطلاع الامور بقدر الامكان والله المستعان

وكذلك قضية الدار البيضاء واقعة المباشرة فيها مع قضية وجده على الوجوه الكفيلة بنجاح العمل و بلوغ الامل . واعلمنا كم لتكونوا على بصيرة من حقائق الامور وتسروا بتيسير الله وتبتهج منكم القلوب وتنشرح الصدور، وتعلموا ان الله مجد عبده على ماعوده من تأييده ونصره ، وتذليل الصعاب له وتيسير امره فهو حسبى ونعم الوكيل والكافى فى الحقير والجليل والسلام

فى ٢٣ رمضان المعظم سنة ١٣٢٥ (٣٠ اكتوبر سنة ١٩٠٧)

الاستعانة بالمانيا

وكان من جملة ما فكر فيه السلطان عبد العزيز ان يستعين فى محنته باصدقائه الالمان و يسألهم ان يساعدوه رعاية لما بينه و بينهم من مودة ، فخيبوا ظنونه وآماله و بلغ الامر بوزيرهم انه ابى ان يزوره حينما طلب اليه ذلك

و بيان ما وقع ان ابن سليمان ابلغ يوم ٣ اكتوبر سنة ١٩٠٧ قنصل المانيا فى رباط بان يكتب الى وزير دولته المفوض فى طنجه بان السلطان يرغب فى مقابلته فى رباط

وذهب القنصل فقابل السلطان بالذات يوم ٨ منه فاعرب عن رغبته القصوى فى رؤية الوزير والح عليه بان يكتب اليه فكتب فعلا ولكنه لم يتلق جوابا

وانقضت الاسابيع ولم يصل الوزير ولم يعتذر فزار ابن سليمان يوم ١٦ يناير سنة ١٩٠٨ قنصل المانيا وكلفه ان يبلغ حكومته الرسالة الآتية :

« ان جلالة السلطان يؤمل من صديقته حكومة المانيا ان تحتج على عمل فرنسا فى المغرب الاقصى لمناقضته لماجاء فى عقد الجزيرة . ومما يقوى هذا الامل فى نفس السلطان ركونه الى ماجاهر به جلالة امبراطور المانيا فى اثناء زيارته لطنجه »

وفى يوم ٢١ منه ردت وزارة الخارجية الالمانية على هذه الرسالة بمايأتى :

« ان فرنسا وعدت الحكومة الالمانية وعدا قاطعا بان تحافظ على حدود عقد الجزيرة محافظة دقيقة فلا تتجاوزها ولا تخل بها

« فاذا كانت حكومة المغرب تعتقد غير ذلك واستطاعت ان تبرهن على صحة اعتقادها ففى وسعها ان توجه انظار الدول التى وقعت ذلك العقد الى ماتبينه من تجاوز فرنسا لحقوقها والا فكل قول باخلال فرنسا لعقد الجزيرة يذهب سدى

« اما ان تنبرى المانيا الآن وتنفرد بالعمل فذلك ما يستحيل عليها لان عقد الجزيرة قيدها كما قيد سواها . على انها مع كل ذلك تعرض شكوى الحكومة المغربية

على الحكومة الفرنسوية وزد على ذلك فان السلطان عبد العزيز نفسه اعرب عن استحسانه لما تقرر فى مؤتمر الجزيرة ووافق عليه »

النضال بين الفريقين

و بينما كان الاخوان يعملان هــذه الاعمال فى الميدان السياسى كان انصارهما يتنازلان فى الميدان العسكرى وقد دارت بينهما معارك ذات شأن نصفها فى ما يأتى :

٢٠

تعليمات فرنسوية جديدة

لم يصرف النزاع الدائر فى داخلية البلاد قبائل الدار البيضاء عن منازلة الفرنسويين وعن قتالهم رغبة فى التخلص منهم واجلائهم عن الوطن ، فدارت بين الفريقين معارك كثيرة بيعت فيها الارواح بيع السماح وخسر الفريقان فيها آلاف القتلى

وواصلت فرنسا ارسال الجند والنجدات الى الدار البيضاء وعينت الجنرال دريد قائدا عاما لها فقاتله المجاهدون وهزموه فى بعض المعارك فاستبدلته بالجنرال داماد وخولته سلطة واسعة فوصل الى الدار البيضاء يوم ٦ يناير سنة ١٩٠٨ وتولى العمل فدارت بينه و بين المغاربة معارك شديدة . وفى يوم ٢٧ مايو تلقى من حكومته التعليمات الآتية :

« بعثت الحكومة الى سلفكم بعد الحوادث التى حدثت فى الدار البيضاء فى ٣٠ يوليو الماضى باوامر كررتها عليكم وكان الغرض منها اعادة النظام الى الدار البيضاء ، ومعاقبة القبائل التى تثبت المسؤولية عليها فى الجرائم التى ارتكبت فيها

« وما كادت هذه المسألة تتم حتى ظهرت مسألة مولاى عبد الحفيظ الذى اخذ يتعرض لشؤون قبائل الشاوية ثم حدثت فتنة فاس فازدادت الحالة بذلك تعقدا وارتباكا وجعلت القبائل تثور فى جوار بلاد الجزائر . وكان مولاى عبد الحفيظ اعظم عقبة فى سبيل اعادتنا للسكينة فى بلاد الشاوية فكان يدير حركة التعصب على الاجانب ويذكى نار العداوة والبغضاء ضدهم ولم نكن نلقى مقاومة تذكر الا حيث كان انصاره يقاتلوننا فاضطررتم ان تقوموا باعمال حربية متواصلة لاخماد ثورتهم وتظهروا بسرعة

حركاتكم وادراككم الاعداء مهما بعدت المسافات التى تفصل بينكم وبينهم مقدار قوتكم فمهدتم السبيل لادخال مايراد ادخاله من النظام

« فالذى يلزم الآن هو ارجاع الاحوال فى بلاد الشاوية الى مجاريها الطبيعية واعادة الترتيب والنظام تدريجيا بتعزيز السلطة المحلية فان الجرائم التى ارتكبت فى شهر يوليو كان سببها الفوضى السائدة فاذا ألفت حكومة وطنية منظمة عادت بالخير على هذه المقاطعة التى يرجى ان تنمو التجارة الاوربية فيها نموا زاهرا . والمأمول ان تحقق هذه النتيجة قريبا وسنستمر على جعل احتلالنا موقتا ومقتصرا على ما تقضى به الضرورة وسترجع جنودنا حالما يمكن ذلك من غير ان يحدث ما يخل بالامن العام او يثير مشاكل جديدة تقضى برجوعنا الى المغرب

« ولابد لنا لنيل هذه الغاية من ايجاد الثقة والطمأنينة فى قلوب الاهالى واقناعهم بوجوب المحافظة على مصالحهم المادية وترقيتها بالاخلاد الى السكينة والنظام

« ويجب وضع فصائل من الجنود فى اماكن مختلفة من بلاد الشاوية وقد فعلتم ذلك فيجب ان ننتظر معاونة الموظفين الوطنيين لنا فى عملنا ويجب على الحكومة المغربية ان تختارهم من ذوى الكفاءة وتوسع لهم نطاق السلطة

« وينبغى ايضا انشاء قوات عسكرية من رجال الشاوية يعتمد عليهم فى مسائل الدفاع وفى المساعدة على حفظ الامن وتكون مراكزهم فى الاماكن التى يقيم فيها رجال الحكومة المحلية حتى يقوى بذلك نفوذهم ومتى ثبت ان هذا النظام واف بالمراد تأخذ جنودنا فى الجلاء شيئا فشيئا »

مواصلة ارسال النجدات

ورغم ابلاغ هذه التعليمات وقد اريد بها تسكين الهياج الذى ظهر فى المانيا وارسلت نسخة منها اليها لتطمينها فان فرنسا واصلت ارسال الجيوش والنجدات الى المغرب الاقصى وعكفت على توسيع نطاق احتلالها غير مقيمة وزنا لاحتجاجات

المغاربة ولا ملتفتة لاقوال الصحف الالمانية التى كانت تواصل الحملة عليها وتتهمها بنقض اتفاق الجزيرة

ووقع فى اثناء ذلك خلاف بين الفرنسويين والاسبان فقد عارض هؤلاء فى توسيع نطاق الاحتلال الفرنسوى بالمغرب لمخالفته لاتفاق الجزيرة وانتهى الامر بموافقة فرنسا على احتلال اسبانيا لبعض الاجزاء التى كانت تطمع فيها فانزلت جندها فى مليلا يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٠٧ فكان ذلك فاتحة تدخلها الفعلى فى شؤون تلك البلاد وهو التدخل الذى انتج اشأم النتائج

٢١

المعركة الفاصلة

نشط الحفيظيون نشاطا ظاهرا فى خلال تلك الفترة فنشروا فى المدن والامصار و بين القبائل والبوادى دعاية واسعة النطاق مدارها ان عبد العزيز باع البلاد للاجانب وان عبد الحفيظ نهض لاسترجاعها منهم والجهاد فيهم كما نازلوا العزيزيين فى معارك عدة وانتصروا عليهم واستولوا على مكناسة وعلى العرايش وغيرها من المدن المغربية مستعينين على ذلك بسواد الشعب الذى انفض من حول عبد العزيز وانضم اليهم ومالأهم

ومشى الحفيظيون من نصر الى نصر حتى استولوا على فاس عاصمة الدولة ومعقل العزيزيين بمساعدة اهل فاس انفسهم ، فقد ثاروا على السلطان وهو غائب وخلعوه ونادوا باخيه . وبيان ما حدث ان العلماء والاعيان اجتمعوا فى منزل مولاى ادريس فى خلال الاسبوع الاول من شهر يناير سنة ١٩٠٨ فاتفقوا على ابطال الخطبة باسم مولاى عبد العزيز ثم حرروا رسالة وجهوها اليه وقالوا فيها بان خلعه وجب شرعا لانه خالف الشرع بتنازله عن كثير من الاراضى المغربية للفرنسويين ولذلك خلعوه

ثم امروا ١٥٠٠ جندى باحتلال الحصون وطاف المنادون فى مدينة فاس يعلنون خلع عبد العزيز و بيعة عبد الحفيظ

واشترط علماء فاس فى كتاب بيعة عبد الحفيظ الشروط الآتية :

١ ـ الغاء بنك الحكومة

٢ ـ استرجاع البلاد التى استولى عليها الفرنسويون

٣ ـ تحريم الحماية الاجنبية

٤ ـ الغاء صك الجزيرة

٥ ـ حل مسألة الحدود بين فرنسا والمغرب بما يصون كرامة المغرب ويحفظ حقوقه

ووصلت اخبار ماجرى فى مدينة فاس الى عبد الحفيظ فنشطته وشددت عزيمته فازمع السفر اليها لتسلمها ودخلها يوم السبت ٦ يونيو سنة ١٩٠٨ (٧ جمادى الاولى سنة ١٣٢٤) باحتفال عظيم وابهة زائدة فقد خرج اهلها لاستقباله واحتفوا به فسار توا الى قصر الحكم واستقر فيه

عبد العزيز يزحف على مراكش

ونحن فى غنى عن القول ان انتقاض فاس على السلطان عبد العزيز وخروجها عليه وانضمامها الى اخيه اضعفه كثيرا واحرج مركزه فازداد استسلاما للفرنسويين وانقيادا اليهم املا بان يساعدوه فى استعادة نفوذه

ورأى بعد طول تفكير وانتظار ان خير مايفعله هو ان يسير الى مدينة مراكش عاصمة اخيه ومباءة عزه فيغزوها ويستولى عليها كما استولى على عاصمته، فيتم التعادل

وغادر عبد العزيز مدينة رباط الفتح يوم ١٢ يوليو سنة ١٩٠٨ يقود جيشا يتألف من ٥٠٠٠ مقاتل بلغت نفقات اعداده وتجهيزه نحو نصف مليون ريال بذلها الفرنسويون فزحف بدون عناء حتى اصبح على بعد ٥٠ كيلو مترا من مراكش فبيته الحفيظيون وكانوا على استعداد للقائه وهزموه هزيمة شنعاء ختم بها العهد العزيزى وانطوى امره

ويقول الذين شهدوا هذه المعركة ان الجيش العزيزى واصل تقدمه حتى بلغ مكانا اسمه سيدى رحال فحط رحاله فيه ليقضى ليلته وذلك ليلة ١٩ اغسطس سنة ١٩٠٨ فبيته الحفيظيون فى الساعة الثالثة والنصف بعد نصف الليل واخذوه على غرة فاوقعوا

الاضطراب فى صفوفه ففر فرسان الشاوية وكانوا فى المقدمة ، فزاد انهزامهم فى الاضطراب فتفرق الجيش شذر مذر وتخلى عن عبد العزيز انصاره ورجاله وخذلوه ماعدا احد رجال المدفعية فقد ثبت فى الميدان ووالى اطلاق مدفعه على المهاجمين فتكاثروا عليه وقتلوه ويزعم بعض الرواة ان فرسان الشاوية الذين كانوا فى المقدمة والذين اوقع انهزامهم وارتدادهم بدون حرب الاضطراب فى صفوفه ، كانوا على اتفاق مع الحفيظيين الذين استمالوهم اليهم

وتعد معركة سيدى رحال هذه من المعارك التاريخية الفاصلة فقد ختم بها عهد عبد العزيز وفتح بها عهد عبد الحفيظ

٢٢

مشكلة سياسية جديدة

خرج عبد العزيز من المعركة سالما فلجأ ومعه بعض رجاله الى « ستات » التى يحتلها الفرنسويون ثم غادرها الى الدار البيضاء فاقام قرب الجنرال داماد معلنا عزمه على التنازل عن الملك والرضاء بما قسم له

واسرعت الحكومة الالمانية فامرت الهر فاسل قنصلها فى فاس ، وكان يقيم مع قناصل الدول الآخرين فى طنجة - بان يسافر الى فاس فيحمل الى السلطان نبأ اعترافها بدولته كما ارسلت مذكرة الى الدول تقترح فيها الاسراع بالاعتراف بالحكم الحفيظى لانه الوسيلة الوحيدة لاقرار السلام فى المغرب الاقصى وارضاء الشعب المغربى الذى التف حول السلطان و بايعه وارتضاه

ولا بد لنا من القول ان الصحافة الالمانية وقفت من الاول الى الآخر الى جانب الدعوة الحفيظية وايدتها لاعتقادها انها موجهة ضد فرنسا وضد احتلالها فقد كان الحفيظيون ينادون بانهم ماقاموا ولا نهضوا الا لتحرير البلاد وانقاذها ، وطرد المحتلين منها ونقم الفرنسويون على الالمان وصحافتهم هذه الخطة وعاتبوهم عليها

ووقع خبر رجوع قنصل المانيا فى فاس الى مقر عمله وحمله الى السلطان نبأ اعتراف الحكومة الالمانية به وقوع الصاعقة فى دوائر باريس فعدته عملا جديدا تتحدى به المانيا فرنسا لاحراج مركزها فى المغرب الاقصى

لقد كانت السياسة الفرنسوية تقوم فى تلك الفترة على عدم الاعتراف بسلطنة عبد الحفيظ ما لم يتعهد بتنفيذ سلسلة من المطالب والشروط وما لم يقدم الخضوع التام لاوربا الممثلة فى شخص فرنسا ، وكان مما تم الاتفاق عليه بين هذه وحلفائها ان

يتجاهل القناصل وممثلو الدول الانقلاب الجديد حتى تنال ما تطلبه من السلطان ، فلما اقدمت المانيا على هـذا العمل الذى هو خرق فى الاجماع الدولى وارسلت قنصلها الى فاس واعترفت بالسلطان الجديد واقترحت على الدول الاعتراف به بدون قيد ولا شرط قام الفرنسو يون وقعـدوا واوعزوا الى صحفهم فحملت على المانيا حملات شـديدة متهمة اياها بالميل الى تعكير صفو السلام والرغبة فى ايقاد حرب جديدة بتحديها فرنسا فى المغرب الاقصى

طلبات فرنسا

وهذه هى الطلبات التى ابلغها الفرنسو يون الى عبد الحفيظ وجعلوا الموافقة عليها شرطا لاعترافهم بسلطنته :

١ ـ الاعتراف بعقد الجزيرة بدون قيد ولا شرط

٢ ـ الاعتراف بجميع الاتفاقات الدولية التى عقدتها حكومة المغرب مع حكومات اوربا وخصوصا الاتفاقات المالية

٣ ـ التعهد بفض مشكلة عبد العزيز بالعدل

٤ ـ التكفل بدفع النفقات التى تولدت عن احتـلال الدار البيضاء والمرافق الاخرى

٥ ـ التعويض على منكوبى الدار البيضاء

تلك هى الشروط التى ابلغها الفرنسويون الى السلطان الجـديد ، فقبلها فى النهاية رسميا فاعترف بمعاهـدة الجزيرة ونتائجها كالبوليس واصـدر الامر الى عمـاله بالجرى على خطة الاصـلاح التى رسمتها الحكومتان الفرنسوية والاسبانيـة وخصص راتبا قدره ١٧٧ الف فرنك سنو يا لأخيه عبد العزيز يتناوله من بنك الدولة مباشرة فاعترفت به الحكومتان الفرنسوية والاسبانيـة ملكا على المغرب الاقصى ، وكانت ايطاليا قد سبقتهما بالاعتراف وتلتها الدول الاخرى . فقد سلم عميد المندوبين السياسيين فى طنجه مذكرة يوم ٦ يناير سـنة ١٩٠٩ الى المولى عبد الحفيظ باعتراف الدول به فرد عليه بانه يعد اعترافها دليلا على عطفها عليه

وسار السلطان فى العهد الجديد على خطة التقرب من الاور بيين فاخذ يستقبلهم فى قصره ويتودد اليهم ويبدى ميلا الى ادخال الاصلاح على الطريقة الاوربية ويقول بانه من انصاره ومن المعتقدين بفائدته

ويقول احد الرواة ان السلطان عبدالعزيز اجتمع بعد وصوله الى الدار البيضاء – وقد لجأ اليها عقب هزيمته فى معركة سيدى رحال – بالجنرال داماد القائد العام للحملة الفرنسوية فى المغرب الاقصى فدار بينهما الحديث الآتى :

السلطان – مارأيك ياجنرال فى الخطة التى تسير عليها الحكومة الفرنسوية ازاء اخى عبدالحفيظ وهل تكون منطبقة على الخطة التى سارت عليها معى ام تختلف عنها ؟

الجنرال – بدون شك

– هل تطلب منه الاعتراف بقرار مؤتمر الجزيرة والتقيد به وتنفيذه ؟

– نعم

– وهل تطلب الاعتراف بالبنك و بالامور الاخرى ؟

– تماما

– اذن لن يستقر له حكم ولن يطول امره وسيكون شأنه كشأنى فينزل عن سرير الحكم ويطارد ويطرد فى خلال زمن قصير

٢٣

المغاربة والحكم الحفيظى

قابل المغاربة سقوط المولى عبد العزيز بالارتياح لما رسخ فى اذهانهم وهو انه باع البلاد للاجانب وتواطأ معهم كما قابلوا فوز المولى عبد الحفيظ بمزيد الفرح والسرور لاعتقادهم بانه ما نهض الا لانقاذهم وتحريرهم والقضاء على النفوذ الاجنبى والجهاد فى سبيل الله

وكانت مدينة طنجه نفسها فى مقدمة المدن التى اعلنت الانضمام الى الحكم الجديد حينما وصلت اليها اخبار معركة سيدى رحال والتجاء عبد العزيز الى الفرنسويين فقد اجتمع الناس فى المساجد وبايعوا السلطان الجديد وارسلوا بذلك كتابا اليه واقاموا الزينات والحفلات ابتهاجا بما جرى

وارسل السلطان عبد الحفيظ كتابا الى اهل طنجه ـ هو اول كتاب اصدره بعد اجتماع الكلمة عليه ـ فتلى فى مساجدها وقد شكر فيه الطنجاويين على مناداتهم به واخلاصهم له ، واكد عزمه على حفظ الامن وبذل غاية الجهد فى القيام بالواجبات المطلوبة منه لامته وختم كتابه بتثبيت الموظفين السابقين فى وظائفهم الى ان تجيئهم اوامر اخرى

وانضمت المدن والبنادر الاخرى التى كانت مترددة، الى الحكم الجديد بعد معركة سيدى رحال وبايعت المولى عبد الحفيظ وخطبت له على منابرها . وبالاجمال فقد انضم المغرب كله الى السلطان ومنحه ثقته ووضع فيه آماله ، ووقف يرقب مايعمله لاصلاح الحالة ولاعادة الامن ونشر الطمأنينة واخراج الفرنسويين من وجده ومن الدار البيضاء ومن المناطق الاخرى التى بلغوها فى تقدمهم ، ومقاومة نفوذهم وكان يستفحل تدريجا

اما مدينـــة الدار البيضاء وكان الجند الفرنسوى يحتلها وفيها مقر القيادة الفرنسوية العامة فلم تعترف بالحكم الجديد ولم يبايع سكانها السلطان الا يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وذلك بعـد ماتعهد بتنفيذ مطالب فرنسا كلها وشرع فى التقرب من الفرنسويين واوفد مندوبا خاصا الى باريس لتوطيد اواصر الود والولاء معها ولابلاغها انه على اتم استعداد للتعاون مع رجالها

وقـد خيب ظهور السلطان الجديد بهـذا المظهر وتودده الى الاجانب وقبوله مطالب فرنسا وتعهده بتنفيذ سياستها واصداره الامر الى عماله بان يسترشدوا بقرارات مؤتمر الجزيرة ــ آمال المغاربة الذين لم ينصروه ويلتفوا حوله ويؤيدوه الا لانه نادى بالجهاد وبتحرير البـلاد وطرد الاجانب ورفض قرارات مؤتمر الجزيرة والاقتراحات التى قيـد المغرب بها السلطان عبد العزيز ، فشرعوا ينفضون من حوله وينتقـدون تصرفاته ويظهرون النـدم على مساعدته ويتحدثون بوجوب التخلص منه والقضاء على سلطانه

٢٤

اتفاق جديد بين فرنسا والمانيا

وصفنا فيما تقدم المنافسات السياسية التى عادت الى الاشتداد بين المانيا وفرنسا بسبب حركة المولى عبد الحفيظ وقلنا ان الالمان وقفوا فى جانب هذه الحركة وايدوها وشجعوا صاحبها واستقبلوا موفديه لاعتقادهم انه نهض لمقاومة فرنسا والقضاء على نفوذها ، كما كانوا اول من اعترف بحكومته حينما انهارت حكومة اخيه ، وكانوا ايضا اول من تخلى عنه وعنها واهملوها ، وكتبوا الى الحكومات ذات الشأن مقترحين الاسراع بالاعتراف بالدولة الحفيظية لان ذلك كما قالوا الوسيلة الوحيدة لاقرار الامن والنظام فى المغرب الاقصى والقضاء على الشغب والاضطراب.

وقابلت الصحف الفرنسوية عمل المانيا بالاحتجاج والاستنكار وقالت انها خرقت الاجماع الدولى واظهرت اوربا بمظهر المختلف امام المغاربة واعلنت ان الحكومة الفرنسوية لن تعترف بالحكومة الحفيظية الجديدة مالم تقدم خضوعها التام لاوربا وما لم تقبل جميع طلبات فرنسا وهو ما وقع

ودارت فى اثناء ذلك مفاوضات جديدة بين المسيو كمبون سفير فرنسا فى برلين والبرنس بيلوف مستشار الامبراطورية الالمانية لعقد اتفاق جديد بين حكومتى فرنسا والمانيا على المسألة المغربية يضع حدا للمنافسات والمنازعات تكللت بالنجاح فعقد الاتفاق المطلوب يوم ٩ فبراير سنة ١٩٠٩ وهذا نصه :

لما كانت حكومة الجمهورية الفرنسوية والحكومة الامبراطورية الالمانية ميالتين الى تسهيل اخراج عقد الجزيرة من القوة الى الفعل اتفقتا على تعيين مؤدى مواده منعا لسوء التفاهم بينهما فى المستقبل

فبنـاء عليه ونظرا الى ان حكومة الجمهورية الفرنسوية عاقدة النيـة على سـلامة املاك المغرب الاقصى واستقلاله والمساواة الاقتصادية فيه و بالتـالى عدم القـاء عقبات فى سبيل مصالح المانيا التجارية والصناعية

ونظرا الى ان الحـكومة الامبراطورية الالمانية لاتبغى غير اغراض اقتصادية فى المغرب الاقصى وهى تعترف بان مصالح فرنسا السياسية الخصوصية فيه مرتبطة بتثبيت النظام والسلم فى داخله ارتباطا شديدا وقد عزمت ان لاتلقى العقبـات فى سبيل تلك المصالح فالحـكومتان تصرحان بانهما لا تبغيان أو لا تساعدان على أمر من شانه منح امتياز اقتصادى لهما ولدولة اخرى سواهما بل تسعيان فى اشراك رعاياهما فى الاعمـال والمقاولات التى يمكن اعطاؤها لهما »

وكان البرنس بيلوف اول من اذاع خبر هذا الاتفاق فقد خطب عقب التوقيع عليه خطبة فى مجلس النواب الالمانى وصفه فيها بانه « يضمن حقوق فرنسا التى تهمها خصوصا المحافظة على السكينة والنظام فى المغرب الاقصى ونفوذا سياسيا عادلا ولـكنه لايمكنها من امتلاكه بوجه من الوجوه

«ويضمن لالمانيا حرية الاعمال التجارية والصناعية فى المغرب الاقصى المستقل ويمكنها من الاشتراك مع الفرنسويين فى الاعمال التجارية والصناعية والاستفادة منها فالغرض من هـذا الاشتراك هو فتح المغرب الاقصى للصناعة والتجارة طبقا لرغائب الحـكومتين اذ من العبث ان تلقى المانيا المصاعب فى وجه فرنسا فى بلاد ليس لها فيها مصالح سياسية ولا املت يوما ان يكون لها مثل هذه المصالح

«نعم ان البعض قد يستصوب ان نقف دائما موقف الخصم لبلاد كانت الد عدو لنا فنعارضها سرا وجهرا فى كل مكان وزمان وخصوصا فى المسائل التى تؤثر كثيرا فى عواطفها وشعورها مثل مسألة المغرب الاقصى وذلك كله لسبب واحد وهو انه قد يأتى يوم تهيج فيه الحرب بيننا و بينها ولـكنى استنكر هذه السياسة لانهـا سياسة ختل يحاول دعاتها ان يتركوا جروح غيرهم مفتوحة وذلك لايليق بامة عظيمة كالمانيا»

٢٥

ازمة جديدة بين المغرب وفرنسا

اغتنمت فرنسا فرصة الاتفاق الجديد الذى عقدته مع المانيا وقد امنت به جانبها والضعف الذى ابداه السلطان الجديد باعترافه بدون قيد ولا شرط بمطالبها وبتهالكه على التقرب منها فطلبت منه ارسال وفد الى باريس للمباحثة فى الشؤون المالية وفى الطرق التى تدفع بها الاموال التى انفقتها على حملتها العسكرية الى الدار البيضاء ، فانتدب وفدا سافر اليها برياسة السيد المقرى فقابل المسيو بيشون وزير الخارجيــــة الفرنسوية يومئذ فاحاله الى بعض موظفى الوزارة فسلموه المقترحات الفرنسوية الجديدة

ماهى هذه المقترحات

فقد اقترحت فرنسا على السلطان ان يعقد قرضا ماليا فى باريس لتسديد نفقات حملة الدار البيضاء وللتعويض على المنكوبين ودفع ديون التجار الاجانب ، ولا يخفى انه تعهد بالدفع مقابل الاعتراف به (انظر ص ٣٢٧) ومطالب اخرى ثانوية فوافق المقرى على ذلك . ولما رفع الامر الى السلطان اخذ يماطل ويسوف على عادته

بعثة عسكرية عثمانية

ووصلت فى تلك الاثناء الى المغرب الاقصى بعثة من الضباط العثمانيين جاءوا من الاستانة لاصلاح الجيش المغربى وتنسيقه ويقال ان السلطان هو الذى طلبهم وجاء بهم فاغضب وصولهم فرنسا وازعجها فطلبت من السلطان ان يعيدهم ويستغنى عنهم بحجة ان اصلاح الجيش المغربى من المهام الموكولة اليها فتردد السلطان ايضا واخذ

يماطل ويسوف على جارى عادته فقرر الفرنسويون التذرع بالحزم والشدة وارغامه على القبول والتسليم

ففى يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩١٠ زار المسيو كالبار قنصل فرنسا فى فاس السلطان وطلب منه اصدار تعليمات الى السيد المقرى فى باريس تمنحه السلطة اللازمة لعقد قرض للحكومة المغربية تدفع منه التعويضات والنفقات العسكرية وبان يعيد البعثة العسكرية العثمانية من حيث اتت فاجابه السلطان ووزيره الاكبر بالموافقة بدون قيد ولا شرط وانقضى يومان على هذه المقابلة ولم يصدر السلطان امرا خطيا بالتنفيذ فارسل القنصل مذكرة الى الحكومة يوم ٢٥ منه قال فيها ان الموعد المضروب للمصادقة على مطالبه انقضى وانه عزم على السفر الى طنجه ، اشارة لقطع العلاقات السياسية وشرع فعلا يعد معدات السفر فاصدر السلطان على الفور امرا باسترضاء الحكومة الفرنسوية واجابتها الى جميع مطالبها وارسلت الحكومة المغربية يوم ٢٦ منه كتابا الى قنصل فرنسا يحتوى على قبولها لجميع الطلبات وفى متنها صورة التفويض الذى ارسلته الى المقرى فى باريس لعقد القرض والتوقيع على الاتفاقات المطلوبة وفى جماتها تعيين مندوب سام لفرنسا على الحدود المغربية

٢٦

القتال بين المغاربة والاسبان

لاسبانيا مطامع معروفة فى المغرب الاقصى ، ولها فى سبيل امتلاكه والفوز به مغامرات مشهورة وحروب كثيرة مع المغاربة الذين وقفوا لها بالمرصاد وهزموها فى كل معركة تقريبا واحبطوا جميع اعمالها

ورأت فرنسا حينما صح عزمها على امتلاك المغرب الاقصى واتهامه ان تكون على وفاق مع اسبانيا فلا تقاومها ولا تقف فى طريقها ولا تزعجها بدسائسها سيما والغنيمة كبيرة فدارت مفاوضات بين الحكومتين انتهت بعقد اتفاق يوم ٣ اكتوبر سنة ١٩٠٤ (انظر ص ٢٥٦) وكان من نتائج هذا الاتفاق وقوف اسبانيا الى جانب فرنسا حينما تقدمت فى سنة ١٩٠٥ للتدخل فى شؤون المغرب الاقصى باسم الاصلاح فارسلت سفيرها فى طنجه فقابل السلطان عبد العزيز وابلغه ان حكومته على اتم وفاق مع فرنسا وانها تؤيدها فى جميع مطالبها

ووقفت اسبانيا موقف الموالى لفرنسا فى مؤتمر الجزيرة ايضا ، وكانتا قد اتفقتا نهائيا على تنظيم البوليس وعلى الشؤون الاخرى التى يهمهما امرها . وعملا بهذا الاتفاق ناط مؤتمر الجزيرة باسبانيا امر تنظيم البوليس فى ثلاث مدن مغربية وهى تيطوان والقصر والعرايش واشركها مع فرنسا فى ثغور اخرى

وانضمت اسبانيا الى فرنسا فى المظاهرة البحرية التى قامت بها فى سنة ١٩٠٧ لحمل الحكومة المغربية على صيانة ارواح الاوروبيين فارسلت بعض سفنها فوقفت الى جانب الاسطول الفرنسوى . وكذلك انضمت اليها فى اثناء فتنة الدار البيضاء فارسلت عددا من جنودها ، رمزا للتضامن والوفاق

وادركت اسبانيا فى سنة ١٩٠٩ و بعد ماوطدت فرنسا اقدامها فى الدار البيضاء وفى وجده و بعد ما سلم المولى عبد الحفيظ بجميع ماطلبته بدون قيد ولا شرط ان الاوان آن للاستيلاء على الجزء المجاور لها من بلاد الريف المغربية فجهزت حملة كبيرة فى خريف تلك السنة قادها الجنرال مارينا وارسلتها الى مليلا لبسط نفوذها على المنطقة التى اختصت بها

و ثارت الحماسة القومية والغيرة الدينية فى نفوس اهل الريف المغربى فزحفوا بقلب واحد لمقاتلة الاسبانيين ومنازلتهم فدارت بين الفريقين معارك حامية اشبه بتلك التى دارت حول الدار البيضاء استبسل فيها المغاربة وظهروا على الاسبانيين وهزموهم واذاقوهم الوبال والنكال فارتدوا الى الساحل وقبعوا تحت حماية اسطولهم واسرعت اسبانيا فارسلت نجدات قوية كان نصيبها ايضا الانهزام فقامت لذلك اسبانيا وقعدت واشتدت الحملة على الوزارة التى كانت قائمة يومئذ

ولزم السلطان عبد الحفيظ الحياد فى اول الامر كان الامر لا يعنيه وكان البلاد المحتلة غير بلاده ، وكان الشعب الذى يقاتل للدفاع عن كيانه و بلاده غير شعبه ، فانطلقت الالسن فى انتقاده وفى انكار خطته ، فوضع احتجاجا على اسبانيا لانتهاكها حرمة العقود المعقودة وسعيها للاستيلاء على اراضيه ولكن فرنسا اسرعت فتوسطت بواسطة رجالها فحملت السلطان على سحب الاحتجاج

ولم يكتف السلطان بهذا بل ارسل بطلب فرنسا يدعو القبائل الثائرة الى العدول عن المقاومة ، وترك الامر بين يدى الحكومة المغربية تعالجه بما يبدو لها انه الاصلح ، فلم يؤثر ذلك فى النفوس ولم يحمل الثوار على الاستسلام والخضوع لانهم ما كانوا يجهلون ان حكومتهم مجردة من كل سلطان ونفوذ وانها آلة بيد الاجانب يسخرونها لخدمة مصالحهم وقضاء اوطارهم

مفاوضات جديدة واتفاق جديد

وانتدب السلطان عبد الحفيظ السيد المقرى وزير خارجيته فسافر الى مدريد في شهر اكتوبر سنة ١٩١٠ لمفاوضة الحكومة الاسبانية فى الجلاء عن المنطقة التى تحتلها وعقد اتفاق معها فطلبت تعويضا قدره ١٣٠ مليون فرنك اسبانى (باستا) وتهددت بالزحف على تيطوان واحتلالها ان لم تجب الى طلباتها

وتوسطت فرنسا للتوفيق بين الفريقين فعقد اتفاق بينهما فى شهر نوفمبر من تلك السنة هذه قواعده :

١ – يدفع المغرب لاسبانيا تعويضا قدره ٦٥ مليون فرنك اسبانى

٢ – ينشأ جمرك فى مليلا وآخر فى سبته

٣ – يؤلف بوليس مختلط من الاسبانيين والمغاربة فى المناطق التابعة لهما

٤ – تجعل نصف حصة حكومة المغرب فى استغلال المناجم المغربية ضمانا لدفع الغرامة بحيث يتناول هذا الضمان المناجم كلها

« ولما كان انشاء الجمركين الجديدين فى مليلا وسبته قد يضر بجمركى تيطوان وطنجه وينقص دخلهما وحيث ان دخل هذين الجمركين داخل فى جملة الضمانات الممنوحة لحاملى سندات الدين المغربى ، فقد تم الاتفاق على ان تفاوض حكومة اسبانيا البنك المغربى للنظر فى ما يحول دون مس فائدة هذا الدين اذا حدث شيء من هذا القبيل »

واقر السلطان الاتفاق يوم ٢ يناير سنة ١٩١١ ووافق عليه . وتقرر ان تحتفظ اسبانيا بالاراضى التى احتلتها فى المغــرب لتكون ضمانا مقابل دينها ويدفع فى ٧٥ سنة

وقد عد هذا الاتفاق فوزا عظيما لاسبانيا وغبنا كبيرا لحق بالمغرب لانه حمله اعباء جسيمة من دون ان يحقق له الجلاء وقد كان فى الاصل الغاية من المفاوضات

وكان لفرنسا وانكلترا يد كبيرة فى حمل السلطان على قبول هذا المشروع واقراره ارضاء لاسبانيا من جهة واضعافا للمغرب من جهة اخرى

٢٧

ابناء مولاى الحسن ونكبة المغرب

لا نملك احصاء صحيحا لعدد الذكور الذين مات عنهم مولاى الحسن والد السلطان عبد العزيز والظاهر ان عددهم كان كثيرا وان هذه « الكثرة » كانت بلاء ونكبة عليهم انفسهم وعلى المغرب الاقصى وعلى العرب والاسلام

والباحث فى تاريخ المغرب يرى ان التنافس بين ابناء الاسرة الحسنية كان فى مقدمة العوامل التى اضعفته ، واودت برجاله وماله ، وسهلت للاجانب الاستيلاء عليه وامتلاكه ، فقد كان الانتقاض من تقاليدهم ، والثورة من دأبهم . وهذا تاريخ الاسرة ماثل بين ايدينا فهو عبارة عن نضال بين ابناء هذا البيت طمعا فى الملك والسيادة وندر ان سلم احد ملوكهم من ثورة او اثنتين او اكثر يوقدها احد ابنائه او اخوانه عليه لاسقاطه والحلول محله ، غير ناظر الى مصلحة البلاد ، ولا مفكر فيما يكون لعمله من ضرر مادى وادبى ، وخصوصا فى الزمن الاخير ، اى بعد ما نهضت اوربا واتجهت نحو بلاد العرب تنصب الشباك حولها لاقتناصها

لقد ناصب اثنان من ابناء مولاى الحسن اخاهما عبد العزيز العداء ، فمولاى محمد وكانوا يلقبونه بالروجى او ابو حماره اول من ثار عليه وشق عصا الطاعة ، وذلك لانه كان يعد نفسه بصفته اكبر ابناء ابيه ، الوارث الشرعى للعرش وصاحبه وينظر الى اخيه عبد العزيز نظر الغاصب

ويقول بعض المؤرخين ان عبد العزيز ارتقى العرش بسعى والدته الشركسية فقد تواطأت مع الصدر الاعظم على نصبه سلطانا مقابل شروط اتفق عليها بينهما ولهذه المؤامرة حديث طويل ليس هنا موضعه وهى تدل على سوء الحالة الادارية والخلقية فى

المغرب واضطرابها ، وعلى كل فقداستطاع الامير محمد ان يجمع حوله طائفة من المرتزقة قاتل بهم اخاه وازعجه فسير الجيوش لاخضاعه فهزمها وشتتها لانها كانت سيئة النظام

وقبل ان توفق جيوش الحكومة لاخضاعه والقضاء عليه انتقض الاخ عبد الحفيظ وهو اصغر سنا من المولى محمد الثائر الاول واكبر من السلطان عبد العزيز بسنتين وامه عربية من الشاوية فاشتبك مع اخيه فى نضال عنيف انتهى بسقوطه وصعود المولى عبد الحفيظ وحلوله محل اخيه كما تقدم

ووقع عبد الحفيظ فيما وقع فيه عبد العزيز (ومن حفر حفرة لاخيه وقع فيها) فانه ما كاد يستقر له الامر حتى نهض اثنان من ابناء ابيه لقتاله واسقاطه وهما المولى اسماعيل والمولى الزين فضايقاه وكادا يدكان عرشه لولا التجاؤه الى الفرنسويين وارسالهم القوى لانقاذه وقتال اعدائه

لقد هيأت ثورة عبد الحفيظ على عبد العزيز لفرنسا توطيد اقدامها فى وجدة والدار البيضاء والحصول على كثير من الامتيازات السياسية والاقتصادية نالتها من الاخير مقابل تأييدها له فى نضاله مع اخيه ثم نالت امتيازات اخرى اجل شأنا من عبد الحفيظ مقابل اعترافها به سلطانا . اما ثورة مولاى الزين الاخيرة وقد اوقدها فى مكناس فقد فتحت لها الطريق الى فاس ، عاصمة الغرب المقدسة ، فوطأوا جندها باقدامهم ونعالهم ، و بسطوا حمايتهم على المغرب ونالوا كل ما يطمعون فيه و يرجونه

٣٨

الفرنسيون فى فاس

نادى المولى عبد الحفيظ بالجهاد ودعا المغاربة الى الالتفاف حوله لطرد الاجانب وتحرير الوطن وانقاذه من حكومة المولى عبد العزيز الضعيفة العاجزة فصدقوه ومالأوه فانتصر وجلس على عرش ابيه وجده

وتنكر بعد ادراكه لامنيته وتربعه فى دست الحكم ، للمبدأ الذى نهض لاجله وانتصر بسببه ، ومالأ الفرنسويين واسرف فى الاستسلام اليهم فاجابهم الى جميع طلباتهم ونفذ جميع اقتراحاتهم ، وفتح لهم البلاد وخزائنها واطلق يدهم اطلاقا تاما ، وفعل مثل ذلك تقريبا مع الاسبانيين وتساهل معهم تساهلا مشينا معيبا لا يصدر الا من سلطان لايهمه من امر بلاده شيء ولا يفكر الا بالاحتفاظ بالعرش والتاج والتمتع بالمحظيات التركيات والشركسيات وقد جاء الوزير المقرى بسرب منهن من الاستانه الى عبدالحفيظ عقب استقرار الامر له

وهاج المغاربة وماجوا لهذه الاعمال المشينة وكبر عليهم ان تذهب بلادهم ضحية سفه السلطان ورجاله الذين خدعوهم ومكروا بهم فتنادوا الى الثورة والانتقاض وكان لقبائل بنى مطير قصب السبق فقد اعلنت بالاتفاق مع قبائل الشومة و بعض القبائل النازلة بجوار فاس الثورة يوم ٧ يناير سنة ١٩١١ وتقدمت لمهاجمة العاصمة واحتلالها، واسقاط حكومتها الفاسدة العاجزة فدارت بينها و بين قوات السلطان معارك حامية فهزمتها ومزقتها وتقدمت الى فاس فحاصرتها

وجمع السلطان بقية ما كان عنده من قوى وسيرها بقيادة الضباط الفرنسويين الذين كانوا يتولون تنظيم الجيش المغربى (البعثة العسكرية) فهزمت ايضا واحاط الثوار بمدينة فاس

ثورة مكناس

و بينما كان رجال القبائل يهاجمون فاس كانت هنالك قوات اخرى تهاجم مكناس بقيادة مولاى الزين شقيق السلطان عبد الحفيظ مما يدل على ان هنالك اتفاقا ، فقد ضم حوله طائفة من الانصار فاستولى على مكناس والف حكومة واستوزر وزراء ، وشرع يدعو لنفسه و يوفد رسله الى القبائل والمدن طالبا تأييدها ومناديا بما نادى به اخاه من قبل وهو انه ما قام الا لنصرة الدين والدفاع عن الاسلام وطرد الاجانب

عبد الحفيظ يستنجد بفرنسا

وتظاهرت فرنسا بالقلق لما حدث ، وهنالك من يتهم بعض رجالها بالاشتراك فى تدبير هذه الفتن وتشجيعها ـ فارسلت اربع اورط الى الدار البيضاء مع مدفعية قوية وواصلت ارسال النجدات استعدادا للطوارئ والحوادث

واذاعت الحكومة الفرنسوية يوم ١٩ ابريل سنة ١٩١١ رسميا بان السلطان عبد الحفيظ طلب منها مساعدته فى القضاء على الثورة وفى اخضاع الثوار وقالت انه لم يسعها الا تلبية الطلب وانها اصدرت الامر الى قوادها فى المغرب بالزحف الى فاس لانقاذها وفك الحصار عنها ، وكان الثوار قد قطعوا كل صلة بينها وبين طنجه واضطروا البعثة العسكرية الفرنسوية للالتجاء الى قلعة قديمة فى فاس

وانتدب الجنرال موانيه (القائد العام للجيش الفرنسوى يومئذ فى المغرب الاقصى) القائد بريمون وارسله على رأس حملة صغيرة وامره بان يسرع الى فاس لانقاذها وسير حملة اخرى بقيادة الكولونيل مانجان وثالثة بقيادة الكولونيل بريلار ثم زحف هو بنفسه يقود جيشا كبيرا يتألف من ١٠ اورط مشاة مع فصائل كثيرة من المدفعية والفرسان وأصدر حين زحفه بيانا الى رجال القبائل بتاريخ ٢٥ ابريل سنة ١٩١١ قال فيه « ان فرنسا لاتنوى احتلال اراض جديدة وانما تريد مساعدة جنود السلطان على انقاذ الاوربيين المهددين واعادة النظام تحت سلطة السلطان، فاذا

لم تخمد الفتنة اضطرت الجنود الفرنسوية ان تسكنها وتؤدب مثيريها »

وتجمع رجال القبائل على الطرق المؤدية الى فاس ورابطوا على طولها لمنع الفرنسويين من التقدم فدارت بين الفريقين معارك حامية بيعت فيها الارواح بيع السماح واستطاع القوماندان بريمون بعد معركة استمرت ٤ ايام بلا انقطاع بينه وبين القبائل الوصول الى فاس فدخلها يوم ٢٦ ابريل بعد ما خسر معظم رجاله ، ونفد معظم ما كان يحمله من ذخائر ومعدات ، فلم يفرج دخوله كربتها ولم يخفف من ضغط الثوار عليها بل ضاعف نشاطهم فقد جمعوا جموعهم وحملوا عليها حملة صادقة يوم ٣٠ ابريل ، اى بعد دخول الحملة باربعة ايام ، يريدون الاسراع فى الاستيلاء عليها قبل وصول النجدات الاخرى

وبينما كانت المعارك تدور حول فاس بين الفرنسويين المحصورين فى داخلها وبين رجال القبائل ، كانت هنالك معارك اشد هولا تدور بين المغاربة والحملات الفرنسوية الاخرى التى كانت تزحف على فاس ، وقد استماتت الاولون وباعوا ارواحهم رخيصة لصد الفرنسويين وهزيمتهم ولكن الدربة والفن تغلبتا فى النهاية على الشجاعة فدخل الجنرال موانيه فاس فى الساعة السادسة من مساء يوم السبت ٢١ مايو سنة ١٩١١ وارتدت القبائل نحو الجنوب متخلية عن العاصمة

وانشأ الفرنسويون عقب وصولهم الى فاس محطة للتلغراف اللاسلكى وحصنوا بعض المواقع واعادوا المواصلات مع طنجه

واستقبل السلطان الجنرال موانيه يوم ٢٧ مايو وشكره وكلفه ان يشكر بلسانه الحكومة الفرنسوية على تأييدها له ، واذاعت المصادر الفرنسوية يومئذ ان السلطان اقترح ابقاء ٥ ـ ٦ آلاف جندى فرنسوى فى فاس لحفظ النظام وقال ان جلاءهم عنها يؤدى الى تجدد الثورة والاضطراب كما طلب منهم الزحف الى مكناس والقضاء على ثورتها واعادتها الى حظيرة الطاعة

احتلال مكناس

وفى يوم ٢٩ يونيو سنة ١٩١١ غادر الجنرال موانيه فاس لاخضاع البلاد المجاورة فهاجمته القبائل الثائرة وقاومته مقاومة عنيفة فبطش بها وارتكب فى اخضاعها شتى اعمال الشدة والقسوة

وواصلت الحملة التقدم حتى مكناس فدخلتها وقبضت على مولاى الزين ووزرائه ورجال حكومته واقتادتهم الى فاس وسلمتهم الى مولاى عبد الحفيظ فعفا عن اخيه وخصص له دائرة فى القصر لنزوله واجرى عليه راتبا كبيرا كما عفى عن رجاله

السلطان يدافع عن سياسته

وارسل السلطان فى تلك الايام كتابا تلى فى مسجد طنجه سرد فيه الاسباب التى دعته الى طلب مساعدة الفرنسويين وقال ان فى مقدمتها اعادة السكينة الى السلطنة وانقاذ العاصمة من الثوار الذين كانوا يحاصرونها وتأمين الطرق

وارسل كبير وزراء السلطان الرسل الى داخل البلاد يدعون الناس الى الطاعة والانقياد و يعلنون دخول الفرنسويين الى فاس فقبض عليهم الثوار وعذبوهم عذابا مرا ثم قتلوهم

فرنسا تنال اجرها

وطلب الجنرال موانيه عقب دخوله الى فاس من السلطان ان يوقع على سلسلة امتيازات طلبتها الحكومة الفرنسوية، فلم يسعه سوى القبول فوقع عليها وهى تختص بميناء طنجه ومشروع القرض المغربى وغير ذلك

وقيل ايضا ان الاتفاق تم بين السلطان والجنرال على ان يشرع حالا فى تنظيم جيش مغربى مؤلف من ١٠ آلاف مقاتل ومجهز باسلحة حديثة تحت اشراف ضباط فرنسويين

٢٩

اسبانيا فى القصر والعرايش

اثار دخـول الجيش الفرنسوى الى فاس ووضعه حكومة المغرب تحت نفوذه وسيطرته ، ثائر الاسبانيين حلفاء فرنسا واصدقائها ومؤيديها فى سياستها المغربية ، فقاموا وقعدوا وصاحوا وبلا وثبوروا واحتجت صحافتهم على هذا العمل ووصفته بانه خرق صريح لمعاهدة الجزيرة التى تقضى بالمحافظة على سلامة المغرب وسيادة السلطان

ولم يقف الاسبانيون عند حد الصياح والاحتجاج فنزل يوم ١٠ يونيو سـنة ١٩١١ — ٥٠٠ اسبانى الى مدينة القصر المغربية فاحتلوها بدون مقاومة واحتلت قوة اسبانية اخرى مدينة العرايش المغربية واذيع بان هذا الاحتلال مقابل احتلال فرنسا لفاس ، وان اسبانيا تخرج منهما متى خرجت فرنسا من فاس

ومع ان السلطان لم يحرك ساكنا عند احتـلال فرنسا لعاصمته بل قابله بالشكر فقد ارسـل احتجاجا الى الدول الموقعـة لعقد الجزيرة على اسبـانيا لانتهاكها حرمة استقلاله واحتلالها لبعض اجزاء بلاده، فزاد ذلك فى نقمة الاسبانيين على فرنسا لانهم عرفوا بان رجالها هم الذين اوعزوا اليه بالاحتجاج وحملوه على كتابة ما كتب ، وطالبوا باخراج الاسبانيين ليستولوا على البلاد كلها

وتوترت العـلاقات بين الفريقين وتراشقت صحفهما بجاف الـكلم وزاد الطين بلة اهانة الاسبانيين لقنصل فرنسا فى القصر المسيو بواسه فقبضوا عليـه واعتقلوه لانه حاول التدخل فى شؤونهم ولم يتركوه الا بعد توسط وزارة الخارجية الفرنسوية ، وزعم

بعض الصحف الفرنسوية ان المانيا هى التى دفعت اسبانيا الى الخروج على فرنسا والوقوف هذا الموقف منها، على ان الحالة لم تلبث ان هدأت بعد ذلك فدارت مفاوضات بين الفريقين بتوسط انكلترا امتدت اشهرا وانتهت بالاتفاق التام

٣٠

بانتر فى الغدير

قوبل احتلال فرنسا لفاس فى برلين بما قوبل به فى مدريد من احتجاج فقامت قيامة الصحف الالمانية وحملت على فرنسا واسبانيا واتهمتهما بالتواطؤ لاقتسام الغرب الاقصى والتهامه وقالت انهما نقضتا عهد الجزيرة وهو يقضى كما قلنا بالمحافظة على وحدة المغرب واستقلاله وضمان سيادة السلطان

وفوجىء العالم يوم اول يوليو سنة ١٩١١ بوصول المدفعية الالمانية بانتر الى ثغر الغدير (من ثغور المغرب الاقصى على الاطلانطيقى) ورسوها فى فرضته « للدفاع عن المصالح الالمانية المهددة وحمايتها » فازعج ذلك فرنسا فلجأت الى انكلترا وروسيا تسألهما المعونة والمساعدة للتخلص من معارضة الالمانيين والاسبانيين

واسرع المسيو كمبون سفير فرنسا فى برلين ، وكان يقيم فى باريس مجازا بالرجوع الى مقر عمله ودارت مفاوضات بين الحكومتين الفرنسوية والالمانية تدخل فيها الروس والانكليز فقال الالمان انهم ماذهبوا الى الغدير الا لان فرنسا ذهبت الى فاس وانهم مستعدون للجلاء عنها متى جلت فرنسا عن عاصمة المغرب

ولا بد لنا من القول ان المانيا ابلغت فرنسا قبل ارسال مدفعيتها الى الغدير بان ايغال جيشها فى المغرب مناقض لاتفاق الجزيرة، فاجابتها فرنسا بان احتلالها موقت وانه سينتهى حالما تستقر الحالة ، فلم يقنع ذلك الالمان فارسلوا مدفعيتهم الى الغدير كما ارسل الهر فون كندرلن وختر وزير الخارجية الالمانية يبلغ وزير الخارجية الفرنسوية بواسطة سفيره فى باريس بان الاضطراب السائد فى منطقة الغدير وقلق التجار الالمان

المقيمين فيها حملا الحكومة الالمانية على ارسال المدفعية بانتر ، وانها ستغادرها متى استتب الامن

وردت الصحف الالمانية على صحف باريس التى ناحت واعولت لارسال المدفعية الالمانية فقالت ان حوادث المغرب الاقصى اضطرت المانيا الى ارسال مدفعيتها فقد صارت الحالة فوضى واندثرت سلطة السلطان

« ولما كانت فرنسا واسبانيا قد تجاوزتا حدود معاهدة الجزيرة وانشأتا النقط العسكرية فى داخل البلاد ، فلا غرو اذا مالبثت المانيا دعوة رعاياها وارسلت بنتر الى الغدير لحمايتهم ولن تجلو عنها الا بعد ان يستتب الامن ويقضى على الفوضى »

وفى يوم ٨ يوليو وصل الى الغدير الطراد برلين وحل محل المدفعية بنتر فدل ذلك على ان المانيا عاقدة العزم على البقاء وانها لاتنوى التراجع والانسحاب بوجه من الوجوه فزاد ذلك فى مخاوف الفرنسويين فاضطرب جو السياسة الدولية ونعب الناعبون بان الحرب صارت على الابواب

وسعت الدول سعيا حثيثا للاصلاح والتوفيق فقال الالمان انهم يوافقون على الجلاء من الغدير مقابل جلاء الفرنسويين عن فاس والاسبانيين عن القصر والعرايش وانه اما ان يقضى على استقلال السلطنة المغربية وتقسم فتنال كل دولة من الدول نصيبها ، واما ان تحترم سيادة السلطان وتصان بلاده

ويطول بنا المقام لو رحنا نحاول وصف الادوار التى مرت بها الازمة السياسية فى تلك الايام وحسبنا ان نقول بان المفاوضات التى دارت بين الفرنسويين والالمانيين لبلوغ تسوية امتدت اشهرا وانتهت اخيرا بالاتفاق التام فنال الالمانيون تعويضا جغرافيا فى الكونغو مقابل اطلاق يد فرنسا فى المغرب الاقصى اطلاقا تاما وتنازلهم عن كل دعوى فى ربوعه

٣١

الاتفاق الجديد بين المانيا وفرنسا

اشتد التنافس والتجاذب بين الالمان والفرنسويين فى تلك الحقبة حول المغرب الاقصى ، وكثرت بينهما المنازعات ، فكانت الدول تسرع فى كل مرة للتوسط فيعقد اتفاق لايلبث احد الفريقين ان يتناساه وينكره قبل ان يجف مداده فتنشأ ازمة جديدة تقيم العالم وتقعده

لقد عقدت ثلاثة اتفاقات سياسية فى خلال اربع سنوات بين المانيا وفرنسا لمعالجة المشكلة المغربية فاولها اتفاق ٨ يوليو سنة ١٩٠٥ وقد اتفقتا بموجبه على الاشتراك فى مؤتمر الجزيرة وعلى المواد التى يعالجها ، ثم اتفقتا على عقد الجزيرة نفسه (ابريل سنة ١٩٠٦) ثم عقدتا الاتفاق الثالث يوم ٩ ابريل سنة ١٩٠٩ وقد اعترفت فيه المانيا برجحان كفة فرنسا سياسيا فى المغرب [1] وكان الناس يعتقدون عقب كل اتفاق بان امر المشكلة المغربية انتهى وانها لن تظهر على مرسح السياسة ثم لا يلبثون ان يفاجأوا بها مفاجأة تذهلهم فيشتد الضجيج والهياج وينادى المنادى بان الحرب صارت على الابواب ، ثم يعود الهدوء الى الدوائر السياسية بعد ايام فتشرع فى مباحثها للوصول الى تسوية تزيل الخلاف

ورأى ولاة الامور من الجانبين ان تكون التسوية فى هذه المرة نهائية فلا يعود الالمان الى ازعاج فرنسا واقلاقها ولا الى تعكير جو السياسة الدولية ، مقابل تعويض مناسب ينالونه

---

(١) هذه النصوص الثلاثة مثبتة فى متن الكتاب

وامتدت المفاوضات التى دارت على هذا الاساس ، اساس منح المانيا تعويضا جغرافيا مقابل تنازلها عن كل حق تدعيه فى المغرب ، وعدم رجوعها الى التدخل فى قضيته اشهرا وانتهت بالنجاح فوقع على الاتفاق الجديد يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩١١ وهذا مجمله :

١ — الضمانات العسكرية — يكون للحكومة الفرنسوية الحق بالاتفاق مع حكومة سلطان المغرب الاقصى على احتلال جميع الاراضى المغربية التى ترى ضرورة احتلالها لتوطيد النظام والامن والمحافظة عليها

٢ — الضمانات الدولية — تكون الحكومة الفرنسوية هى الواسطة بين حكومة المغرب الاقصى والدول الاجنبية فلا يعقد سلطان المغرب الاقصى معاهدة الا بعد ان يتفق عليها مقدما مع فرنسا وتقوم الحكومة الفرنسوية بحماية رعايا المغرب الاقصى المقيمين فى الخارج

٣ — الضمانات المالية — تراقب الحكومة الفرنسوية المالية المغربية ، بحيث تستطيع بضماناتها للدين المغربى ان تخرج السلطان من المركز الحرج الذى وقع فيه من عدة اشهر ولا يستطيع السلطان عقد قرض بلا موافقة الحكومة الفرنسوية

٤ — الضمانات الادارية — ينوب عن فرنسا فى فاس موظف تكون وظيفته فيها مثل وظيفة الوزير الفرنسوى المقيم فى تونس ، ويكون هذا الموظف واسطة الاتصال بين الحكومة المغربية وفرنسا . ويقوم ايضا بوظيفة الوزير الاكبر للسلطان . ويعين مراقبون فرنسويون فى وزارات الحكومة المغربية المختلفة

٥ — الضمانات القضائية — تتعهد المانيا بالموافقة على الغاء المحاكم القنصلية حينما تنشىء فرنسا بالاتفاق مع الموقعين لمعاهدة الجزيرة محاكم جديدة مثل المحاكم التى انشأتها فى تونس وقد قبلت المانيا بمثل هذا الشرط ايضا فيما يختص بحق الحماية

٦ — الضمانات الاقتصادية — يظل السلطان بمساعدة الحكومة الفرنسوية الرأس الاعلى للادارة والمراقبة للمصالح العمومية الكبرى والاشغال العمومية ذات المصلحة العامة مثل السكك الحديدية والطرق والموانى والتلغرافات الخ

٧ — الضمانات للتجارة الاجنبية — يحتفظ بمبدأ الحرية الاقتصادية بلا اقل تمييز او ترجيح وتعطى الامتيازات لاستغلال المناجم بلا تمييز بين الامم ولا تفرض رسوم ولا ضرائب على الحديد الذى يصدر الى خارج المغرب الاقصى وتوضع لائحة مستمدة من التشريع الفرنسوى للسكك الحديد الصناعية وتبقى سكك الحديد المغربية العامة تحت مراقبة الحكومة المغربية دون سواها

٨ — تتعهد المانيا بان تطلب بالاتفاق مع فرنسا مصادقة الدول الموقعة لمعاهدة الجزيرة على هذا الاتفاق

٩ — يتعهد المتعاقدان بان يعرضا مايقع بينهما من خلاف على محكمة الهاى للفصل فيه

وارسل وزير الخارجية الالمانية حين عقد الاتفاق كتابين الى وزير خارجية فرنسا وافق فى الاول باسم حكومته على ان يكون للحكومة الفرنسوية الحق فى ان تسمى سيطرتها الموصوفة فى هذا الاتفاق « حماية » اذا استصوبت ذلك وتعهد فى الثانى بعدم التدخل فى المفاوضات التى تدور بين فرنسا واسبانيا للوصول الى اتفاق على المسألة المغربية

التعويض الجغرافى

وقد تنازلت فرنسا لالمانيا بموجب هذا الاتفاق عن شقة من الكونغو تبلغ مساحتها ٣٠٠ الف كيلو متر مربع وتنازلت لها المانيا عن شقة ارض فى الكمرون مساحتها ١٦ الف كيلو متر مربع

موافقة الدول

وكانت روسيا اول دولة وافقت على هذا الاتفاق واقرته ثم تلتها ايطاليا فانكلترا فالدول الاخرى

٣٢

معاهدة الحماية

اطلق الاتفاق الالمانى الجديد يد فرنسا فى معالجة القضية المغربية وانالها كل ما تطلبه واراحها من العواذل والحساد فحملته الى فاس وسلمته بنصه الكامل الى السلطان طالبة اقراره والاعتراف بالحماية الفرنسوية على بلاده وهى الحماية التى طالما اقسمت بانها لا تبتغيها ولا تسعى اليها

وابى السلطان لاول وهلة اقراره واعتذر عن تنفيذ ماطلب منه وارسل الى الحكومة الفرنسوية يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩١١ اى بعد عقد الاتفاق الالمانى الفرنسوى بخمسة ايام فقط كتابا قال فيه :

نحن واثقون انه سينشأ عن الانفاق الفرنسوى - الالمانى الجديد كل ماتمناه من جهة الدفاع عن مصالح امبراطوريتنا الشريفة ، وعند ما يصل ممثل حكومتكم ليعرض على جلالتنا الاصلاحات الضرورية لضمان رفاهية بلادى وتقدمها فى سبيل الخير العام سيجد من جلالتنا معاونة ومساعدة طبقا لتصريحاتنا الصادرة عن اخلاص وحسن نية و بذلك تتحقق رغبتنا فى نفع حكومتنا الشريفة وتحسين حالتها

المشروع الفرنسوى الجديد

وحمل المسيو رينو وزير فرنسا فى طنجه المشروع الفرنسوى الجديد الى السلطان طالبا اقراره بلا ابطاء ولا توان ويقوم على القواعد الآتية :

١ - بسط الحماية الفرنسوية على المغرب الاقصى

٢ - احتلال كل مكان ترى فرنسا حاجة لاحتلاله

٣ – تنوب فرنسا عن حكومة المغرب فى الشؤون الخارجية فلا تعقد معاهدة الا برضائها وضماناتها

٤ – تعيين مندوب سـام لها لدى سلطان المغرب يتولى ادارة جميع امورها الملكية والعسكرية

٥ – تعيين موظفين فرنسويين لمراقبة جميع المصالح والدواوين المغربية

٦ – تنظيم المالية المغربية بواسطة فرنسا وتحت ضماناتها

٧ – وضع السلطان تحت سيطرة فرنسا فى كل ماله مـن السلطة السياسـية والاقتصادية

٨ – ابقاء سلطة الحكومة المغربية على كل مصالحها ودواوينها

٩ – اعطاء جميع الاشغال العمومية بالمقاولات والالتزام

١٠ – جعل التعريفة الجمركية لـكل الشعوب على السواء

١١ – اطلاق حرية التجارة لـكل الشعوب على السواء

١٢ – ان يوضع نظام دولى لمدينة طنجه

السلطان يعترض

وتسلم السلطان المشروع فى اواخر شهر نوفمبر فكتب عقب اطلاعه عليـه الى وزارة الخارجية الفرنسوية يقول :

« ان شرف الامبراطورية واعتبارها واحترام تقاليدها الخاصة يلزم ان يبقى كما كان فى الماضى كاملا غير منقوص فلا يمس بحال من الاحوال . ولا تجهـل الحكومة الفرنسوية ان السلطان فى المغرب الاقصى قد آل الى العائلة العلوية الكريمة من اربعة قرون فلا بد من ان تحفظ لها الحرمة والكرامة

« وهنالك امر آخر اود ان الفت نظر الحكومة الفرنسوية اليه وهو ان المغرب منـذ الفتح الاسـلامى لم ينضم الى دولة اجنبية ولا يزال منـذ ١٣ قرنا يتمتع باستقلاله التام

ومن اجل هذا فلا يمكن ان تعتبر الامبراطورية الشريفية فى المستقبل بلادا مستعمرة »

ولم يغن عن السلطان تضرعه ولم يدفع عنه مقدورا فابلغته فرنسا رسميا ان عليه اقرار المشروع فعكف على دراسته وطلب كثيرا من الايضاحات والبيانات عن بعض نصوصه

وكان النص القائل بان لفرنسا ان تحتل عسكريا الاماكن التى تدعو الحاجة الى احتلالها فى مقدمة ما اعترض عليه فقد الح بان لايتم احتلال الا بعد ابلاغ خبره الحكومة المغربية مقدما والحصول على موافقتها

وطلب السلطان من الحكومة الفرنسوية ضمانات وافية على احترام التقاليد والعادات الاسلامية وحرية العبادات والتدين واقامة الشعائر والاحتفاظ بالقضاء الشرعى والمحافظة على الاوقاف الاسلامية (الحبوس)

ودار بحث طويل بين السلطان والمسيو رينو على الفقرة الخاصة بنظام طنجه الدولى فقال « ان طنجه مدينــــة مغربية خالصة وجزء لايتجزأ من مملكتنا ولا يمكن بحال من الاحوال ان تخرج عن القانون المغربى فارضها ارض مغربية واهلها مغاربة »

وفى يوم ٢٩ مارس سنة ١٩١٢ وبعد انقضاء نحو خمسة اشهر فى الدرس والبحث والاستفسار وطلب الايضاحات ابلغ السلطان ممثل فرنسا بانه سيوقع على المعاهدة غدا

وجاء السفير فى الغد قبل الظهر (٣٠ مارس) فوقع السلطان على المعاهدة وسلمه اياها وهذا نصها :

حكومة الجمهورية الفرنسوية وحكومة جلالته الشريفة مهتمتان بانشاء سلطة منتظمة فى المغرب قائمة على تنظيمه الداخلى وامنه العام ، راغبتان فى تأسيس نظام يسمح بادخال الاصلاحات ويضمن نمو البلاد الاقتصادى ، وقد اتفقتا على النصوص الآتية :

المادة الاولى ـ حكومة الجمهورية الفرنسوية وجلالة السلطان توافقان على انشاء نظام جديد فى المغرب قابل للاصلاحات الادارية والقضائية والمدرسية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى ترى الحكومة الفرنسوية فى ادخالها للمغرب الاقصى فائدة وهذا النظام (الجديد) سيحفظ الحالة الدينية ، ويحفظ حرمة السلطان ونفوذه المعتاد ومزاولة الدين الاسلامى . وسيبقى المؤسسات الدينية وخاصة مؤسسات الحبوس ويقبل انشاء مخزن شريف (١) منظم (طبقا للاصلاحات) وحكومة الجمهورية ستفاوض الحكومة الاسبانية فى موضوع المصالح التى تستمدها هذه الحكومة من موقعها الجغرافى وممتلكاتها على الشاطى المغربى (٢) وهكذا مدينة طنجه ستحفظ الصفة الخاصة التى اعترف لها بها ، والتى سيحدد تنظيمها النهائى

المادة الثانية ـ جلالة السلطان يقبل منذ الآن ان تأخذ الحكومة الفرنسوية فى الاحتلالات العسكرية للتراب المغربى مما تراه ضروريا لحفظ النظام وتأمين المعاملات التجارية ، وذلك بعد اخطار المخزن وجلالته يقبل ان تزاول الحكومة الفرنسوية كل اعمال الحراسة برا وبحرا فى المياه المغربية

المادة الثالثة ـ حكومة الجمهورية تأخذ على نفسها عهدا ان تبذل لجلالته الشريفة مساعدة ضد كل خطر سيهدد شخصه او عرشه ، او سيقلق راحة ولاياته ونفس المساعدة ستقدم لوارث العرش ولخلفائه من بعده .

المادة الرابعة ـ التدابير التى يحتاجها نظام الحماية الجديد ، سيصدر الامر بها من جلالته الشريفة او من السلطات التى ينيبها جلالته وصدورها بعد اقتراح من الحكومة الفرنسوية وكذلك سيكون الامر فى التنظيمات الجديدة وتعديلات الانظمة الموجودة

المادة الخامسة ـ تمثل الحكومة الفرنسوية عند جلالته الشريفة بمندوب (مقيم عام) يودع اليه جميع سلطان الجمهورية بالمغرب ، يسهر على تنفيذ هذا الاتفاق والمندوب المقيم العام ، سيكون هو وسيط السلطان الوحيد مع الممثلين الاجانب ، فى المسائل التى يتفاوض فيها هؤلاء الممثلون مع الحكومة المغربية وسيكون خاصة مكلفا بسائر القضايا التى تهم الاجانب فى الامبراطورية الشريفة . وباسم الحكومة

الفرنسوية سيصادق على جميع اوامر السلطان الصادرة عن جلالتـه الشريفة ، ويأذن بنشرها .

المادة السادسة ـ وكلاء فرنسا الدبلوماسيون والقنصليون سيكلفون بتمثيل وحماية الرعايا المغاربة والمصالح المغربية فى الخارج ، وجلالته الشريفة يتعهد بان لايعقد اى عقد له صبغة دولية دون رضى سابق من حكومة الجمهورية الفرنسوية

المادة السابعة ـ حكومة الجمهورية الفرنسوية وحكومة جلالته الشريفة يستبقيان الى اتفاق مشترك ، تعيين الاسس لتنظيم مالى ، يسمح بضمان تعهدات الخزينة الشريفة وبجباية محصولات الامبراطورية جباية منتظمة ، وذلك مع احترام الحقوق المعطاة لحاملى سندات الديون العمومية المغربية

المادة الثامنة ـ جلالته الشريفة يمتنع من ان يعقد فى المستقبل ، مباشرة او بواسطة ، اى قرض عمومى ويمتنع من ان يمنح اى امتياز باى شكل كان دون اذن من الحكومة الفرنسوية

المادة التاسعة ـ هذا الاتفاق الحاضر سيقدم لمصادقة حكومة الجمهورية الفرنسوية . ووثيقة هذه المصادقة ستقدم لجلالته الشريفة فى اقصر اجل ممكن

واقرارا بهذا علم الموقعان العقد الحاضر وختماه بطابعيهما .

وضع بفاس ٣٠ مارس سنة ١٩١٢

المعاهدة فى البرلمان الفرنسوى

وفى يوم ١٤ يونيو من تلك السنة شرع مجلس النواب الفرنسوى يتناقش فى معاهدة فاس فدرسها فى ثلاث جلسات خطب فى اثنائها المسيو جوريس النائب الاشتراكى فطلب الغاءها وعقد اتفاق جديد ولكن لا على اساس حام ومحمى بل على اساس اتحاد بين فرنسا والمغرب الاقصى وانتقد سياسة الوزارتين وزارة مونى ووزارة كايو لانها ادت الى الاحتلال العسكرى واعلان الحماية . وفى يوم اول يوليو وافق المجلس باتفاق ٤٤٣ صوتا على المعاهدة مقابل ٨٥ اقترعوا ضدها

وعرضت على مجلس الشيوخ يوم ١١ يوليو فوافق عليها فى الجلسة نفسها برفع الايدى وبعد مناقشة استمرت ساعتين . وفى يوم ١٥ منه اصدر رئيس الجمهورية مرسوما بابرام المعاهدة ووضعها موضع التنفيذ

الدول والمعاهدة

وابلغت الحكومة الفرنسوية دول مؤتمر الجزيرة المعاهدة الجديدة عملا بالاصول المقررة فى ذاك المؤتمر فتردد فى المصادقة البعض وصادق عليها البعض الآخر بعد تردد طويل وكان آخرها الولايات المتحدة فلم تصادق عليها الا بعد دخولها فى الحرب الى جانب الحلفاء وذلك فى يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٩١٧

٣٣

ثورة ١٧ ابريل

كتم السلطان وكبير وزرائه المقرى ، وقد عينه لهذا المنصب بطلب الفرنسويين ، امر المعاهدة مدة اسبوعين ، ولما كان من غير المعقول ان تظل مكتومة الى الابد ، فقد فشا امرها فى النصف الاول من شهر ابريل فهاج لذلك سكان مدينة فاس وفى مقدمتهم الجند الوطنى وتدفقوا يوم ١٧ منه الى القصر السلطانى يريدون الفتك بالسلطان واغتياله فاختبأ ففتكوا بالضباط الفرنسويين الذين كانوا يتولون تدريب الجيش المغربى وعددهم ١٣ فقتلوهم كما قتلوا ٤٠ من الفرنسويين وهاجموا حى « الملاح » اليهودى واعملوا فيه يد النهب والسلب واستمرت الاضطرابات فى داخل مدينة فاس ثلاثة ايام بلياليها وسرت الى القبائل المجاورة لها فانضمت الى الثورة فاتسع نطاقها اتساعا مخيفا .

واسرع الفرنسويون فارسلوا القوى العسكرية الكبرى لاخماد الفتنة الجديدة ، وكانت من اشد الفتن التى حدثت حتى ذاك الوقت ، وقد اشتهر فى هذه الفتنة الجنرال غورو سفاح سورية بعد ذلك ، فقد تولى قيادة الحملة التى ارسلت الى فاس لفك الحصار عنها ، وكان يحيط بها ٢٠ الفا من رجال القبائل ، فاستطاع بعد جهد وعناء عظيمين و بعد معارك شديدة دارت بينه و بين المغاربة بلوغ فاس وتشتيت القبائل التى كانت تهاجمها ، وقد رفع فى اثناء تلك الفتنة الى رتبة جنرال فصار الجنرال غورو

وكانت هناك حملة فرنسوية اخرى بقيادة الجنرال مانجان وكانت تعمل فى الجنوب وقد لاقت عناء ونصبا ولكنها تغلبت فى النهاية ودخلت مدينة مراكش

وفرض الفرنسويون غرامة مالية باهظة على مدينة فاس واعدموا ٤٨ من الذين اشتركوا فى فتنة ١٧ ابريل ، ومنعوا حمل السلاح واصدروا امرا بقتل كل من يحمله وارتكبوا اقسى اعمال الشدة فى اخماد هـذه الثورة وقد استمرت نحو ثلاثة اشهر وكلفتهم كثيرا من الدماء والاموال ، وكانت خسارة المغاربة اشد بكثير منهم فقد نكبوا نكبة تجل عن الوصف

٣٤

تنازل المولى عبد الحفيظ وسفره

كانت هنالك مفاوضات خاصة تدور بين السلطان عبد الحفيظ والمسيو رينو وزير فرنسا ومندوبها ، الى جانب المفاوضات السياسية التى كانت تدور لعقد معاهدة الحماية

اما مدار هذه المفاوضات فهو الاتفاق على اختيار سلطان جديد للمغرب الاقصى بدلا من عبدا لحفيظ الذى ادرك انه ليس فى طاقته الاحتفاظ بالعرش بعد توقيع معاهدة الحماية وتسليم البلاد الى فرنسا وهو الذى اعلن انه ما قام الا لمحاربتها ، وحصوله على ما يضمن له الحياة بعد تنازله . ويقول بعض الكتاب الفرنسويين انه حاول التنازل عن العرش ، والتخلى عنه ، قبل عقد المعاهدة وابرامها فلا تتم على يده ولا توقع بتوقيعه ولكن الفرنسويين لم يقبلوا له عذرا ، والحوا عليه بان يوقعها فانصاع اليهم

وهذا نص الاقتراحات التى عرضها على الفرنسويين فى اثناء المفاوضات وطلب منهم اقرارها مقابل توقيعه على عهد الحماية :

١ — ان ينصب وارثه خلفا له

٢ — ان يضمن الملك بعد وارثه لاخوته (اى اخوته الوارثين الحقيقيين)

٣ — ان يسمح له بالاقامة اينما اراد بعد تنازله سواء فى العاصمة التى يقيم فيها وارثه او فى غيرها من مدن المغرب الاقصى او بعض انحاء المستعمرات الفرنسوية او المدينة المنورة او غيرها من المدن الاسلامية المقدسة

٤ — ان يراعى مقامه ويعامل معاملة تليق بمنصبه السابق اذا شاء الاقامة فى مستعمرة فرنسوية

٥ — ان يتفق مع حكومة فرنسا قبل ان يزمع السفر الى بلاد اومدينة اجنبية
وقبلت فرنسا هذه الاقتراحات وتعهدت بتنفيذها بموجب كتاب ارسله اليه المسيو رينو هذا نصه :

« تجرى الحكومة الفرنسوية على جلالتكم راتبا يليق بمقامكم فى اليوم الذى تتنازلون فيه عن العرش لسبب من الاسباب واذا رأيتم جلالتكم ان تعينوا احد ابنائكم خلفا لكم على عرش الدولة الشريفية فلكم ذلك بعد الاتفاق مع الحكومة الجمهورية

« اما من جهة سفر جلالتكم الى رباط وطلبكم منى ان اصحبكم فى سفركم هذا فسأعمل برغبتكم »

السفر الى رباط

ورأى السلطان بعد ما اشتدت الثورة (ثورة ١٧ ابريل سنة ١٩١٢ وقد تقدم ذكرها) ان يعجل بالسفر الى رباط ، وهى تقع على الساحل ، ليكون بعيدا عن الخطر ، وطلب من المسيو رينو ان يرافقه طبقا لما جاء فى متن الاتفاق ، والقصد من ذلك ان يكون فى سفره تحت حماية الفرنسويين فلا يعتدى عليه ، ولا يناله اذى ، وبديهى ان هؤلاء لن يتركوا ممثلهم السياسى يسافر وحده بل لا بد ان يرفقوه بقوة قوية للمحافظة عليه ، فاستمهلوه ريثما تستقر الحالة وتهدأ ، وفى يوم ٢٦ يونيو سنة ١٩١٢ و ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٠ غادر العاصمة الى رباط ومعه المسيو رينو ، فكان ذلك آخر عهده بها

التنازل عن العرش

وفى رباط ويوم ١٢ اغسطس سنة ١٩١٢ و ٢٩ شعبان سنة ١٣٣٠ اعلن رسميا تنازله عن العرش — وذلك بالاتفاق مع ولاة الامور الفرنسويين — وسافر فى الغداة الى جبل طارق وفى ١٥ منه وصل الى مرسيليا فقصد فيشى احدى مدن المياه الفرنسوية للاستشفاء ثم عاد منها الى باريس ولا يزال مقيما فيها حتى الان يحيا حياة اشبه بالتشرد ويبكى ملكا مضاعا واملا خائبا

٣٥

بيعة المولى يوسف وثورة الهبة

ما كاد المولى عبد الحفيظ يغادر بلاده الى فرنسا ، ويتنازل عن الملك حتى دعا الفرنسويون علماء فاس وولاة امورها الى مبايعة اخيه المولى يوسف نجل الحسن وشقيق عبد الحفيظ وعبد العزيز والزين فبايعوه يوم ١٤ اغسطس سنة ١٩١٢ و ٢ رمضان سنة ١٣٣٠ بعد ما اخذ الفرنسويون عليه العهد بان يكون طوع ارادتهم وبان ينفذ لهم جميع طلباتهم ومقترحاتهم

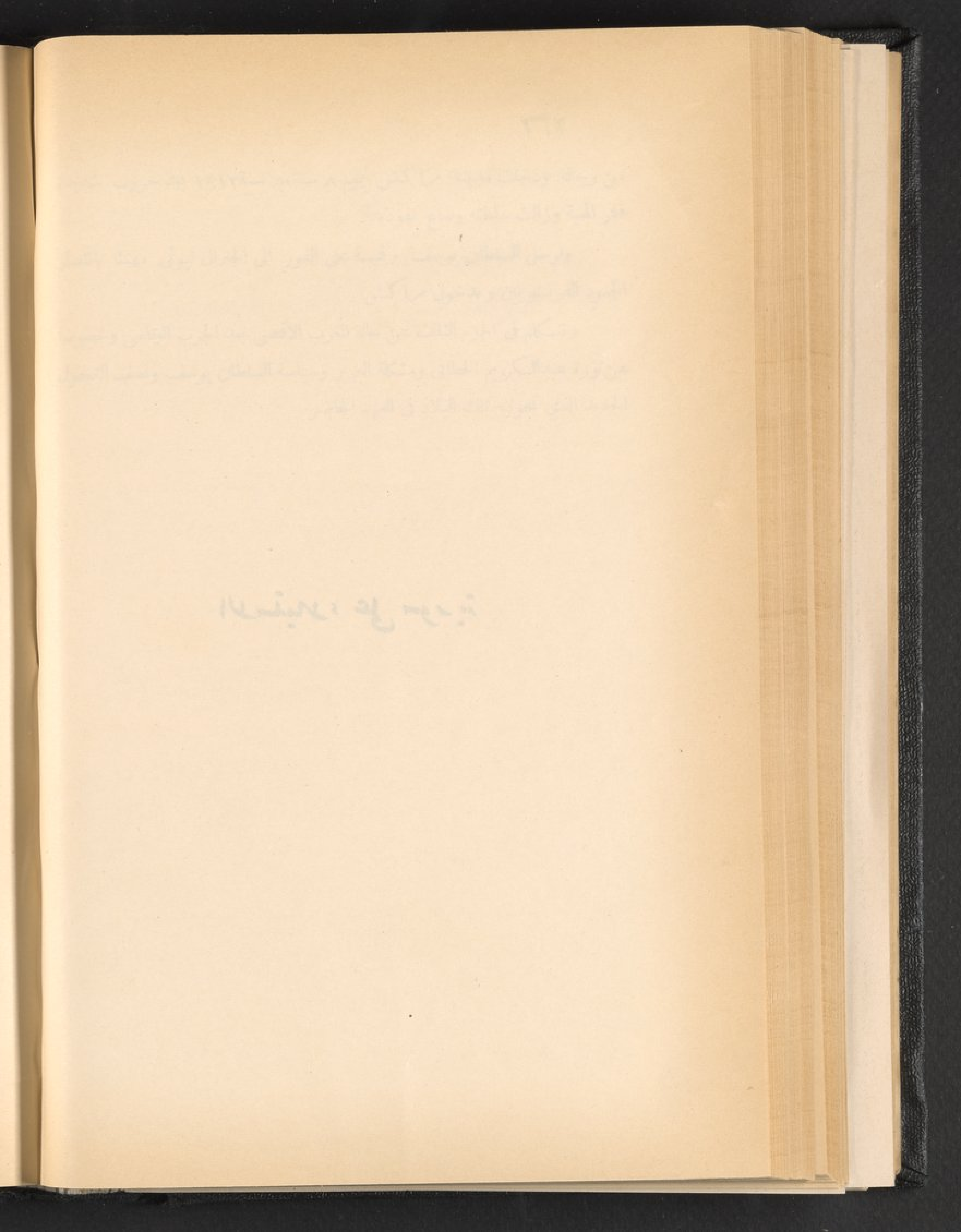
وبينما كانت المدافع تطلق فى فاس ايذانا باعتلاء المولى يوسف العرش تحت الحماية الفرنسوية كانت المعدات تعد فى الجنوب لاخذ البيعة لسلطان جديد هو هبة الله نجل الشيخ ماء العينين او الهبة كما يسمونه اختزالا . فقد نهض هذا فى منطقة مراكش حينما انهار النفوذ الحفيظى واستولى الفرنسويون على العاصمة ، يدعو الى الجهاد، وانقاذ البلاد، فلباه كثيرون ، فحمل بهم على مدينة مراكش فحاصرها ، وكان القاضى الجلاوى يدافع عنها، ثم اقتحمها عنوة يوم ١٦ اغسطس اى بعد بيعة السلطان الجديد بيومين فقط ، وقبض على تسعة من الفرنسويين كانوا فيها واعتقلهم وبينهم قنصل فرنسا واعضاء بعثة البوليس ، وقد ظلوا فيها دون الاخرين الذين نزحوا عنها . وفى يوم ١٨ منه جمع العلماء والاعيان فبايعوه سلطانا للمغرب الاقصى بدلا من عبد الحفيظ فشرع يجمع القوى والانصار للزحف على الفرنسويين ومحاربتهم فاجتمع له نحو عشرة آلاف مقاتل وعبأ الفرنسويون حملة عسكرية كبيرة بقيادة الكولونيل مانجان زحفت لقتاله والقضاء على حكومته فحاربته وانتصرت عليه وقتلت نحو الفين

من رجاله ودخلت مدينة مراكش يوم ٨ سبتمبر سنة١٩١٢ بعد حروب شديدة ففر الهبة وزالت سلطته وضاع نفوذه

وارسل السلطان يوسف برقيــة على الفور الى الجنرال ليوتى مهنئا بانتصار الجنود الفرنسويين وبدخول مراكش

ونتكلم فى الجزء الثالث عن حالة المغرب الاقصى بعد الحرب العظمى وخصوصا عن ثورة عبدالكريم الخطابى ومشكلة البربر وسياسة السلطان يوسف ونصف التحول الجديد الذى تحولته تلك البلاد فى العهد الحاضر

الاستيلاء على سورية



١

معلومات عامة

اطلق جغرافيو العرب اسم بلاد الشام على الجزء الواسع الممتد بين رفح ـ المدورة جنوبا ـ وجبال طوروس ـ ديار بكر شمالا ـ والبحر المتوسط غربا ـ وحدود العراق شرقا ، فهو يحاد مصر والحجاز والاناضول والعراق والبحر المتوسط

وائتمر الانكليز والفرنسيس بسورية فى زمن الحرب العظمى واقتسموها بينهم ونفذوا ذلك بعد ختامها فكان الجنوب من نصيب الانكليز والشمال والوسط من نصيب الفرنسويين و يتألف نصيب الاولين من مقاطعتى :

١ ـ فلسطين

٢ ـ شرقى الاردن

و يتالف نصيب الآخرين من المقاطعات الآتية :

١ ـ سورية الشرقية او الداخلية

٢ ـ لبنان او سورية الغربية والساحلية

٣ ـ كيليكية

٤ ـ الموصل

واستولى الانكليز فى غضون الحرب العظمى على فلسطين بمساعدة الجيش العربى (انظر ص ٤١٩ من الكتاب الاول) كما وضعوا يدهم سلما على شرقى الاردن فى سنة ١٩٢٠ اى بعد سقوط الدولة الفيصلية فى الشام وذلك بطلب شيوخ البلاد واعيانها (انظر ص ٤٣٩ من الكتاب الاول)

ودارت مفاوضات بين حكومتى لندن و باريس سنة ١٩١٨ ـ ١٩١٩ انتهت

بتنازل الفرنسويين عن مدعياتهم بولاية الموصل وكان الانكليز يحتلونها احتلالا عسكريا مقابل اطلاق يد الفرنسويين فى سورية الشمالية والقضاء على الحكومة الفيصلية

وثار الترك فى كيليكية (سورية الشمالية) على الفرنسويين ولم يطيقوا حكمهم القاسى واصلوهم حربا عوانا فوقعت معارك عنيفة بين الفريقين شعر الفرنسويون فى خلالها بان التمسك بامتلاك هذا القطر يكلفهم ثمنا باهظا والاستعمار فى حد ذاته عملية تجارية ـ اقتصادية يراد بها محض الربح فقرروا الجلاء عنه وعقدوا معاهدة مع حكومة انقره سلموا بموجبها هذا الجزء من الوطن العربى الى الترك مقابل اعتراف هؤلاء بمقامهم فى سورية الوسطى

ولا يقل عدد سكان سورية بحدودها الطبيعية اى بمقاطعاتها الثلاث (الخاضعة للانكليز والفرنسويين والترك) عن خمسة ملايين من السكان ولا نظن ان قطرا عربيا ابتلى بما ابتليت به من التجزئة والتقسيم فقد اتخذت وطنا لكل مطرود منبوذ ، وفتحت ابوابها على مصراعيها فجاءها الانكليز باليهود وحمل اليها الفرنسويون الارمن والكرد والاشوريون والشراكسة ووطأوا لهم فى اكنافها لاضعاف العصبية العربية واتخذوهم اداة لتوطيد نفوذهم فضلا عن احيائهم النعرات الدينية والطائفية وتقسيمهم البلاد الى دول وحكومات بحسب الطائفية لا بحسب الضرورات الاقتصادية ، والمصلحة العامة ، وهما الاساس فى كل تقسيم وتنظيم وتشريع

ويضطهد الترك عرب كيليكية اضطهادا شديدا ويمنعونهم من التخاطب بلغتهم العربية ويحرمون عليهم دراستها وتعلمها ، ويعملون بجميع الوسائل لصهرهم فى بوتقه القومية التركية فلا يعود العرب الى المطالبة بهذا الاقليم ولا يحاولون اخراجهم منه ولكنهم لن يفلحوا

٢

الحملتان الفرنسيتان على سورية

اول سعى سعاه الفرنسويون لاحتلال سورية كان فى خلال حملتهم الاولى الى مصر فقد اغتنم نابليون بونابرت قائدها العام فرصة استيلائه على وادى النيل فزحف الى الشام برا على رأس قوة كبيرة فاستولى على العريش بدون مقاومة ومنها تقدم الى غزة فيافا

وفى يافا استسلم اليه ٢٠٠٠ جندى تركى فقتلهم خلافا لكل عهد واصول وواصل التقدم الى عكا وكانت من امنع الحصون فى ذلك العهد فنازلها فقاومته

ووصل الى عكا والحرب دائرة حولها (بين الترك والفرنسويين) الاميرال سدنى سمث قائد الاسطول البريطانى فى البحر المتوسط فرسى امامها واشترك مع حاميتها فى الدفاع عنها وامدها بالسلاح والعتاد فشجعها ونفخ فيها روحا جديدة فثبتت امام هجمات الفرنسويين واعادتهم القهقرى فادرك قائدهم انه ليس فى طاقته التقدم فجمع الذين ظلوا احياء من رجاله وعاد بهم الى القاهرة، ولم يطل الاقامة فيها بعد ذلك بل غادرها الى فرنسا، وفشل مشروع احتلال الشام برجوعه كما قضى على مشروع احتلال مصر بعد ذلك

وكان المشروع الذى زحف نابليون لتحقيقه يقوم على احتلال بلاد الشام كلها ثم مواصلة الزحف الى العراق فخليج فارس فالسند فالهند لانتزاع الاخيرتين من الانكليز وانشأ امبراطورية عظيمة فى آسيا لا تقل عن امبراطورية الاسكندر المقدونى، فكبا به جواد الحظر حول عكا

واتصل نابليون مدة وجوده فى مصر بامام مسقط وانشأ صلات معه

(انظر ص ٣٩١ من الجزء الاول) وطلب منه ايصال كتاب ارسله اليه ضمن كتابه الى تيبو صاحب احد امراء الهند الناقمين على الانكليز يبلغه فيه خبر قدومه الى مصر وقرب زحفه الى الهند لانقاذها فزاد ذلك فى مخاوف الانكليز فجدوا فى مطاردة الحملة الفرنسوية فأخرجوها من مصر وارتاحوا من اخطارها

هذه هى الحملة الفرنسوية الاولى الى الشام وقد انتهت بالفشل والاخفاق بفعل تحالف الترك والانكليز وتألبهم عليها

اما الحملة الثانية فارسلت فى سنة ١٨٦٠ وذلك ان الامبراطور نابليون الثالث توسل بالاضطرابات الداخلية التى حدثت يومئذ فى لبنان فاسرع للتدخل باسم الدفاع عن المسيحيين وحمايتهم وما كانت غايته الحقيقية سوى امتلاك البلاد والفوز بها ، وكان يترسم خطوات عمه نابليون الاول فى سياسة الفتح والتوسع ويرجو ان يتم على يده ما عجز عمه عن نيله

وعرفت الدول الاوربية — وكانت المنافسة بين انكلترا وفرنسا على اشدها — ما تنطوى عليه هذه الخطة من مخاطر وعرف الباب العالى ان اطلاق يد فرنسا تعمل منفردة يفقده هذا الجزء الثمين من بلاده فسعى عند دول اوربا مبينا لها الاخطار التى تنتج من تدخل فرنسا فوجدت دعوته آذانا صاغية ودارت مفاوضات فى هذا الشأن بينه وبين انكلترا وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا انتهت بعقد الاتفاق الآتى :

لما كان جلالة السلطان يريد ان يحقن الدماء فى سورية باتخاذ اقرب الوسائل الناجعة لنشر لواء السلام بين الشعوب الخاضعة لسلطته ، وكان اصحاب الجلالة امبراطور النمسا وامبراطور فرنسا وملكة بريطانيا العظمى وايرلندا وسمو نائب الملك فى بروسيا وجلالة امبراطور روسيا قد عرضوا على جلالة السلطان مساعداتهم الفعالة فقد اتفق ممثلوهم على المواد الاتية :

المادة الاولى — ترسل الى سورية حملة من الجنود الاوربيين يمكن ابلاغ عددها الى ١٢ الف مقاتل لتوطيد الامن

المادة الثانية — قبل جلالة ملك فرنسا ان يجهز فى الحال نصف عدد الحملة ،

واذا اقتضى الامر ابلاغه الى العدد المنصوص عليه فى المادة السابقة فعلى الدول ان تتفق بلا ابطاء مع الباب العالى بطريق المفاوضات العادية وتتفق على الدولة التى تقدم هذا الجند

المادة الثالثة ـ على قائد هذه الحملة ان يتصل عند وصوله بالمندوب الممتاز للباب العالى و يتفق على اتخاذ جميع الوسائل التى تتطلبها الاحوال ، ولاحتلال الاماكن التى يجب احتلالها ، و بلوغ الغاية المقصودة

المادة الرابعة ـ يعد اصحاب الجلالة امبراطور النمسا وملك فرنسا وملكة بر يطانيا وامبراطور روسيا ونائب ملك بروسيا بمواصلة ارسال القوات البحرية الكافية الى ساحل سورية وابقائها فيها لضمان فوز المساعى المشتركة الرامية الى توطيد الامن فى تلك البلاد

المادة الخامسة ـ تتفق الدول الموقعة ان تكون مدة احتلال الجنود الاور بية لسورية ستة اشهر لثقتها من انها كافية لاعادة الامن والسكون الى نصابهما

المادة السادسة ـ يتعهد الباب العالى بان يبذل مافى وسعه لتموين الحملة

المادة السابعة ـ يتبادل الموقعون نسخ هذا الاتفاق المصدقة فى باريس خلال خمسة اسابيع من تاريخ توقيعها او قبل ذلك اذا امكن

وفى يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٦٠ وصلت الحملة الفرنسوية الى بيروت وكانت تتألف من خمسة آلاف من المشاة و ٢٠٠ من الفرسان فنزلت فيها وتفرقت فى انحاء جبل لبنان ، فساعد وصولها على ادخال النفوذ الفرنسوى الى لبنان ونشره بين الموارنة ، وكانت هناك صلات وثيقة بينهم و بين فرنسا نشأت عن طريق القناصل الفرنسويين وعن طريق المبشرين والارساليات الكاثوليكية التى انبثت فى كل قرية من قرى لبنان تقريبا ، وعن طريق التزاور والتبادل التجارى والاقتصادى ، ويجب

ان نشير ايضا الى ما كان هنالك من روابط مباشرة تأسست بين البطريركية المارونية وفرنسا منذ القرن السابع عشر[١]

(١) يقول احـد المؤرخين اللبنانيين ان الصلات الرسمية بدأت بين فرنسا و بطريركية الموارنة فى عهد لويس الرابع عشر بالمنشور الذى اصدره ونصه :

لويس بنعمة الله ملك فرنسا ونافار الى كل من يقرأ هذا العقد صحة وسلام :

ليكن معلوما انه بناء على اشارة الملكة الوصية سيدتنا ووالدتنا المبجلة ، التى اخذت على نفسها ووضعت كما نأخذ الآن على نفسنا ونضع بموجب هذا العقد الموقع بامضائنا ، تحت حمايتنا وحراستنا الخاصة البطريرك الجزيل الاحترام والاحبار الدينيين والعلمانيين والمسيحيين المارونيين الذين يقطنون خاصة فى جبل لبنان ونرغب فى ان يجنوا فوائد هذه الحماية والحراسة فى كل زمان ومكان وفى جميع الاحوال وتوصلا الى هـذه الغاية نأمر خادمنا الامين المحبوب السيد دى لاهير نتقلاى المستشار فى مجلسنا وسفيرنا فى الشرق الادنى وكل الذين يخلفونه فى هذا المنصب ان يتعهدوهم جملة وافرادا بعنايتهم ومؤازرتهم وارشادهم وحمايتهم فى بلاط (باب) صديقنا العزيز الكامل الاوصاف سلطان العثمانيين العظيم وكل مكان آخر تدعو فيه الضرورة الى ذلك و بطريقة لا يكونون فيها معرضين لسوء المعاملة بل بالضد ان يظلوا احرارا فى اتمام فروضهم الدينية كلها

وعلاوة على ذلك فانا نأمر قناصل الامة الفرنسوية ووكلاء قناصلها المعينين فى موانئ الشرق الادنى و بنادره او غيرهم الذين يستظلون بظل الراية الفرنسوية الحاضرين والعتيدين ان يساعدوا بكل طاقتهم البطريرك المذكور وجميع الموارنة المسيحيين المذكورين القاطنين فى جبل لبنان المذكور ويسفروا على السفن الفرنسوية او سواها اولئك الشبان الذين يرغبون فى السفر الى البلدان المسيحية اما للتعلم او لاشغال اخرى وكل المسيحيين الموارنة الذين يرغبون فى ذلك من دون ان يتقاضوا او يطلبوا منهم شيئا سوى التصاريح التى يختار هؤلاء ان يعطوهم اياها و يعاملوهم بكل ما يمكن من اللطف والاحسان

وانتهى ذلك الدور – دور الاضطراب – بوضع نظام جبل لبنان فى سنة ١٨٦١ وقد وقعت عليه الدول الخمس التى اشتركت فى عقد المعاهدة ، واستقرت الاحوال وعاد الجنود الفرنسويون الى بلادهم بسبب الحاح الدول

وعمل رجال فرنسا وقناصلها ومبشروها الذين تواردوا بعد ذلك الى سورية على تعزيز نفوذها ونشر لغتها وثقافتها وتجارتها ؛ كما تولوا تنفيذ مشروعات اقتصادية جمة فزاد ذلك فى نفوذهم وجرأهم على التدخل فى شؤون البلاد

ويضيق بنا المقام لو حاولنا سرد الاعمال التى عملها الفرنسويون فى الفترة المنقضية بين سنتى ١٨٦٠ و ١٩١٨ تمهيدا لاحتلالهم فما كانوا يتورعون عن عمل كل ما يعتقدون انه يدنيهم من امنيتهم ولا يحجمون عن دس الدسائس للحكومة العثمانية واغراء بعض رعاياها بها ودفعهم للثورة عليها لاحراج مركزها واضعاف هيبتها

وبلغت دعايتهم الحد الاعلى من النشاط والقوة فى خلال الفترة المنقضية بين سنة ١٩١٢ – ١٩١٤ اى بين انكسار الدولة العثمانية فى حرب البلقان وبين اعلان الحرب العظمى فقد حسبوا ان الفرصة مواتية لهم فقام رجالهم السياسيون يعملون فى باريس وفى الاستانة وفى بيروت وفى دمشق وفى كل مكان للحصول على امتيازات جديدة ولتأييد « الحقوق المكتسبة » التى كانوا يدعونها

فالتمسوا من السلطان العظيم السامى القدر والباشوات وجميع مأمورى السلطنة واطلبوا منهم ان يرعوا السيد مطران طرابلس والاحبار المارونين والمسيحيين المارونيين بعنايتهم ويساعدوهم وعليكم انتم ان تفعلوا مثل ذلك بالذين يوصيكم اولئك بهم

صدر من سان جرمان فى لاى فى هذا اليوم الثامن والعشرين من شهر ابريل سنة ١٦٤٩ والسنة السادسة عشرة من ملك لويس

بحضور الملكة الوصية الوالدة

واصدر لويس الخامس عشر فى ٢٢ ابريل سنة ١٨٣٧ الى سفيره فى الاستانة وقناصله فى الشرق الادنى كتابا مثل كتاب والده

وكان موظفو الحكومة العثمانية فى سورية يرقبون اعمال دعاة فرنسا ورسلها ويشاهدون مايفعلونه وايديهم مغلولة الى اعناقهم؛ غلها الضعف والعجز ، وتردى الدولة فى هاوية الانحطاط والانحلال ، والضعيف مزدرى ومهان ، ولا سيما اذا كان دولة لها كثير من الحساد الذين يتمنون موتها ليستولوا على اراضيها واملاكها ويتمتعوا بخيرات بلادها

وتبدل موقف الموظفين الترك فى سورية بعد اعلان الحرب العظمى ودخول دولتهم فيها الى جانب المانيا ووقوفها موقف العداء من فرنسا فطاردوا الدعاة والانصار ونكلوا بهم واوقعوا بمن وقع فى ايديهم منهم واغلقوا المعاهد والمدارس الفرنسوية وسعوا لاجتثاث كل اثر فرنسوى فى تلك الربوع فلا تعود فرنسا بعد الحرب الى مطالبتهم بشيء ، وانتهى هذا الدور بانتهاء تلك الحرب فى خريف سنة ١٩١٨ فجلا الترك عن سورية نهائيا بلا حرب ولا قتال وتركوها بين يدى الجيش العربى والجيش البريطانى (جيش الحملة المصرية) فكان ذلك فاتحة الدور الحاضر

٣

المعاهدات السرية لاقتسام الشام والعراق

رأى جمهور القراء مما تقدم ان سياسة المعاهدات السرية لاقتسام بلاد العرب او المقايضة عليها عادت بافضل العوائد على الفرنسويين والانكليز والايطاليين فاكثروا منها واعتمدوا عليها فى تحقيق لباناتهم الاستعمارية لرخص ثمنها وسهولة تناولها

وما كاد ناقوس الحرب العظمى يدق فى سنة ١٩١٤ وتدخلها الدولة العثمانية الى جانب المانيا حتى تحركت شهوة النهم والشره فى صدور الفرنسويين والانكليز فاتصل بعض رجالهم ببعض يتناقشون ويبحثون فى اختيار اهون السبل لاقتسام البلاد العربية التى ظلت حتى ذلك اليوم خاضعة للسيادة العثمانية وهى :

١ ـ الشام

٢ ـ العراق

٣ ـ الحجاز

٤ ـ اليمن

واشتركت روسيا فى هذه المباحثات باعتبارها احدى دول الاتفاق الثلاثى ومطامعها معروفة فى ولايات الاناضول التركية وفى مدينة الاستانة نفسها

وانتهت هذه المباحثات السرية وقد دارت فى بطرسبرج سنة ١٩١٥ ـ ١٩١٦ بعقد معاهدة عرفت فى التاريخ السياسى باسم معاهدة بطرسبرج وهذا نصها :

بناء على المفاوضات التى دارت بين بريطانيا وفرنسا وروسيا فى ربيع سنة ١٩١٥ فى لندن وباريس

وبناء على اقتناع الدول المتحالفة بوجوب انقاذ الامم الخاضعة للسلطنة العثمانية وتقسيمها الى مناطق نفوذ فيما بينها

ولما كانت الاكثرية الساحقة من ابناء هذه البلاد راغبة جد الرغبة فى الخلاص من تحكم الحكومة الحاضرة

ولما كان الواجب يقضى بضرورة العمل على تدريب هذه الشعوب فقد تقرر ما يأتى :

المادة الاولى – تتعهد فرنسا و بريطانيا وروسيا فيما بينها ان تعمل يدا واحدة فى سبيل انقاذ البلاد العربية وحمايتها وتأليف حكومة اسلامية مستقلة فيها تتولى بريطانيا مراقبتها وادارتها

المادة الثانية – تتعهد الدول المتعاقدة بحماية الحج وتسهيل سائر السبل المؤدية الى مرور الحجاج وعدم الاعتداء عليهم

المادة الثالثة – تقسم البلاد العثمانية الى مناطق نفوذ بين الدول المتعاقدة على الوجه الآتى :

منطقة نفوذ روسيا

اولا – تنال الروسيا المناطق الاتية :

ا – ولايتى ارضروم و بتليس والمناطق التابعة لهما

ب – الاراضى الكائنة جنوبى كردستان وتمتد على خط من ولاية موش الى سعرد ومن هناك ينحدر الى جزيرة ابن عمر ثم تتبع خطا مستقيما الى العمادية ومنها الى الحدود الايرانية

ج – تتجه نقطة الحدود هذه من موش شمالا الى البحر الاسود فتدخل طرابزون فى سمتها

د – تنتهى نقطة حدود روسيا على البحر الاسود شرقى طرابزون فى نقطة تحدد فيما بعد

ه – تخضع هذه الاراضى خضوعا تاما الى حكومة صاحب الجلالة قيصر روسيا وتعتبر من ممتلكاته

منطقة نفوذ فرنسا

ثانيا ـ تضم الى منطقة نفوذ فرنسا المناطق الآتية :

ا ـ السواحل السورية : وتبدأ هذه السواحل من حدود الناقورة مارة بصور وصيدا فبيروت فطرابلس واللاذقية وتنتهى فى الاسكندرونة

ب ـ تضم المناطق الساحلية جميعها الى فرنسا مع جبل لبنان المعروفة حدوده بموجب الاتفاق الدولى المعقود سنة ١٨٦١

تضم جزيرة ارواد والمناطق المجاورة لها والجزر الصغيرة القائمة على الساحل نفسه

وتضم مقاطعة كيليكية (ادنه) من جهة الجنوب من الحدود الخاضعة للنفوذ الروسى فى جزيرة ابن عمر ثم تتجه الى عينتاب وماردين ثم تنحدر شمالا من آق طاغ ـ قيصرى ـ آق طاغ ، يلدز طاغ ـ زرعه ـ اكين ـ خربوط

ج ـ تظل هذه المنطقة خاضعة تمام الخضوع للنفوذ الفرنسوى

منطقة نفوذ بريطانيا

ثالثا ـ تؤلف منطقة النفوذ البريطانى كما ياتى :

ا ـ تضم المنطقة الممتدة من الحدود الروسية والفرنسوية فى المنطقتين المذكورتين الى النفوذ البريطانى وهذه المنطقة تضم القطر العراقى ونفس مدينة بغداد

ب ـ السواحل الممتدة من الحدود العربية الى حيفا فعكا حيث تتصل بحدود نفوذ فرنسا

ج ـ تضم المنطقة الممتدة من خليج فارس الى آخر البحر الاحمر الى نفوذ بريطانيا

د ـ تؤلف الحكومات العربية عملا بالمادة الآتية من سكان المناطق المسكونة بالعرب على ان تكون هذه الحكومات حائزة على السيادة والاستقلال اللازم لها والذى يعين فيما بعد بين الحكومات المتحالفة

رابعا ـ تؤلف فى المنطقة الكائنة بين منطقتى النفوذ الفرنسوى والبريطانى

دولة او حلف دول عربية مستقلة وفقا لاتفاق خاص بين فرنسا وانكلترا على ان تحدد حدود هذه الدولة حين عقد هذا الاتفاق

خامسا — يكون ثغر الاسكندرونة دوليا وتعلن حريته

سادسا — تعتبر فلسطين واماكنها المقدسة منطقة خارجة عن الاراضى التركية على ان توضع تحت ادارة خاصة وفقا لاتفاق يعين بين انكلترا وفرنسا وروسيا بهذا الشأن وتحدد مناطق نفوذ المتعاقدين ومصالحهم

سابعا — تقبل الدول المتعاقدة جانبا من الدين العثمانى بنسبة الاراضى التى تملكها (١)

اتفاق سايكس — بيكو

وعملا بما جاء فى المادة الرابعة من معاهدة بطرسبرج التى تقضى بان يعقد اتفاق خاص بين انكلترا وفرنسا لتحديد حدود الدولة العربية وتنظيم شؤون بلاد العرب انتدبت فرنسا جورج بيكو احد قناصلها السابقين فى بيروت وانتدبت انكلترا السير

---

(١) ابلغت دول التحالف ايطاليا خبر هذه المعاهدة حين انضمامها اليها فى الحرب العظمى واطلعتها على مادار بينها من مفاوضات فوافقت عليها يوم ٧ مارس سنة ١٩١٦ ضمن الشروط الآتية :

١ — ان تعرض القضية الشرقية بحذافيرها على بساط البحث بين دول الحلفاء وايطاليا عند ختام الحرب وخروج الحلفاء منصورين منها

٢ — ان تعطى لايطاليا فى المناطق التى تضم الى روسيا سائر الحقوق والتعهدات التى ستعطى لفرنسا فى المملكة العثمانية

٣ — ان تعترف الحكومة الروسية بالمنطقة التى ستعطى الى ايطاليا فى المملكة العثمانية

٤ — ان تكون حصة ايطاليا فى البلاد التى تنسلخ عن السلطنة العثمانية مساوية تماما للاراضى التى ستعطى لفرنسا وبريطانيا

مارك سايكس احد الواقفين على شؤون البلاد العربية لعقد هذا الاتفاق فاجتمعا بالقاهرة وتفاوضا طويلا تحت اشراف قنصل روسيا ، باعتباره ممثلا لدولة حليفة

وفى يوم ٩ مايو سنة ١٩١٦ أقرت الحكومتان الانكليزية والفرنسوية الاتفاق الذى عقداه وقد سمى باسمهما « اتفاق سايكس - بيكو » و يعتبر الاساس الذى تقوم عليه سياستهما فى بلاد العرب الشرقية وهذا نصه :

المادة الاولى - ان فرنسا و بريطانيا العظمى مستعدتان ان تعترفا وتحميا دولة عربية برئاسة رئيس عربى فى المنطقتين « ا » (داخلية سورية) و « ب » (داخلية العراق) المبينة فى الخريطة الملحقة بهذا الاتفاق

يكون لفرنسا فى منطقة « ا » ولانكلترا فى منطقة « ب » حق الاولوية فى المشروعات والقروض المحلية وتنفرد فرنسا فى منطقة « ا » وانكلترا فى منطقة « ب » بتقديم المستشارين والموظفين الاجانب بناء على طلب الحكومة العربية او حلف الحكومات العربية

المادة الثانية — يباح لفرنسا فى المنطقة الزرقاء (سورية الساحلية) ولانكلترا فى المنطقة الحمراء (منطقة البصرة) انشاء ماترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة او بالواسطة او من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة او حلف الحكومات العربية

المادة الثالثة — تنشأ ادارة دولية فى المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلى شريف مكة

المادة الرابعة — تنال انكلترا ما يأتى :

١ — ميناءى حيفا وعكا

٢ — يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات فى المنطقة «ا» للمنطقة «ب» وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها بان لا تدخل فى اى مفاوضات ما مع دولة اخرى للتنازل عن جزيرة قبرص الا بعد موافقة الحكومة الفرنسوية مقدما

المادة الخامسة — تكون اسكندرونة ميناء حرا لتجارة الامبراطورية البريطانية

ولا تنشأ معاملات مختلفة فى رسوم الميناء ولا ترفض تسهيلات خاصة الملاحة والبضائع البريطانية

وتباح حرية النقل للبضائع الانكليزية عن طريق اسكندرونة وسكة الحديد فى المنطقة الزرقاء سواء اكانت واردة الى المنطقة الحمراء او الى المنطقتين « ا » و«ب» او صادرة منهما

ولا تنشأ معاملات مختلفة مباشرة او غيرمباشرة على اى سكة من سكك الحديد او فى اى ميناء من موانئ المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية

تكون حيفا ميناء حرا لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها ولا يقع اختلاف فى المعاملات ولا يرفض اعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسوية ويكون نقل البضائع الفرنسوية حرا بطريق حيفا وعلى سكة الحديد الانكليزية فى المنطقة السمراء (فلسطين) سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء اوالحمراء او المنطقتين « ا »و « ب » او واردة اليها ولا يجرى ادنى اختلاف فى المعاملة بطريق مباشر او غير مباشر يمس البضائع او البواخر الفرنسوية فى اى سكة من سكك الحديد ولا فى ميناء من الموانئ فى المناطق المذكورة

المادة السادسة — لاتمد سكة حديد بغداد فى المنطقة « ا » الى مابعد الموصل جنوبا ولا فى المنطقة « ب » الى مابعد سامرا شمالا الى ان يتم انشاء خط حديدى يصل بغداد بحلب مارا بوادى الفرات و يكون ذلك بمساعدة الحكومتين

المادة السابعة — يحق لبريطانيا العظمى ان تنشئ وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدى يصل حيفا بالمنطقة «ب» ويكون لها ماعدا ذلك حق دائم بنقل الجنود فى اى وقت كان على طول هذا الخط . ويجب ان يكون معلوما لدى الحكومتين ان هذا الخط يجب ان يسهل اتصال حيفا ببغداد وانه اذا حالت دون انشاء خط الاتصال فى المنطقة السمراء مصاعب فنية ونفقات وافرة لادارته تجعل انشاءه متعذرا فالحكومة الفرنسوية تسمح بمروره فى طريق ، بر بورة — ام قيس — ملق — ايدار — غسطا — مغار — الى ان يصل الى المنطقة «ب»

المادة الثامنة ـــ تبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة فى جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقتين ا و ب فلا تضاف اى علاوة على الرسوم ولا تبدل قاعدة التثمين فى الرسوم بقاعدة اخذ العين الا ان يكون باتفاق بين الحكومتين

ولا تنشأ جمارك داخلية بين اية منطقة واخرى فى المناطق المذكورة اعلاه وما يفرض من رسوم جمركية على البضائع المرسلة يدفع فى الميناء و يعطى لادارة المنطقة المرسلة اليها البضائع

المادة التاسعة ـــ من المتفق عليه ان الحكومة الفرنسوية لاتجرى مفاوضة فى اى وقت ما للتنازل عن حقوقها ، ولا تعطى مالها من الحقوق فى المنطقة الزرقاء لدولة اخرى سوى للدولة او حلف الدول العربية بدون ان توافق على ذلك مقدما حكومة جلالة الملك التى تتعهد للحكومة الفرنسوية بمثل هذا فى ما يتعلق بالمنطقة الحمراء

المادة العاشرة ـــ تتفق الحكومتان الانكليزية والفرنسوية بصفتهما حاميتين للدولة العربية على ان لاتمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة ان تمتلك اقطارا فى شبه جزيرة العرب وتنشئ قاعدة بحرية على ساحل البحر المتوسط الشرقى على ان هذا لا يمنع تصحيحا فى حدود عدن قد يصبح ضروريا بسبب عداء الترك الاخير

المادة الحادية عشرة ـــ تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعيين حدود الدولة او حلف الدولة العربية

المادة الثانية عشرة ـــ من المتفق عليه ، عدا ماذكر ان تنظر الحكومتان فى الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح الى البلاد العربية

٤

المفاوضات بين العرب والانكليز

....

بينما كانت المفاوضات تدور فى القاهرة بين السر مارك سايكس الانكليزى والمسيو جورج بيكو الفرنسوى لاقتسام الشام والعراق وتقرير مصير الحجاز واليمن كانت هنالك مكاتبات رسمية اخرى تدور بين السر هنرى مكماهون نائب ملك انكلترا فى مصر و بين الشريف حسين باشا بن على امير مكة لانشاء تحالف بين العرب والحلفاء على قاعدة انشاء مملكة عربية تضم البلاد العربية التى كانت لاتزال خاضعة لحكم الترك

ووافق الانكليز رسميا على انشاء هذه المملكة وتعهدوا بمساعدة العرب فى تأسيسها . ولما جاء دور تحديد الحدود اصر الحسين بن على فى كتابه المؤرخ يوم ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ على ان تكون حدودها كما يلى : « من مرسين – ادنه حتى الخليج الفارسى شمالا ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا ، ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوبا – يستثنى من ذلك عدن التى تبقى كما هى ، ومن البحر الاحمر والبحر المتوسط حتى سينا غربا »

ورد نائب الملك على هذا الكتاب يوم ٣٠ اغسطس سنة ١٩١٥ فقال « اما ما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا فى مثل هذه التفاصيل والوقت قصير والحرب قائمة سابقا لأوانه وخاصة ان تركيا لا تزال تحتل قسما كبيرا من الاراضى التى اشرتم اليها فى اقتراحكم احتلالا تاما »

والح الحسين فى كتابه المؤرخ يوم ٩ سبتمبر بضرورة حل مسالة الحدود « فان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من ارضائه ومفاوضته بعد الحرب ،

بل هى مطالب شعب يعتقد ان حياته فى هذه الحـدود وهو متفق بأجمعه على هـــذا الاعتقاد »

وقال نائب الملك فى كتابه المؤرخ ٢٤ اكتوبر سنة ١٩١٥ « وقد ادركت من كتابكم الاخير انكم تعلقون اهمية كبرى على قضية مسألة الحـدود وانكم تعتبرونها من المسائل الحيوية فارسلت مضمون كتابكم الى الحكومة البريطانية وانه ليسرنى ان ارسل اليكم البيانات التالية التى اثق كل الثقة بانها ستفوز برضائكم :

«ان مرسين واسكندرونة و بعض الاقسام السورية الواقعــة فى غربى دمشق وحمص وحماه وحلب لايمكن ان يقال انها عربية محضة فيجب ان تستثنى من الحدود التى ذكرتموها ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على اساس هذه التعديلات على ان لانتقض شيئا من اتفاقاتنا مع الزعماء العرب

« أما الاراضى التى تستطيع انكلترا العمل فيها بملء الحرية ودون ان توقـع ضررا بحليفتها فرنسا فان لى السلطة التامة باسم صاحب الجلالة ان اعطيكم التأمينات التالية جوابا على كتابكم :

١ ـ ان انكلترا ـ مستعدة على اساس تلك التعديلات ان تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم فى الحدود التى يقترحها شريف مكة

٢ ـ تحمى بريطانيا الاراضى المقدسة من كل اعتداء خارجى وتعترف بوحدتها

٣ ـ تقدم بريطانيا للعرب ـ عند الحاجـة ـ كل مساعدة او نصيحة تلزم ، وتعاونهم فى تشكيل (انشاء) افضل شكل من اشكال الحكومات فى مختلف البلدان العربية

«هـــذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان العرب يوافقون على الاقتصار على استشارة ومعونة وادارة بريطانيا وحدها ، ويرضون بان يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون اليهم لتنظيم دوائر مملكتهم من التبعة الانكليزية

« اما مايتعلق بولايتى البصرة و بغداد فان العرب يعرفون ان مركز انكلترا ومصالحها فيها تتطلب شكلا اداريا خاصا ومراقبة خاصة للمحافظة على تلك الانحاء من

الاعتداءات الخارجية وتأمين راحة واطمئنان السكان وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها

« وانى لعلى ثقة بان هـذا التصريح يجعلكم ابعد ما تكونون عن الشك فى عطف بريطانيا على امانى اصدقائها « التقليديين » العرب و يؤدى حتما الى التحالف والعمل على طرد الاتراك من البلاد العربية ، وانقاذ العرب من النير التركى الذى كان وما يزال يضغط على اعناقهم من اعوام »

ورد الحسين على هـذا الكتاب يوم ٥ نوفمبر فقال : « رغبة فى تسهيل الاتفاق ، وخدمة الاسلام ، واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين واعتمادا على صفات بريطانيا ومواقفها الجيدة فاننا نتنازل عن اصرارنا فى ضم مرسين وادنه الى المملكة العربية

« اما قضية حلب و بيروت وسواحلهما فهى عربيـة صرفا وليس هنالك فرق بين المسلم العربى والمسيحى العربى ، فكلاهما من نسل واحد

« ولما كان العراق قسما من المملكة العربية وكان مركز حكومتها فى عهد على ابن ابى طالب والخلفاء الذين تبعوه ، ولما كان هذا القطر مهدا لحضارة العرب ومدنيتهم وفيه انشاء ابنيتهم الاولى ، وفيه عظمة قوتهم فان العرب القريبين والبعيدين ينظرون الى هـذا القطر نظرة اعتبار خاصـة ولا يستطيعون ان ينسوا بسهولة تقاليـدهم وذكرياتهم

«ولذلك اعتقد انه ليس فى المستطاع اقناع الشعب العربى بالتنازل عن هذا القطر انما رغبة منا فى تسهيل الاتفاق واعتمادا على عهودكم فى المادة الخامسة من كتابكم وحفظا لمصالحنا المشتركة فى هذا القطر فقد نوافق ان نترك الآن لمـدة قصيرة الاراضى التى تحتلها الجيوش الانكليزية (كانت تحتل منطقة البصرة فى ذاك العهد) لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتـلال تلك المنطقة واحترام اتفاقكم مع شيوخها »

وقال السر هنرى مكماهون فى كتابه المؤرخ يوم ١٣ ديسمبر « يسرنى مارأيت من قبول اخراجكم ولايتى مرسين وادنه من حدود البلاد العربية

« هذا وفى قولكم ان العرب مستعدون ان يحترموا و يعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبقا ان هـذا يشمل البلاد الداخلة فى حدود المملكة العربيـة لان حكومة بريطانيا العظمى لاتستطيع ان تنقض انفاقات ابرمت بينها و بين أولئك الرؤساء

« اما بشأن ولايتى حلب و بيروت فحكومة بريطانيا قـد فهمت كل ماذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامـة ، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهما ، فالمسألة تحتاج الى نظر دقيق وسنخابركم بهذا الشأن مرة اخرى

« ان حكومة بريطانيا العظمى - كما سبق ان أخبرتـكم - مستعدة لان تعطى كل الضمانات والمساعدات التى فى وسعها الى المملكة العربية ولكن مصالحها فى ولاية بغداد تتطلب ادارة ودية ثابتة »

ورد الشريف بكتاب مؤرخ يوم اول يناير سنة ١٩١٦ فقال « اما ما يتعلق بقضية العراق وقضية التعويض الذى اقترحناه لقاء احتلاله ، فاننى رغبة فى تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا وغايتنا فى القول والعمل ادع امر تقدير المبلغ الى حكمتها وعدالتها

« اما مايتعلق بالاقسام الشمالية (شمالى سورية) ومرافئها فقد ابدينا فى كتابنا السابق اقصى ما يمكن ان نوافق عليـه من تعديلات ونحن لم نتساهل الا لتحقيق الرغائب التى يريدها الله العلى الاعلى ان تتحقق . وهـذا الشعور هو الذى حدانا لان نتجنب كل ما من شأنه ان يسىء الى تحالف انكلترا وفرنسا والاتفاق المعقود بينهما خلال الحرب ومصائبها »

وكتب السر هنرى مكماهون يوم ٣٠ يناير سنة ١٩١٦ يقول « لقد عنيت عناية خاصـة بملاحظاتكم بشأن ولاية بغداد وسنبحث هـذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عند ماتتم هزيمة الاعداء ونصل الى التسويات السلمية

« اما مايتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم فى تجنب كل ما من شأنه الاساءة الى تحالف انكلترا وفرنسا وسررت جـدا بابداء مثل هـذه الرغبة »

هذا كل ماورد بشأن قضية حدود المملكة العربية فى المكاتبات الرسمية التى دارت بين الحسين بن على قبل دخول العرب فى الثورة الى جانب الحلفاء و بين السر هنرى مكماهون النائب فى مصر ـ و يجب ان نذكر بانها كانت تدور فى نفس الوقت الذى كانت المفاوضات تجرى فى القاهرة نفسها بين مندوبى فرنسا وانكلترا لاقتسام بلاد العرب ، وقد انتهت بالاتفاق التام يوم ٩ مايو سنة ١٩١٦ اى قبل اشتراك العرب فى الحرب العظمى واعلانهم ثورتهم الكبرى ومعنى ذلك ان الانكليز كانوا يفاوضون الفرنسويين فى القاهرة لاقتسام بلاد العرب و يفاوضون الحسين بن على فى مكة و بطريق القاهرة ايضا لتأسيس دولة عربية تكون فلسطين وشرقى الاردن ودمشق وحمص وحماة وحلب من اجزائها

٥

المفاوضات السرية مع اليهود

....

انتهت المكاتبات السرية بين العرب والانكليز قبيل عقد اتفاق سايكس — بيكو باسابيع وعقبها اعلان الثورة العربية يوم ٩ يونيو سنة ١٩١٦ ودخول العرب الحرب الى جانب الحلفاء فادوا لهم اجل الخدم باعتراف قوادهم ورجالهم وكانوا من العوامل التى ضمنت لهم الانتصار فى الشرق

وما كاد الانكليز يطمئنون الى اشتراك العرب معهم حتى دخلوا مع زعماء اليهود بمفاوضات سرية على فلسطين امتدت اشهرا وانتهت يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ بصدور وعد بلفور الشهير وهو موجه بشكل كتاب من اللورد بلفور وزير خارجية انكلترا يومئذ الى اللورد روتشيلد عظيم اليهود وهو :

« عزيزى :

« يسرنى جدا ان ابلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك انها تنظر بعين الرضا والارتياح الى المشروع الذى يراد به ان ينشأ فى فلسطين وطن قومى لشعب اليهود وتفرغ خير مساعيها لادراك هذا الغرض

« وليكن معلوما انه لا يسمح باجراء شىء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التى للطوائف غير اليهودية فى فلسطين الآن او بالحقوق التى يتمتع بها اليهود فى البلدان الاخرى و بمركزهم السياسى »

وادمج هذا التصريح فى صك الانتداب البريطانى لفلسطين وهو الصك الذى اقره مجلس جامعة الامم يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٢ فجاء فى المادة الثانية ما نصه « تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد فى احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء

الوطن القومى اليهودى — كما جاء فى ديباجة هذا الصك — وترقية انظمة الحكم الذاتى وضمان الحقوق المدنيـة والدينيـة لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الاجناس والاديان »

وجاء فى المادة الرابعة منـــه « انه يعترف « بهيئة » يهودية حاكمة لائقة كهيئة عمومية لتشير وتعاون فى ادارة فلسطين فى الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر فى انشاء الوطن القومى اليهودى ومصالح السكان اليهود فى فلسطين وتساعد وتشترك فى ترقية البلاد تحت سيطرة حكومتها دائما

« و يعترف بان الجمعية الصهيونية هى الهيئة المنصوص عليها فى ما تقدم ما دامت الدولة المنتدبة ترى ان نظامها وتأليفها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض ، وعلى الجمعية الصهيونية ان تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة الحكومة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة فى انشاء الوطن القومى »

٦

متناقضات

في اواسط شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ شرع جيش الشمال العربي بالاتفاق مع الحملة المصرية في مهاجمة مراكز الترك في شرق الاردن وفي بقية المناطق الاخرى فاجلوهم عنها وما زالوا يطاردونهم ويضربون في اقفيتهم حتى اوصلوهم الى كيليكية فاسرعت الحكومة التركية فطلبت الهدنة فعقدت في موندروس يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ بين ممثلي الترك وممثلي الحلفاء ووافق الاولون على الجلاء عن جميع بلاد العرب واسترداد ما بقي لهم من جنود في اليمن والحجاز (المدينة المنورة)

وكان الوضع العسكري في البلاد العربية عقب عقد الهدنة كما يأتي :

فلسطين : احتلال عسكري انكليزي وحكومة عسكرية انكليزية

العراق : احتلال عسكري انكليزي وحكومة عسكرية انكليزية

سورية الداخلية : حكومة عربية برئاسة الامير فيصل بن الحسين يمتد نفوذها من شمالي الحجاز حتى حدود كيليكية

سورية الساحلية : احتلال عسكري فرنسوي وحكومة عسكرية فرنسوية

الحجاز : حكومة عربية هاشمية معترف باستقلالها برئاسة الملك حسين بن علي

كيليكية : احتلال عسكري فرنسوي وحكومة تركية

فالذي كان بيد حكومة الثورة العربية او الحكومة التي حالفت الحلفاء من مجموع الاراضي العربية التي كانت لتركيا في بلاد العرب (عدا اليمن) : هو الحجاز ولم يكن فيه اثر لاجنبي والقسم الداخلي من بلاد الشام وكان الجنود الانكليز يرابطون في داخله

وعقد مؤتمر الصلح فى فرسايل لتوزيع الاسلاب فذهب اليه الامير فيصل باسم العرب يطلب تنفيذ العهود المقطوعة لهم

وجاء اليهود الى المؤتمر يطلبون الاعتراف بفلسطين وطنا قوميا لهم وفتح ابوابها فى وجه مهاجريهم واللاجئين منهم

وجاء بعض اللبنانيين يطلبون وضع لبنان الكبير (البلاد التى تتألف منها الجمهورية اللبنانية فى الوقت الحاضر) تحت الحماية الفرنسوية

وراحت الحكومة الفرنسوية من ناحيتها تلح على الحكومة الانكليزية بتنفيذ اتفاق سايكس — بيكو الذى يقضى بان تكون سورية الداخلية — وكانت تديرها يومئذ حكومة عربية برئاسة الامير فيصل - خاضعة لفرنسا مباشرة والسماح لها باحتلالها عسكريا و بسط نفوذها عليها

وهكذا كانت هنالك ثلاثة تيارات متعاكسة او بعبارة اخرى كانت هنالك عهود بذلتها انكلترا فى ايام الحرب فجاء اصحابها يطالبون بها فعمدت الى التسويف فالح الفرنسويون فى تنفيذ اتفاق سايكس — بيكو فقالوا لهم دعونا نوفق بينكم و بين العرب ولا حاجة بكم الى التعجيل ، وقالوا للعرب اذهبوا واتفقوا مع فرنسا وتفاهموا معها فان مصلحتكم تقضى بذلك واوعزوا الى بعض رجالهم المتصلين برجال الحركة العربية وقادتها فهمسوا فى آذانهم بان يقاوموا فرنسا و يتشددوا فقد تلين لهم فى النهاية وتنقاد

و بعد اخذ ورد طويلين بين الفرنسويين والانكليز وافق هؤلاء يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٩١٩ على اطلاق يد فرنسا فى داخلية سورية مقابل :

١ — التنازل عن المطالبة بضم ولاية الموصل الى اراضى الاحتلال الفرنسوى على ان تنال فرنسا ٢٣ ونصف فى المئة من نفط الموصل

٢ — الاعتراف بان تكون فلسطين من نصيب انكلترا (نص اتفاق بطرسبرج على ان تكون دولية)

٣ — ضم اراضى شرق الاردن الى فلسطين

وجلت الجيوش الانكليزية التى كانت ترابط فى سورية الداخلية عقب هذا الاتفاق لتمهد لدخول الفرنسويين

وخطا الانكليز والفرنسويون خطوة عملية حاسمة لتطبيق السياسة السرية القائمة على تجاهل العقود المقطوعة للعرب ، فاستصدروا من مجلس الحلفاء الاعلى يوم ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٠ قرارا يقضى :

١ — بانتداب انكلترا للعراق (العراق الحاضر ويتألف من ولايات الموصل وبغداد والبصرة الخ)

٢ — انتداب انكلترا لفلسطين وشرق الاردن مع تنفيذ وعد الوطن القومى

٣ — انتداب فرنسا لسورية ولبنان

٤ — انتداب فرنسا لمقاطعة كيليكية

وهكذا اقتسمت الحليفتان الشام والعراق وانكرتا كل حق للعرب فيهما ، واعترفتا لليهود بحق الوطن القومى فى فلسطين

٧

النضال بين العرب والفرنسيين والانكليز

تآمر الفرنسويون والانكليز فى سان ريمو على العرب وتقاسموا بلادهم على رؤوس الاشهاد ، غير مراعين حرمة المحالفة وغير مقيمين وزنا للمبادىء الحرة التى اعلنوها فى ابان الحرب العظمى

وانكر العرب فى الشام وفى العراق ما جرى وادركوا ان حلفاءهم القدماء لم يعاملوهم هذه المعاملة ، ولم يطمعوا فى بلادهم ، الا لضعفهم وتخاذلهم فقرروا ان يقاوموا القوة بالقوة وان يردوا العدوان بمثله فكانت تلك الاحداث المريعة :

النضال فى الشام

وعكفت حكومة الشام الفيصلية فى خلال تلك الفترة على اعداد العدد للمقاومة فادخلت التجنيد الاجبارى وباشرت انشاء جيش منظم لرد العدوان الفرنسوى وحماية استقلال البلاد ودولتها الجديدة التى نودى بها فى دمشق يوم ٨ مارس سنة ١٩٢٠ ، ورفضت الاعتراف بانتداب فرنسا حينما ابلغ اليها فقامت قيامة الفرنسويين ، وارسل الجنرال غورو مندوب فرنسا السامى فى بيروت انذارا نهائيا يوم ١٤ يوليو سنة ١٩٢٠ الى الملك فيصل يطلب منه مايأتى :

١ ـ قبول الانتداب الفرنسوى

٢ ـ قبول الورق السورى

٣ ـ تأديب المجرمين الذين كانوا اشد اعداء فرنسا

٤ ـ التصرف بسكة حديد رياق ـ حلب للنقليات العسكرية الفرنسوية

وحدد الجنرال مدة اربعة ايام تبتدىء من نصف ليل ١٥ يوليو وتنتهى فى ١٧ منه الساعة ١٢ ليلا لقبول هذه الشروط بجملتها او رفضها بجملتها

ودارت مفاوضات طويلة بين الحكومة الفيصلية والجنرال للوصول الى اتفاق يحول دون وقوع الحرب

ودعا الملك فيصل المجلس الحربى الاعلى لاستشارته فى الخطة التى يسير عليها وهل يقرر التسليم او الدفاع فقال ان فى استطاعة الجيش السورى المقاومة بضع ساعات اذا كانت الحرب غير جدية ، اما اذا كانت جدية وحمى وطيس القتال ولم يوفق الى دحر العدو وتشتيت قواه فالمعدات التى يملكها لاتكفى للمقاومة اكثر من خمس دقائق

واشارت الوزارة السورية بعد سماع هذه البيانات على جلالة الملك بقبول الانذار الفرنسوى لتعذر المقاومة فارسل صباح ١٨ منه كتابا الى الجنرال غورو يعلن فيه قبول الانذار فرد عليه بانه ليس المقصود من ارساله قبوله وانما المقصود هو تنفيذ احكامه باعمال رسمية تعمل قبل ١٨ منه على ان يتم تنفيذ ماورد فيه بكامله قبل ٢١ منه عند منتصف الليل

وهاج اهل دمشق وماجوا حينما عرفوا بان الحكومة قبلت الانذار وتعهدت بتنفيذ مافيه وعقد المؤتمر السورى جلسة يوم الخميس ١٥ منه قرر فيها عدم الاعتراف باى اتفاق او معاهدة تعقدها الحكومة مالم تعرض عليه ويصادق عليها فلم تعبأ الوزارة بمعارضته وشرعت من مساء يوم الاثنين ١٩ منه بتنفيذ احكامه (الانذار) فسرحت الجيش السورى طبقا لطلب الجنرال وجلت عن المراكز العسكرية المحصنة على الحدود واجلت عقد المؤتمر السورى لمدة شهرين وفضته فعلا صباح ٢٠ منه فاقيمت مظاهرات عنيفة فى اسواق دمشق احتجاجا على الحكومة لضعفها واستسلامها وسادت الفوضى واشتد الهياج وهاج الغوغاء فى السهرة واقتحموا قلعة دمشق لاخذ السلاح المدخر فى مستودعاتها وكسروا ابواب السجون واطلقوا سراح السجناء فذهب الامير زيد مع قوة من الجند الى القلعة فدافع عنها واصلى المتظاهرين نيرانا حامية فقتل نحو ٢٠٠ منهم فتفرقوا بعد مافازوا بالسلاح

وقصد جمهور من العامة الى البلاط الملكي في مظاهرة عدائية ففرقتهم الشرطة وقضت دمشق تلك الليلة في وجل واضطراب

ورغم كل ماجرى قررت الوزارة في اجتماعها الذي عقدته قبل ظهر يوم الثلاثاء ٢٠ منه وقد استمر نحو ثلاث ساعات قبول المطالب ووضعت المذكرة الجوابية التي ترسل الى الجنرال طبقا لاقتراحه ، وفي الساعة السابعة والنصف سلم الجواب الى مكتب البرق لارساله الى الجنرال فورا فحال دون ارساله قطع الاسلاك البرقية فوصل متأخرا

وتذرع الجنرال غورو بعدم وصول الجواب اليه في الوقت المعين فاصدر الامر الى جيشه بالزحف الى دمشق واحتلالها فارسلت الحكومة وزيرا من وزرائها قابله في مقره واطلعه على ماجرى وطلب ان يصدر امرا بوقف زحف الجيش فاعتذر عن ذلك وقال انه ليس في استطاعته ان يوقفه ، والواقع انها فرصة ثمينة رأى الجنرال ان يغتنمها لاحتلال دمشق وكانت ابوابها مفتتحة في وجهه ولا سيما بعد تسريح الجيش السوري و بعد ماظهر ان مخازنه فارغة

ولما ثبت ذلك للحكومة السورية وثبت ان الجنرال غدر بها ونكث عهده ارسل الملك فيصل يوم ٢١ منه الى دول الحلفاء بواسطة قنصل ايطاليا العام في دمشق برقية هذا نصها :

« رغم قبولي جميع الشروط الواردة في انذار الجنرال غورو المؤرخ ١٤ يوليو وهي تنطوي على احتلال مدينة حلب الواقعة في اقصى حدودنا الشمالية ومحطات حلب وحمص وحماه وعلى سحب جيوشنا من الحدود وتسريح الباقي منها والغاء التجنيد الاجباري وعلى قبول التعامل بالنقد السوري وعلى الاعتراف بالانتداب الفرنسوي لسورية ، ذلك القبول الذي اعرب لي عن ارتياحه اليه ، في كتابه المؤرخ في يوم ٢٠

منه والمقدم الى بواسطة ضابط ارتباطه فى دمشق ـ فانه اصدر الامر الى جيشه بالزحف على دمشق

« وسيؤدى حتما هـذا العمل الشاذ الذى لا يكاد تاريخ الانسانيـة والحضارة ينطوى على مثيل له الى اراقة كثير من الدماء البريئة خصوصا وهو يقع بعد قبول انذار باهظ الشروط سرح بموجبه الجيش السورى وارسـل رجاله الى بيوتهم ويخشى معه من انتقاض شعبى الذى يلح فى رفض هذا الانذار

« فالفت نظر حكومتـكم والعالم المتمدن الى هـذه الجناية السيئة ولن تقع تبعتها الا على عاتق مرتـكبها ذاك الذى انتهك حرمة العهود الدولية المقدسة »

ولم تتلق الحكومة الفيصلية جوابا على برقيتها ولم تقابل بشىء من الاهتمام فى الدوائر الدولية فقررت ان تنازل الفرنسويين وتقاتلهم حتى النفس الاخير فاعلنت الحـرب يوم الاربعاء ٢١ منـه عليهم ودوى اعلانهـا فى ارجاء دمشق فهتف الناس لها وتسابقوا الى خوض سوقها وتزاحموا فى محطة سكة الحديد للسفر الى ميدان القتال وهم يكادون يطيرون شوقا اليه

وفى صباح ٢٤ منه دارت المعركة الفاصـلة فى ميسلون بين الجيش الفرنسوى والمتطوعين السوريين وكان الاول يتألف من تسعة آلاف مقاتل معهم خمس بطاريات ميدان ومثلها جبلية و بطاريتان من عيار ١٥٥ وعدد كبير من الطائرات والدبابات والرشاشات

اما المتطوعون فما كان عـددهم يزيد عن ثلاثة آلاف مسلحين ببنـادق مختلفـة الطراز وتولى قيادتهـم يوسف بك العظمة وزير الحربيـة فى الحكومة السورية . واستمرت المعركة نحو ساعتين وانتهت بتغلب القوة وخسر السوريون فى هـذه المعركة نحو ٨٠٠ شهيد بينهم وزير الحربية نفسه فقد عرض صدره لقنابل العدو ورصاصه فخر صريعا

وفى يوم ٢٥ دخل الفرنسويون دمشق وفى يوم ٢٨ منه غادرها الملك فيصل

بقطار خاص الى درعا خيفا بعد ماانذره الفرنسويون بلزوم السفر والخروج ومنها سافر الى لندن للمطالبة بحقه والدفاع عن قضيته

واحتل الفرنسويون فى الوقت نفسه مدن حلب وحمص وحماه وسلمت لهم المدن الاخرى تدريجيا فبسطوا نفوذهم السياسى والاقتصادى على البلاد ونفذوا خططهم واساليبهم

النضال فى العراق

وما وقع فى الشام وقع فى العراق ايضا فقد خيب الانكليز آمال العرب العراقيين وجحدوا جميع العهود والوعود التى قطعوها لهم ، وانشأوا فى بلادهم حكما عسكريا شاذا فكان العراق فى هذه الفترة خاضعا لحكومة الهند يتلقى منها الاوامر والتعليمات ويعد من ملحقاتها اى انهم جعلوه مستعمرة لمستعمرة تحكم بشر نظام استعمارى . وزاد الطين بلة فرضهم الانتداب عليه فى مؤتمر سان ريمو

وحاول العراقيون التفاهم مع الانكليز بالطرق السلمية وحملهم على الاعتراف بحقوقهم ، وتنفيذ عهودهم ولما لم يجدهم ذلك لجأوا الى السيف فكانت الثورة العراقية وقد ابتدأت فى الرميثة يوم ٣٠ يونيو سنة ١٩٢٠ فقاتل العراقيون الانكليز قتال الابطال وابلوا احسن بلاء فى الكر والفر

واقالت حكومة لندن الكولونيل ولسن حاكم العراق واستبدلته بالسر برسى كوكس وهو من اقطابهم الاستعماريين واصدرت اليه تعليمات بان يسرع فى التفاهم مع القوم

وبلغ الحاكم الجديد بغداد يوم ١١ اكتوبر سنة ١٩٢٠ وفى يوم ٢٧ منه الف وزارة برئاسة السيد عبد الرحمن الكيلانى نقيب اشراف بغداد حددت مهمتها بتوطيد الامن وتمهيد السبل لانشاء الدولة العربية الجديدة

وفى يوم ٢٩ يونيو سنة ١٩٢١ وصل الى بغداد جلالة الملك فيصل قادما من

لندن لانشاء الدولة الجديدة وكان قد اتفق على انشائها مع وزارة المستعمرات البريطانية ضمن الشروط الآتية :

١ ــ تعترف الحكومة البريطانية باستقلال العراق

٢ ــ تتعهد بالغاء الانتداب

٣ ــ تساعد العراقيين فى انشاء حكومة وطنية وطيدة

٤ ــ تعقد معاهدة تحالف وولاء بين الحكومتين العراقية والبريطانية تنال فيها الحكومة العراقية مزايا اقتصادية وتنص على استخدام مستشارين واخصائيين انكليز لمساعدة الموظفين العراقيين

وفى يوم ١١ اغسطس سنة ١٩٢١ قرر مجلس الوزراء العراقى المناداة بفيصل ابن الحسين ملكا على العراق على ان تكون حكومته حكومة دستورية نيابية دمقراطية مقيدة بالقانون . ثم استفتى الشعب فى الملكية فاقترعت الاكثرية الساحقة لها

وفى يوم ٢٣ منه انشئت الدولة العربية الجديدة فى العراق ونودى بجلالة الملك فيصل بن الحسين ملكا عليها فنهض باعبائها وقاد سفينتها الى ساحل السلامة فكانت خير دول الشرق العربى

النضال فى كيليكية

ونهض الترك فى كيليكية (سورية الشمالية) لقتال الفرنسويين ومقاومتهم ، لما انزلوه بهم من المظالم والمغارم ، وايد الكماليون القائمين بهذه الحركة وشجعوهم وكانت النهضة الكمالية فى مستهل عهدها ، وامدوهم بالاموال والسلاح والذخائر وارسلوا اكفاء الضباط فاداروا الحركة بمهارة وساعدتهم طبيعة البلاد الجغرافية ، ووعورة اراضيها فتغلبوا على الفرنسويين وفتكوا بهم وبانصارهم الارمن فكان نضال عنيف استمر نحو سنتين ورأى الفرنسويون فى ختامه ان المكث بهذه البلاد يتقاضاهم مغارم عظيمة ويكلفهم نفقات باهظة ، وكانوا لا يزالون يشكون من فداحة الخسارة

التى اصيبوا بها فى الحرب العظمى فجنحوا الى اللين وارسلوا المسيو فرانكلان بويون الى انقرة للاتفاق مع حكومتها على قاعدة اعادة البلاد اليها وانتهت المفاوضات التى دارت يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٢١ بعقد المعاهدة الآتية :

المادة الاولى ـ يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان انه عند التوقيع على هذا الاتفاق تبطل حالة الحرب بينهما ويبلغ ابطالها حالا الى الجيش والسلطات المدنية والشعب

المادة الثانية ـ عند التوقيع على هذا الاتفاق يطلق كل من الفريقين اسرى الحرب الموجودين عنده وكذلك المسجونين او المعتقلين من الفرنسويين او الترك ويساقون على نفقة الحكومة التى هم عندها لاقرب مدينة تعين لهذا الغرض .

تشمل هذه المادة جميع المعتقلين والمسجونين فى البلادين مهما كان تاريخ الاعتقال او الاسر ومكانه

المادة الثالثة ـ فى خلال شهرين على الاكثر من تاريخ هذا الاتفاق تنسحب القوات التركية الى شمالى الخط المعين فى المادة الثامنة والقوات الفرنسوية الى جنوبه

المادة الرابعة ـ يتم اخلاء الاماكن او الاستيلاء عليها فى المدة المعينة فى المادة الثالثة السابقة بناء على اتفاق تضعه لجنة مختلطة يعين قواد جيشى الفريقين المتعاقدين اعضاءها

المادة الخامسة ـ يعلن الفريقان المتعاقدان عفوا شاملا فى البلاد التى يستولون عليها منذ هذا الاستيلاء

المادة السادسة ـ تعلن حكومة المجلس الوطنى الكبير انها تؤيد حقوق الاقليات التى اعلنها العهد الوطنى وفقا لاسس الاتفاقات المعقودة بهذا الشأن بين دول الحلفاء وخصومهم و بعض الدول المتحالفة معهم

المادة السابعة ـ ينشأ نظام ادارى خاص لسنجق اسكندرونة وتجرى التسهيلات لجميع سكان هذه الجهة الذين هم من اصل تركى لترقى آدابهم وتعتبر اللغة التركية لغة رسمية

المادة الثامنة ـ يعين الخط المذكور فى المادة الثالثة كما يأتى :

يبــدأ الخط من نقطة يتفق عليها فى خليج اسكندرونة فى جوار جنوب باياس ويتجه نحو ميدان اكبس حيث تبقى محطة السكة الحديدية فى هـذه النقطة بيـد حكومة سورية

ثم ينحنى الخط منها جنوبا بشرق بحيث يترك قرية (مرصفه) لسورية و بلدتى خرنايا وكاس لتركيا

ومنها يجاور الخط خط السكة الحديدية حتى محطة شعبان بك ثم يتبع خط سكة حديد بغداد الذى تبقى خطوطه فى المنطقة التركية الى نصيبين ثم يتبع الخط من نصيبين الى جزيرة ابن عمرو الطريق القديمـة حيث يصل الى الفرات وتبقى بلدة نصيبين وجزيرة ابن عمرو والطريق نفسها فى يد تركيا الا انه يكون للبـلاد حق فى الانتفاع بهذه الطريق

اما محطات السكة الحديدية وعنابرها على طول الخط من شعبان بك الى نصيبين فتبقى فى يد تركيا بصفة تابع لقواعد خط السكة الحديدية

وستتألف لجنة ينوب اعضاؤها عن الفريقين المتعاقدين بعـد مرور شهر من امضاء هذا الاتفاق لتحديد الخط المذكور وتقوم هذه اللاجنة بعملها فى المـدة المعينة نفسها

المادة التاسعة ـ يبقى ضريح سليمان شاه جـد السلطان عثمان مؤسس الاسرة العثمانيـة وهو الضريح المعروف باسم « تورك مزارى » والكائن فى قلعة جابر مع كل توابعه ملـكا لتركيا يمكنها ان تضع فيه حراسا وان ترفع علما تركيا

المادة العاشرة ـ تقبل حكومة المجلس الوطنى الكبير بان ينقل القسم الكائن بين بوزانطى ونصيبين من سكة حديد بغداد مع جميع ملحقاته المنشأة فى ولاية اطنه الى شركة فرنسوية تعينها الحكومة الفرنسوية وذلك مع جميع الحقوق والامتيازات والمساعدات المختصة بهذا الامتياز فى كل مايتعلق باستثمار الخط واشغاله

ويحق لتركيا ان تجرى نقلياتها العسكرية على قسم السكة الحـديدية الكائن

بين ميـدان اكبس وشعبان بك فى الجهات السورية كما يحق لسورية ان تجرى نقلياتها العسكرية على خط السكة الحديدية بين شعبان بك ونصيبين فى الاراضى التركية

ولا يحق لاى فريق ان يضع على هذا الخط وفروعه تعريفة ذات تمييز ومع ذلك يحق لكل فريق عند الحاجة مفاوضة الفريق الآخر بالخروج عن هذا المبدأ

وفى حال عدم الاتفاق يفعل كل فريق مايرى عمله فى مصلحته

المادة الحادية عشرة ــ تؤلف الحكومتان لجنة مختلطة بعد التصديق على هـذا الاتفاق لوضع اتفاق جمركى بين تركيا وسورية

تحـدد هذه اللجنة الشروط والمدة التى ينفذ فيها هـذا الاتفاق ومن الآن الى وضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ يحق لكل حكومة ان تفعل مايتفق مع مصلحتها

المادة الثانية عشرة ــ توزع مياه نهر قويق بين مدينة حلب والجهة الشمالية الباقية فى يد تركيا بصورة ترضى الفريقين

وتقدر مدينـــة حلب ان تجلب على حسابها ماء الفرات من الاراضى التركية للقيام بحاجاتها

المادة الثالثة عشرة ــ ان السكان الحضر او العرب النصف الرحل الذين اعتادوا رعى طروشهم او الذين لهم املاك فى جهة من الجهتين المعينتين فى المادة الثامنة يحق لهم استعمال حقوقهم كما كان الامر فى السابق . ويمكنهم عند الحاجـة نقل مواشيهم وادواتهم الحراثيـة وبذورهم ومحصولاتهم من جهة الى اخرى بكل حرية ودون وضع رسوم جمركية او اى رسوم اخرى ولكنهم مجبرون على دفـع الرسوم والضرائب فى البلاد التى يقطنونها

انقره فى ٢٠ تشرين اول (اكتوبر) سنة ١٩٢١

ولهـذا الاتفاق ثلاث ملاحق تعهد الترك فى الاول بان ينظروا بعين العطف الى كل طلب تقدمه نقابة ماليـة فرنسوية بطلب امتياز باستغلال معادن او انشاء سكك

حديد او مرافئ او اصلاح انهر بشرط ان تكون هذه المطالب موافقة لمصالح الفريقين (تركيا وفرنسا)

وتعهدت تركيا ايضا بان تنتفع من مساعدة الاساتذة الفرنسويين فى مدارسها الصناعية وان تدخل مع الماليين الفرنسويين فى مفاوضات مالية واقتصادية

وجاء فى الملحق الثانى ان الاتفاق المعقود لايوضع موضع التنفيذ الا بعد ابرام الحكومتين له ويجب ان يتم ذلك فى خلال ١٥ يوما على الاكثر

وجاء فى الملحق الثالث ان للاهالى الترك فى مرفأ اسكندرونة ان يرفعوا العلم التركى على ممتلكاتهم بحرية تامة فى المرفأ وان يعاملوا على قدم المساواة مع اهل البلاد

وتعطى تركيا فى هذا الميناء ارضا تستأجرها وتخصصها للبضائع التى تنقل الى تركيا مباشرة او تأتى منها

٨

سورية فى العهد الفرنسوى

مشى الفرنسويون الى دمشق على اشلاء القتلى ودخلوا على العاصمة العربية الكبرى وقد ارتدت أثواب الحداد واتشحت بالسواد حزنا على ابنائها الذين سقطوا صرعى فى ميسلون وروابها و بطاحها ، واسفا على آمالها واما نيها

واول مافعله قائد الجيش المحتل انه ارسل الى الحكومة السورية بلاغا رسميا طلب فيه الطلبات الآتية :

١ – دفع ١٠ ملايين فرنك غرامة حربية

٢ – نزع سلاح الجيش السورى وتحويله الى بوليس وتسليم اسلحته ومعداته ومدافعه الى الجيش الفرنسوى غنيمة حرب

٣ – تسليم كبار المذنبين (١) ليحاكموا امام المحاكم الفرنسوية

٤ – نزع سلاح الاهالى وتسليم ١٠ آلاف بندقية للجيش الفرنسوى

وقبلت الوزارة الجديدة هذه الشروط ونفذتها

وفرض الفرنسويون ايضا غرامات باهظة على المدن السورية الاخرى من مال وسلاح فدفعوها مرغمين ، وصدرت اوامر بالغاء جميع القوانين والانظمة التى سنت فى العهد الفيصلى وبالرجوع الى العمل بالقوانين والانظمة التركية القديمة وبالاوامر والقرارات التى تصدرها السلطة الفرنسوية

وخلا الجو للفرنسويين فنفذوا برنامجهم الاستعمارى القائم على تجزئة سورية وتقسيمها الى دول وحكومات على اساس الطائفية وانشأوا الدول الآتية :

---

(١) كبار المذنبين فى عرفهم هم الوطنيون الذين قاوموا الاستعمار الفرنسوى

١ ـ دولة لبنان الكبير (بيروت) مورانة
٢ ـ دولة العلويين (اللاذقية) نصيرية
٣ ـ دولة دمشق (دمشق) سنية
٤ ـ دولة حلب (حلب) سنية
٥ ـ دولة جبل الدروز (السويداء) درزية
٦ ـ سنجق اسكندرونه (اسكندرونه) سنية تركية

وتألفت دولة لبنان الجديدة من جبل لبنان القديم ومن مدن بيروت وطرابلس مع عكار وصيدا وصور ومرجعيون والبقاع و بعلبك

وتألفت دولة العلويين من لواء اللاذقية القديم فى العهد العثمانى وقوامه مدن اللاذقية وجبله و بانياس وصهيون والحقت بها فى العهد الجديد مصياف وقد نزعت من لواء حماه وصافيتا وقد نزعت من لواء طرابلس القديم

وتألفت دولة دمشق من دمشق والاقضية الملحقة بها وحمص وحماه وحوران. ثم عادوا فى سنة ١٩٢٤ فالحقوا بها دولة حلب وتتألف من مدينة حلب مع اقضيتها ولواء اسكندونه ولواء دير الزور . وفى سنة ١٩٣٢ حولوا هذه الدولة الى جمهورية وهى الجمهورية القائمة فى دمشق وسلطتها على لواء الاسكندرونه ودير الزور اسمية فقط فالسلطة المطلقة فى هاتين المقاطعتين للفرنسويين

اما دولة جبل الدروز فتتألف من جبل الدروز نفسه وتضم وعرتى اللجاه والصفا وتمتد حتى الدير على شمالا والازرق جنوبا

ولقد اثار تقسيم البلاد السورية على هذا المنوال ثائرة السكان ولا سيما المسلمين منهم ، لانهم عرفوا ان الغاية منه هى تمزيق شملهم وتقطيع اوصالهم واذابة اكثريتهم الساحقة فى حكومات الاقليات الدينية المحدثة

وسلبوا من هذه الحكومات كل نفوذ وجعلوها اشباحا لا روح فيها وجردوها من كل كرامة واختاروا لها طائفة من الموظفين عرف بعضهم بفساد الاخلاق

فاعرض عنها الجمهور السوري وصار يرى فيها اداة من ادوات الشر والاسراف بما تستنفده من نفقات طائلة

وزاد عدد الموظفين الفرنسويين زيادة كبيرة فأنشأوا في بيروت حكومة مركزية عليا لسورية اطلقوا عليها اسم المفوضية العليا تسيطر على الحكومات الجديدة مباشرة وتعين لها الحكام والوزراء والموظفين وتقيلهم وتضع الانظمة والقوانين اى انها احتكرت سلطة التشريع والتقنين

والمفوض السامي الفرنسوي هو رئيس الدولة الاعلى وسيدها المطلق . ويقوم السكرتير العام وهو فرنسوي باعمال رئيس الوزراء في هذه الدولة مع وزارة الداخلية ، وهنالك وزراء للمالية والحقانية والمعارف والصحة والاشغال العامة والاوقاف باسم مستشارين . اما الحربية فيتولاها القائد العام للجيش الفرنسوي في الشرق

واقاموا الى جانب رئيس كل حكومة في بيروت ودمشق وحلب والاسكندرونه ودير الزور بعثة فرنسوية تتألف من مستشارين لكل فرع من فروع الادارة فهنالك مستشار للداخلية وآخر للمالية وثالث للزراعة وللحقانية والتجارة والاشغال العامة في دمشق وفي حلب وفي بيروت . ويرأس كل بعثة منها رئيس اطلقوا عليه اسم مندوب المفوض السامي له مساعد وهيئة سكرتارية ويحيط به عدد كبير من الموظفين الفرنسويين

اما في اللاذقية فالحاكم العام هو فرنسوي وكبار الموظفين من الفرنسويين ومثل ذلك في جبل الدروز

وقبضوا على عنق الشرطة والدرك والامن العام واقلام الجوازات وحشدوا فيها عددا كبيرا من ابناء جلدتهم . وفعلوا مثل ذلك في المعارف فملأوا المدارس ومعاهد التعليم باكبر عدد من الاساتذة والمدرسين لتدريس اللغة الفرنسوية وجعلوها لغة التعليم الاساسية في بعض المناطق كجبل الدروز وسنجق اسكندرونه ودير الزور ولبنان وجبل عامل وصاروا يدرسونها لغة الزامية للاطفال في المدارس الابتدائية بدلا من اللغة العربية . اما في الحواضر الكبرى فهي تدرس وتعلم مع اللغة العربية جنبا الى

جنب . ومع ان صك الانتـداب ينص على ان تـكون اللغتان العربيـة والفرنسوية رسميتين فى سورية فقد رجح الفرنسويون كفة لغتهم على حساب اللغـة العربية التى حاربوها واضعفوا شأنها

وزاد عـدد الموظفين ولا سيما الفرنسويين منهـم زيادة فاحشة بسبب النظام الادارى الجديد وبالطبع فان زيادة عدد الموظفين تستلزم زيادة النفقات وهذه تستلزم زيادة الضرائب ومضاعفتها

ويقول تقـرير وضعته اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى بمصر سنة ١٩٣٣ وارسلته الى لجنـة الانتدابات فى جامعة الامم ان عدد الموظفين بلغ فى البلدان السورية واللبنانية ١٨٢٢٣ موظفا منهم ٨٧٨٠ فى الجمهورية السورية و٩٤٧ فى المفوضية العليا و٨٥٠٠ فى الحـكومات الاخرى وان مجموع رواتبهـم يبلغ ١٠٫٨١٠٫٩٩٠ ليرة سورية سنويا (الليرة السورية ٢٠ فرنكا) يضاف اليها ٤٫٧٥٠٫٠٠٠ ليرة تأخذها فرنسا سنويا من الخزينة السورية باسم نفقات جيش الاحتلال وبذلك يبلغ مجموع ماتدفعه سورية سنويا ١٥٫٦٦٠٫٩٩٠ ليرة سورية للموظفين والجيش ، وما كان عدد الموظفين فى هذه البلاد زمن الحـكم التركى يزيد على بضع مئات وما كانت رواتبهم لتبلغ عشر هذا المبلغ

اما الضريبة الجمركية فقد كان اقصى مابلغته فى زمن الحـكم التركى القديم ١١ فى المئة ثمانيـة منها للحكومة والثلاثة الباقية لسداد الديون ، وقد جباها الفرنسويون على هذا الاساس حتى سنة ١٩٢٤ اى مدة ست سنوات ، وننبه هنا الى ان فى معاهدة سايكس ـ بيكو سـنة ١٩١٦ مادة تعهدت فيها الحكومتان الفرنسوية والانكليزية بان تبقيا التعريفة الجمركية الموضوعة فى زمن الحـكم التركى مدة ٢٠ سنة بلا تغيير ولا تعديل

وتقيد الانـكليز بهذا الشرط فى فلسطين وشرقى الاردن وفى العراق ايضا حينما كان خاضعا لانتدابهم فلم يرفعوا التعريفة ولم يزيدوها ولا تزال على حالهـا حتى الآن ، اما فى سورية فقد رفعها الفرنسويون فى سنة ١٩٢٤ الى ١٥ بالمئة اى انهم رفعوها اربعة

بالمئة . ثم رفعوها فى سنة ١٩٢٦ الى ٢٥ بالمئة وقالوا ان هـذا موقت استلزمته نفقات الثورة السورية وانها ستعود الى ما كانت عليه حينما تستقر الحالة فى البلاد

وبدلا من الغاء هذه الزيادة بعد انتهاء الثورة زادوها فى سنة ١٩٣٢ فصارت تجبى بمعدل ٤٠ بالمئة فى الاصناف الواطئة و ٥٠ و ٦٠ و ٧٠ فى الاصناف الاخرى ، اى ان الحـد الادنى فى الضريبة هو ٤٠ بالمئة ، وذلك كله لسد النفقات الباهظة التى استلزمها التنظيم الادارى الجديد الذى وضعوه ، واكثر السوريون من الاحتجاجات فى هـذه الفترة مطالبين بانصافهم ورد حقوقهم اليهم ومعاملتهم بالعدل والعـدول عن الاساليب الاستثنائية الشاذة فى معاملتهـم فلم يلقوا سوى استهتارا وتشريدا فلجأوا الى النضـال فـكانت الحوادث التى نصفها فى الفصل الآتى :

٩

ثورات السوريين

يرى دارس خطط الفرنسويين واساليبهم فى سورية انها سلسلة مفرغة الحلقات تدور فى دائرة محدودة ضيقة وترمى جملة وتفصيلا الى افقار السوريين واذلالهم وتجريدهم من كل فضيلة اخلاقية ، واغراقهم بابناء العناصر الاجنبية الدخيلة من ارمن وترك واشوريين وشراكسة وسريان وكلدان وكرد وغيرهم من كل شريد ومنبوذ ضاقت به الارض ورفضت الحكومات الاخرى قبوله بشرط ان لا يكون عربيا

وكبر على السوريين ان يعاملوا هذه المعاملة وان تجعل بلادهم ملجأ لشذاذ الآفاق وخيراتها وقفا على الموظفين الفرنسويين وعلى الشركات الفرنسوية التى تستغل بعض المرافق وان يحملوا بسيف النقمة على الخضوع لنظام حكم جائر ، جزأ بلادهم وقسمها الى حكومات واقام بينها الحواجز والسدود ، ليحول دون اجتماعهم وتعاونهم ، فلجأوا الى الشكاوى والاحتجاجات ولما لم يجدهم ذلك نفعا تقلدوا السيف وبرزوا للفرنسويين يقاتلونهم فوقعت معارك عنيفة ، واريق دم غزير ، وخربت مدن ، ودمرت قرى

ولقد مرت الثورات التى اوقدها السوريون ـ احتجاجا على الحكم الفرنسوى وطلبا للتخلص منه ـ بثلاثة ادوار : الاول : سنة ١٩١٨ فى الساحل اى قبل معركة ميسلون ، والثانى بعدها ، والثالث دور الثورة الكبرى ولا يزال النضال مستمرا ويتمثل فى صور واشكال شتى ولا نظنه ينتهى قبل ان تنال سورية حقوقها وتفوز برغائبها . ونبدأ باحصاء الثورات فى الدور الاول فنقول :

الدور الاول — سنة ١٩١٨ — ١٩٢٠

١ — ثورة الدنادشة

حدثت هذه الثورة فى قضاء حصن الاكراد شرقى طرابلس واستمرت اياما فاخمدها الفرنسويون بالقوة والعنف وحرقوا فى خلال ذلك عدة قرى ونهبوها وفرضوا غرامات مالية على السكان

٢ — ثورات النصيرية

ثار النصيرية من سكان لواء اللاذقية (شمالى سورية) فى سنة ١٩١٩ على الفرنسويين وقاتلوهم لانهم ظلموهم وآذوهم وظلت رحى الفتن دائرة حتى سنة ١٩٢١ ففيها جرد الفرنسويون حملة لا تقل عن عشرة آلاف مقاتل حاصرت الثوار وضيقت الخناق عليهم فاستسلم زعيمهم الشيخ صالح العلى و بعض رجاله ، وقد حرقوا كثيرا من القرى والمدن فى خلال هذه الفتن وقتل كثيرون ووضع الفرنسويون غرامات مالية باهظة على السكان

٣ — حادث مزرعة الشوف

فى اوائل شهر اغسطس سنة ١٩١٩ اطلق فريق من الشبان الدروز الرصاص على المسيو جورج بيكو المندوب السامى الفرنسوى والاميرال مورنه قائد الاسطول الفرنسوى فى البحر المتوسط حين مرورهما باراضى مزرعة الشوف فى طريقهما الى قرية بيت الدين (لبنان) لشهود مأدبة فنجا الاول واصيب الثانى فى بطنه ونقل الى بيروت لمعالجته

وجهز الفرنسويون حملة كبيرة جاءت من بيروت واحاطت بالحى الدرزى فى مزرعة الشوف وطوقته ثم ضربته بالمدافع وأضرمت فيه النار بعد ماقذفه الجند بالمواد الملتهبة فاحرقوا نحو ٢٥ منزلا وقتلوا نحو ٤٠ امرأة ورجلا ، وهام الذين

استطاعوا الافلات من سكانه على وجوههم فى البرارى والقفار . والف الشبان منهم عصابات حملت السلاح ونهضت لمقاتلة الفرنسويين وتصيدهم

٤ — حادث الحولة

وقع خلاف فى سنة ١٩١٩ بين عربان الحولة ورجال الدرك اللبنانى فجهزت الحكومة اللبنانية قوة لتأديبهم فطردوها وتغلبوا عليها فارسل الفرنسويون حملة عسكرية سلحوها بالمدافع الرشاشة فجاءت الى قرية الخصاص فضربتها وقتلت امرأتين وغلاما وانسحبت تحت جنح الظلام بعد مااقترفت انواع المنكرات فالف بعض الشبان عصابات للغارة على مراكز الفرنسويين فجهز هؤلاء حملة بقيادة الجنرال دى لاموط احرقت قرى هوتين والخالصة وكفر كلا . ثم عادوا فضربوا قرية «الغجر» بمدافعهم ودمروها ثم صبوا عليها البترول وحرقوها

وهاجمت قوة فرنسوية اخرى قرية « الطيبة » فى جبل عامل فاحرقتها بعد ان نهبت ما كان فى قصور آل الاسعد من اثاث ورياش ثمين

ووقعت معارك بين القوة الفرنسوية و بين العصابات التى كانت منتشرة هنالك كانت خسارة الاولى فيها من الرجال غير قليلة وقد اضطرت الى ترك ثلاث رشاشات بين ايدى العصابات كما جاء فى بلاغ فرنسوى

٥ — ثورة الحمام

فى سنة ١٩١٩ ثار اهل الحمام (بين انطاكية واسكندرونه فى طريق حلب) على الفرنسويين وهاجموا معسكرهم وقتلوا منهم ٢٥ جنديا وضابطا فجهزت السلطة فى انطاكية حملة كبيرة قتلت ٥٠ من الاهالى واسرت ١٧

٦ — حوادث الجزيرة الفراتية

ثار سكان الجزيرة الفراتية فى شهر يناير سنة ١٩٢٠ على الفرنسويين وعطلوا جسر الفرات فجهزوا حملة عسكرية هاجمت الثوار واحرقت عددا من القرى ونكلت بالثائرين

الدور الثانى سنة ١٩٢٠ — ١٩٢٥

هذا الدور اطول من الاول واحفل بالحوادث واغزر بالوقائع ، وقد كانت سورية الداخلية ميدانا له ومرسحا ، فقد نهض ابناء هـذه البلاد لمنازلة الفرنسويين وقتالهم بعد ما خبروهم وجربوهم وهذا وصف بعض ما حدث :

١ — ثورة حوران

واول ثورة واجهها الفرنسويون فى الداخليــة هى ثورة حوران وقد بدأت بالاعتداء على رئيس الوزارة السورية علاء الدين الدروبى وقتله شر قتلة فى محطة خربة الغزالة (حوران) حينما كان ذاهبا يوم ٢١ اغسطس سـنة ١٩٢٠ الى درعا لمقابلة مشايخ حوران واقناعهم بقبول الحكم الفرنسوى وقتلوا معـه عبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى وضابطا ايطاليا كان فى القطار وقد ظنه الثوار فرنسويا وكاهنا فرنسويا وجنديين فرنسويين

وجهز الفرنسويون حملة عسكرية كبيرة زحفت الى حوران لتأديبها واخضاعها فلاقاها الحوارنة وصمدوا لها ودارت معارك عنيفة بين الفريقين واصلت الحملة فى خلالها التقدم فبلغت درعا (عاصمة حوران الادارية) يوم اول اكتوبر اى انهـا قطعت المسافة بينها و بين دمشق وهى ١٢٨ كيلو مترا فى نحو ٤٠ يوما

وفرض الفرنسويون على اهل حوران الشروط الاتية :

١ ــ اعادة مانهب من القطار فى حادث خربة الغزالة

٢ ــ دفع دية الوزيرين المقتولين علاء الدين الدروبى وعبد الرحمن اليوسف وقـدرها عشرون الف جنيه ذهبا ودفع ٧ آلاف جنيه دية الضابط الايطالى و ٢٥٠٠ جنيه دية الـكاهن ومثلها لورثة وحيد افندى عبد الهادى وقد قتل خطأ فى ذلك اليوم

٣ ــ دفع مائة الف جنيه غرامة حربية

٤ ــ تقديم ضمانات كافية بعدم ارتـكاب مثل هذا العمل فى المستقبل

ودمر الفرنسويون فى أثناء زحفهم معظم القرى التى مروا بها بعد ما نهبوها ولم يعفوا عن شىء وكانت نكبة حوران من أعظم النكبات واعدم الفرنسويون فى دمشق يوم ٢٠ دسمبر من تلك السنة ثلاثة من أبناء حوران وهم عوض صلاح الدين المصرى وحسين الحاج يوسف عيدى وزعل يوسف بتهمة الاشتراك فى قتل الوزيرين

٢ — حادث القنيطرة

فى يوم ٢٣ يونيو سنة ١٩٢١ غادر الجنرال غورو دمشق الى القنيطرة لزيارة محمود الفضل امير عرب الجولان ومعه رئيس اركان حربه ومترجمه وحقى العظم حاكم مدينة دمشق يومئذ . ولما صاروا على مسافة ١٢ كيلو مترا من القنيطرة ظهرت امامهم عصابة من ١٤ فارسا فاطلقت عليهم ١٥ رصاصة فاصيب الجنرال بواحدة فى كم يده المبتورة واصيب حقى العظم برصاصة فى فخذه واخرى فى ذراعه وثالثة فى شفته ولكنه لم يمت واصيب المترجم برصاصة فمات لساعته

وفى اليوم نفسه سير الفرنسويون حملة من دمشق بقيادة الكولونيل روكرو فتكت بكثير من الابرياء ودمرت كثيرا من القرى مع ان رجال العصابة ليسوا من سكان البلاد بل جاءوا اليها من شرق الاردن باعتراف الفرنسويين انفسهم وهذا هو البلاغ الرسمى الفرنسوى عن هذا الحادث نثبته بنصه :

« فى يوم ٢٣ يونيو سنة ١٩٢١ ظهرت على طريق القنيطرة عصابة قادمة من شرق الاردن و بعد ان قضت مأربها عادت فى اليوم نفسه الى عجلون (شرق الاردن) وهذه هى نتائج التحقيق والعقوبات

« زحفت حملة بقيادة الكولونيل روكرو من دمشق يوم ٢٣ منه فوصلت الى القنيطرة يوم ٢٦ منه فدمرت بامر المفوض السامى قرى جبانة الخشب ، والمنشية ، وعوفانى ، وطرنجه ، والاحمر ، وتل الشيخة ، لانها اوت مجرمى القنيطرة فاصبحت شريكة لهم فى الجناية ، وقد حجزت اموال اهاليها وحكم فوق ذلك بغرامة من ٥٠ جنيها الى مائة جنيه ذهبا

« ودمرت الحملة ايضا ١٧ مزرعة فى جباتة الخشب وارطانيا وترانك

« وفى يوم ٢٩ منه زحفت على مجدل شمس وجباتة الزيت وفى ٢٠ منه عادت الى القنيطرة حيث باعت الاموال المحجوزة

وهذه هى اسماء الذين عرفوا من رجال العصابة: خليـل على مريود وشريف شاهين ومحمد ظاهر وصادق حمزة وادهم خنجر

٣ — ثورة سورية الشمالية

نشأت هذه الثـورة فى منطقة حلب الغربية وهى من الثورات الـكبرى التى اوقدها السوريون على الحـكم الفرنسوى و بطلها هوابراهيم بك هنانو فقـد غادر حلب بعد دخول الفرنسويين اليها وتولى زعامة العصابات التى كانت تعمل فى جوارها واتخذ جبل الزاوية (بين حلب وادلب والمعرة) قاعدة له ولقب نفسه بلقب « المتوكل على الله » وسير الفرنسويون القوى لمنازلة عصاباته فتغلبت عليهم وهزمتهم فعززوها فـكان نصيبها الفشل والاخفاق فزاد ذلك فى نفوذ الحـكومة الجديدة فبسطت سلطانها على كثير من البلاد المجاورة .

واقلق السلطة الفرنسوية ما جـرى فجهزت قوات عظيمة سارت من اللاذقية ومن حماه ومن حلب لمقاتلة العصابات فدارت معارك هائلة وهذا نص البلاغ الرسمى الفرنسوى الصادر عن هذه المعارك :

« كان عدد كبير من الـكتائب يعمل بملء النشاط فى المدة المنقضية بين شهر مارس وشهر يونيو من سنة ١٩٢١ و يقاوم بدون انقطاع عددا شـديد المراس من العصـابات مسلحا فى اراض جبلية ، و ينازله فى معـارك كبيرة تنتهى بالانتصار حتى استتبت السكينة وانتظمت الامور الادارية

«ولقد طاردت الجيوش بين ٦ ابريل و ٢٣ مايو عصابتى ابراهيم هنانو والشيخ صالح العلى ، وكانتا متحالفتين ولم تدع لهما وقت للراحة فتفرقت العصابتان منسحبتين

نحو الشرق ، وافضت هذه المعارك الشديدة الى احتلال البلاد وانشاء مراكز ثابتة فى كفر تخاريم ، ودركوش ، وجسر الشغور ، ومعرة النعمان ، ومن ثم زحفت قوى الكولونيل نيجر العديدة ، بعد ما وضعت الحواجز من البحر الى نهر العاصى ، وطافت بلاد العلويين من الشمال الى الجنوب ، واشتبكت فى معارك طويلة من ١٠ مايو الى ٢٥ يونيو وفيه نشبت معركة القدموس وانتهت بطاعة العلويين وهزيمة الشيخ صالح العلى وقد تخلى عنه معظم اعوانه »

وجاء فى بلاغ فرنسوى آخر عن هذه الحوادث: « فى ١٢ مايو خرجت حملة من اللاذقية بقيادة الكولونيل نيجر فتوجهت الى جبلة والمرقب حيث مركز العصابات وفى يوم ١٣ منه زحفت حملة اخرى من محردة (محطة من محطات سكة الحديد بين حمص وحماة) بقيادة الكولونيل دوم ، وسارت فى الوقت نفسه حملة ثالثة من الحمدانية (محطة من محطات سكة الحديد بين حلب وحماه) بقيادة الكولونيل فيك ، ومشى الجنرال غوبو قائد اللواء الثالث على رأس لوائه من حلب لتأديب العصابات فبلغ معرة النعمان يوم ٢٥ منه ودخلت قوة الكولونيل فيك فى اليوم التالى الى حبط وتقدمت قوة الكولونيل دوم فاستولت على جسر الشغور وزحفت قوة اخرى بقيادة الكولونيل فونيه على قلعة المضيق فاحتلتها

« ودارت معركة عنيفة فى جسر الشغور بين الثوار وحملة الكولونيل جران كور انتهت بانسحاب الثوار والاستيلاء على البلدة »

وفى يوم ١٢ يوليو سنة ١٩٢١ غادر ابراهيم بك هنانو معتصمه فى جبل الزاوية منسحبا امام القوات العظيمة التى جهزها الفرنسويون لقتاله ولا تقل عن ٣٠ الف مقاتل ، فاتجه نحو الشرق الجنوبى ولما بلغ اراضى سلميه (جوار حماه) لاقاه فريق من سكانها الاسماعيليين خرجوا للقبض عليه فنازلهم بالذين كانوا معه وعدتهم ٥٥ بين ضابط وجندى ، فتغلبوا عليه واعتقلوا فريقا من رجاله فافلت من ايديهم وسار الى حمص ولجأ الى بيت من بيوتها واقام فيه اياما ريثما هدأت الحالة ، وخفت الرقابة الشديدة التى وضعها الفرنسويون على البادية للقبض عليه ، فواصل السير حتى عمان (شرق الاردن) فاستقبله اهلها بالحفاوة والتكريم

وقصد القدس فى شهر اغسطس لزيارتها وقضاء بعض حاجات له وقيل انه كان يحاول السفر الى الحجاز فاعتقلته السلطة الانكليزية بطلب السلطة الفرنسوية وبعد ما سجنته اياما سلمته اليها فارسل الى حلب وحوكم امام المحكمة العسكرية فبرأت ساحته واطلقت سراحه

وقدم الشيخ صالح العلى ، زعيم ثورة العلويين خضوعه للسلطة الفرنسوية يوم ٦ يونيو سنة ١٩٢١ فاطلقت سراحه

٤ — اضطرابات دمشق سنة ١٩٢٢

فى يوم ٢ ابريل سنة ١٩٢٢ وصل الى دمشق المستر كراين رئيس اللجنة الاميركية التى قدمت الى سورية بامر الرئيس ولسن فى سنة ١٩١٩ لاستفتاء السوريين فى تقرير مصيرهم (انظر ص ٤٢٩ من الجزء الاول) للاشراف على مجرى الحالة ولمشاهدة ما حدث فى عهد الاحتلال الفرنسوى

وزار المستر كراين الدكتور عبد الرحمن شهبندر فى منزله عقب وصوله وقال له « لقد قدمت الى هنا بقصد التحقيق ، ذلك ان مجرى السياسة اليوم يطلب اظهار تقريرنا المشترك الذى كتبناه مع اخواننا اعضاء اللجنة الاميركية التى استفتت بلادكم فى سنة ١٩١٩ فهل كانت استعلاماتنا صحيحة ياترى ؟ اريد منك ان تجمعنى بابناء هذه البلاد ولاسيما المشايخ منهم لارى هل حصل شىء من التبدل فى آرائهم وهل كنا مصيبين فى اخبارنا التى جمعناها فى تقريرنا » (١)

وعقد فى اليوم نفسه اجتماع فى بستان الحيات بالصالحية حضره عدد كبير من اولى الوجاهة والفضل فسألهم المستر كراين هل هم لا يزالون على رأيهم فى الانتداب الفرنسوى فاجابوا بالايجاب وشكوا من الحالة التى صاروا اليها وسردوا حوادث معينة اثبتها المستر كراين فى مذكرات خاصة

---

(١) انظر نص هذا التقرير فى الجزء الثانى من كتابنا الثورة العربية الكبرى ص (٥١)

وتتابعت بعد ذلك الاجتماعات ايام ٤ و ٥ و ٦ منه وكان المجتمعون من علية القوم ومن طلاب الجامعة والمحامين والاطباء فاتفقت كلمتهم على الشكوى من حالتهم وعلى التذمر منها . واعتزم الرحيل صباح ٧ منه فتجمهر الناس حول سيارته وهتفوا للحرية وللاستقلال ونادوا بسقوط الحماية الفرنسوية والانتداب الفرنسوى وخاطب الدكتور عبد الرحمن شهبندر المستر كراين عند ما ازف موعد الرحيل قائلا :

« التفت الى وراءك ياسيدى واحفظ هذه الصورة التاريخية فى قلبك . وستمر على اوربا واميركا فترى فيها رجالا ذوى ضمائر حية يحبون الانسانية و يغارون على الحرية فاذكر لهم هذا المنظر الغريب واشرح لهم هذه المعانى التى تقرأها »

واضطرب ولاة الامور الفرنسويون لهذا الحادث لانه الاول يحدث من نوعه بعد معركة ميسلون سنة ١٩٢٠ وساءهم ان يرتفع فى جو المدينة صوت يهتف بالحرية والاستقلال فقرروا التذرع بسياسة الشدة ومعاقبة الذين اتصلوا بالمستر كراين وادبوا له المادب او هتفوا للحرية عقابا شديدا ليكونوا عبرة لغيرهم ، فلا تتحرك فيهم عاطفة حرة

وقبض فى الغداة (الخميس ٧ ابريل) على الدكتور عبدالرحمن شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر ومنير شيخ الارض وعبد الوهاب عفيفى فساء ذلك جمهور الامة وخطب فى الجامع الاموى بعد صلاة الجمعة غد ذلك اليوم السادة توفيق الحلبى ومحمد الشريقى وخالد الخطيب بالدعوة الى الاحتجاج على ما جرى ثم خرجوا بمظاهرة سلمية الى دار الحكومة ودور القناصل يطلبون الافراج عن الذين اعتقلوا فزاد ذلك فى الم السلطة واستيائها فامرت بالقبض على فريق من الشبان الذين اعتقدت ان لهم يدا فى اعداد المظاهرة وتهيئتها فقبض مساء الجمعة وصباح السبت على توفيق الحلبى وخالد الخطيب والدكتور محمود حمدى حموده الاستاذ فى مدرسة الطب وعادل حتاحت وسعاد شلبى وخليل خطاب وثروت الجعفرى وتوفيق القيسى ورشدى ملحس وتوفيق عجم اوغلى وحسن الزنبركجى وصبرى البديوى ومحمد الخطيب وامين سعيد (مؤلف هذا

الكتاب) فاضطربت دمشق لهذا الحادث وهاجت و واصلت المظاهرات احتجاجا على هذه التدابير القاسية فاعلنت الادارة العرفية يوم ٩ منه ووصلت قوات عسكرية جديدة لتعزيز الحامية فاضربت دمشق اضرابا عاما صباح ١٠ منه واقفلت ابوابها ، وعطلت مصالحها ، واقيمت مظاهرة كبيرة فى سوق الحميدية قرب الظهر ، وفى الساعة الرابعة خرج السيدات بمظاهرة يهتفن للحرية والاستقلال و يطالبن بالافراج عن المعتقلين

واقيمت مظاهرة اخرى يوم ١١ منه فحاول الجند تفريقها بالقوة فقاومه الجمهور فاستشهد طالبان وجرح ستة فتسلم الجيش الفرنسوى المدينة واذيع البلاغ الآتى :

«وفقا للقرار الصادر بوضع دمشق تحت الاحكام العرفية يعلن الكولونيل غودنى قائد جيوش دولة دمشق الاهلين بما يأتى :

١ — يمنع التجمع بالطرق العامة و يقمع ذلك بالسلاح

٢ — يمنع التجوال فى شوارع المدينة من الساعة السابعة مساء حتى السادسة صباحا

٣ — يطلب من الاهالى ان يعودوا الى اعمالهم كالمعتاد

٤ — كل من يخالف هذه التعليمات يحال الى الديوان العرفى

وفى الساعة الواحدة من ليل الثلاثاء ١٨ ابريل نقل الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر ومنير شيخ الارض وتوفيق الحلبى وعبد الوهاب عفيفى وخالد الخطيب من سجن القلعة الى سجن الشرطة وشرعوا فى صباح ١٩ منه بمحاكمتهم امام الديوان العسكرى على التهم الآتية :

١ — تدبير مؤامرة لتغيير شكل الحكومة مشفوعة بالعمل واعداد العمل لمحاولة التنفيذ

٢ — التحريض على مؤامرة غايتها تغيير شكل الحكومة مع ايقاع اضطرابات

وبعد محاكمة صورية اصدر الديوان حكمه بسجن الدكتور عبد الرحمن شهبندر ٢٠ سنة وحسن الحكيم ١٠ سنوات وسعيد حيدر ١٥ وعبد الوهاب عفيفى ٢٠ ومنير شيخ الارض ١٠ ومثلها على خالد الخطيب ، وتوفيق الحلبي خمس سنوات

واعيدوا بعد اعلان الحكم الى سجن قلعة دمشق وفى ليل ٢١ منه ارسلوا بالسيارة الى قرية « بيت الدين » من قرى لبنان ثم نقلوا منها الى جزيرة ارواد وانزلوا فى قلعتها

واطلق سراح الذين كانوا فى الاعتقال يوم صدور الحكم وصدر الامر الى كل من رشدى ملحس والشيخ احمد السورى وسعاد شاي وتوفيق عجم اوغلى وامين سعيد بان يغادروا دمشق فى خلال ٤٨ ساعة والا ابعدوا بالقوة ، فسافروا واختار امين سعيد القاهرة منفى له فهاجر اليها واستقر فيها

وتجددت المظاهرات والاضطرابات فى دمشق واعلن الاضراب لمدة اسبوع كامل (٢٢ — ٣٠ ابريل) فتدخلت السلطة لايقافه وحمل الناس على الرجوع الى اعمالهم واصدرت البيان الآتى :

« ليكن فى علم الجمهور ان كل من لا يفتح دكانه و يعود الى معاطاة اشغاله ، يغرم بثلاثين ليرة سورية بدون محاكمة ولا يسمع له اعتراض » فلم يغن ذلك عنها فتيلا واستمر الاضراب سائرا سيره المقرر فشرعت فى اعتقال الشبان والرجال الذين اعتقدت ان لهم يدا فى تدبير هذه الحركة وتنظيمها وفى الدعوة اليها حتى بلغ عدد الذين اعتقلوا ونفوا فى اثناء ذلك الحادث ٤٤١ شخصا

واقيمت مظاهرات فى حمص وحماه وطرابلس وحلب تأييدا لدمشق وعطلت الاعمال ، وسقط ٤ قتلى وجرح ٣٠ فى حمص وكثرت الاعتقالات والاضطهادات وظلت البلاد السورية فى قلق ووجل واضطراب اسابيع عديدة لم يطمئن لها بال ولم يقر لها قرار

٥ — الثورة الكبرى

حدثت هذه الثورة فى سنة ١٩٢٥ واستمرت زهاء سنتين (سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٧) فابلى فيها السوريون بلاء حسنا واستماتوا فى الدفاع عن حوزتهم وذمارهم

لقد طارت شرارتها من جبل الدروز فقد ارسل الفرنسويون من السويدا يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٢٥ قوة عسكرية يبلغ عدد رجالها ١٦٠ بقيادة الكبتن نورمان الى قرية « القريّة » للقبض على سلطان باشا الاطرش والمجىء به الى السويدا (عاصمة الحكومة) فامتنع وابى فحاولت المجىء به جبرا فنازلها فريق من رجاله يوم ٢٤ منه عند قرية « الكفر » وابادها

واعد الفرنسويون حملة كبيرة فى « ازرع » احدى محطات سكة الحديد فى حوران وتناوح جبل الدروز زحفت يوم ٣ اغسطس سنة ١٩٢٥ الى الجبل بقيادة الجنرال ميشو لاخضاعه فقابلها الدروز فى مكان اسمه المزرعة وصدموها صدمة عنيفة ومزقوها شر ممزق وغنموا سلاحها ومعداتها . وكان عدد جندها ثلاثة آلاف ونيفا وكانت مسلحة بالمدافع الكبيرة والصغيرة والرشاشات وعربات الذخائر والميرة فاستولوا عليها وعطلوا بعض دبابات كانت معها فكانت نكبة عظيمة نكب بها الجيش الفرنسوى فى سورية

وارسل الفرنسويون وفدا من بيروت الى الجبل للاجتماع بالزعماء والعمل على تهدئة الحالة فدارت بينه و بينهم مباحثات ، ووصل الى الجبل فى تلك الاثناء وفد من دمشق قوامه توفيق الحلبى وزكى الدروبى واسعد البكرى لدرس الحالة عن كثب والعمل لتوحيد الخطط بين الدروز والدمشقيين فقضى اياما ثم عاد العاصمة السورية فعقد رجال الحركة الوطنية ثمة اجتماعا فى منزل الحاج عثمان الشراباتى ليلة ١١ اغسطس سنة ١٩٢٥ استمر حتى مطلع الفجر فتم الاتفاق على ان يخرج القادة الى « الكسوه » صباح ٢٣ منه للقاء فرسان الدروز القادمين من الجبل و يعود الجميع الى دمشق للاستيلاء عليها واشترك فى هذا الاجتماع عدا الدكتور شهبندر

فوزى البكرى ونسيب البكرى وجميل مردم بك ويحيي حياتى وحسن الحكيم والمرحوم سعد الدين المؤيد وغيرهم

وفى مساء ٢٢ منه غادر الدكتور شهبندر ونزيه المؤيد العظم دمشق الى قرية حوش متبن (ملك جميل مردم بك وقد تم الاتفاق على ان تكون محل الاجتماع) فلم يصل سوى يحيي حياتى ، فاضطرا ان يغيرا خطة السير خوف الوقوع فى الشرك فذهبا مغربين الى بلودان ومن هنالك عادا الى جبل الدروز بطريق الغوطة فالتقيا بجميل مردم بك وسعد الدين المؤيد فواصلوا السير الى الجبل فاجتمعوا بسلطان باشا الاطرش واخوانه فى قرية « كفر اللحى » يوم ٢٥ اغسطس ثم وصل فوزى البكرى واخوانه واتحد الكل فى العمل وكان من القواعد التى تم الاتفاق عليها ان لا يعقد الجبل صلحا منفردا عن دمشق ولا تعقد صلحا منفردا عن الجبل

واتسع نطاق الثورة فشمل جبل الدروز وامتد الى غوطة دمشق وجبل قلمون وحمص وحماه شمالا، واقليم البلان ووادى التيم غربا، وثارت حماه على الفرنسويين يوم ٤ اكتوبر من تلك السنة ودارت بين الثوار من ابنائها والفرنسويين معارك عنيفة ، وتألفت عصابات قوية فى الغوطة جعلت دأبها الغارة على مدينة دمشق ومهاجمة مراكز الفرنسويين وقطع خطوط مواصلاتهم ، وفى يوم ١٨ اكتوبر دخل فريق من الثوار مدينة دمشق واحتل بعض اجزائها وتقدم حتى مقر قيادة الجيش محاولا اعتقال الجنرال ساراى المندوب السامى الفرنسوى ، فأفلت هذا وسار الى بيروت بعد ما امر بضرب دمشق بالمدفع فاستمر الضرب ١٤ ساعة فدمرت النيران جانبا كبيرا من قصورها التاريخية واسواقها وقتلت عددا كبيرا من ابنائها ودكت مئات المنازل على رؤوس اصحابها ، فكانت نكبة عظيمة لاتعادلها سوى نكبتها على يد تيمورلنك فى القرن الثالث عشر واحتج العالم على فرنسا وانكر اعمالها فاستدعت الجنرال ساراى الذى فعل هذه الفعلة المنكرة ، ومات بعد قليل من وصوله الى فرنسا ، والظاهر ان تبكيت الضمير اثر فيه وقتله وهكذا مصير الطغاة دائما

وحسب الفرنسويون ان اطلاق المدافع على المـــدن الآمنين وتدميرها يخيف السوريين ويثنيهم عن قتالهم فكان الامر بالعكس فقد اندفعوا اندفاعا شديدا فى تيار المقاومة وحملوا على اعدائهم فى كل مكان وهزموهم فى كثير من المعارك فطلبوا النجدات من فرنسا فجاءتهم، كما جندوا كثيرين من ابناء الطوائف اللاجئة والاقليات من شراكسة وارمن واسماعلية ونصيرية وسريان وكلدان ليوقعوا العداوات والشقاق بين ابناء البلاد فكانت مجازر تشيب لهولها الولدان

وحل المسيو دى جوفنيل محل الجنرال سراى فى منصب المندوب السامى فوصل الى بيروت فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٥ واعلن انه قادم للاتفاق والتفاهم، فقال السوريون بلسان واحد ان الوسيلة الوحيدة للاتفاق هى الغاء التجزئة واعادة البلاد السورية كما كانت وحدة ادارية والاعتراف بحقوق سورية الطبيعية والتسليم بحريتها واستقلالها . ودارت مفاوضات عديدة بين هـذا والمندوب وبين قادة الحركة الوطنية فى باريس والقاهرة وبيروت ودمشق ووضعت مشروعات عدة للتوفيق انتهت كلها بالفشل والاخفاق، لضعف ارادة المندوب الجديد وتردده ولان رجال الحزب الاستعمارى العسكرى كانوا يعارضون فى اقرار كل تسوية بحجة ان ذلك يضعف هيبة فرنسا ونفوذها وكرامتها واصروا على اخضاع البلاد بالسيف والنار فاستؤنف القتال ودارت معارك شديدة فى جبل الدروز وكان الفرنسويون قد جلوا عنه نهائيا، وفى شرقى حوران وفى وادى التيم، وفى مجدل شمس وفى الغوطة وفى قلمون وفى بعلبك ابلى فيها الثوار وتغلبوا على الفرنسويين وهزموهم فى معظمها، بيد ان تتابع وصول النجدات من فرنسا ووفرة المعدات جعلهم يتغلبون تدريجيا ويستولون على مراكز الثوار الواحد بعد الآخر

ودعى المسيو دى جوفنيل المندوب السامى الجديد الى باريس وخلفه المسيو بونسو فأذاعت فرنسا عنـــد تعيينه بلسان وزير خارجيتها المسيو بريان انها مستعدة للتفاهم مع السوريين بشرط ان يخلدوا الى السكينة لانها لاتريد ان يقال انها تفاهمت

مكرهة فجاء هذا و بعد انقضاء سنة وار بعــة شهور على وصوله اى فى شهر فبراير سنة ١٩٢٨ أذاع البيان الآتى :

« كانت الدولة المنتدبة ترجو من زمن بعيد ان تأزف الساعة التى تتمكن فيها سورية من حـل قضية دستورها فى ظل السلام ، وقد ازفت هــذه الساعة الآن وستجرى الانتخابات قريبا بمقتضى القوانين المعمول بها وهى تضمن حرية الاقتراع لجميع الاحزاب

« وستلغى جميع القيود الموضوعة على الحريات المشروعة ، وهى القيود الموروثة من عهد الاضطراب لتظهر آراء البلاد الحقيقية ظهورا جليا باستشارة الشعب

« وستسن الجمعية التى تنشأ عن هذه الانتخابات القانون الاساسى النهائى للبلاد السورية بتمام الحرية المطلقة ضمن نطاق الاتفاقات الدولية والصكوك المسؤولة عنها فرنسا ازاء جامعة الامم ، فاحترام الحقوق والواجبات المتبادلة الناشئة عن صك الانتداب والتى يمكن تحديدها باتفاقات تعقد فيما بعــد هو فى الحقيقة أساس للرقى السريع الذى يجب ان تبلغه سورية وتساعدها الدولة المنتدبة على تحقيقه بكل قواها

« ففى الوقت الذى تقيم فيه فرنسا للسوريين الدليل على سخائها والثقة التى تضعها فيهم تحذرهم من تعريض المستقبل المملوء والذى تفتح امامهم ابوابه للاخطار الناشئة عن الاضطرابات والاختلافات او عن جهل الحقائق السياسية

« وان فرنسا تنفيذا لهذه الخطة التى رسمتها تضع ثقتها بالحكومة المؤقتة التى اخذت على عاتقها مهمة محدودة هى ادارة الشئون العامة »

احصاء عن الثورة

على هذا المنوال انتهت الثورة بعد ما استمرت زهاء سنتين ونيف اى انها لم تنتج نتيجة مادية ايجابيــة تذكر ولم تحمل الفرنسويين على التساهل مع السوريين وكان كل مانالہ هؤلاء وعودا مبهمة لاقيمة لهـا انطوى عليها البلاغ الفرنسوى الذى اثبتناه آنفا

وننشر هنا بيانا عن عـدد الجنود الفرنسويين الذين اشتركوا فى قتال الثوار وعدد المدن والقرى التى تهدمت وخسارة السوريين المادية فقد لايخلو ذلك من فائدة:

قدر عدد الجنود الذين ارسلوا من فرنسا الى سورية فى خـلال سنى الثورة بثمانين الف جندى وقدر عدد الذين جندهم الفرنسويون من الارمن والشراكسة والنصيرية واليزيدية والاسماعيليـة واللبنانيـين والدروز اى من الاقليات فى سورية وكانوا يعتمدون عليهم فى المهمات و يضعونهم فى المقدمة بثلاثين الفا وبذلك يبلغ المجموع ١١٠ آلاف انتشروا فى دمشق وجبل الدروز ولبنان وقلمون واقليم البلان وحوران وطرابلس وحمص و بعلبك و بيروت والمناطق الشمالية

وقدرت خسارة الفرنسويين فى الثورة بثلاثين الف جندى

ولا يوجـد احصاء رسمى عن قتلى السوريين ولا نظنهم يقلون عن قتـلى الفرنسويين

وضرب الفرنسويون فى اثنـــاء الثورة بالمدافع مدن دمشق وحماة والسويدا وراشيا وحاصبيا ومرجعيون والنبك ودمروا جانبا من كل منها

و يضيق المقام دون ذكر اسماء المدن التى حرقوها او دمروها ونهبوها فى اثناء الثورة وهى تحصى بالمئات وتشمل معظم قرى غوطة دمشق وجبل الدروز واقليم البلان وقلمون ووادى التيم و بعض قرى عكار

ولا تقل خسارة السوريين المالية فى اثناء الثورة عن خمسة ملايين جنيها بما فى ذلك ثمن الدور والمنازل التى احترقت ودمرت فى دمشق وحماة وكان بعضها يحتوى على غالى الطرف والنفائس التى لاتعوض ولا تقوم بثمن

الدور الرابع

هذا الدور هو اطول الادوار ، فهو يبتدىء من ختام الثورة فى سنة ١٩٢٨ و يمتد الى يومنا هذا ومع انه كان ساكنا فى اوله فقد زخر بالاحداث فى آخره

لقد تلفت السوريون الى فرنسا ، بعد ختام الثورة فى سنة ١٩٢٨ يرقبون اعمالها ويرجون ان تبر لهم بوعودها ومواثيقها

وتتابعت الشهور والايام ثم تلتها السنون والسياسة الفرنسوية تدور فى الدائرة الضيقة المرسومة لها وعدد الموظفين الفرنسويين يزداد يوما بعد يوم والحالة الاقتصادية تزداد سوءا على سوء فقد عالج الفرنسويون عجز الدخل بزيادة الضرائب ومضاعفتها بدلا من خفض النفقات والغاء المناصب الزائدة

وزاد الطين بلة اسرافهم فى منح الامتيازات الاقتصادية للشركات الفرنسوية واغداقهم عليها الاموال باسم «ضمانات» و «تعويضات» وغيرها فزاحمت الشركات الوطنية وفازت عليها فافلست وانسحبت من الميدان ووضعت وزارة الخارجية الفرنسوية فى سنة ١٩٣٣ مشروع معاهدة لحل المسألة السورية سلمته الى المسيو دى مارتيل المندوب السامى وامرته بان يحمل البرلمان السورى على اقراره ، فعارضه السوريون بشدة لانه ينطوى على الاحتفاظ بالحالة الراهنة اى باوضاع التجزئة ويقر جميع التصرفات التى تصرفها الفرنسويون ورفضه البرلمان حينما عرض عليه فعطل المندوب السامى البرلمان مدة خمسة ايام ثم اتبعها بعطلة اخرى لمدة شهرين ثم عطله لمدة سنة ثم لأجل غير مسمى وحكم الفرنسويون البلاد بانظمة استثنائية شاذة ولم يصغوا الى الاصوات التى ارتفعت من كل مكان بالدعوة الى اعادة البرلمان

الرجوع الى السياسة السلبية

واغتنم الوطنيون فرصة الحفلة التى اقيمت فى دمشق يوم الجمعة ١٠ يناير سنة ١٩٣٦ لتأبين المرحوم ابراهيم هنانو فوضعوا بيانا سياسيا مطولا تلى فى الحفلة واعلنوا فيه انهم عدلوا عن السياسة الاقليمية ودعوا الامة الى السير على سياسة عملية ايجابية

الاتفاق بين المسلمين والنصارى

وزاد فى مخاوف السلطة وضاعف فى قلقها واضطرابها مااقترن به هذا البيان من تقرب بين دمشق ولبنان عامة وبين الكتلة الوطنية وغبطة بطريرك الموارنة خاصة

لقد كانت السياسة الفرنسوية فى سورية ولبنان تعتمد بالدرجة الاولى على تأييد الطائفة المارونية ومساعدتها فقد استطاع الفرنسويون بفضل الجهود التى بذلوها فى خلال نصف قرن ونيف و بفضل المدارس الكثيرة والمعاهد العلمية التى اسسوها استمالة هذه الطائفة ولا سيما نشئها الجديد الذى تخرج فى مدارسهم وتعلم لغتهم وتثقف بثقافتهم فقد كان الفتى المارونى المتخرج فى كلية عينطورة او كلية مدرسة القديس سان جوزيف فى بيروت يجيد اللغة الفرنسوية اكثر من اجادته اللغة العربية وقد اهملتها هذه المعاهد والمدارس اهمالا شنيعا و يعرف تاريخ فرنسا اكثر من معرفته تاريخ بلاده ، فقد ربته على حب فرنسا ومثلتها له فى احسن صورة فشب وهو يتعشقها ويرى فيها المثال الاعلى للدولة الحرة العادلة ، و يتمنى حلول اليوم السعيد الذى ينضوى فيه الى لوائها و يصير من رعاياها ويرى فى ذلك منتهى السعادة والمجد والغبطة

وكانت هذه المدارس الى جانب هذا تقتل كل عاطفة قومية ووطنية فى صدور طلابها وتنفرهم من قومهم ومن بلادهم ومن اخوانهم وجيرانهم وتحضهم على مجافاتهم وهكذا استطاعت ان توجد نفرة بين سكان البلاد كما استطاعت ان توجد انصارا ومؤيدين لفرنسا يتفانون فى حبها ، ويهيمون بها

وتبدل الحال حينما جاء الفرنسويون الى سورية وقبضوا على عنقها ونفذوا اساليبهم الاستعمارية وسخروا موارد البلاد كلها لموظفيهم وشركاتهم واستهانوا بالكرامات وخرقوا التقاليد والعادات فتبين الموارنة انهم كانوا فى خطأ وان الفرنسويين ما علموهم الا لكى يأكلوهم و يستعبدوهم فحاولوا اقناعهم بالعدول عن هذه الخطط ومعاملتهم بالعدل والرفق وقالوا لهم ان هنالك بونا شاسعا بيننا و بين سكان المستعمرات الافريقية من الزنوج من الذين اعتدتم على استعبادهم والتحكم فيهم فلم يزدهم ذلك الا صلفا واستبدادا

وكانت ثالثة الاثافى منح الفرنسويين فى سنة ١٩٣٥ احدى شركاتهم امتيازا باحتكار تجارة الدخان فقامت قيامة اللبنانيين ولا سيما الموارنة منهم لهذا المشروع

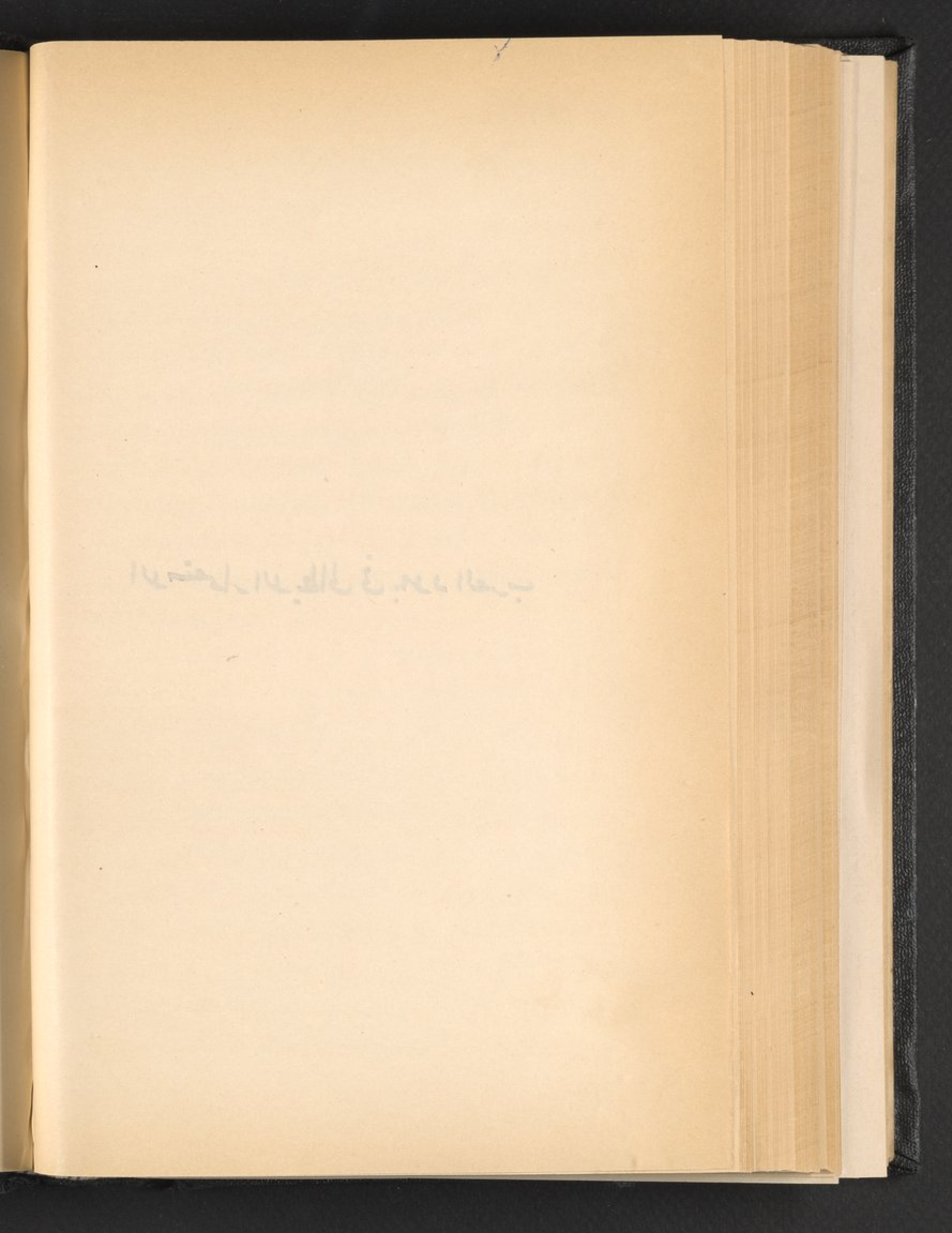
ولجأوا الى بطريركهم يوسطونه ليقنع ولاة الامور بالعدول عنه رحمة بهم وشفقة عليهم ، فكتب الى المندوب السامى راجيا عدم التعجيل فى اقرار الاحتكار وملاحظة عظم ضرره

وعزز البطريرك كتابه بايفاد عدد من المطارنة لمقابلة المندوب واقناعه بالعدول عنه فلم يثنه ذلك ونفذ مشروعه بين ضجيج الشعب وصراخه

وما كانت شكاوى اهل سورية الداخلية من هذا الاحتكار لتقل عن شكاوى جيرانهم اهل لبنان وهكذا جمعت الاحداث بين الفريقين ووفقت بينهم فتصالحوا وتعانقوا بعد طول جفاء وافتراق وخاف الفرنسويون نتائج هذا التقرب فقرروا ان يأخذوا الامور بالشدة والعنف فاغلقوا مكتبي الكتلة الوطنية فى دمشق وفى حلب (بيت الأمة السورية) واعتقلوا فخرى بك البارودى ونفوه الى الحسجة فاهاج ذلك سورية واقامها واقعدها فاضربت يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٣٦ اضرابها التاريخى الذى استمر ٤٩ يوما ولم تفتح ابوابها الا بعد ما نالت مطالبها وحملت فرنسا على الاعتراف بحقوقها والتسليم بها

وسنفصل فى الجزء الثالث من هذا الكتاب اخبار هذا الاضراب وحوادثه ونسجل ما وقع فى خلاله من وقائع رفعت قدر الأمة السورية واكسبتها اعجاب العالم وعطفه

الاستعمار الايطالى فى بلاد العرب



١

معلومات تاريخية

طرابلس الغرب وبرقة اقليمان عربيان كبيران واسعان يقعان بين مصر وتونس والصحراء والبحر المتوسط

ويطلقون اسم برقة على المنطقة الممتدة من غربى السلوم حتى نهاية خليج سرت على شاطىء البحر المتوسط فى مكان يقال له المقطاع واسمها بالرومية Cyranica وتبلغ مساحة برقة السطحية ٣٤٥ الف كيلو متر مربع

وتمتد حـدود طرابلس من المقطاع شرقا حتى حدود تونس غربا ومساحتها السطحية ٤٩٠ الف كيلو متر اى ان مساحتها ومساحة برقة تبلغ ٨٣٥ الف كيلو متر مربع

دخـل هذان القطران العظيمان فى ملك الدولة العربيـة على يد عمرو بن العاص فاتح مصر فانه ما كاد يخضع وادى النيل ويجتث كل نفوذ سياسى للروم فى ربوعه حتى اتجهت همته الى فتح هـذه البلاد جارة مصر وشقيقتها فسار فى اواخر سنة ٢٢ للهجرة او اوائل سنة ٢٣ الى برقة يقود بضعة آلاف من الجنود ، فاستسلمت اليـه بدون عناء ولا نصب ، وصالحه حاكمها الرومى على الجزية وعلى ان تدفع هذه الجزية فى مصر يحملها البرقاويون الى خزينتها

وواصل عمرو الزحف بجيشه الى طرابلس الغرب لاخضاعها. والمسافة بينها و بين برقة ١٢٠٠ كيلو مترا ، فبلغها بدون حادث ولا عائق فاسرعت الحامية الرومية فأغلقت الابواب ولجأت الى الاسوار والحصون

ونزل الجيش العربى حول المدينـة وضرب عليها الحصار من الشرق والغرب والجنوب ولم يطل حصاره لها بل افتتحها واخضعها

ووسع عمرو نطاق فتوحاته فاحتل سبرة واسمها العربى صبرة وهى الى غربى طرابلس على الطريق بينها و بين زوارة ثم احتل شروس فى الجبل الغربى واراد ان يواصل زحفه غربا فيستولى على تونس والجزائر و ينشر فيهما لواء الاسلام فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب مستشيرا فكتب اليه يأمره بالتوقف و بعدم الايغال فى الزحف غربا

على ان مافات عمرا ادركه عبد الله ابن ابى سرح خليفته فى مصر فقد نال هذا تصريحا من الخليفة الثالث عثمان بن عفان بان يوغل فى افريقية و يعمل على اخضاعها فسار اليها واستولى عليها

وحاول الروم البيزنطيون بعد ذلك استرداد طرابلس الغرب و برقة وارسلوا الاساطيل فاخفقوا ولم يفلحوا ورسخت اقدام العرب فيهما ، فلم تخرجا من حكمهما الا فترات متقطعة حتى جاء الترك العثمانيون فاستولوا عليهما فى سنة ٩٥٩ ﻫ ثم انتزعهما الايطاليون سنة ١٣٢٩ ﻫ

وكان عدد سكان هذين الاقليمين حينما اغارت عليهما ايطاليا نحو مليون ونصف مليون من العرب المسلمين فهبط الآن الى نحو نصف مليون تقريبا ، فقد افنت الحروب المستمرة والفتن المتتابعة الجانب الاكبر منهم كما ذهبت الهجرات بالقسم الباقى فانتشروا فى الاقطار العربية المجاورة فرارا من قسوة الحكم الايطالى وشدته

٢

خلاصة سياسية

احتكرت انكلترا وفرنسا فى خلال القرن التاسع عشر حق التدخل فى شئون بلاد العرب فاستولت الاولى على جنوبى اليمن ومصر والسودان و بسطت نفوذها على خليج فارس، واشرقت شمس القرن العشرين وعمالها يعدون المعدات للاستيلاء على العراق و بقية المناطق العربية فى البحرين الاحمر والمتوسط، مستغلين فرصة ضعف الدولة العثمانية وترديها فى مهاوى الانحلال، وانحطاط العرب الاجتماعى والعلمى والسياسى

وكان الفرنسويون اسبق من الانكليز الى غزو بلاد العرب فاستولوا فى سنة ١٨٢٧ على الجزائر ثم الحقوا بها تونس ولولا الانهزام الشنيع الذى اصيبوا به فى حربهم مع المانيا سنة ١٨٧٠ وقد اضعف هيبتهم ومقامهم فى السياسة الدولية ومعارضة انكلترا لهم لما تنفس صبح القرن العشرين الا والمغرب الاقصى من مستعمراتهم، على ان ما فاتهم ادراكه فى ذاك القرن بلغوه فى القرن الحالى واضافوا اليه الجزء الشمالى من سورية

ولقد سارت هاتان الدولتان فى امتلاك بلدان العرب واستعمارها على قاعدة «المقايضة» وتبادل المصالح والمنافع لانها الاضمن والاسهل، فاتقت المنافسة ونالت الاوطار بدون عناء

لقد نافس الانكليز الفرنسويين فى مصر حينما جاءوها للمرة الاولى فحطموا اسطولهم وحاصروهم وقطعوا كل صلة بينهم و بين بلادهم ثم لحقوا بهم الى فلسطين حينما تقدموا اليها ثم جاءوا بجيشهم لمنازلتهم برا بعد ماتبينوا ان الاعتماد فى هذه المهمة

على الجيش العثمانى لايحقق املا ، وما زالوا بهم حتى اخرجوهم من وادى النيل واعادوهم الى بلادهم على شر حال بعد ما وصلت اللقمة الى الفم و بعد ما اعتقدوا انه صار من ممتلكاتهم واراضيهم

فهذا التنافس الشديد الذى تجلى فى ابان الحملة الفرنسوية الاولى ـ وقد انتهى بافلات الطريدة من يد الصائد فلا الانكليز امتلكوها ولا الفرنسويون فازوا بها ـ نبه رجال الحكومتين الى خطل سياسة التنافس وضررها واهاب بهم الى اتباع خطة مشتركة فى البلاد العربية تضمن لهم الحصول على الفوائد التى يريدون الحصول عليها باهون السبل ما دامت الغاية الاصلية ـ وهى امتلاك هذه البلدان ـ واحدة ، اى ان الامر لا يتعلق بمصالح جوهرية يهم امرها اهل البلادين مباشرة .

واول مرة اتبع فيها الفرنسويون والانكليز سياسة مشتركة فى البلدان العربية كانت فى اثناء الغارة الفرنسوية على الجزائر فقد اطلقت حكومة لندن يد حكومة باريس فى اتخاذ ماتراه من التدابير لامتلاك ذلك القطر مقابل اشتراكها معها فى حرب الدولتين العثمانية والمصرية واخراج المصريين والترك من اليونان

ولما تقدم الانكليز لاحتلال جزيرة قبرص فى سنة ١٨٧٧ اى عقب الحرب العثمانية ـ الروسية مهتبلين فرصة خروج الدولة مهزومة من تلك الحرب المشؤومة حاول الفرنسويون ان يعارضوا فاسكتهم الانكليز بان اطلقوا يدهم فى تونس وكانوا يمهدون للاستيلاء عليها و يعدون معداته

وحمل الفرنسويون فى سنة ١٨٨١ على تونس واستولوا عليها ، عملا بهذا الاتفاق ، فلم يلقوا معارضة ولا منافسة من الانكليز عملا بالاتفاق المعقود بينهما فى سنة ١٨٧٧

ودخل الانكليز مصر فى سنة ١٨٨٢ و بسطوا نفوذهم السياسى عليها فاقلق ذلك الفرنسيس وازعجهم . ويجب ان نعترف بان تردد السياسة الفرنسوية وضعفها فى اثناء تلك الازمة كان من جملة العوامل التى سهلت للانكليز الفوز والنجاح. وحاول الفرنسويون فى تلك الفترة ان ينشبوا اظافرهم فى المغرب الاقصى فوقف الانكليز

فى وجههم وافهموهم انهم لا يسمحون بشىء من هـذا حينما جاءوا يعجمون عودهم و يسبرون غورهم ، فلم يسعهم سوى السكوت والصبر ، لان الجرح الذى جرحوه فى حرب سنة ١٨٧٠ كان لم يك قد التأم ثم جاءت حادثة فاشودة فى سنة ١٨٩٩ وقد اعتدى فيها الانكليز على الفرنسويين ، واعادوهم القهقرى فزادت فى اختلاف الحكومتين ، وكان من نتائجها المباشرة ظهور الفرنسويين فى خليج فارس سنة ١٩٠١ وعقدهم معاهدة مع امام مسقط نالوا بموجبها حق انشاء مستودع فحم لبواخرهم فكبر ذلك على الانكليز فسعوا عند امام مسقط وما زالوا به حتى حملوه على نقض الاتفاق والغائه ، فاقصوا بذلك النفوذ الفرنسوى من تلك المنطقة ـ منطقة الخليج الفارسى ـ جار الهند الادنى

واتجهت نية اقطاب الفريقين بعد هذا الحادث ـ وكان نجم المانيا السياسى قد بدأ بالاشراق و بدأ الانكليز يحسبون حسابها ، ويخافون نهضتها الجديدة ، كما كان الفرنسويون موتورين منها ـ الى عقد اتفاق يزيل الخلاف و ينشىء عهدا جديدا بين البلادين فكان اتفاق سنة ١٩٠٤ وقد نشرناه بنصه انظر (ص ٢٥٣) فاطلقت به انكلترا يد فرنسا فى المغرب الاقصى وتعهدت بمساعدتها فى امتلاكه والفوز به وقد برت بوعدها ، واعترفت فرنسا فى هذا الاتفاق بمركز انكلترا السياسى بمصر وتعهدت بان تكف عن طلب تحديد موعد لجلائها عنه ، وهكذا استقبلت هاتان الحكومتان عهدا جديدا وتفاهمتا على حساب البلدان العربية تفاهما انقلب بعد ذلك الى تحالف نخاضتا الحرب العظمى جنبا الى جنب

وظهر فى اواخر القرن الماضى عامل جديد فى السياسة الدولية ونعنى بهذا العامل ايطاليا فقد استطاعت بعد ان انشأت وحدتها فى سنة ١٨٦٩ وكونت نفسها سياسيا واجتماعيا ان تنال مقاما بين الدول وان يحسب حسابها فى السياسة الدولية ولا سيما فى القسم الخاص بغربى البحر المتوسط حيث تقع بلادها

٣

العرب وايطاليا

صلة العرب بايطاليا قديمة العهد ترجع الى القرن الاول للهجرة او الى يوم بلوغهم افريقية الشمالية واستيلائهم على تونس والجزائر وانشائهم مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ

واتخذ العرب من شواطىء تونس قاعدة للغارة على جزر ايطاليا وساحلها وكانت تابعة لحكومة بيزانطية، اى انها لم تكن مستقلة فى ذلك الوقت فكانت اساطيلهم تغاديها وتراوحها بدون انقطاع ، فتعود مثقلة بالغنائم والاسلاب ، وما كانت فكرة الفتح والاستيلاء والتملك وراء البحار قد اختمرت فى رءوس قواد العرب

والى دولة بنى الاغلب فى تونس ـ وقد نشأت فى العهد العباسى (سنة ١٨٣ ومؤسسها ابراهيم الاغلب) ـ يعود الفضل فى افتتاح ايطاليا واكتساحها ونشر النفوذ العربى فى ربوعها فقد اخضعتها نهائيا فى سنة ٢١٢ هـ

و يقول المؤرخون العرب فى تعليل هذا الحادث ان فيمى قائد الاسطول البيزانطى فى ايطاليا زار زيادة الله بن الاغلب احد امراء دولة الاغالبة واغراه بغزو جزيرة صقلية وامتلاكها ووعده بالمساعدة والتأييد ـ وذلك بسبب خلاف حدث بين هذا و بين الوالى فوافق هذا الاقتراح هوى من نفسه فعبأ حملة عسكرية برية و بحرية بقيادة اسد بن الفرات قاضى القيروان فسار هذا بقواه الى (مازر) احدى ثغور صقلية فاستولى عليه ونزل بقواه الى البر فلاقاه العدو فقاتله وهزمه واوغل فى الجزيرة فوقعت بينه و بين السكان معارك حامية كانت سجالا واستمرت سنين طوالا وانتهت بتغلب العرب وثبات اقدامهم وانشاء دولة عربية مستقلة فى صقلية تعرف فى التاريخ

« بدولة الـكلبيين » نسبة الى مؤسسها الحسن بن على الـكلبى احـــد رجال الدولة الفاطمية فقد ارسله الخليفة المنصور — وهو ثالث الخلفاء الفاطميين وقد حلت دولتهم محل دولة الاغالبة فى تونس وورثتها سنة ٣٣٥ — واليا الى تلك البلاد فسار الى ثغر مازر ونزل فيه

وترجم ابن خلدون للحسن الـكلبى بقوله « ولما انقضت فتنة ابى يزيد الخارجى عقد المنصور على صقلية للحسن بن ابى الحسن الـكلبى وهو من صنائعهم ووجوه قواده ، وكنيته ابو الغنائم وله فى الدولة محل كبير وفى مدافعة ابى يزيد غناء عظيم ، وكان سبب ولايته ان اهل بالبرمو استضعفوا عطافا واليهم واستضعفهم العـدو لعجزه فوثب به اهل المدينـــة يوم الفطر سنة ٣٣٥ وتولى ذلك بنو الطبر منهم فلجأ عطاف الى الحصن وأرسل يبلغ المنصور فولى حسن بن ابى الحسن الـكلبى فسار اليها ونزل فى ميناء مازر ليلا فلم يلقه احد

واتاه فى الغلس جماعة من كتامة واعتذروا له عن الناس بالخوف من بنى الطبر وهم الذين وثبوا على عطاف وحاربوه ، و بعث هؤلاء عيونهم يتجسسون خبر القادم فاستضعفوه ولـكنهم واعدوه اللقاء فى بالبرمو فسار على عجل اليها ودخلها قبل الموعد فخرج حاكمها ورؤساء الدواوين لاستقباله فاضطر بنو الطبر للخروج فخرجوا وعلى رأسهم كبيرهم اسماعيل وتلاحق الناس بعدهم

ودس اسماعيل بعض غلمانه فاستغاث بالحسن الكلبى من بعض عبيده زاعما انه اكره امرأته على الفاحشة ، وكان اسماعيل يعتقد بان الحسن لن يعاقب عبده فينفر الناس منه ويكون عمله حجة عليه ، ولم يخف هـــذا على الحسن فدعا بالمدعى وحلفه فحلف على صحة دعواه فقتل عبده فورا فسر الناس وابتهجوا وعدوها علامة الحزم والعزم وانضموا اليـه وايدوه ونفروا من الطبرى ومقتوه فاستولى الحسن على الجزيرة ووضع يده عليها وساسها احسن سياسة فهابه الافرنج وخشوا جانبه ودفعوا

له جزية ثلاث سنين مقدما بعد ما كانوا توقفوا عن الدفع بسبب اضطراب حالة العرب

وجهزت حكومة القسطنطينية اسطولا كبيرا للاستيلاء على صقلية وانتزاعها من العرب فكتب الحسن الى المنصور يسأله النجدة فأمده باسطول كبير يحمل سبعة آلاف فارس و ٣٥٠٠ من المشاة عدا البحارة . وجمع الحسن ما كان للعرب فى داخل الجزيرة من قوات وسار لمقابلة الحملة فى مسينا

و بث الحسن سراياه فى ارض كلابريا وحاصر مدينة جراجة وقبل ان يفتحها جاءه الخبر بتقدم الحملة فصالح المدينة المحصورة ثم زحف للقائها فدارت بينهما معركة هائلة انتهت بانهزام الافرنج القادمين وثبات المسلمين المدافعين

وعاد الحسن الى حصار مدينة جراجة فارسل اليه الافرنج يطلبون عقد هدنة فهادنهم ثم عاد الى مدينة ريو و بنى فيها جامعا واقام على صقلية حتى سنة ٣٤٧ ثم عاد الى تونس واستخلف ابنه احمد فسار سيرة ابيه جاعلا العدل دثاره ونشر العدل شعاره ، فعلت هيبته ، وسما مقامه

وتلقى امرا من الخليفة المعز ، وكان قد خلف والده المنصور على العرش ، بان يواصل الحرب ولا ينى حتى يتم له فتح ما استعصى من قلاع وحصون فلبى الدعوة ونهض للجهاد ففتح طرمين سنة ٣٥١ وحاصر رمطة فانجدها امبراطور البيزانطيين بجيش كبير فاستمد المعز فأمده بجيش ومال ارسلهما مع ولده الحسن فسار اليهم وقاتلهم وهزمهم

وتعاقب آل الكلبي على حكومة صقلية فخلف احمد اخاه ابا القاسم وخلف هذا ابنه جابر وخلف هذا جعفر بن محمد فعبد الله بن محمد فيوسف بن عبد الله فجعفر بن يوسف فاسد الدولة بن جعفر فالصمصام بن جعفر ، وفى عهد هذا اشتدت المنافسات والمنازعات الداخلية بين قواد الجيش العربى وقاتل بعضهم

بعضا فاستنجد احد الثائرين واسمه ابن جراس بالافرنج فانجدوه واستولوا بواسطته على المدن بدون عناء فركب المسلمون السفن عائدين الى تونس وتاركين تلك الديار ما عدا حصونا ظلت بيد ابن جراس ثم جلا عنها هذا سنة ٤٦٤ حينما تبين عجزه عن الاحتفاظ بها و بذلك انتهى امر العرب فى ايطاليا بعد ماحكموها ٢٥٢ سنة اى من سنة ٢١٢ وهى السنة التى دخلوا فيها الى سنة ٤٦٤ وهى السنة التى جلوا عنها

هذا هو موجز تاريخ العرب فى ايطاليا خلال تلك الحقبة الطويلة من الدهر وقد خلفوا فيها كثيرا من الآثار والمساجد والمعاهد ولا يزال بعضها قائما حتى الآن يشهد بما كان لهم فى تلك الديار من عز ورفعة ، كما ان فى اللغة الايطالية نفسها كثيرا من الكلمات العربية اقتبسها الايطاليون وادخلوها فى لغتهم مدة استعمار العرب لبلادهم ، يضاف الى ذلك ان الاختلاط بين الفريقين فى تلك السنين الطوال انشأ فى ايطاليا جيلا جديدا — ولا سيما فى الجنوب — يشبه فى ملامحه وتقاطيع وجهه وسحنته ملامح العرب وسحنهم

وتتابعت بعد ذلك الحروب بين الفريقين فكان الايطاليون يغزون سواحل افريقية العربية وما كانت الاساطيل العربية تقصر من هذه الناحية ، واغتنم الايطاليون الضعف الذى ران على العالم العربى بعد سقوط الدولة العباسية وقيام حكومات الطوائف فسار اسطولهم الى طرابلس الغرب سنة ٩١٦ هـ بقيادة دوق جنوى (البندقية) فاستولى عليها بدون عناء ، وكانت تابعة فى ذلك العهد للموحدين ، ولم ينج من اهلها الا من تسور ليلا ، وانحاز المسلمون الى تاجوراء وجبال غريان ومسلاته

وارسل الطرابلسيون رسولا منهم الى القسطنطينية مستجيرا بالسلطان سليمان وكانت الدولة العثمانية يومئذ فى اوج عزها فارسل معهم السلطان عبدا من عبيده اسمه مراد اغا تربى فى الشرق وعرف اللغة العربية فجاءوا به و بايعه اهل غريان واهل الريف فتشمر للنضال وكر على الطليان وضيق عليهم فلجأوا الى داخل الاسوار وظل هذا شأنه حتى سنة ٩٥٨ فمر به اسطول السلطان سليمان ذاهبا الى حلق

الواد (تونس) فذهب مراد اغا ومعه الاعيان وطلبوا من قائده الاعانة فابى ثم وافق بعد تردد تحت شروط وهاجم الجنويين وانتزع البلاد منهم

وحمل الجنويون سنة ٩٦٦ على طرابلس لاستردادها فقاتلهم طورغود باشا واعادهم خائبين فلم يعودوا الى مهاجمتها الا فى سنة ١٣٢٩ هـ (سنة ١٩١١ م) بعد ما نهضوا نهضتهم وجمعوا شملهم وانشأوا دولتهم

٤

ايطاليا تمهد للاحتلال

اول شيء فكرت فيه ايطاليا بعد تكوين وحدتها واعتراف الدول بها هو الاستيلاء على تونس وطرابلس الغرب و برقة وهى الاقطار العربية الثلاثة التى تناوحها وتقع على مقربة من سواحلها

و بديهى انه لم يغرها بها ولم يطمعها فيها سوى اهمال الحكم العثمانى لها اهمالا شنيعا وسوء حالة الدولة العثمانية نفسها وضعفها وانصراف رجالها واقطابها الى جمع المال و بيع البلاد بالدرهم والدينار

ورای الایطالیون ان یبدأوا بتونس متذرعین بوجود جالیة قویة ومصالح كثيرة ، يضاف الى هذا سعى بعض الاحرار التونسيين لجر ايطاليا للتدخل فى قضيتهم فتنافس فرنسا فى الميدان الاستعمارى وتحول دون نجاحها ـ وكانت تعد المعدات للاستيلاء على ذلك الاقليم العربى ـ حتى انهم اوفدوا حسن بك احد امرائهم الى رومه بزيارة رسمية اريد بها تعزيز الصلات بينها و بين تونس كما ولوا بعض الايطاليين مناصب الدولة لمقاومة الموظفين الفرنسويين

وحسب الفرنسويون حساب هذه البوادر وخافوا عواقب التدخل الايطالى فوثبوا على تونس قبل ان يقوى ساعد ايطاليا و يشتد فتقف فى وجههم وتنافسهم واستولوا عليها فهاج الايطاليون لهذا العمل واشتد سخطهم على الفرنسويين ووقعت بين الفريقين وحشة واستغل الالمان ماجرى فاجتذبوا الطليان الى ناحيتهم وادخلوهم فى اتفاقهم مع النمسا عدوة ايطاليا التاريخية ، ومن هاتين الدولتين تألفت المحالفة الثلاثية

وقد ظلت قائمة حتى اعلان الحرب العظمى فانهارت بتخلى ايطاليا عن حليفتيها وقعودها عن الاشتراك معهما ثم بانضمامها بعد ذلك الى اعدائهم وقتالها لهم

ورای الایطالیون بعد افلات تونس من ايديهم ان يسعوا للفوز بطرابلس الغرب و برقة وان يجعلوا الاستيلاء عليهما المحور الذى تدور عليه سياستهم

اتفاق ديسمبر سنة ١٩٠٠

ولم يخف على الفرنسو يين ما فى نفس ايطاليا ، فمدوا يدهم اليها وابلغوها انهم لا يعارضونها فى الاستيلاء على طرابلس و برقة بشرط ان لاتعارضهم فى الاستيلاء على المغرب الاقصى فوافقت مبدئيا فدارت مفاوضات بين الدولتين للاتفاق على خطة مشتركة انتهت بعقد اتفاق وقع عليه فى شهر ديسمبر سنة ١٩٠٠ وهو يقضى بان تطلق ايطاليا يد فرنسا فى المغرب الاقصى مقابل اطلاق يدها فى طرابلس الغرب وذلك بواسطة المركيز (فيسكونتى ـ فنوستا) ثم عزز هذا الاتفاق بآخر عقد فى اول شهر نوفمبر سنة ١٩٠٢

وابلغت ايطاليا وفرنسا امر هذا الاتفاق بعد عقده الى انكلترا فاقرته ولم تبد اعتراضا عليه . وفعلت مثل ذلك النمسا

و بديهى ان موافقة ثلاث من الدول العظمى ، وهى انكلترا والنمسا وفرنسا على احتلال ايطاليا لطرابلس الغرب شجعها كما ان انضمام روسيا فى آخر الامر الى هذه الدول زاد فى جرأتها

وشرع الايطاليون بعد ماعقدوا هذه الاتفاقات ، ونالوا موافقة الدول على مشروعهم الاستعمارى يعدون المعدات سرا لضرب ضربتهم وادراك امنيتهم ، و يعملون لنشر نفوذهم فى داخلية طرابلس الغرب و برقة ، ومهدوا لذلك بانشاء سلسلة من المشروعات هذا بيان موجز عنها :

ا — المدارس

والمدارس اول ما بدؤا به فقد انشأوا طائفة منها فى طرابلس والمدن الاخرى للذكور

والاناث كانت تعلم بالمجان وتوزع على تلاميذها الاقلام والدفاتر والكتب بالمجان ايضا ولا تكلفهم دفع شيء ما ، والقصد من ذلك اجتذاب الاطفال العرب ونشر اللغة الايطالية و بث الثقافة الايطالية تمهيدا ليوم الاحتلال

ب — المستشفيات والملاجيء

وعززوا المدارس بالمستشفيات والملاجيء الصحية فانشأوا عددا منها كانت تعالج المرضى وتوزع عليهم الادوية مجانا وتفتح ابوابها لكل طارق وقادم

ج — المصارف

وفى سنه ١٩٠٥ نالت ايطاليا من الحكومة العثمانية امتيازا بتأسيس فروع لبنك دى رومه فى طرابلس الغرب و برقة واختارت لفرع طرابلس رجلا من ثعالبة السياسة ، اخذ على عاتقه نشر الدعاية الايطالية وجمع المعلومات اللازمة عن حالة طرابلس فكان مكتبه اشبه بمكتب مخابرات (استخبارات) منه بمكتب بنك

د — بريد ايطالى

وانشأت ايضا مكتبا للبريد الايطالى ، مستغلة نظام الامتيازات الذى كان نافذا فى السلطنة العثمانية وكانوا يرسلون بواسطته كل ما يريدون ارساله الى تلك البلاد فلا تصل اليه يد الحكومة العثمانية

هـ — البعثات

وارسلوا ايضا بعثات قالوا ان غايتها البحث العلمى والجغرافى وكان آخرها البعثة التى رأسها الكونت سفورزا وقيل ان مهمتها البحث عن معدن الفوسفات مع ان مهمتها الحقيقية هى دراسة حالة الاراضى ووضع المصورات والخرائط ، يؤيد ذلك وجود ضباط من هيئة اركان الحرب بين اعضائها تزيوا بزى العلماء . وقد ظلت هذه البعثة تتجول فى داخل البلاد الطرابلسية حتى اعلنت الحرب فقبض عليها وظهرت حقيقة رجالها ومهمتها

وكذلك انشأوا المصانع والمعامل ، و بين ما انشأوه مطحنة كبيرة بجوار مدينة طرابلس اشبه ببرج ضخم منها بمطحنة وجعلوها ذات طبقات فوق الارض وخزنوا فيها كميات كبيرة من الدقيق استعدادا لمجيء الجيش كما ارسلوا كثيرا من ابنائهم وتجارهم لتنمية مصالحهم وزيادة نفوذهم وليتذرعوا بوجودهم للتدخل وهو ماوقع فعلا

٥

اعلان الحرب

اثار دخول الفرنسويين الى فاس فى شهر مايو سنة ١٩١١ وفوزهم بامتلاك المغرب الاقصى ثائر الطمع فى رؤوس الايطاليين فنهضوا لتحقيق مشروعهم القديم وهو أحتلال طرابلس الغرب مستغلين فرصة اشتداد التنافس بين المانيا وفرنسا وضعف الدولة العثمانية واضطراب شؤونها الداخلية

وعجم الايطاليون عود الدول العظمى ذات الشأن قبل الاقدام على العمل وقد ذكرنا آنفا ان اكثرها اقر مشروعهم ووافق عليه فكانت فرنسا فى مقدمة الدول التى اجابت بالموافقة وتلتها انكلترا وروسيا ، اما النمسا فوافقت بشرط واحد وهو ان لاتتعدى الاعمال الحربية منطقة شمالى افريقية وان لا تسرى الى ممتلكات تركيا فى اسيا واوربا وخصوصا البلقان، ولم يسع المانيا الاعتراض مع ما كان بينها و بين تركيا من صداقة يومئذ لان معارضتها لاتجدى نفعا بعد موافقة اكثرية الدول العظمى

ولما تم ذلك لايطاليا ، وادركت انه ليس ثمة حائل سياسى يحول دون العمل حشدت حملة عسكرية كبيرة ، واوقفت اسطولها على اهبة العمل . وما كادت تنتهى من ذلك حتى فاجأت الباب العالى بارسال انذارها الشهير يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١ فصعق الصدر الاعظم ابراهيم حقى باشا حينما تسلمه لانه ما كان يتوقع ان يتلقاه، ولان الحكومة الايطالية كانت حتى الدقيقة الاخيرة تتظاهر بالصداقة والولاء وتنادى بانه لامطمع لها فى اى جزء من اراضى الدولة ، وان اقصى ماترجوه هو ان تعيش معها على صداقة وهذا نص الانذار :

يا صاحب الدولة :

« ماانفكت الحكومة الايطالية منذ سنين تذكر الباب العالى بضرورة وضع حد لسوء النظام والادارة فى طرابلس الغرب و بنغازى وانالة هذه البلاد ما تتمتع به جميع اقسام افريقية الشمالية من أمن ورخاء

وهذا التغيير الذى يقتضيه التمدن يجعل المصالح الحربية بحسب ما تستلزمه مصلحة ايطاليا فى اول درجة بالنظر لقصر المسافة بين تلك البلاد وشواطىء ايطاليا ، و بالرغم من حسن مسلك الحكومة الايطالية التى كانت دائما موالية ومعاضدة لتركيا فى كثير من المسائل السياسية فى العهد الاخير ، و بالرغم من اعتدالها وصبرها حتى الآن كانت الحكومة العثمانية تجهل رغائبها فى طرابلس الغرب وفوق ذلك كانت جميع مشروعات الطليان فى تلك الاصقاع تصادف دائما مقاومة مطردة لا تحتمل

وكانت الحكومة العثمانية حتى الآن تبدى عداء نحو الحركة الايطالية الشرعية فى طرابلس و بنغازى وما زالت كذلك حتى الآن وقد اقترحت الحكومة الملكية الايطالية ان تتفاهم معها واعلنت انها ميالة الى ان تمنح اى امتياز اقتصادى يتفق والمعاهدات النافذة وشرف تركيا ومصالحها ولكن الحكومة الملكية الايطالية لاتشعر الآن بانها فى احوال موافقة للدخول فى المفاوضات بهذا الموضوع بعد ان برهن الاختبار الماضى على عدم نفعها وهى لاتشتمل على ضمانة للمستقبل ولن تكون الا سببا للاحتكاك والنزاع

ومن جهة اخرى وردت انباء الى الحكومة الملكية الايطالية من قنصلها فى طرابلس الغرب و بنغازى تفيد ان الحالة هناك خطرة جدا بسبب التحريض العام على الرعايا الطليان ، ذلك التحريض الذى زاده الضباط وسائر موظفى الحكومة خطرا لا على الايطاليين فحسب بل على سائر الاجانب على اختلاف جنسياتهم حتى اصبحوا يخشون على حياتهم وشرعوا يهجرون البلاد بسرعة ، ثم ان وصول القوات العسكرية العثمانية الى طرابلس زاد الحالة خطرا وحرجا مع ان الحكومة الملكية الايطالية نبهت

الحكومة العثمانية الى هذه النتائج السيئة ولهذا فالحكومة الملكية مضطرة الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة دفعا للخطر

ولما رات الحكومة الايطالية نفسها مضطرة الى الحرص على شرفها ومصالحها قررت ان تحتل طرابلس و بنغازى احتلالا عسكريا

والحكومة الملكية تنتظر ان تصدر الحكومة العثمانية اوامرها حتى لا تصادف ايطاليا فى الاحتلال معارضة من رجال الحكومة العثمانيـة ولا تجد صعوبة فى الأمر و بعد ذلك تتفق الحكومتان على تقرير الحالة

وقد صدرت الاوامر للسفير الايطالى فى استنبول بان يلتمس جوابا جازما فى هذه المسألة من الحكومة العثمانية فى مدة ٢٤ ساعة منذ تسليمه هـذا البلاغ فاذا لم تجاوب عليه اضطرت الحكومة الايطالية الى تنفيذ الخطة المدبرة للتأمين على الاحتلال، وترجو ان يبلغ جواب الباب العـالى المنتظر فى ٢٤ ساعة على يد السفير العثمانى فى رومه »

وزير الخارجية

فى ٢٧ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١١ — سان جوليانو

رد الحكومة العثمانية

و يقول بعض المؤرخين ان سفير ايطاليا حمل هـذا الانذار الى الصدر الاعظم وسلمه اياه وهو يلعب « البريدج » مع سيـدة ايطالية وان هـذا تسلمه ووضعه بجانبه من دون ان يفتحه لاعتقاده انه من الكتب العادية التى لا يضر تأجيل النظر فيها فنبهته السيدة وكانت عارفة بما هنالك الى ضرورة النظر فيه فلما قرأه امتقع لونه وحمله وذهب به الى الباب العالى . وقيل فى رواية اخرى ان السفير سلمه اياه ، حينما كان فى مقامه بالباب العالى يستقبل السفراء ، وكان اليوم يوم استقبالهم ، وكان عنده حينئذ سفير فرنسا وروسيا فلما تسلم الانذار استأذن منهما ودخل حجرة اخرى ينظر فيـه .

وفى الغـداة اتمت الحـكومة العثمانية وضع جوابها على الانذار الايطالى وارسلته الى السفارة الايطالية وهذا نصه :

ان سفارة جـلالة الملك تعلم حق العلم الاسباب التى دعت ولاية طرابلس الغرب و بنغازى ان لا يكون لها من الترقى والمنافع النصيب المروم واذا نظر المرء بانصاف الى الحقيقة يرى انه لايمكن جعـل الحـكومة الدستورية مسؤولة عن حالة هى نتيجة الحـكم للماضى ولـكن بالرغم مما تقدم قد بحثت حكومة الباب العالى فى اعمال السنوات الخمس الدستورية فلم تر فيها معارضة للاعمال الايطالية النافعة

ان اشتراك رؤوس الاموال الايطالية فى ترقية شؤون هذه الولاية العمرانية امر طبيعى فى نظر الحـكومة السلطانية فقد قابلت بكل ارتياح المشروعات التى تقدمت لها ونظرت بعين الرعاية الى الاعمال التى اشارت اليها سفارة جلالة الملك . فهى لم ترجع ابدا عن هـذه الافـكار وعن رغبتها فى توثيق حسن الصلات بين الحـكومتين فى دائرة الثقة المتبادلة والمودة . والاقتراح الاخير الذى اقترح على السفارة الايطالية وهو رغبة الحـكومة العثمانيـة فى اعطاء امتيازات للحكومة الايطالية توسع دائرة حركة ايطاليا الاقتصادية فى الولاية هو اكبر دليل على ذلك . فالحـكومة العثمانية التى تعلم حق العلم بما توجبه عليهـا الاتفاقات الدوليـة المعقودة مع الحـكومات الاخرى والتى لا يمكن الغاؤها بمجرد رغبة احد المتعاقدين ترى انها تساهلت كثيرا فى اجابة رغائب الحـكومة الايطاليـة الاقتصادية ودلت على رغبتها فى المسالمة .

اما ما يتعلق بالامن العام فالحـكومة السنية تصرح الآن بما صرحت به قبلا وهو انه ليس هناك اثر للقلق والهياج على الاطـلاق سواء كان ضد الايطاليين او ضد الاجانب المقيمين فى طرابلس الغرب ، وليس ثم اثر للقلق والهياج فقط بل ان اعمال البوليس يقومون بواجباتهم بكل ضبط ودقة

ولا ترى الحـكومة فى ارسال الباخرة التى ارسلت قبـل ٢٣ الجارى دون ان تحمل عسكرا ما يدعو الى القلق والهياج

فيظهر ممـا تقدم ان الخـلاف ينحصر الآن فى عدم اعطاء الضمانات الـكافية

رؤوس الاموال الايطالية فى طرابلس و بنغازى ، فحكومة الباب العالى تبلغ الحكومة الايطالية استعدادها للاتفاق معها ما دامت لاتلجأ الى الاحتلال العسكرى ، و بناء عليه تطلب من الحكومة الايطاليـة ان تقدم لائحة بطلباتها التى تقبل بلا شك ما دامت لا تمس سيادة الدولة العلية الفعلية على الولاية المذكورة

ويتكفل الباب العالى ان لا يحدث اقل تغيير فى حالة طرابلس الغرب و بنغازى العسكرية فى اثناء المفاوضات ، ويأمل ان حكومة الملك التى تقدر هذه العواطف الودية وتجيب هذا الاقتراح ـ اه

ايطاليا تعلن الحرب

ولم يؤثر فى نفس الحكومة الايطالية ما انطوى عليه البلاغ العثمانى من ضعف وتذلل ، ولم يحملها على العدول عما بيتت العزم عليه ، فقـد ذهب ممثلها مساء يوم ٢٩ منه الى دار الصدر الاعظم ليسلمه بلاغ اعلان الحرب، ولما لم يجده قصد الى السراى السلطانى فوجده فسلمه اياه وهذا نصه :

« ترابيا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١

صاحب الدولة

بناء على اوامر حكومة مولاى الملك المعظم يتشرف وكيـل اشغال السفارة بان يبلغكم ما يأتى

ان المدة التى عينتها حكومة جلالته اخيرا للحكومة السلطانية لتحقيق الوسائل التى اصبحت لازمة قد انقضت دون ان تبلغ حكومة جلالته ردا مرضيا ، وتأخر اعطاء هذا الرد يؤيد عدم ارادة الحكومة او السلطة المحلية وعجزهما اللذين كثرت الدلائل عليهما عن تأييد الحقوق والمصالح الايطالية فى طرابلس الغرب و بنغازى ، ولذلك ترى حكومة جلالة الملك نفسها مضطرة الى اتخاذ الوسائل للمحافظة على حقوقها ومصالحها وصيانة شرف الحكومة واعتبارها . و يجب عد الحوادث التى ستجيىء ـ وان كانت مؤلمة ـ نتيجة لسوء المسلك الذى سلكته الحكومة السلطانية منذ زمن بعيد ولما كانت

صلات الود والسلام قد انقطعت بهذه الصفة بين البلادين فحكومة ايطاليا تعد نفسها محاربة منذ الآن للحكومة العثمانية

ولذلك يتشرف موقعه ان يخبر فخامتكم ان اوراق اعتماد وكيل سفارة الدولة فى رومه قد سلمت اليه ويلتمس منكم تسليمه اوراق اعتماده بلا تأخر ، وقد كلفتنى حكومة جلالة الملك ان ابلغ فخامتكم ان الرعايا العثمانيين يستطيعون البقاء فى البلاد الايطالية مصونة املاكهم واشغالهم واشخاصهم

وتفضل ياصاحب الفخامة بقبول احتراماتى الخالصة »

التوقيع

ج . ده مرتينو

٦

حالة الدولة العثمانية عند اعلان الحرب

مسألة الدفاع عن طرابلس

تسلم الاتحاديون زمام الحكم فى الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨ اى قبل ان تعلن ايطاليا حربها بثلاث سنين بين هتاف العناصر العثمانية وابتهاجها ، وتصفيق العالم المتمدن واعجابه ، فقد اعتقدت الاولى ان زمن الظلم والاضطهاد قد ولى وانها قادمة على عهد جديد من المساواة والاصلاح ترتاح فى ظله وتعيش فى كنفه عيشة هنيئة ، كما اعتقد الثانى أن زمن التدخل فى شؤون تركيا الداخلية قد مضى وانقضى وان الحكومة العتيدة ستسير بالبلاد فى طريق الاصلاح والتمدين وتسد على حكومات الاستعمار كل منفذ

وحمل الاتحاديون السوط فى يد والفأس فى يد اخرى ، وانطلقوا فى البلاد يضربون ويخربون ويدمرون فاغضبوا العناصر التى تتألف منها دولتهم واهاجوها ودفعوها بيدهم وبادارتهم السيئة الى الانتقاض عليهم ومحاربتهم ، فكثرت الثورات الداخلية كثرة طار لها لب العقلاء فادركوا ان ساعة انهيار الدولة قد حانت وان منيتها - لاخلاصها - ستكون على يد الاتحاديين وهو ما وقع

لقد بلغ عدد الثورات الداخلية التى انقدت فى خلال سنتين اثنتين فقط ستا : منها اربع فى بلاد العرب وثنتان فى بلاد الالبان وهذا بيان عنهما :

١ — ثورة الدروز فى جبل حوران

٢ — ثورة الكرك

٣ — ثورة الامام يحيى فى اليمن

٤ — ثورة الادريسى فى عسير

٥ — ثورة الالبان

٦ — ثورة الماليسوريين

وذلك عدا الفتن الموضعية الاخرى التى اتقدت فى العراق وفى شرقى الاناضول فاطفأتها الدولة بدون كبير عناء

ونحن فى غنى عن القول ان تتابع الثورات وتواليها وامتداد زمنها كلف خزينة الدولة اموالا طائلة بلغت الملايين ، فقد قدرت نفقات اخماد ثورة الماليسوريين وحدها وهى آخر الثورات بثلاثة ملايين من الجنيهات ومثل ذلك ثورة الالبانيين ، وقد تقدمت ثورة الماليسوريين والفريقان ابناء عم ، دع ما ولدته من الاضطراب الداخلى والانشقاق ، وما سفك فيها من دم وما دمر من مساكن ومزارع وما ارتكب من فظائع نفرت القلوب وكان من اثرها انقلاب الالبان والماليسوريين على الدولة فى الحرب البلقانية التى تلت الحرب الايطالية ، وتخليهم عنها ، وكانوا عدتها ومجنها ، فدارت عليها الدائرة وانهزمت شر انهزام ، وجلت عن تلك الربوع جلاء لا رجعة بعده

فاشتداد الثورات والفتن الداخلية من جهة ، واتساع دائرة التنافس بين العناصر التى كانت تتألف منها تلك الامبراطورية[1] ونهوض كل عنصر للمطالبة بحقوقه العنصرية ونفوره من الاتحاديين الذين كانوا يعملون لتتريك هذه العناصر وصهرها فى بوتقة القومية التركية من دون ان يمهدوا لذلك التمهيد المطلوب، ورجوعهم الى الاساليب الحميدية القديمة ، وانتشار الرشوة فى دواوين الحكومة وافلاس الخزينة ، وظهور الانقسام بين ضباط الجيش واشتداد الجفاء بين زعماء البرلمان يضاف الى ذلك قيام وزارة ضعيفة عاجزة ، هى وزارة ابراهيم حقى باشا — كل هذه

---

(١) هذه اسماء العناصر التى كانت فى داخل الدولة :

العرب ، الترك ، الشركس ، الالبان ، الكرد ، الروم ، الارمن ، البلغار ، السرب ، اللاز ، البشناق الخ

الاعتبارات اطمعت ايطاليا فى الدولة وجعلتها تعتدى عليها وتهاجمها فى عقر دارها من دون ان تخشى بأسها وذلك شأن القوى مع الضعيف منذ الازل

مسألة الدفاع عن طرابلس الغرب

ولا بد لنا بهذه المناسبة من الكلام عن مسألة الدفاع عن طرابلس فقد اتهم الرأى العام العثمانى وزارة حقى باشا بتعمدها اهمالها وتركها خالية من القوى ليسهل على الايطاليين امتلاكها بدون عناء ، واقترح كثيرون من النواب محاكمتها امام الديوان العالى بتهمة الخيانة الوطنية العظمى ومحاسبتها حسابا عسيرا مما عارض الاتحاديون فيه ولم يقروه لان رجال الوزارة من رجالهم.

ولئن كان هنالك من يشك فى تواطىء حقى باشا مع الايطاليين فان هنالك اجماعا بين الباحثين على انه اهمل امر الدفاع عن تلك البلاد اهمالا شنيعا وتركها تحت رحمة الاقدار ، مع ما هو معروف عن طمع ايطاليا فيها ورغبتها فى ابتلاعها والتهامها. ومع ان كثيرين من المسئولين نبهوه الى عواقب الاهمال وناشدوه الاهتمام فلم ينتبه ولم يأخذ حذره ولم يحاول ان يعمل عملا ايجابيا لصد عادية الايطاليين اللهم الا ارساله قبل الغارة بايام سفينة حملت كمية من السلاح وهى التى اشار اليها الانذار الايطالى

لقد كانت طرابلس الغرب ، حين الغارة الايطالية ، خالية من وال يسوسها. فقد استقدمت الوزارة واليها ابراهيم باشا الى الاستانة لانه كان شديد الوطأة على الايطاليين وفصلته ولم تعين سواه ، واستدعت قائدها العسكرى ولم تعين خلفا له ايضا. ومعنى ذلك ان البلد كان خلوا من حاكم ادارى يسوسه ومن قائد عسكرى يقود قواه. ويكون مسئولا امام الحكومة المركزية.

ومما يستحق الذكر ان الوزارة ارسلت ـ عقب تلقيها الانذار الايطالى ـ تستدعى ابراهيم باشا الوالى المعزول فكتب اليها يقول لقد ارسلت اليك تقارير مفصلة كشفت فيها الغطاء عن نيات الايطاليين ومطامعهم ونبهتك الى الخطر المحدق بتلك البلاد فلم تأخذى حذرك فذوقى جزاءك .

وكان فى الاستانة يومئذ ايضا حسين كاظم بك سفير الدولة العثمانية فى رومه ، فقال للصحف على اثر وصول الانذار الايطالى انه كتب الى وزارة الخارجية منذ شهر يناير سنة ١٩١١ اى قبل الغارة بعشرة اشهر ينبهها الى مايدبره الايطاليون فى الخفاء وما يعدونه للغارة على طرابلس قال ولما زرت دار وزارة الخارجية اخيرا وجدت تقاريرى لاتزال مكدسة فى ملفاتها لم تفتح ولم تنظر فيها بل اهملت اهمالا شنيعا ، و بمثل ذلك جاهر الملحق العسكرى فى سفارة رومه فقد اكد انه ارسل الى الحكومة تقارير كثيرة عن استعدادات ايطاليا العسكرية السرية للغارة على طرابلس الغرب قال وقد نبذوا هذه التقارير ولم ينظروا فيها .

وزاد الطين بلة ان الوزارة نقلت جانبا من القوى العسكرية التى كانت فى طرابلس الغرب الى اليمن ، لتشترك فى الحملة التى ارسلتها لاخماد فتنتها ، ولم تبق ثمة سوى ثلاثة آلاف جندى فقط هى كل ما كان فيها من القوى المنظمة حينما اغار عليها الايطاليون ، كما نقلت جانبا من المدفعية مع قائد هذه المدفعية وهو مشهور بالاقدام

ونختم هذا الفصل باثبات نص التقرير الذى رفعه محمود ناجى بك وصادق بك نائبا طرابلس الغرب فى مجلس النواب العثمانى يومئذ الى رئاسة ذلك المجلس بطلب محاكمة حقى باشا وزملائه فهو من الوثائق التاريخية الثمينة (١)

حضرة الرئيس :

ان طرابلس الغرب و بنى غازى معرضتان اليوم لخطر عظيم ، ولقد بترهما عن جسم الوطن المقدس عدو لايعرف عدلا ولا انسانية

فالوطن العزيز المقدس فقد بفقدهما ربع املاكه وفقدت الامة العثمانية نحو مليونى نسمة من ابنائها واضاعت الدولة سلطتها بالقارة الافريقية ، وقطع مقام الخلافة المفدى روابطه المادية مع تسعين مليونا من المسلمين فى تلك القارة .

ان العالم الذى يفتخر بمدنيته وحبه للانسانية التزم جانب الطاعة والاذعان ازاء

---

(١) احال المجلس هذا التقرير الى لجنة خاصة الفها لبحث هذه القضية وتحقيق ما نسب الى حقى باشا من الخيانة ولكنها لم تعمل عملا

الادعاء الكاذب اذ الحق هو القوة فى هـــذا الزمان . لهذا كانت قلوبنا تقطر دما لما آلت اليه حال طرابلس الغرب و بنى غازى البعيدتين المعزولتين عن القوة العثمانية والملك العثمانى الواسع وعاصمته وكثيرا مالفتنا نظر الحكومة ونظركم الى ذلك قائلين انهما محتاجتان الى قوة بحرية عظيمة حفظا للمواصلات والدفاع فى احوال كهذه فما كان لهما حظ من ذلك .

ان المحافظة على طرابلس الغرب ومنع الاعـداء المجاورين من التسلط عليها يتوقفان على جعل القوة العثمانية مساوية لقوة الاعداء ونعنى بهذا ان تكون البحرية العثمانيـة مساوية لبحريتهم فى القوة ، ولا يخفى ان الحكومة السابقة اهملت الاعتناء بالقوة العثمانية البحرية ولا يتسنى ابلاغها درجة الكمال فى اعوام قليلة ولكن الجميع يعترفون انه كان فى الامكان اجراء تدابير سياسـية لتخليص الوطن المنكود الحظ وتأخير اطماع الاعداء بالاستيلاء والاحتفاظ بشرف الامة ، ان المحافظة على حقوقنا فى ولاية طرابلس وبنى غازى لا تتوقف على قوة بحرية الدولة فقط بل على سياسة خارجية ايضا نعتمد عليها ، وعلى اصلاحات داخليـة واقتصادية تلتئم مع مايحيط بالمملكة ، او على تنظيم حربى يناسب الموقع والمكان .

ان هذا الملك العثمانى المقدس لايظل امره مستوثقا ولا آمنا بالمعاهدات الكاذبة كما هى حالة اليوم وانما هو فى احتياج الى عقد اتفاق مع الدول التى اخذت على نفسها تأييده وتمكينه بقواها الحربية والبحرية .

ان ولاية طرابلس الغرب و بنى غازى تستلزم بالنظر الى موقعها الجغرافى والوطنى ان يكون فيها حكام يحسنون الادارة والاقتصاد وان تكون ذات ادارة ملكية ومالية قائمة بذاتها وان تكون لها قوة عسكرية محلية (اى من ابنائها) لتظل منضوية تحت العلم العثمانى الى الابد ، نعم انه لم يكن فى الامكان ابلاغ بحريتنا فى سنوات قليلة درجة تنطبق على آمال الامة ولكن الم يكن فى الوسع اجراء الامور التى اشرنا اليها كلا . اننا لم نجتهد ولا التفتنا الى سياستنا الخارجية ولا الى ادارتنا المالية ولا ترقيـة عسكرنا بل تركنا طرابلس الغـــرب لسياسـة الوفاق والاتفاق مع الدول ولنتائجها

المشؤومة التى تلبس كل يوم لبوسا وخدعنا نفوسنا بالتبجح باميالنا السلمية ورغبتنا فى مصافاة دول العالم فانتهجنا طريقا معوجا فى النظامات الملكية هو فى نظر كثيرين من ابناء وطننا فى البلاد العثمانية جهل مطبق ، ذلك اننا اظهرنا ان لاثقة لنا ولا اعتماد على اخواننا الطرابلسيين الذين يظهرون اليوم حميتهم الملية العثمانية ببكائهم دما على الوطن المحبوب ، عرضنا جسم الوطن للضعف حتى كادت روحه تبلغ التراق بايقادنا نار الحروب الداخلية و بالاختلال وعدم التروى والتبصر ، فالمال لم ينفق على ما يقضى به حسن التدبير ثم اننا تركنا خزينة المالية تئن تحت حمل الملايين الثقيل وتركنا طرابلس الغرب تئن من الم الجوع والفقر فالقينا فى نفوس اهلها جبنا وصيرنا قوتهم ضعفا

وجملة القول اننا لم ندع شيئا على الاطلاق لهذا اليوم العصيب ، فلا عسكر ولا وسائط دفاع فى يد الشعب وما سبب ذلك كله الا تراخ واهمال بلغا حدا ما بعده حد

لندع الآن كل هذا جانبا ولنحاسب وزارة حقى باشا على تغاضيها غفلة وتعطيل واهمال لم نشهد لها مثيلا حتى فى عهد الادارة السابقة ، ومن نكد الطالع انها وجدت فى هذه الوزارة ، ومن جملة ما يذكر عن اهمالها وتخاذلها انه بينما كان اعداؤنا يطمحون بانظارهم الى الاستيلاء على ولاية طرابلس الغرب و بنى غازى لم تفكر هذه الوزارة فى القاء الخوف فيهم وارجاعهم عن اطماعهم بتوفير الارزاق والمهمات والجنود فى طرابلس توفيرا كافيا

نحن مبعوثى طرابلس نبكى دما لاضطرارنا الى عد سوءات وزارة حقى باشا السياسية والادارية التى ارتكبتها فى طرابلس الغرب فقط وعرضها على اولى الحل والعقد ونحصر كلامنا فى مايلى :

اولا : كان عدد الجيش المرابط دائما فى طرابلس الغرب حتى فى العهد السابق يتراوح بين ١٥ و ٢٠ الفا . وانشئت فى ذلك الحين فرق من الاهالى (قول اوغلى) يتراوح عددها بين اربعين وخمسين الفا وكانوا يتمرنون على استعمال السلاح حتى صار فى امكانهم معاونة الجيش النظامى .

اما وزارة حقى باشا فلم تكتف باهمال هذه القوة الاهلية كل الاهمال بدلا من

ان تعنى بتنظيمها، بل سيرت عددا من الجيش النظامى الى اليمن ولم ترجعه ولا استبدلته بسواه وكانت هذه القوة مؤلفة من آلايين فانزلت الى آلاى واحد بناء على هذا هبط عدد جنود طرابلس من اربعين الفا الى اقل من خمسة آلاف

ثانيا ـ ان الاهالى مافتئوا منذ اعلان الدستور يطلبون متشوقين الانتظام فى الجندية حتى انهم قدموا طلباتهم مرارا بذلك لدفع التعدى عن وطنهم ، ولكننا نقول انه بالرغم من مخاطبتنا الشفاهية والتحريرية ومن قبول مجلس النواب والحكومة فتح اعتماد فى ميزانية سنة ١٣٢٦ (١٩١٠) لعسكر طرابلس و بنى غازى ـ لقائم مقام وكاتب آلاى واحد واربعة يوزباشيين وثلاثة عشر ملازما اول وواحد وعشرين جاويشا ـ لم يبدأ باجراء ذلك الا فى هذه السنة اى منذ اربعة اشهر وذلك فى طرابلس الغرب فقط ، ونقول والاسف ملء صدورنا ان هذا العمل لم ينفذ فى شكل ملائم لحاجة البلاد ، فقد اخذ ثلاثة آلاف واربعمائة فقط من الافراد الداخلين فى الاسنان العسكرية مع ان عددهم هو ستة عشر الفا ولم تطلب الحكومة سواهم فكان اهمالها هذا سببا فى تثبيط همم الاهالى مع انهم يودون اداء الخدمة العسكرية بشوق عظيم ، ثم انها لم تهمل أمر القرعة (التجنيد) النظامى فقط بل اهملت امر الرديف ايضا (الاحتياطى)

ثالثا ـ كانت حكومة العهد السابق قد احتاطت للطوارىء فى طرابلس فحفظت فيها اربعين الف بندقية من طراز مارتين وشنايدر لتسليح الفرق المؤلفة من الاهالى حين الحاجة الى معونتها فنقلت هذه البنادق الى الاستانة بحجة استبدالها بسلاح جديد ولم ترسل اسلحة بدلا منها .

كانت المدافع وغيرها من الاسلحة ترسل الى طرابلس الغرب فى العهد السابق سرا مع ان خصومنا كانوا يعترضون على ارسالها فى ذلك الحين ولكن هذا المحذور زال فى عهد الدستور ولم يبق هناك ما يعوق ارسال الاسلحة وتحصين ولايتنا لان مجلس النواب كان على استعداد لان ينفق المال فى سبيل الدفاع عن الوطن ، ومع هذا تركت الوزارة ولايتنا ولم تعمر استحكاماتها مع انها مطمح انظار الاعداء

رابعا - يعرف الاطفال قبل الحكومات ان الايطاليين طامعون فى الاستيلاء على ولاية طرابلس الغرب ان عاجلا وان آجلا ، ولهذا كان واجبا على الضباط الذين فى طرابلس والموظفين ان يكونوا ملمين باللسان العربى وواقفين على الاحوال العسكرية وطبيعة الاراضى ليستطيعوا قيادة العساكر الاهلية التى يجب ضمها الى العساكر النظامية حين حدوث خطر كالخطر الذى نحن فيه الآن ، ولكن الحكومة استقدمت جميع الضباط المحليين المتخرجين من المكتب الحربى الا قليلين منهم وضباطا آخرين تعلموا اللسان المحلى وعرفوا طبيعة الاراضى لطول مدة استخدامهم هناك فظلت محلاتهم خالية ولم ترسل ضباطا سواهم مع شدة الحاجة ، ولم تشترط الحكومة على العدد القليل الذى ارسلته بدلا منهم وجوب معرفة اللسان المحلى و بناء على هذا حرم الاهالى الذين تسلحوا للدفاع عن بلادهم من اطماع الاعداء قوادا يفهمونهم و يقودونهم ابان الحرب ، ولقد بات هؤلاء المنكودو الحظ فى يأس والم عظيمين .

خامسا - ان اهل طرابلس الغرب الذين قاموا فى وجه العدو مدافعين عن ولايتهم التى فقدت اسباب الدفاع تقريبا المحلت بلادهم منذ اربعة اعوام، وابتلوا بغلاء وجدب شديدين هما فوق حد التصور ، ولقد اوضحنا ذلك لحضرانكم منذ سنين بمخاطباتنا الشفاهية وتقاريرنا الخطية ، علمت وزارة حقى باشا ذلك كله منا ولكنها لم تحرك ساكنا بل تركت اهل طرابلس فى احتياج شديد وضيق خانق يتضورون جوعا .

ولما رجعنا الى بلادنا فى عطلة مجلس المبعوثان رأينا مائتى الف نفس من اهلها قد هاجروا الى تونس والبلاد الاخرى من شدة الفاقة وسوء الحال ، والتجأ اربعة آلاف نفس من الشيوخ والمرضى والاطفال والنساء الى مركز الولاية لعلهم يجدون بلغة بالسؤال والاستعطاء ، وقد مات ٥١٤ نفسا من هؤلاء جوعا فى اثناء اربعة اشهر اى من شهر مارس الى نهاية يونيو ، هذا بالرغم مما عرض على مقام الصدارة خطيا وتلغرافيا فى اوائل شهر يوليو سنة ١٩١١ لاعطاء الثمانية آلاف ليرة الباقية من العشرة

آلاف ليرة ــ وهو المبلغ الذى طلبت الحكومة تخصيصه وصادق مجلس المبعوثان على صرفه ــ ولم تعمل الحكومة شيئا .

ثم ان الست مائة الف كيلة شعير التى قررت الحكومة توزيعها على الاهالى على سبيل القرض للتقاوى والاكل ونظمت المادة القانونية لها وصودق عليها لم ترسلها الحكومة حتى اعلان الحرب ، فالولاية جردت من القوة النظامية وترك اهلها فباتوا فى حال لاتمكنهم من الدفاع بل تركوا عرضة للجوع ولجور عدو ظالم .

سادسا ــ ان الواجب على الموظفين الملكيين الذين يعينون فى ولايات عرضة لاطماع الاعداء ان يكونوا ذوى مقدرة وكفاءة وعارفين اللسان المحلى ليستطيعوا تولى المهام وادارة الشؤون وان تعين الحكومة اشراف اهل البلاد وذوى النفوذ فى بعض البلاد بوجه استثنائى ، ولكن وزارة حقى باشا اهملت ذلك كله وعينت بعض الاخصاء فى طرابلس الغرب فاضاع الاهلون الرجاء من الانتفاع بخدم موظفى الحكومة

سابعا ــ ان اهمية هذه الولاية فى غير حاجة للبيان والتعريف فكان الواجب ان لاتترك يوما واحدا بلا وال ولا قائد ولكن الحكومة عزلت اخيرا واليها ابراهيم باشا بناء على طلب ايطاليا واستدعته الى الاستانة قبل ان تعين آخر مكانه .

وبينما الايطاليون يستعدون لقضاء اغراضهم تركت الحكومة القيادة بيد ضابط برتبة اميرالاى والولاية بيد سكرتير غير مجرب ولا ممرن ولا يفهم اللسان المحلى ولا العادات المحلية ، فكان لهذه التصرفات فى اهل الولاية تأثير سيء عظيم حتى عادت الاشاعات الكاذبة التى كان خصومنا يجتهدون فى نشرها منذ زمان ونجتهد نحن فى محوها من الاذهان كقولهم للبسطاء والعوام ان الحكومة العثمانية كفت يدها عن ادارة هذه الولاية ، او ان الدولة تريد بيع مملكتكم ، فهذه الاقوال وامثالها صغرت النفوس واضعفت الهمم وثبطت العزائم .

هذا وقبلما تقع هذه الحوادث المهمة استقدمت الحكومة الى الاستانة البكباشى وحيد بك المتخرج من المكتب الحربى وقومندان الاستحكام الذى يعول عليه وحده فى الدفاع حين هجوم الاسطول الايطالى ولم ترسل قومندانا آخر بدلا منه ففقدت المدينة اسباب الدفاع تماما بهذا الشكل .

ثامنا ــ وغنى عن البيان ان الطليان لم يخفوا ما يضمرونه وهو الاستيلاء على طرابلس الغرب و بنى غازى منذ سنين كثيرة ، ولقد كانوا يجاهرون بذلك لجميع الملل ولا سيما العثمانيين كلما وجدوا الى المجاهرة سبيلا ، وقد تنبهوا لمد نفوذهم فى الايام الاخيرة تنبيها عظيما متربصين الزمن المساعد ، فكان الواجب على حقى باشا قبل كل شيء آخر ان يعرف حقيقة الامر وهو فى سفارة رومه ، وان يعرف اهمية هذه المسألة اكثر مما يعرفها سواه .

ولكن لما لم يتنبه الى انذارات مجلس النواب ولا الى ماشهده واطلع عليه بالذات ولا الى بلاغات خلفه سفير رومه ولا كتابات قائم مقام اولاية العديدة اغتنمت ايطاليا الفرصة التى كانت تترقبها ، و بينما كانت ايطاليا تفاتح الدول فى اثناء مسالة فاس لتحقيق آمالها فى طرابلس الغرب وتمد جيشها واسطولها للاستيلاء كان حقى باشا يشهد هذه الامور من بعيد ، واغرب من هذا انه صرح لسفرائنا فى اوربا باجازات حتى اذا تفاقم الاشكال و بلغ حده من الشدة لم يكن الا قليلون منهم فى اماكن وظائفهم ، فيظهر من هذا البيان ماساعدت الحوادث به خصومنا علينا .

تاسعا ــ كان الواجب بذل الهمة فى جعل القوة القليلة النظامية المحلية التى هناك قادرة على المقاومة ولو زمنا قليلا بينما كان الاعداء يستعدون للهجوم ولكن الحكومة لم تعن بهذا ، وظلت حتى اعلان الحرب لاتحرك ساكنا ولا تصدر اوامر بل ان النقود الكافية التى يتوقف عليها الدفاع لم تكن قد وصلت فجعل ذلك الدفاع مستحيلا مع انه كان ممكنا ، فهذا كله سهل للعدو الاستيلاء على الولاية .

فيتبين مما تقدم ان الحكومة تركت طرابلس الغرب و بنى غازى ميراث اجداد العثمانيين عاجزتين عن الدفاع من كل وجه ، تركتا بلا عسكر ولا سلاح ولا ذخيرة ولا ضباط ولا وال ولا قائد ولا مؤن ولا مال ، تركتا جائعتين فقيرتين .

اشهد تاريخ الامم عمى الى هذا الحد ؟ ارأى اهمالا كهذا الاهمال ؟ اوجد ضعف محبة الوطن كهذا الضعف ؟ فنحن مبعوثى طرابلس الغرب نمثل ضمائر موكلينا وابناء الامة كافة بهذه النكبة التى جرتها علينا وزارة حقى باشا وزملائه .

ان وزارة حقي باشا خالفت اول مادة وآخر مادة من الدستور فى الامور الخارجية والداخلية والمالية والحربيـــة ، ذلك القانون المعظم الذى هو اس الدولة الدستورية ، فلهذا نطلب من مجلس النواب ان يقوم بوظيفته فى هذا الشان .

هذا ونواب طرابلس الغرب يطلبون عملا بالمادة الحادية والثلاثين من الدستور محاكمة وزارة حقي باشا انقاذا للوطن فى المستقبل من تهلكة يقع فيها ، حتى اذا وفقنا الى تحديد المسؤولية ووجوب انزال العقاب تأكدنا اننا خدمنا الوطن .

٧

السلطان يستغيث

كان لاعلان ايطاليا الحرب على الدولة العثمانيـــة وارسالها اسطولها الى مياه طرابلس وبرقة يخرب ويدمر ويقتل ويحرق ، اسوأ وقـع لا فى نفوس العثمانيين وحدهم ، بل فى نفوس جميع المنصفين ، الذين انـكروا هذا الاعتداء الصارخ ومقتوه ورأوا فيه اسلوبا من اساليب القسوة والعنف التى يمجها ذوق العصر الجديد ، وتشمئز منها المدنية الحديثـة القائمة على المساواة المطلقة بين القوى والضعيف فلا عدوان ولا ارهاق

ويقول المؤرخون ان السلطان محمـد الخامس ، اضطرب اضطرابا شديدا ـ مع ما كان معروفا به من العته وضعف المدارك العقلية ممـا مكن للاتحاديين فسيطروا على الدولة ـ حينما حمل اليه الصدر الاعظم حقى باشا الانذار الايطالى فوبخه توبيخا مرا ، وقال له : لقد خربت الدولة فى سنتين ، ثم طرده من حضرته ، فخرج ذليـلا مهانا ، واستقال فورا فقبلت استقالته ، فالف سعيد باشا الـكوجوك ، وكان يومئذ رئيسا لمجلس الشيوخ الوزارة الجديدة بعد طول عناء ، فقـد ابى الـكثيرون الانضمام الى الوزارة والاشتراك فيها ، لصعوبة المهمة واضطراب الموقف .

واستـكتبت الوزارة السلطان برقيات ارسلت باسمه وبتوقيعه ـ وما كان هو فى حالة تمكنه من السيطرة على شؤون الدولة ولا معـرفة ما يجـرى فيها ـ الى ملوك انـكلترا والمانيا وروسيا والنمسا ورئيس جمهورية فرنسا يسألهم فيهـا باسم

الانسانية التوسط عند ايطاليا لحقن الدماء ، وكانت الخطة التى رسمتها الوزارة السعيدية الجديدة لمعالجة الازمة ، تقوم على السعى عند الدول العظمى لحملها على التوسط لدى الحكومة الايطالية لتوافق على قبول حل شريف يصون كرامة تركيا و يضمن لايطاليا الحصول على مركز ممتاز فى تلك الولاية .

ورد ملك الانكليز على برقية السلطان فاعرب عن اسفه لعدم استطاعة التوسط وقال الامبراطور غليوم فى رده انه يكن لجلالة السلطان عواطف الود والاحترام وانه اصدر الامر الى سفيره بالتوسط لكن انفراد المانيا وعدم تأييد الدول لها جعل توسطها بدون جدوى ، ومع ذلك فانه عملا برغبة جلالة السلطان سيعرض اقتراحا آخر على الدول للتوسط عند مساعدة الاحوال ، واجاب بمثل ذلك الملوك الآخرون فقد اعتذروا كلهم عن التوسط ، وكيف يتوسطون او يسعون لوقف غارة ظالمة دبرت بالاشتراك مع حكوماتهم وتمت بموافقتها ورضائها ، بل كيف ترضى ايطاليا ان تبدى شيئا من التساهل وهى تعلم ان دول اوربا كلها وراءها ، تقر عملها وتؤيده ، لانه يقضى على آخر مظهر من مظاهر الاستقلال الاسلامى العربى فى افريقية الشمالية ، فقد انتزع الاستعمار الاوربى الاقطار العربية الواقعة فى تلك القارة العظيمة تدريجيا و بقيت طرابلس الغرب و برقة فقامت ايطاليا تستولى عليهما

وزاد هذا الموقف السلبى المخجل ، الذى وقفته الدول الاوربية ازاء الغارة الايطالية الظالمة فى حنق العناصر العثمانية ولا سيما العرب واهاجهم ، فتناسوا ما كان بينهم و بين الاتحاديين من احقاد وقاموا يطلبون الانتقام من الايطاليين ومحاسبتهم حسابا عسيرا . فتألفت المظاهرات العدائية فى جميع الانحاء ضد ايطاليا وقوطعت البضائع الايطالية والمعاهد الايطالية وتقاطر المتطوعون من كل حدب وصوب الى تلك البلاد للاشتراك فى الدفاع عنها وتألفت لجان الاعانة لمساعدة المنكوبين والمحتاجين وارسلت البعثات الطبية الى ميدان القتال فى طرابلس الغرب و بنى غازى ودرنة وطبرق لمداواة الجرحى ، والمرضى ، وبالاجمال فقد نمت تلك الحركة عن روح جديدة سرت

فى الشرق العربى وكان للتونسيين والمصريين قصب السبق فى هـــذا المضمار وهم يجاورون البلاد المعتدى عليها من الغرب والشرق ، ولم يقصر السوريون ايضا فقد بذلوا الاموال الطائلة وتطوع عـدد كبير منهم للدفاع عن ذلك الجزء الثمين من الوطن العربى، كما تطوع ايضا عدد غير قليل من الضباط العراقيين الذين كانوا فى الجيش التركى

٨

مقارنة بين القوى المتحاربة

لم تقترن المساعى التى بذلتها تركيا وسلطانها عند الدول العظمى لحملها على التوسط لمنع الغارة الايطالية بنتيجة كما انه لم تنجح الجهود التى بذلها الايطاليون عند الحكومة العثمانية لحملها على الاعتراف بالامر الواقع والتسليم بتملكهم لتلك البلاد فقد نشرت الصحف يومئذ ان رومه عرضت على الباب العالى مليونين من الجنيهات تعويضا عن تنازله عنها مع الاعتراف بسيادة السلطان الدينية عليها ، وبديهى انه ما كان فى طاقة وزارة من الوزارات قبول مثل هذا الاقتراح واقراره بسبب الحالة النفسية التى كانت عليها البلاد يومئذ فقد نهضت الامة نهضة واحدة تطلب الحرب

وقبل الاسهاب فى وصف الاعمال العسكرية والمعارك الحربية نقول: انه ما كانت هنالك نسبة بين قوات الاسطول الايطالى الذى كان يجوب البحر المتوسط فى تلك الايام لحماية خطوط المواصلات الايطالية ولصيانة الحملة العسكرية التى ارسلت الى طرابلس الغرب و بين الاسطول العثمانى، الذى اسرع - حينما ارسل الايطاليون انذارهم الاخير ، وكان ذاهبا الى بيروت لزيارتها - بالرجوع الى الدردنيل فاعتصم وراء اسواره واختفى فى قراره فلا يصل اليه الاسطول الايطالى ومعنى ذلك انه ما كانت هنالك نسبة بين قوى الفريقين البحرية وان الايطاليين كانوا يتفوقون على الترك الذين اهملوا قوتهم البحرية كما اهملوا القوى الاخرى ، والاهمال شعارهم ودأبهم ، وقد جر على العرب و بلادهم اسوأ النتائج وشرها، وكذلك تفوق الايطاليون عسكريا وحربيا فقد ارسلوا فى اول الامر حملة الى طرابلس الغرب بلغ عدد جندها ٢٥ الف مقاتل جهزوها بانواع الاسلحة اما قوات العثمانيين هنالك فما كانت تزيد على ثلاثة آلاف مقاتل

يملكون اربعة مدافع فقط ، وقد قطع ما بينهم وبين وطنهم الاصلى من مواصلات فالانكليز فى الشرق يحتلون مصر ويجثمون على حدودها لمنع كل مدد ونجدة وسلاح والفرنسويون يستولون من الناحية الاخرى على حدود تونس ويمنعون تسرب السلاح والنجدات وفاء بعهدهم لايطاليا باطلاق يدها فى احتلال طرابلس الغرب وهكذا كان الايطاليون يتفوقون برا وبحرا وجوا فقد ارسلوا مع حملتهم الطائرات وما كانت الدولة تملك منها شيئا ، ومن تحصيل الحاصل القول بان هذا التفوق المادى هو الذى جعلهم يقدمون على ما اقدموا عليه ، يضاف الى ذلك خلو البلاد المعتدى عليها من ادوات الدفاع ووسائله على المنوال الذى بسطناه آنفا وسوء حالة الدولة الداخلية فى تلك الايام بسبب اشتداد التنافس بين اقطابها وزعمائها بل وبين رجال جيشها وكانوا منقسمين الى قسمين : اتحادى وائتلافى ، ينظر كل منهما الى اخيه وصاحبه شزرا ويتهمه بالخيانة ، والمروق من الوطنية ، واضطراب حالتها المالية فقد ذهبت الثورات الداخلية المتتابعة بما كان فى خزينتها

ويرى الباحث فى اقوال الصحف الايطالية وما كانت تنشره فى تلك الايام من اخبار تلك الحرب فى اوائل عهدها ان القوم كانوا يعتقدون بان المسألة عبارة عن نزهة عسكرية بسيطة ، لا يمتد اجلها اكثر من اسبوع او اسبوعين ، وانه ما هو الا ان يظهر اسطولهم امام المدن الساحلية ويطلق بعض القنابل ، حتى ترفع الراية البيضاء ، وتستسلم الشراذم التركية ، المشردة هنا وهنالك ، فتنزل جنودهم الى البر فيستقبلها العرب بالازهار والرياحين ، لانها جاءت لتحررهم من النير التركى

نعم هذا ما كان الخيال يصوره للايطاليين ، وقد تبدد هذا الخيال حينما حاولت الحملة التى نزلت الى المدن الساحلية التقدم والابتعاد عن مرمى قذائف الاسطول لحمل عليهم العرب الابطال من ابناء تلك البلاد الذين نفروا خفافا وثقالا الى الميدان ، فالقوا على الايطاليين دروسا عالية فى النجدة والشهامة والبطولة ، واضافوا مفاخر جديدة الى تاريخ الفروسية العربية ، واثبتوا ان العرب هم العرب فى كل زمان ومكان يأبون الاستعباد وينفرون منه ، ويقاتلون كل من يحاول الاعتداء على وطنهم

وسلب حريتهم ، ونحن نثبت هنا نص البرقية التى طيرها اهل مدينة خمس الى حكومة الاستانة حينما ارسلت ايطاليا انذارها فهو يمثل الحالة النفسية التى كانت سائدة يومئذ قالوا :

«ان طرابلس الغرب تربط الحكومة العثمانية بافريقية فالتفريط فيها عمل تأباه الوطنية العثمانية ، وان اهلها ليفاخرون بانتسابهم الى الخلافة والسلطنة العثمانية فارتباطها هذا هو فخرهم الاعظم، ولئن كانت جزءا صغيرا من السلطنة فسكانها على اختلافهم نحلا ومللا يبلغون حكومة الاستانة انهم اقاموا اجتماعات كثيرة وقرروا ان يسفكوا آخر قطرة من دمائهم فداء للوطن فلينعم الباب العالى والامة العثمانية وصحافتها بالا وليهدأ روعها فان وطنهم لا يباع الا بالدم

«لقداهملت بلادنافى السابق اهمالا مرا فلترسل الينا المؤن والذخائر والعدد الحربية على جناح السرعة لنذود عنها ونرفع رؤوسنا بوطنيتنا . واننا نرجو من حكومتنا ان لا تجيب الايطاليين الى مطالب ولا تعطيهم امتيازا فى بلادنا او امتيازا اقتصاديا على الاطلاق ، واننا ننصح للحكومة الا تحملنا على عدم مقاطعة الايطاليين الذين صاروا فى نظرنا كافة اعداء الدولة ، فهذه الحرب الاقتصادية تعود عليهم بخسارة فادحة تعلمهم كيف يكون الاعتداء

«وليعلم جميع العثمانيين اننا نستقبل الموت باسمى الثغور مهللين ، فحياتنا نبذلها رخيصة غير آسفين فى سبيل شرف الدولة ، ولا نقبل ان يكون شبر ارض من بلادنا مهددا من الاجانب فشيوخنا وشباننا الآباء والابناء متفقون على استقبال الموت بقلوب لا تهاب المنايا فذلك خير من استبداد اجنبى بهم

« هذا ما نعرضه والوفنا واقفة فى مكتب التلغراف وفى خارجه تطالب امدادنا لنقوم بالواجب علينا »

٩

الاعمال العسكرية

في يوم السبت ٣٠ سبتمبر ظهرجانب من الاسطول الايطالي امام ميناء طرابلس الغرب ، وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثلاثاء ٣ اكتوبر و بعد اعلان الايطاليين الحرب ، طلب قائد اسطولهم من حصون طرابلس التسليم فاجابته بالرفض ، فشرع في اطلاق قنابله عليها واستمر في ذلك حتى المساء فهدم جانبا منها ، واستأنف العملية في صباح الاربعاء ٤ منه واستمر فيها حتى الظهر فاسكت الحصون ، وهي ضعيفة وقديمة واستولى على الميناء وانزل قوة صغيرة لاتزيد على ٣٠٠ بحار الى الساحل مع اربعة رشاشات وكان العثمانيون قد اخلوا المدينة وارتدوا الى العزيزية ورابطوا فيها طبقا لخطة عسكرية مرسومة بقيادة نشأت بك

وعين الاميرال بوريا دبيلو حاكما لطرابلس الغرب

وفي يوم ١٧ اكتوبر وصلت الى طرابلس الغرب الحملة العسكرية الايطالية بقيادة الجنرال كانيفا وهي مؤلفة من ٨ الايات مشاة والايين من الرماة والف خيال ومدفعية ولا يقل مجموع رجالها عن ٢٥ الف مقاتل ونزلت الى البر بدون حادث

واذاع الجنرال كانيفا بيانا على السكان قال فيه : جئنا لالنستعبد الشعب ولكن لنحافظ على حقوقه ، ولنعاقب الذين اغتصبوا السلطة ، ولنجعل الطرابلسيين احرارا وسيقلد الزعماء والمشايخ الحكم بعد الآن تحت رعاية الملك فيكتور عمانوئيل

احتلال بنى غازى

وفي يوم ٤ اكتوبر (١٩ شوال) رسا قسم من الاسطول الايطالي امام بنى غازى وارسل قائده يطلب من المدينة التسليم فابت فسلط عليها مدافعه في الغداة فضربها

فردت عليه فاسكتها . ثم وصلت الحملة الايطالية العسكرية الى بنى غازى واستولت عليها بدون حادث

احتلال الخمس

وفى يوم ٢٠ اكتوبر ظهر جانب من الاسطول الايطالى امام خمس فضربها واستولى عليها وانزل فيها قوة عسكرية

احتلال درنة

وفى يوم ١٨ اكتوبر وصل الى درنه جانب من الاسطول الايطالى فضربها واستولى على مينائها وانزل فيها قوة عسكرية

احتلال طبرق

وارسل الايطاليون جانبا من اسطولهم الى طبرق فاستولى عليها وانزل فيها قوة عسكرية

وهكذا استولى الايطاليون فى خلال المـــدة المنقضية بين ٣ و ٢٠ اكتوبر على المدن الساحلية الكبرى من طبرق وهى اول ثغر ابرقة فى الشرق الى طرابلس وانزلوا فى كل ثغر جانبا من قواهم ، وكان مجموع ما نزل الى البر ٣٢ الف جنـدى عززت باثنى عشر الفا فصار المجموع ٤٤ الف مقاتل تألفت منهم الحملة الاولى

المعارك البرية

انتهى الدور الاول من ادوار الاعمال العسكرية بدون عناء بسبب تفوق ايطاليا البحرى وخلو الثغور من معدات الدفاع

وابتدأ الدور الثانى يوم ٢٣ اكتوبر فقد بيت عـــدد من المجاهدين بقيادة بعض الضباط العثمانيين القـوات الايطاليـة التى عسكرت فى المنشية وهى فى الجنوب

الشرق من مدينة طرابلس يتصل عمرانه بها عند الفجر ففتكت بها وعند الصباح ارتدت الى اما كنها لجن جنون الايطاليين وجاؤا بقوى كثيرة ونكلوا بسكان المنشية وارتكبوا شتى الفظائع مما سنفصله فى فصل خاص

وفى يوم ٢٦ اكتوبر جمع الايطاليون ما كان عندهم من قوى وخرجوا من طرابلس للقاء المجاهدين فى العزيزية طلبا لثأرهم فبلغوا آبار بومليانه فصمد لهم المجاهدون ونازلوهم فى معركة حامية

وفى يوم ٢٧ منه تحول المجاهدون من حالة الدفاع الى حالة الهجوم وكروا على الايطاليين ونازلوهم فى معركة عنيفة امتدت يومين وانتهت بانكسار هؤلاء فارتدوا على طول الخط وعادوا الى المدينة

ودارت بعد ذلك معارك عنيفة فى هذا الميدان بين المجاهدين وكانوا بقيادة نشأت بك وفتحى بك (الملحق العسكرى للدولة العثمانية فى باريس ، وقد اسرع عند اعلان الحرب الايطالية فجاء الى تونس ومنها الى طرابلس فعين رئيس اركان حرب للقوة) والزعماء الوطنيين ، فكانت معركة قرقارش ومعركة مكتب الزراعة ، وغيرها وعقد الصلح بين الدولة العثمانية وايطاليا والايطاليون يرابطون فى المنطقة الساحلية ، لا يجسرون على مغادرتها

معارك بنى غازى

ما كانت حالة الترك العسكرية فى بنى غازى تفضل حالتهم فى طرابلس الغرب ، حينما وصل الاسطول الايطالى

وانسحبت القوات القليلة التى كانت فى المدينة الى الضاحية طبقا لاوامر الحكومة وعسكرت فى سيل الهوارى ثم فى الآبار ورابطت فيها فتوارد المجاهدون من كل حدب وصوب الى المعسكر العام

ووصل فى تلك الاثناء انور بك (انور باشا بعد ذلك ودكتاتور تركيا) من

الاستانة وجاء ايضا مصطفى كمال بك (الغازى مصطفى كمال باشا ثم اتاتورك) وعزيز بك
على المصرى (عزيز على باشا بعد ذلك) وعدد من الضباط العرب والترك لتنظيم الدفاع
عن هذه المقاطعة ، فتولى انور بك القيادة العامة للقوى العثمانية فى برقة كلها (بنى غازى
ودرنة وطبرق) ويقول فى كتاب ارسله الى احد اصدقائه من مقره يوم ٢٨ يناير
سنة ١٩١٢ اى بعد ثلاثة اشهر تقريبا من وصوله الى الميدان انه كان عدد المتطوعين
عند قدومى لا يزيد عن ٩٠٠ جاء اكثرهم من جهات تونس و بيروت و بعض
الولايات العثمانية ومصر اما الآن فعددهم ١٦ الفا

السنوسيون فى الميدان

واسرع السنوسيون فى مقاطعة برقة عاصمتهم وسكانها من اتباعهم
ومريديهم لتأييد الدولة وشد ازرها فى نضالها يتقدمهم شيخهم الاكبر المرحوم السيد
احمد الشريف وجاء شيوخ الزوايا للجهاد يقودون رجالهم فابلوا البلاء الحسن فى الكر
والفر وجددوا عهد المفاخر العربية وادهشوا العالم بما ابدوه من بسالة وشجاعة ،
فاهدى السلطان يوم ٤ مارس سنة ١٩١٢ الشيخ سيفا ونيشانا مرصعا تقديرا لجهاده
ومكافأة له

لقد اصطلى السنوسيون نار هذه الحرب فى منطقة برقة من الاول الى الأخر
واداروها وكانوا رجالها ووقودها وكانوا آخر من جلا بعد ما فقدوا الجانب الاكبر
من اقطابهم وشيوخهم وسنعود الى ذلك باسهاب فى الجزء الثالث

ودارت معارك عنيفة فى هذا الميدان بين المجاهدين الذين رابطوا على مقربة
من بنى غازى بعيدين عن مرمى قنابل الاسطول وبين الايطاليين الذين حاولوا التقدم
فى اول الامر وشق طريق لهم الى الداخلية فانهزموا ولجأوا الى الساحل

معارك درنة

قبعت الحملة الايطالية التى نزلت الى درنة فى الخطوط الساحلية فلم تغادرها الا يوم

٢٨ اكتوبر سنة ١٩١١ فصمد لها المجاهدون بقيادة شيوخ الزوايا السنوسية الذين تسابقوا الى الميدان ، ويقول بلاغ رسمى صدر عن هـذه المعركة انه اشترك فيها من شيوخ السنوسية فى الجبل الاخضر كل من السيد على شيخ الزاوية البيضاء ، والسيد الدردفى ، والسيد صالح الاصمعى ، ومحمد الغزالى ، والسيد عبد القادر قرقاش ، والسيد عبـد الله ابو سيف ، والسيد مرتضى قرقاش . والسيد سنوسى الغريانى . والسيد محمد ابو فارس . والسيد محمد بن ملول . والسيد حميد بن عمود . والسيد سنوسى جبالى وانها انتهت بانكسار الايطاليين

معارك طبرق

تولى تنظيم الدفاع عن طبرق ضابط سورى كبير برتبة لواء اسمه ادهم باشا فوصل اليها عقب اعلان الحرب . فجمع حوله طائفة من المجاهدين والمتطوعين واقام ينتظر خروج الايطاليين لينازلهم فلم يخرجوا ، ولما طال عليه المطال وسأم الراحة والانتظار ارسل الى قائد القوة الايطالية فى طبرق يوم ٥ يناير سنة ١٩١٢ الكتاب الآتى باللغة الفرنسوية :

جناب القائد :

انا قائد عساكر نقطة طبرق ورئيسها ولذلك لى الحق ان اقول لكم كلمة صغيرة وهى انكم اذا اردتم المحافظة على الشرف العسكرى يلزم ان تخرجوا مما انتم فيه وتقاتلوا عساكرى العرب الشجعان الذين يريدون الحرب فى كل لحظة ومهاجمتكم كل يوم باقترابهم من خطوطكم ولكن لا اتركهم يعرضون انفسهم للاخطار بلا فائدة فان اردتم فتح البلد فيجب ان تخرجوا من خطوط الدفاع وتنازلونا ، وانى منتظر خروجكم ياجناب القائد ومستعد لاستقبالكم على الوجه اللائق

وتفضلوا . . . .

وقد ظل الكتاب بدون جواب ثم وردت للايطاليين نجدات فحاولوا الخروج فهزموا

معارك الخمس

تقع الخمس فى منطقة طرابلس وقد تولى تنظيم الدفاع حولها خليل بك عم انور بك (خليل باشا بعد ذلك وقاهر الانكليز فى ميدان العراق) ونازل الايطاليين الذين نزلوا الى البر واصلاهم نارا حامية فظلوا تحت حماية الاسطول وكان شأنهم هنا شأنهم فى المراكز الساحلية الاخرى

معارك زوارة

زوارة مركز قضاء يعرف بهذا الاسم فى غرب طرابلس وهو ادنى حدودها الى تونس ، تولى تنظيم الدفاع عنه القائد موسى على اليمانى فقاتل الايطاليين وانتصر عليهم فى معارك عدة وحال بينهم وبين التقدم الى الامام

١٠

الفظائع الايطالية

لا يسع مؤرخ الغارة الايطالية على طرابلس وبرقة ان يهمل امر الفظائع التى يعزى الى الجيش الايطالى ارتكابها فى تلك البلاد ، فقد طبق ذكرها الآفاق ، والفت فيها مطولات الكتب والرسائل ، وشهد عليها شهود عيان معظمهم من مكاتبى الصحف الاوربية

ويؤخذ مما بين ايدينا من التفاصيل والوثائق [1] ان الايطاليين بدأوا بسكان المنشية الواقعة شرقى طرابلس فانتقموا منهم ، بعد ما بيتهم المجاهدون ليلة ٢٣ اكتوبر سنة ١٩١١ فوضعوا السيف فى رقابهم وقتلوا منهم عددا كبيرا نساء ورجالا وشيوخا واطفالا

ويقول ثقة « كما جاء فى كتاب تسجيل الفظائع » كان من جملة الذين شهدوا ذلك الحادث المريع مانصه :

لقد ربطونا بالحبال ، وجردوا بعضنا من الثياب وساقونا الى الثكنة العسكرية حيث بقينا بلا فراش ولا غطاء ولا طعام ، وكان الضباط يتلهون باصطيادنا ويتراهنون

---

(١) اعتمدنا فى كتابة هذا الفصل على الباب الخاص الذى عقده الامير شكيب ارسلان فى الجزء الثانى ص ٦٤ من كتاب حاضر العالم الاسلامى وعلى كتاب «الفظائع السود ـ الحمر او التمدين بالحديد والنار » الذى اصدرته لجنة تسجيل الفظائع سنة ١٣٥٠ ـ ١٩٣١ وكتاب نبذة من اعمال ايطاليا فى طرابلس الغرب لجامعها الشيخ عبد الجواد محمود الطرابلسى .

على اصابة احدنا بطلق واحد ، وقد قتلوا منا نحو ٣٥٠ على هـــذه الحالة . ثم جاءنا بعض الجند فطعنوا منا بحرابهم نحو ٣٥٠ نسمة

واصدر الجنرال كانيفا امرا اباح به لجنوده حصر المنشية ثلاثة ايام وانتهت هذه الايام بانقراض العرب الذين كانوا فيهـا ومحو كل اثر من آثارهم ، فوضع الطليان يدهم عليها ، ومنحوها لرعاياهم بدلا من اصحابها .

وقال المسيو كوسيرا مراسل جريدة « اكسيلسيور » الفرنسوية « لايخطر ببال احـــد مارأيناه بأعيننا من مشاهـد القتل العام ومن اكوام جثث الشيوخ والنساء والاطفال يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور يحترق امام مذبح من مظاهر النصر الباهر .

«لقد مررت بمائة جثة بجانب حائط قضى عليهم بأشكال مختلفة وما فررت من هـذا المنظر حتى تمثلت امام عيني عائلة عربية قتلت عن آخرها وهى تستعد للطعام ، ورأيت طفلة صغيرة ادخلت رأسها فى صندوق حتى لاترى مايحل بهـا و بأهلها . ان الايطاليين فقدوا عقولهم وانسانيتهم من كل وجه »

واشار الى هـــذه الحوادث نفسها مراسلا الديلى ميرور المستر توماس والسيدة فرانك ماجر ، وقال المستر راليس اشميد برتلت مراسل شركة روتر فى رسالة بعث بها من مالطة يصف فيها ماشاهـده بعينه هو والمستر كرانت مراسل الديلى ميرو ر والمستر دانيس مراسل المورننج بوست وقد سجلت هـذه الرسالة فى دائرة رسمية انكليزية تحت تواقيعهم :

« صادفنا بمجرد خروجنا من المدينة جماعة بين رجال واولاد لايقل عددهم عن السبعين قتلوا بدون محاكمة ، وكنا نشاهد فى طريقنا بعــد كل بضع خطوات جثث القتلى فى كل مـكان قتل بعضهم برؤوس الحراب ، والبعض ضربا وآخرون جرحوا وماتوا ، على اثر جراحهم ، وابصرنا على مسافة قريبــة ٥٠ رجـلا وولدا هلكوا بالرصاص والسيوف ، وشاهدنا رءوسا مهشمة . ومن المشاهد التى رأيناها :

١ ـ شيخ عربى عاجز بينما هو جالس بقرب مدرسة الزراعة اذ اتخذته طائفة من الجند الايطالى هدفا لرصاص بنادقها فمات .

٢ ـ سمعنا فجأة صوت عيار نارى فعلمنا انه اطلق على رجل خرج من منزله فسقط والدم يتدفق منه وخرجت زوجته و بيدها اناء فيه ماء ـ لعلها تريد ان تسقيه او تغسل جراحه ـ فلما راتنا نكصت على اعقابها خوفا منا .

٣ ـ التقينا فى احد الشوارع بثلة من الجنود امسكوا بثلاثة من العرب وصفوهم عند حائط ، واخذوا يتلهون باطلاق النار عليهم »

وكتب المستر فرانسيس ماكولا احد المراسلين الانكليز يقول :

« ابيت البقاء مع جيش لاهم له الا ارتكاب جريمة القتل وقررت ان اعيد اوراقى الى الجنرال كانيفا ، و بلغ من استيائى مما رايته من المذابح وخصوصا اباحة اولياء الامور الطليان ترك النساء العربيات المريضات واولادهن يعالجن سكرات الموت على قارعة الطريق اشده، فكتبت الى الجنرال كانيفا كتابا شديد اللهجة قلت له فيه « اننى ارفض البقاء مع جيش لا اعده جيشا ولكن عصابة من قطاع الطريق والقتلة » [١]

وقال الكاتب الالمانى فون غوتنبرغ « لم يفعل جيش بعدوه من انواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان فى طرابلس فقد كان الجنرال كانيفا يستهين بكل قانون حربى و يأمر بقتل جميع الاسرى سواء قبض عليهم فى الحرب ام فى بيوتهم . وفى سيراكوزه الآن كثير من الاسرى الذين لم يؤسر احد منهم فى الحرب واكثرهم من الذين تركوا فى مستشفى طرابلس »

---

(١) هذا هو نص كتابه :

الى سعادة الجنرال كارلو كانيفا قائد جيش الاحتلال العام

« اعيد الى سعادتكم الاوراق التى تجدونها طى كتابى هذا والتى كنت حصلت عليها من السلطة العسكرية الايطالية هنا . ولما كنت اعتقد ان واجباتى تقضى ان انتقد المعاملة التى عومل بها اهل البلاد ، فى غضون الايام القليلة ارى اننى لم استطع فيما بعد ان اقبل هذه الامتيازات من حكومة انتقد اعمالها »

وقال الهر « هرمان رنول » المكاتب الحربى النمسوى :

« لقد قتل الطليان فى غير ميدان الحرب كل عربى زاد عمره على ١٤ سنة ومنهم من اكتفوا بنفيه ، واحرقوا فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩١١ حيا باكمله خلف بنك رومه بعد ان ذبحوا اكثر سكانه و بينهم الشيوخ والنساء والاطفال .

« ورجوت طبيبين عسكريين من اطباء المستشفى ان ينقلوا بعض المصابين والمرضى المطروحين على الارض تحت حرارة الشمس فلم يفعلا، فلجأت الى راهب من كبار رجال جمعية الصليب الاحمر هو الاب يوسف بافيلاكو وعرضت عليه الامر واخبرت شابا فرنسويا ايضا ولكن الاب اعرض عنى ونصح للشاب بان لايزعج نفسه لاجل عربى فى سكرات الموت وقال « دعه يموت »

« لا ريب ان الطليان اهانونا كثيرا فلم يكف انهم اسقطوا منزلة اوربا العسكرية فى نظر افريقية حتى شوهوا اسم النصرانية امام الاسلام »

وقال فى رسالة اخرى « رأينا طائفة من الجنود تطوف الشوارع مفرغة رصاص مسدساتها فى قلب كل عربى تجده فى طريقها وقد نزع اكثرهم معاطفهم ، ورفعوا اكمام قمصانهم كأنهم جزارون »

وقال فون غوتنبرغ فى رسالة اخرى « خرجت عصابة من الجنود وراء البيوت فلما دنوا منا وجدنا بينهم خمسة من العرب ، غلت ايديهم خلف ظهورهم ثم سمعنا صراخا واذا ببعض الجنود خرجوا من منزل يجرون عربيا ضموه الى الخمسة الاولين وقتلوهم رميا بالرصاص، فعلمنا انه ليس هنالك محاكمة ولا عدالة عسكرية بل هنالك مجزرة محضة

« ولقد قيل لى ان الطليان قتلوا ٤٠٠ امرأة وولد فى هذه الايام الاخيرة ، واربعة آلاف رجل ، وكانوا يقتلون النساء و يقولون ظنناهم رجالا

« وفى ٢٧ اكتوبر سنة ١٩١١ مررت فى الطريق شمالى آبار بومليانة فأبصرت شابة عربية خرجت من بيتها ممسكة بيدها طفلها الصغير ، ثم مالبثت ان سمعت ثلاث طلقات نارية ثم رأيت المرأة سقطت الى الارض ميتة اما الطفل فولى

هاربا مذعورا فلقيت حينئذ ضابطا فقلت له « جنودك الآن قتلوا امرأة عند البئر ، فقال جنودنا لا يستطيعون التمييز بين المرأة والرجل من اول وهلة فعلمت من هذا الجواب ان العرب مباح قتلهم سواء كانوا مجرمين او ابرياء

« وصادفت ٥٠ جنديا يقودون ستة من العرب الى خرابة يستعملها الجنود لقضاء الحاجة ولما ادخلوهم اليها اشترك الضباط والجنود فى قتلهم بالمسدسات والبنادق . وما كدت افر من هذا المشهد الرهيب حتى رأيت ماهو اشد هولا وهو طائفة من الجنود يسوقون ٥٠ عربيا بين رجل وامرأة وطفل ، ضرب احدهم بحربة بندقيته اثنين منهم فمات واحد لوقته وسقط الآخر يتخبط فى دمه فرفسه احد الجنود برجليه ثم ادخلوا الباقين الى مكان قد تهدم و بدأ الضباط يقتنصون هذا الصيد الكريه بمسدساتهم ورصاص بنادق جنودهم مدة ٢٠ دقيقة وكل ماسمعوا انينا من جثة اعادوا اليها النار الى ان ينقطع الانين »

وقالت جريدة الديلى كرونيكل الانكليزية :

« استمر الجيش الايطالى ثلاثة ايام يطلق الرصاص على كل من يلقاه من العرب فهلك عدد كبير من النساء والاطفال و بلغ مجموع القتلى بين الاثنين والجمعة اربعة آلاف عربى ، وصدر الامر بقتل كل من وجد خارج السور الى جهة قرقارش »

وكتب الرحالة النمسوى اريتادا يقول « رأيت جنودا اطلقت الرصاص على ثلاثة من العميان المتسولين فقتلوهم وقتلوا ثلاثة اولاد عمر اكبرهم ٨ سنوات كانوا هاربين الى جهة ضريح السيد المصرى وقتلوا امرأتين بطريق قرقاش لانهما لم تقفا للجند ، وقتلوا امرأة فى سوق الجمعة على طريق ناحية تاجوراء كانت مكبة على جثة زوجها تبكى وتصيح

وقال المستر ارنست بانيت العضو فى البرلمان البريطانى فى كتابه مع العثمانيين فى طرابلس : « ان جرائم الجنرال كانيفا الدموية ستبقى من الذكريات الاليمة فى نفوس العالم الاسلامى وستتناقلها الاجيال باشمئزاز وسخط ، وكان يليق بالايطاليين ان يصونوا تاريخهم العسكرى المزدان بقليل جدا من اكاليل الفوز والنصر عن هذه المذابح الوحشية واعمال الجبن »

هـــذا بعض مااخترنا اثباته من اخبار تلك الحوادث وهو قاصر على وصف ما جرى فى اثناء السنة الاولى فقط . وقد قابله العالم كله بالسخط والاستنكار وكانت الحكومة العثمانية فى مقدمة من احتج عليه رسميا بمذكرة ارسلتها يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩١١ الى الدول العظمى .

وكذلك احتج عليه سمو الامير عمر طوسن بصفته رئيس جمعية اعانة منكوبى طرابلس فى مصر واحتجت ايضا كثير من الهيئات والجمعيات فى شتى الاقطار والانحاء .

١١

مساعى الصلح الاولى وحبوطها

خابت آمال الايطاليين فى جيشهم وفى العرب كما خاب املهم فى الدولة العثمانية فوقعوا فى حيص بيص .

لقد كانوا يظنون ان الحملة التى ارسلوها الى طرابلس الغرب وبرقة قادرة على امتلاكهما وتشتيت القوى العثمانية القليلة المنبثة فى ارجائهما – وما كانت تزيد على ثلاثة آلاف مقاتل على اكبر تقدير – وان العرب سيقابلونها بالرياحين وينضمون اليها ويشدون ازرها فى قتال العثمانيين ، فوقع عكس ما املوا ورجوا ، فقد وقف العرب صفا واحدا ، فى وجههم يقاتلونهم ويصولون عليهم ويجولون

ان هنالك ثلاثة عوامل خطيرة ، اهابت بالعرب الكرام الى التجند فى صفوف العثمانيين والانضمام اليهم فى قتال الطليان ، وبذل الارواح والاموال بسخاء مابعده سخاء ، وكرم مابعده من كرم .

فالاول : هو العامل الدينى ، فالدين الاسلامى الكريم ، يطبع المسلمين بطابع العزة والانفة ويعلمهم الاباء والشمم ، وعدم الخضوع لاية سلطة ، غير اسلامية ، مهما كانت هذه السلطة فلا يذلوا وهم الاعلون ولا يستخذوا وهم الاعزة ، وكل شعب يحكمه غير ابنائه ويكون امره بيد غيره ذليل ، والمسلم يأبى الذل والامتهان .

والثانى : عامل الفظائع التى اقترفها الايطاليون فى حادث المنشية عقب نزولهم الى طرابلس فقد شاع امرها بين العرب فأكبروها واستعظموها خصوصا وقد شابها شائب الاعتداء على العرض وانتهاك حرماته ، والعرب حريصون على اعراضهم

يبذلون الدم فى سبيلها و يقاتلون لاجـل حمايتها يؤيد ذلك بلاغ عثمانى رسمى اذيع فى الاستانة يوم اول شهر يوليو سنة ١٩١٢ هذا نصه :

« هجر اهل بنى غازى منازلهم ولحقوا بجيشنا هربا من سوء معاملة الايطاليين لهم وضغطهم عليهم ضغطا شـديدا وطلبوا ان يؤلفوا فصيلة منهم فأجبناهم الى طلبهم فسارت فصيلتهم الى استحكامات العـدو ، ولمـا اقـتربت منها رأت بلوكا من فرسان العدو فأطلقت عليهم النار وقتلت خمسة عشر فارسا منه ثم عادت الينا بعد ساعة »

والثالث : هو الانتصار للخلافة الاسلامية وكانت ممثلة فى الدولة العثمانية ، فقد كان العرب حتى ذاك العهد يرون ان مصلحتهم فى البقاء داخل هـذه الدولة والتعاون معها باخـلاص ، والدفاع عنها بكل القوى ، لان فى سقوطها واضمحلالهـا خطرا على الاسـلام ، ولم يكونوا قد استعدوا الاستعداد الكافى لانشاء دولة عربية تخلفها وتقوم مقامها يضاف الى ذلك كره الاستعمار الاجنبى والنفور منه.

فهذه العوامل الثلاثة هى التى بعثت العرب على قتال الايطاليين ومقارعتهم بالاتفاق مع العثمانيين ، ثم بعثتهم على قتالهم منفردين ، بعـد ما عقدت الدولة الصلح ونفضت يدها من يدهم . وامرت ضباطها وقوادها بالرجوع وكفت عن بذل الاموال وارسال الاسلحة والذخائر ، وكانت ترسلها فى الفترة الاولى

وكذلك خيب ثبات الدولة العثمانية ورفضها الاقتراح الذى عرضته رومه عليها بالتنازل عن تلك البـلاد مقابل ٥٠ مليونا من الفرنـكات ، آمال الايطاليين ، الذين كانوا يظنون انها ستسلم بالامر الواقع وتقره ؛ فأخــذوا يبحثون عن وسائل اخرى يرغمونها بها على الخضوع بعد ما ظهر عجزهم عسكريا عن التغلب على قوى المجاهدين وتبين ان قناة الدولة لا تلين .

ورأى رجال رومـه ان خير مايفعلونه هو ان يوسعوا نطاق اعمالهم البحرية ، وان يغزوا السواحل العثمانيــة ويحاصروها و يشددوا فى مضايقتها فعارضتهم الدول وابلغتهم ان الاتفاق المعقود بينهم و بينها يمنحهم حق امتلاك طرابلس الغرب وحـدها

وان تكون دائرة الاعمال الحربيـة قاصرة على شمالى افريقية فلا تتعداها ولا تتجاوزها ، لئلا تضر بمصالحها (اى مصالح الدول) الكثيرة فى البلاد العثمانية .

وتم الاتفاق اخيرا على ان تطلق الدول يد ايطاليا فى مهاجمة ساحل البحر الاحمر العثمانى اى ساحل اليمن وعسير والحجاز ، وليس للدول مصالح جوهرية فى هذا البحر فأرسـل الايطاليون اسطولهم فضرب القنفدة يوم ١٢ يناير سـنة ١٩١٢ كما ضرب الصليف وميدى يوم ٩ مارس ثم الشيخ سعيد واللحية ثم الحديدة يوم ٢٨ يوليو من السنة ذاتها فدمر المعسكر التركى واصاب المدينة باضرار وعرقل المواصلات ، واعتدى على كثير من « السنابيك » العربية التى تشتغل بالنقل فى ذاك البحر .

ومد الايطاليون يدهم الى السيد محمد على الادريسى ، وكان على خلاف مع الدولة فى عسير ، فامدوه بالمال والسلاح فوسع نطاق اعماله العسكرية وارسل جنـده فحاصروا «ابها» قاعدة عسير العسكرية والادارية فاستنجدت الدولة بالشريف حسين باشا بن على (امير مكة يومئذ والملك حسين فيما بعد) فجهز حملة قادها بنفسه وزحف حتى وصل اليها فدخلها وطرد رجال الادريسى الذين كانوا يحاصرونها ، على انهـم عادوا الى نشاطهم بعد رجوعه الى عاصمته فجهز حملة اخرى بقيادة نجله الامير فيصل (الملك فيصل) وصلت فى تقدمها حتى القنفدة فقط ثم عادت ثانية الى مكة

ولم يضعف ماجرى من عزيمة الباب العالى ولم يوهنها ، فرجـع الايطاليون الى الدول يسألونها السماح لهم بنقل دائرة اعمـالهم البحرية الى البحر المتوسط بدلا من البحر الاحمر ، فرأت الدول ، قبـل السماح ان تعجم عود الفريقين المتحاربين وان تعمل للتوفيق بينهما وعقد صلح يريحهما .

و بدأت الدول سعيها فى رومهفزار سفراء انـكلترا وروسيا والمانيا والنمسا وفرنسا المركيز سان جوليانو وزير الخارجية فى الاسبوع الاول من شهر مارس وطلبوا منه ان يوقفهم على الشروط التى تشترطها ايطاليا للصلح لابلاغها الى الحكومة العثمانـيـة فأبلغهم يوم ١٠ مارس سنة ١٩١٢ شروطه وهى :

١ ـ اعتراف تركيا بضم طرابلس الغـرب اليها وملكيتها لهـا واسـترجاع جنودها منها

٢ ـ اذا قبلت تركيا هـذا الشرط وهو اساسى وجوهرى فان ايطاليا مستعدة للتساهل فى الامور الدينية والمالية واعلان عفو عن الاهالى وفى التساهل بوضع التعريفة الجمركية ، والغاء الامتيازات القنصلية فى السلطنة العثمانية .

وقابل سفراء الدول الخمسة فى الاستانة محمـد عاصم بك وزير الخارجية التركية وسلموه اقتراحات ايطاليا وطلبوا منه الرد راجين تساهلا ولينا فاستمهلهم ثم سلمهم يوم ٨ابريل مذكرة افرغت فى قالب الاعتدال و بدأت بشكر الدول على توسطها ثم قالت انه لا يسع الدولة العثمانية قبول اقتراحات ايطاليا بوجه من الوجوه وان شروطها لعقد الصلح هى كما يأتى :

١ ـ المحافظة على حقوق ملكية السلطان لطرابلس الغرب و برقـة محافظة حقيقـة

٢ ـ جلاء الايطاليين عنهما عسكريا

٣ ـ منح ايطاليا امتيازات اقتصادية فى تلك البلاد

وقال وزير الخارجية فى مذكرته ايضا انه لايسع الدولة قبول صلح على غيرهذا الاساس والا ساد الاضطراب السلطنة كلها .

ولقد كان الامر كما قال فقد ظهرت داخل البلاد العثمانية ولا سيما فى معسكرات المجاهدين حركة واسعة النطاق تعارض فى عقد اى صلح مع ايطاليا لا يضمن جلاءها عن البلاد

ونحن نثبت هنا نص الكتاب الذى ارسـله السيد احمـد الشريف السنوسى يومئذ الى انور بك فى درنه قال :

حضرة ولدنا البطل الهمام ، صهر مولانا الخليفة المعظم انور بك زاد مجده .

اما بعد فقد بلغنا ان دولتنا ايدها الله ستتفق باشارة الدول على اعطاء طرابلس الى القوم الطغاة .

ان دماء ابنائنا لاتزال تراق على اديم الصحراء فـداء للدولة والدين فلا نقبل صلحا بوجه من الوجوه وليـكن هذا فى علمك من الآن ، فنحن والصلح على طرفى

نقيض ، وانى اقول فى الختام ان هذا الصلح قد يسبب نفور المسلمين فى جميع الاقطار من الدولة العثمانية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وحمل هذا الكتاب ٤٠ شيخا من شيوخ السنوسية الذين كانوا فى ميدان الجهاد الى انور بك وابلغوه شفاها رأى السيد فوعدهم خيرا .

وارسل الشيخ سليمان البارونى ، من زعماء طرابلس الغرب وكان يقود المجاهدين فى الجبل الغربى برقيـة الى مجلس النواب العثمانى يعارض فيها باسمه واسم اخوانه فى عقد كل صلح مع ايطاليا لا يضمن جلاءها عن البلاد التى اغارت عليها .

١٢

ايطاليا تحتل جزر الارخبيل وتهاجم الدردنيل

اتفقت ايطاليا مع الدول العظمى سرا على ان تطلق يدها فى مضايقة الدولة العثمانية وفى مهاجمة سواحلها ومراكزها فى البحر المتوسط فى حالة اخفاق الوساطة ورفض الباب العالى قبول شروط ايطاليا

ولما حبطت الوساطة وظهرت الدولة بمظهر المتصلب طلبت رومه من الدول اطلاق يدها فأجابتها الى رغبتها فارسلت اسطولها الى البحر المتوسط ، يروده ويعتدى على السفن والمراكز العثمانية ، ما عدا سواحل البانيا فى الادرياتيك فقد تعهدت ايطاليا بعدم مسها رعاية للنمسا .

وظهر هذا الاسطول امام جزر ساموس ورودس ومدللى فى اواسط شهر ابريل واطلق القنابل عليها ثم تقدم يوم ١٩ منه فهاجم مدخل الدردنيل وحاول اقتحامه ودك حصونه فردته المدفعية التركية وهزمته

وهذا نص البلاغ الرسمى التركى الصادر عن هذا الهجوم :

ظهر يوم ١٩ ابريل سنة ١٩١٢ الاسطول الايطالى المؤلف من ٣٩ بارجة امام مدخل الدردنيل واطلق ١٨٠ قنبلة على قلاع سد البحر وارن بورنى فقابلته بالمثل فعطلت احدى بوارجه فغرقت قرب تندوس ، فانسحب وارتد .

ويؤخذ من المعلومات التى عثرنا عليها ان تبادل النيران استمر بين القلاع والاسطول من الساعة العاشرة صباحا حتى الساعة ٢ ونصف بعد الظهر ثم انسحب الاسطول بعد ما ظهر له استحالة التغلب على الحصون

واغلقت الحكومة العثمانية عقب ذلك مضيق الدردنيل فى وجه السفن التجارية و بثت فيه الالغام خوفا من غارة ايطاليـة اخرى ومنعت الدخول والخروج فاحتجت روسيا على اغلاقه لانه يضر بمصلحتها وطالبت بتعويض فردت عليها وزارة الخارجيـة بان حق اغلاقه وفتحه من حقوق الدولة وحدها .

ووجـه الايطاليون وجههم شطر جزر الارخبيل (جزر الدودكانيز) يريدون احتلالها ، لانها غير محصنة ولانه ليس لتركيا قوة بحرية تحميها ، ولان الجانب الاكبر من سكانها روم يودون التخلص من حكم الدولة العثمانيـــة السيء فظهر جانب من اسطولهم يوم ٢٣ ابريل اى بعد ضرب الدردنيل بخمسة ايام فقط امام جزيرة وستمباليا وهى قريبة من جزيرة كريت وتقع فى شرقيها فاستولى عليها بدون عناء واتخـذها قاعدة للتموين .

وفى يوم ٥ مايو ظهر امام جزيرة رودس عاصمة الجزر التركيـة فى الارخبيل فانزل حملة عسكرية بقيادة الجنرال اميلو ، استولت عليها بدون عناء ، فلجأت الحامية العثمانيـة وكانت تتألف من ٣ آلاف جندى الى داخل الجزيرة وتحصنت فى الآكام والجبال ولـكنها لم تلبث ان استسلمت لصعوبة الدفاع ولفقد القوت .

وفى ١٢ منه احتـل الايطاليون الجزر القريبـــة من رودس وهى كربانوس وابيسكونى ونسيروز وكشوت .

وفى ١٣ منه احتلوا جزر كستلريزو وليروس وكالنو وهكذا حتى بلغ عددها ١٣

طرد الايطاليين من البلاد العثمانية

وقرر الباب العالى بعد هـذه الحوادث طرد الايطاليـين من البـلاد العثمانية لخرق حكومتهم قوانين الحرب واعتدائها على الثغور المفتوحة ، وامهلهم مدة ١٥ يوما لتصفية اعمالهم ، فغادرها كثير منهم . و بلغ عدد الذين جلوا عن ازمير وحدها منهم نحو خمسة آلاف على انهم عادوا بعد عقد الصلح ونالوا تعويضا عما خسروه .

١٣

تفاقم الاضطراب الداخلى

لابد لدارس تاريخ الحرب العثمانية ـ الايطالية من القاء نظرة على حالة البلاد العثمانية الداخلية فى خلال تلك الفترة ـ فترة الحرب ـ فان ذلك يساعد على ادراك الحقائق وعلى تقدير الظروف التى احاطت بالدولة واضطرتها فى النهاية الى قبول الصلح الذى كانت ترفضه وتعلن انها لاترضاه

لقد كان من النتائج المباشرة لاعلان ايطاليا الحرب على الدولة وارسالها اسطولها وحملتها الى افريقية الشمالية استقالة او اقالة وزارة حقى باشا الاتحادية ، واشتداد النقمة على جمعية الاتحاد والترقى التى كانت تؤيدها وتشد ازرها واتجاه النية الى تأليف وزارة قومية ، تقود البلاد فى هذه المرحلة الصعبة ، مرحلة الحرب مع ايطاليا ، وتسعى لحل المشكلة بالطرق السلمية وعلى منوال يصون للبلاد حقوقها وكرامتها

والف كوجك سعيد باشا (رئيس مجلس الاعيان يومئذ) ومن خريجى مدرسة السلطان عبد الحميد ، الوزارة الجديدة وكانت الصبغة الاتحادية غالبة عليها فبدأت بالسعى عند الدول للوصول الى اتفاق مع ايطاليا ، وحملت السلطان على الابراق الى ملوك اوربا (انظر ص ٤٥٨) يرجوهم التوسط لحقن الدم فردت الدول على الوزارة كما رد الملوك على السلطان معتذرين بفوات الوقت ، وزاد الطين بلة اعلان ايطاليا يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩١١ ضمها طرابلس الغرب و برقة الى املاكها وابلاغها ذلك الى الدول رسميا لاقراره مما قابله الباب العالى بالاحتجاج والاستنكار

وتقاطر المجاهدون الى ميدان القتال ، وصدموا الطليان فى المعارك الاولى

التى دارت يوم ٢٣ و ٢٦ و ٢٧ و٢٨ اكتوبر حول طرابلس فشدد ذلك من عزيمة الوزارة الجديدة فقررت المقاومة بعد ما كانت مترددة ، وارسلت الضباط الى ميدان القتال لتنظيم حركة الدفاع فشجع ذلك المجاهدين العرب فالتفوا حول قوادهم و زعمائهم وفعلوا الاعاجيب فظهر عجز ايطاليا العسكرى وادركت صعوبة المهمة التى اخذتها على عاتقها فالتفتت الى بلاد السلطنة الاخرى للتضييق على حكومتها وحملها على الرضاء بالامر الواقع وقبوله ، فبدأت بساحل اليمن فضربت وخربت ودمرت وقتلت واسرت فلم يجدها ذلك ولم يبعث الدولة على التساهل فارسلت طرادين من اسطولها الى بيروت فاغرقا يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ الطراد عون الاله والمدفعية تمساح وقتلا ٣٠ وجرحا ٩٨ فلم يغن عنها ذلك شيئا فارسلت الاسطول يوم ١٩ ابريل الى الدردنيل لاقتحامه فعجز وارتد فارسلته الى الجزر فاحتل ١٣ منها بلا عناء لانها غير محصنة ولعدم وجود قوة بحرية تدافع عنها ، فلم يفل ذلك من عزيمة الدولة ولم يحملها على الاستسلام والخضوع ، فاذاع الايطاليون انهم يعدون حملة عسكرية كبيرة لينزلوها فى احدى الثغور العثمانية الكبرى (الدردنيل او ازمير او بيروت او مرسين) فاقلق ذلك الافكار و بعث الدولة على حشد القوى فى المناطق الساحلية ومضاعفة الاستعداد

ولم يحل توالى هذه الاحداث وتتابعها ، واشتباك الدولة فى حرب ضروس مع دولة اوروبية واستيلاء هذه الدولة على بعض اجزاء الوطن الثمينة دون اتساع نطاق المهاترات الحزبية والخلافات الشخصية ، والتزاحم على الكراسى والمناصب ، فقد استفحل النزاع فى تلك الايام – ايام الحرب المخيفة – بين الاتحاديين والائتلافيين ، الذين استغلوا حادث طرابلس الغرب وحماية الاتحاديين لحقى باشا و زملائه الوزراء فحملوا عليهم حملات صادقات فشوهوا سمعتهم ولطخوا اسمهم فانقلب كثير من النواب عليهم ، فرأوا ان خير ما يفعلونه ، هو ان يحلوا مجلس النواب القائم و يأتوا بمجلس آخر يمالئهم و يكون طوع ارادتهم

ولما كان الدستور القائم لايجيز الحل ، فقد اقترحوا تعديل المادة ٣٥ من الدستور تعديلا يخول السلطان حق حل المجلس بالاتفاق مع مجلس الاعيان (الشيوخ)

وعرضت وزارة سعيد باشا مشروع التعديل على مجلس النواب لاقراره فاثار ذلك ضجة شديدة قامت لها البلاد وقعدت فجمع نواب المعارضة جموعهم ووحدوا فواهم وصالوا فى ميدان البلاغة وجالوا متهمين الاتحاديين ، ووزارتهم - وزارة سعيد باشا - بكل نقيصة وملصقين بها كل سبة ، فلم يحل ذلك دون فوز الاتحاديين فى النهاية بما ارادوا فحل المجلس وجرت الانتخابات الجديدة فى ظل الوزارة السعيدية ، فتدخل موظفو الحكومة تدخلا مشينا معيبا فزوروا ، وتلاعبوا واستفرغوا الجهد ، لضمان فوز مرشحى حزب الاتحاد ولمقاومة منافسيهم ، فكثرت الفتن والقلاقل واجتمع المجلس وكانت الاكثرية فيه للاتحاديين فى اسوأ جو ، وشر ظرف ، ولم يكد يبدأ عمله ، حتى اعلن فريق من الضباط العصيان فى مناستير ولجأوا الى الجبال مع عدد من الجند مطالبين بحل المجلس الجديد واقالة وزارة سعيد باشا ومحاكمة حقى باشا وطلبات اخرى

وقاد حسن بك نائب برشتنة (البانيا) وهو من نواب المعارضة الذين قاتلهم الاتحاديون وحرموهم من دخول المجلس الجديد - القوى واعلن العصيان على الدولة ، كما ثار عيسى بولاطين من زعماء البانيا فاضطرت الحكومة الى سوق الجيوش لتأديبهم فقاوموها فوقعت معارك عنيفة بين الفريقين ، واتسع نطاق الفتن وامتدت الى معظم انحاء البانيا وقام الالبانيون يطلبون ما يأتى للرجوع الى الطاعة :

١ - تحديد حدود البانيا السياسية

٢ - اعادة العلم الالبانى

٣ - تعيين حاكم عام لالبانيا من اسرها الحاكمة القديمة

٤ - استبدال جميع الموظفين الاجانب (اى الترك) بموظفين البانيين

٥ - جعل اللغة الالبانية لغة رسمية

٦ - تأييد قبول هذه المطالب بضمان دولى

٧ ـ اقالة وزارة سعيد باشا وحل المجلس الجديد

ورأى دعاة الجامعة السلافية واليونانية فى مقدونية ـ وكانت لاتزال تابعة لتركيا ـ ان الفرصة السانحة من خير الفرص لتحقيق آمالهم والفوز باستقلالهم ، فالفوا العصابات القوية ونزلوا الى الميدان يساهمون فى قتال الدولة واضعافها وتحركت دول البلقان معهم ورفعت روسيا رأسها فتحرجت الحالة فلم يجد محمود شوكت باشا وزير الحربية وقطب الاتحاديين الاكبر بدا من الاستقالة فانسحب من الوزارة لعدم امكانه البقاء ، وكان نايل بك وزير المالية قد سبقه الى الاستقالة ، واقتفى اثرهما سعيد باشا فرفع استقالة الوزارة كلها يوم ٢٠ يوليو سنة ١٩١٢ اى بعد انقضاء تسعة اشهر وايام على قيامها لها ، وحالة الدولة اسوأ ما يكون ، والفتن متأججة فى معظم الانحاء والحرب مستمرة ، والخزينة خاوية خالية .

وقال العقلاء ان خير دواء لداء الدولة هو تأليف وزارة قومية تضم شيوخ السياسة واقطاب البلاد المجربين واطلاق يدهم فى معالجة الازمة فتألفت الوزارة الجديدة يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩١٢ برئاسة الغازى احمد مختار باشا واشترك فيها كامل باشا الصدر الاعظم السابق وجمال الدين افندى شيخ الاسلام وناظم باشا الشركسى وحسين حلمى باشا وغيرهم من الاقطاب والشيوخ المحنكين المجربين فاطلق الترك عليها اسم « بيوك قابينه » اى الوزارة الكبرى .

ولكن هل حققت هذه الوزارة للترك امانيهم وانقذت بلادهم ، وصانت شرفهم ، واستردت الجزر وطرابلس وسكنت الفتن فى البانيا والبلقان ؟ كلا ثم كلا . فانها لم تعمل عملا ايجابيا ، لانها جاءت والامر مدبر ، فكان على يدها سقوط الدولة فى هاوية الفناء وهزيمتها شر هزيمة عرفها التاريخ ، وتسليمها للايطاليين بما طلبوا .

١٤

عودة الى ميدان القتال

الهانا الاهتمام بتسجيل الحوادث السياسية وتدوينها عن متابعة سير وقائع الحرب واثبات مادار بين المجاهدين والطليان فى فترة الحرب الاولى

والواقع انه لم تقع معارك ذات شأن ، فى خلال تلك الفترة ، فترة الشتاء والصيف ، فقد لزم الايطاليون مراكزهم الساحلية فى طرابلس الغرب ، وفى الخمس ، وفى بنى غازى وفى طبرق ودرنه لايغادرونها الا نادرا ، فيلقاهم المجاهدون و يغنمون منهم المغانم الكثيرة و بذلك تبدل حال العرب من الفقر والفاقة الى الرخاء لكثرة ما كانوا يغنمونه و يكسبونه

ولا نملك احصاء حقيقيا لعدد قوى المجاهدين الذين كانوا يقاتلون الايطاليين فى الميادين الخمسة : طرابلس الغرب والخمس و بنى غازى ودرنه وطبرق يومئذ والراجح ان عدد الجيش المنظم منهم ما كان يزيد على ١٠ آلاف مقاتل - عدا المتطوعة وليس لهم احصاء صحيح يعول عليه - نظامهم على عجل الضباط الذين تقاطروا الى ميدان الجهاد وما كان عددهم يزيد عن المائتين . و يقول احصاء شبه رسمى تركى ان الحكومة العثمانية كانت تنفق على الحرب الطرابلسية ثلاثين الف ليرة عثمانية شهريا اى بمعدل الف ليرة كل يوم بما فى ذلك رواتب الضباط وثمن الاسلحة والمعدات التى كانوا يستوردونها بطريق تونس ومصر ونفقات المجاهدين وكانوا يعطون المجاهد قرشين كل يوم

وهذه اسماء كبار القواد الذين اشتهروا فى تلك الحرب :

١ - نشأت بك وفتحى بك فى ميدان طرابلس الغرب ، وكانا يرابطان فى العزيزية

٢ ــ عزيز بك (باشا) على المصرى فى بنى غازى

٣ ــ انور بك (باشا) فى درنه وكان يتولى القيادة العامة لمقاطعة برقة كلها

٤ ــ ادهم باشا الحلبى فى طبرق

٥ ــ خليل بك (خليل باشا) (عم انور باشا) فى الخمس

٦ ــ موسى بك على اليمانى فى زوارة

اما قوات الايطاليين فكانت تزداد على التوالى حتى بلغت فى آخر تلك المرحلة ١٤٠ الف جندى . ومما لابد من ذكره ان الايطاليين جندوا عددا كبيرا من الاحباش سكان الارتيره وارسلوهم الى ميدان الحرب لقتال المجاهدين العرب

وتبدل موقف الايطاليين عند حلول فصل الربيع من سنة ١٩١٢ فانزلوا حملة عسكرية فى سيدى سعيد تتألف من ١٢ الف مقاتل بقيادة الجنرال جاريونى للزحف الى زوارة واحتلالها والقصد من ذلك قطع المواصلات بين تونس وطرابلس ومنع وصول السلاح والميرة والضباط الى المجاهدين فصمد لهم هؤلاء وقاتلوهم قتالا مرا وانتهى هذا الدور ببلوغ الايطاليين زوارة واحتلالها

وفى شهر يونيو من تلك السنة قام الايطاليون بهجوم عام فى منطقة طرابلس الغرب ، اعدوا له واستعدوا وكانوا يرجون ان يبلغوا به العزيزية ولكنهم دحروا

وفى يوم ٩ يوليو ظهر الاسطول الايطالى امام مصرانه فضربها وانزل فيها قوة عسكرية فلاقاها المجاهدون وقاتلوها

وادرك الايطاليون انه ليس فى طاقتهم التغلب على القوى الواقفة سدا منيعا فى وجوههم الا اذا حشدوا قوات عظيمة يحتاج حشدها الى وقت طويل ويكلف نفقات باهظة ، فرأوا ان الافضل لمصلحتهم ان يضغطوا على تركيا سياسيا ويضايقوها فى البلقان ، فسعوا فالفوا بين شعوبه ووفقوا بينها ودفعوها لمناوءة الترك فاسرع هؤلاء الى مصالحة ايطاليا واعترفوا لها بما ارادته وطلبته

١٥

معاهدة اوشي وملاحقها

يؤخـذ من المعلومات التي لدينا ان وزارة سعيد باشا الاتحادية هى التى فتحت باب المفاوضات مع الايطاليين لعقد صلح ينهى حالة الخصام و يقر السلام وان المباحثات الاولى تمت تحت اشراف الامير سعيد حليم باشا احد اقطاب الاتحاديين

و يؤخذ من هذه المعلومات ان المندو بين الايطاليين اجتمعوا بالمندو بين العثمانيين للمرة الاولى فى لوزان (سو يسرا) يوم ١٢ يوليو سنة ١٩١٢ اى قبل استقالة الوزارة السعيدية بثمانية ايام فقط . وما كادوا يبدءون العمل حتى سقطت الوزارة فتوقفوا ورفع العثمانيون الامر الى الوزارة الجديدة فجاءتهم تعليماتها بان يواصلوا البحث مع زملائهم الايطاليين

وكان يمثل الدولة العثمانية فى هـذه المفاوضات محمد نابى بك سفيرها فى بلغراد وفخر الدين بك سفيرها فى شتينة (عاصمة الجبـل الاسود) اما ممثـلو ايطاليا فهم السنيور فوزيناتو والسنيور بيرتوليني والـكونت فولبى

واستمرت المفاوضات شهر اغسطس بطوله وانتصف شهر سبتمبر والمتفاوضون واقفون فى مكانهم فقـد كان العثمانيون يقترحون اقتراحات لا يقرها الايطاليون وكان هؤلاء يلحون بانتزاع اقرار من الترك بالاعتراف بضم هـذه البلاد الى ايطاليا تنفيذا للقرار الصادر بضمها اليها

ولما اضطربت الحالة فى البلقان ، وظهر انه لم يبق مناص من الحرب ، رأى الباب العالى ان يسرع فى عقـد الصلح مع ايطاليا ليتفرغ للحرب الجديدة وليتخلص

من دسائس الايطاليين ومن مناوراتهم ، ومن تهديدهم المتواصل فانتدب رشيد باشا وزير الزراعة والتجارة فى الوزارة المختارية وزوده بسلطة واسعة ، فسافر يوم ٢٧ سبتمبر الى لوزان للاشتراك فى المفاوضات وحل المشكلة باى طريقة كانت

واستؤنفت المفاوضات بهمة ونشاط بعد وصول رشيد باشا وتم التفاهم ووقع الفريقان يوم ١٥ اكتوبر سنة ١٩١٢ اتفاقا سريا هذا نصه :

المادة الاولى ـ تتعهد حكومة الامبراطورية العثمانية بان تصدر فى خلال ثلاثة ايام من توقيع هذا الاتفاق على الاكثر فرمانا موجها الى الشعب الطرابلسى والبرقاوى يطابق الملحق رقم ١

المادة الثانية ـ يجب ان توافق الحكومة الملكية الايطالية مقدما على تعيين نائب السلطان والرؤساء الدينيين وان تحدد رواتب هؤلاء الرؤساء ونائب السلطان باتفاق خاص يعقد بين الحكومتين وتدفع رواتبهم من الدخل المحلى ما عدا راتب القاضى، فان الحكومة العثمانية هى التى تدفعه و يجب ان لايزيد عدد هؤلاء الرؤساء عما كان عليه عند اعلان الحرب

المادة الثالثة ـ تتعهد الحكومة الايطالية الملكية بان تصدر فى خلال مدة ثلاثة ايام على الاكثر من نشر الفرمان المنصوص عليه فى المادة الاولى مرسوما ملكيا مطابقا لنص الملحق رقم ٢

المادة الرابعة ـ تتعهد الحكومة العثمانية بان تستصدر فى خلال مدة ثلاثة أيام على الاكثر من نشر الفرمان الملكى المنصوص عليه فى المادة الاولى ارادة ملكية طبقا لنص الملحق رقم ٣

المادة الخامسة ـ عقب نشر المراسيم الثلاثة ذات الطرف الواحد المنصوص عليها فى ماتقدم يوقع الفريقان المتعاهدان معاهدة عامة طبقا لنص الملحق رقم ٤

المادة السادسة ـ ومن المتفق عليه طبعا والمفهوم من هذا الاتفاق ان حكومة الامبراطورية العثمانية تتعهد بان لاترسل ولا تسمح بارسال سلاح من تركيا الى طرابلس الغرب و برقة وذخائر واسلحة وضباطا وجنودا

المادة السابعة ـ لاتطالب حكومة من الحكومتين المتعاقدتين الاخرى بما انفقته من نفقات على اطعام اسرى الحرب وايوائهم

المادة الثامنة ـ يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان ، بابقاء هذا الاتفاق سريا على ان يكون لكل حكومة حق الخيار باعلانه عند تقديم المعاهدة المنصوص عليها فى الملحق الرابع الى برلمانها

يوضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ يوم توقيعه

المادة التاسعة ـ ومن المتفق عليه ان « الملاحق » المنصوص عليها فى هذا الاتفاق تعد جزءا متمما له

كتب فى لوزان بنسختين يوم ١٥ اكتوبر سنة ١٩١٢

بيترو برتوليني . جويدو فوزيناتو . جيسب فولبى

محمد نابى . روم اوغلو فخر الدين

التوقيع على المعاهدة ونشرها

وعملا بما جاء فى الاتفاق السرى اجتمع مندوبو الفريقين ووقعوا فى الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر يوم ١٨ اكتوبر على المعاهدة وهذا نصها :

لما كان جلالة ملك ايطاليا وجلالة سلطان العثمانيين يرغبان كل منهما كالآخر فى ايقاف الحرب الدائرة بين الدولتين فقد عينا مندوبيهما فعين جلالة ملك ايطاليا المسيو بيترو برتوليني الحامل نشان تاج ايطاليا من الدرجة الاولى ونشان القديسين موريس ولازار من الدرجة الثانية والعضو فى مجلس النواب والمسيو جويدو فوزيناتو الحامل نشان تاج ايطاليا من الدرجة الاولى ونشان القديسين موريس ولازار من الدرجة الثانية والعضو فى مجلس النواب وفى مجلس الدولة والمسيو جيسب فولبى الحامل نشان القديسين موريس ولازار من الدرجة الثالثة ونشان تاج ايطاليا من الدرجة الثالثة

وعين جلالة سلطان العثمانيين عطوفة محمد نابى بك الحامل النشان العثمانى من الدرجة الاولى والمندوب فوق العادة والمعتمد المفوض وسعادة روم اوغلو فخر الدين بك الحامل النشان المجيدى من الدرجة الثانية والنشان العثمانى من الدرجة الثالثة والمندوب فوق العادة والمعتمد المفوض . وقد تبادل اولئك المفوضون فحص اوراق اعتمادهم فوجدوها صحيحة قانونية واتفقوا على المواد الآتية :

المادة الاولى ـ تتكفل الدولتان ان تتخذا حالما تمضى المعاهدة الاجراءات الضرورية لايقاف رحى الحرب حالا وسيرسل معتمدون خصوصيون الى ساحة الحرب لانفاذ ذلك

المادة الثانية ـ تتكفل الحكومة العثمانية وحكومة ايطاليا بان تصدرا الاوامر حالا بعد امضاء هذه المعاهدة باستقدام ضباطهما وجيوشهما وموظفيهما الملكيين الاولى من طرابلس الغرب وبرقة والثانية من الجزر التى احتلتها فى بحر ايجه

ويجلو الضباط والجيوش والموظفون الملكيون الايطاليون فعلا عن الجزر المذكورة بعد جلاء الضباط والجيوش والموظفين العثمانيين عن طرابلس وبرقة

المادة الثالثة ـ تتبادل الحكومتان الاسرى والرهائن باسرع مايمكن

المادة الرابعة ـ تتكفل الحكومتان باصدار عفو عام تام فتعفو حكومة ايطاليا عن سكان طرابلس وبرقة والحكومة العثمانية عن سكان بحر ايجه التابعين للسلطنة العثمانية الذين اشتركوا فى الحرب او الذين القيت عليهم بعض التهم بسببها ماعدا الجرائم المختصة بالحق العام بحيث لايمكن محاكمة اى شخص من اى طبقة او من اى فئة كانت ولا مس شخصه او املاكه او حقوقه بسبب اعماله السياسية او العسكرية او بسبب الآراء التى ابداها فى مدة الحرب ويطلق فى الحال سراح الاشخاص الذين سجنوا او نفوا بسبب ذلك

المادة الخامسة ـ يعمل حالا بجميع المعاهدات والاتفاقات والعقود التى عقدت او كانت نافذة بين الفريقين المتعاقدين قبل اعلان الحرب مهما يكن جنسها ونوعها

والغاية منها وتعود حالة الحكومتين ورعاياهما ازاء بعضهما الى مثل ما كانت عليه قبل وقوع الحرب

المادة السادسة ـ تتكفل ايطاليا بان تعقد مع الدولة العثمانية حينما تجدد معاهداتها التجارية مع الدول الاخرى معاهدة تجارية على قاعدة الحق العام الاوربى يعنى ان تترك للدولة العثمانية كل استقلالها الاقتصادى وحق السير فى امورها التجارية والجمركية على خطط الدول الاوربية من دون ان تغل يدها بالامتيازات القنصلية والمعاهدات الاخرى المعمول بها الآن . ولا يعمل بهذه المعاهدة التجارية الا حينما يعمل بالمعاهدات التجارية التى تعقدها الدولة العثمانية على هذه القاعدة مع الدول الاخرى

ثم ان ايطاليا تقبل من جهة اخرى رفع رسوم الجمرك النسبية على البضائع فى السلطنة العثمانية من ١١ الى ١٥ فى المائة و باحتكار الاصناف الخمسة الآتية او بزيادة الرسوم على ما يستهلك منها وهى البترول وورق السيجارة وثقاب الكبريت والكحول وورق اللعب على شرط ان تشمل هذه المعاملة جميع واردات البلاد الاخرى فى آن واحد و بلا تمييز ولا تفريق وتكون ادارة هذه الاحتكارات ملزمة بأخذ قسم من هذه الاصناف من الواردات الايطالية بحيث يعين مقدار هذا القسم على قاعدة الوارد السنوى منها و يكون ثمنها مطابقا لحالة السوق حين شرائها مع مراعاة جنس البضائع ومتوسط ثمنها فى السنوات الثلاث السابقة لسنة اعلان الحرب

فاذا رأت الدولة العثمانية ان تستعيض عن احتكار هذه الاصناف بفرض ضريبة اضافية على مايستهلك منها وجب لفرض هذه الضريبة على الاصناف المذكورة الايطالية ان تفرض ايضا على حاصلات الدولة العثمانية والامم الاخرى من هذه الاصناف

المادة السابعة ـ تتكفل الحكومة الايطالية بالغاء مكاتب البوستة الايطالية فى السلطنة العثمانية حالما تلغى الدول التى لها مثل هذه المكاتب فى بلاد الدولة العلية مكاتبها

المادة الثامنة ـ لما كانت الدولة العلية تنوى مفاوضة الدول فى مؤتمر او بطريقة

اخرى فى ابطال الامتيازات القنصلية من السلطنة العثمانية واستبدالها بنظام الحق الدولى فايطاليا تعلن من الآن رغبتها فى تعضيدها فى ذلك تعضيدا صادقا وتعترف بأحقية مقاصدها من هذا القبيل

المادة التاسعة — تعلن الدولة العثمانية انها مستعدة ان تعيد الرعايا الايطاليين الموظفين فى مصالحها والذين اضطرت ان تفصلهم عنها حين اعلان الحرب الى وظائفهم اظهارا لرضاها عن خدماتهم الصادقة لها وان تدفع لهم رواتب الاستيداع عن الاشهر التى قضوها خارج وظائفهم ولا يضر هذا الانقطاع عن الخدمة اقل ضرر بالمستخدمين الذين يستحقون معاشا

ثم تتكفل الحكومة العثمانية ايضا ان تتوسط لدى المصالح التى لها علاقة بها مثل صندوق الديون العمومية وشركات السكك الحديدية والبنوك وغيرذلك حتى تعامل الرعايا الايطاليين الذين كانوا فى خدمتها نفس هذه المعاملة

المادة العاشرة — تتكفل حكومة ايطاليا ان تدفع سنويا الى صندوق الديون العمومية العثمانية لحساب حكومة جلالة السلطان مبلغا معادلا لمتوسط المبلغ الذى خص فى السنوات الثلاث السابقة لاعلان الحرب من ايرادات ولايتى طرابلس و برقة لصندوق الديون العمومية العثمانية ويعين مقدار هذا المال السنوى معتمدان تعين احدهما حكومة ايطاليا والآخر الحكومة العثمانية فاذا وقع خلاف بين المعتمدين يرفع الامر الى مجلس تحكيم يرأسه مرجح يعين باتفاق الفريقين فاذا لم يتم الاتفاق على ذلك عين كل فريق من الفريقين دولة وعينت الدولتان مرجحا ويحق لكل من حكومة ايطاليا وصندوق الديون العمومية العثمانية بواسطة الحكومة السلطانية ان يطلب استبدال هذا المال السنوى بمبلغ تكون فائدته موازية للمال السنوى المذكور بمعدل ٤ فى المئة

وتعترف حكومة ايطاليا من الآن ان هذا المال السنوى لا يكون فى حال من الاحوال اقل من مليونى فرنك ايطالى وهى مستعدة ان تدفع الى صندوق الديون العمومية العثمانية رأس المال الذى يتكون من هذا المال كله دفعة واحدة حالما يطلب منها ذلك

المادة الحادية عشرة — يعمل بهذه المعاهدة من تاريخ امضائها

ملاحق المعاهدة

وهذه هى الملاحق الثلاثة التى الحقت بالمعاهدة ونشرت معها :

الملحق رقم ١

منشور من جلالة السلطان الى سكان طرابلس الغرب و برقة

« لما كانت حكومتنا السنية فى حالة يستحيل معها عليها ان تسديكم المساعدات التى تحتاجون اليها للدفاع عن وطنكم ولما كانت الناحية الاخرى مهتمة بضمان راحتكم وهنائكم حاضرا ومستقبلا فرغبة منا فى اتقاء مواصلة حرب مدمرة لكم ولعائلاتكم وذات خطر على امبراطوريتنا ، وفى ادخال السلام والهناء الى وطنكم قد منحتكم استقلالا داخليا مطلقا وتاما بمالى من حقوق السيادة عليكم

« وستدار بلادكم بموجب قوانين جديدة وانظمة خاصة يشترك رجالكم فى اعدادها لكى تأتى مطابقة لحاجاتكم وعاداتكم

« ولقد عينت شمس الدين بك المعروف بصدق الخدمة ممثلا لى عندكم ومنحته لقب نائب السلطان وعهدت اليه بحماية المصالح العثمانية فى بلادكم وذلك لمدة خمس سنوات مع احتفاظى بحق تجديدها او تعيين خلافه

« ولما كانت امنيتنا المحافظة على بقاء الاحكام الشرعية قائمة بينكم فقد احتفظنا بحق تعيين القاضى الذى يتولى تعيين نواب عنه من العلماء ابناء البلاد فيقضون بينكم طبقا لما تقضى به الشريعة . وستدفع رواتب القاضى من جانبنا ومثل ذلك راتب نائب السلطان اما الموظفون الشرعيون الآخرون فتدفع رواتبهم من دخل البلاد »

ملحق رقم ٢

منشور من جانب ملك ايطاليا الى سكان طرابلس الغرب و برقه :

«عملا بالقانون رقم ٣٨ الصادر يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ والذى يجعل طرابلس الغرب و برقة خاضعتين خضوعا تاما مطلقا للسيادة الملكية الايطالية ورغبة فى التعجيل

باعادة السلم الى هاتين المقاطعتين و بناء على اقتراح مجلس الوزراء اصدرنا المرسوم الآتى :

المادة الاولى — منح العفو التام العام للطرابلسيين والبرقاويين الذين اشتركوا فى الحرب او الذين القيت عليهم بعض التهم بسببها ماعدا الجرائم المختصة بالحق العام بحيث لا يمكن محاكمة اى شخص من اى طبقة او اى فئة كانت ولا مس شخصه او املاكه وحقوقه بسبب اعماله السياسية او العسكرية او بسبب الآراء التى ابداها مدة الحرب و يطلق فى الحال سراح الاشخاص الذين سجنوا او نفوا بسبب ذلك

المادة الثانية — يظل اهالى طرابلس الغرب وبرقة متمتعين بتمام الحرية فى اقامة شعائر الدين الاسلامى كما كانوا فى الماضى و يواظبون على ذكر اسم جلالة السلطان الاعظم بصفته خليفة المسلمين فى الصلوات العامة و يعترف بالنيابة عنه للشخص الذى يعينه جلالته لذلك و يدفع راتب هذا النائب من الايرادات المحلية . وتحترم حقوق المصالح الدينية «الاوقاف» كما كانت فى الماضى ولا يوضع اقل عائق فى سبيل علائق المسلمين بقاضى القضاة رئيسهم الامين الذى يعينه شيخ الاسلام والنواب الذين يعينهم هو والذين تدفع رواتبهم من الايرادات المحلية

المادة الثالثة — و يعترف ايضا لنائب السلطان المذكور بحماية مصالح السلطنة العثمانية والرعايا العثمانيين حسبما صارت اليه فى الولايتين المذكورتين بعد اصدار قانون ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢

المادة الرابعة — تعين بمرسوم ملكى لجنة يكون من اعضائها بعض اعيان البلاد تقترح وضع الانظمة المدنية والادارية للولايتين على ان يستمدا من المبادىء الحرة ويقوما على احترام اخلاق البلاد وعوائدها

ملحق رقم ٣

والملحق الثالث خاص باصدار عفو عن سكان جزائر ايجه الذين اشتركوا فى الاعمال العدائية ضد العثمانيين وقد تعهدت فيه الدولة بان تدخل اصلاحا اداريا وقضائيا الى بلادهم وان تختار موظفيها من الذين يعرفون اللغة المحلية ومن المشهورين بالاخلاق

تلك هى مجموع الاتفاقات السرية والعلنية التى عقدت بين الايطاليين والترك فى تلك الايام ولا بد لنا من ترديد ما رواه بعض الرواة وهو أن الترك اصروا فى ابتداء مفاوضات الصلح على ان تتنازل الدولة للطرابلسيين والبرقاويين عن حقوق سيادتها مباشرة وتعترف لهم بالاستقلال التام فابى عليها الايطاليون ذلك واصروا على اقرار الصيغة التى وضعوها فلم تجد بدا من القبول فى النهاية تحت ضغط دول البلقان الذين تألبوا عليها لضعفها وعجزها واختلاف زعمائها وكره رعاياها لها فحملوا عليها حملة صادقة فزلزلوها وهزموها والبقاء للاصلح والأفضل فى كل زمان ومكان

١٦

بعد عقد المعاهدة

وقعت تركيا معاهدة اوشي من دون ان تستشير زعماء طرابلس وبرقة وهم الذين قامت الحرب على اكتافهم واداروا رحاها كل تلك المـــدة الطويلة وبذلوا النفس والنفيس في سبيلها ، ولم تطلعهم على شيء مما قررت تنفيذه وما ذلك الا لانها كانت تود التخلص من مشكلتها باى طريقة كانت لتنصرف الى الحرب البلقانية وكانت قد اعلنت ولتتقي شر ايطاليا ودسائسها في الادرياتيك والبانيا والبلقان وعسير ، ولتتخلص من الاسطول الايطالي وكان يعرقل حركة النقل في البحر المتوسط ويكتم انفاس الترك

ووصل الى طرابلس شمس الدين باشا مندوب السلطان فاستقبله الايطاليون بالحفاوة وما كاد يستقر به المقـام حتى انقلب الى داعية ايطاليـة يدعو الى اقناع العرب بطرح السلاح والتسليم لايطاليا والكف عن مقاومتها فجمع له الايطاليون الناس في طرابلس فتـلا عليهم الفرمان السلطاني ثم دعاهم الى ترك السـلاح وذهب للغاية نفسها الى بني غازي وخطب فيها كما خطب في طرابلس

واذاع حاكم طرابلس الايطالي خبر عقد الصلح يوم ٢١ اكتوبر وارسل يبلغه الى قيادة الجيش في العزيزية ، ومثـل ذلك فعل قائد بني غازي ودرنة ، وبقية قواد الايطاليين ، فقد كانوا يترقبون حلول هـــذا اليوم بفارغ صبر للتخلص من المقاومة العنيفة التي كانوا يلقونها

واسرعت وزارة الحربية العثمانية فارسلت تعليمات الى قواد الجيش بان يكفوا عن النضال ويعودوا الى تركيا مسرعين ، ويؤخـذ من المعلومات التي وقفنا عليها ان

انور بك (انور باشا) كان اسرع هؤلاء فى الرجوع فانه صبر حتى جن ليل اليوم الذى تلقى فى نهاره الأمر بالرجوع فغادر معسكره من دون ان يطلع احدا من زعماء المجاهدين على سفره بل ابقاه سرا مكتوما ، وعهد بالقيادة الى عزيز بك على المصرى (عزيز باشا) وكان يعمل معه فى منطقة بنى غازى وسافر ايضا على الأثر مصطفى كمال بك (اتا تورك) وتتابع سفر الضباط ، ولم يبق هنالك سوى عدد قليل منهم ابى ان يغادر ميدان القتال وفى جملة هؤلاء نشأت بك قائد طرابلس الغرب فقد اجاب على بلاغ حاكم طرابلس الايطالى اليه بعقد الصلح بانه لا يعترف بالصلح الذى عقدته حكومة الاستانة . على ان معظم الذين بقوا فى اول الامر اضطروا الى الانسحاب تدريجيا بسبب الحاح الحكومة العثمانية الناشىء عن ضغط ايطاليا وتشديدها ومنهم نشأت بك نفسه فقد لحق بزملائه فاضعف ذلك حركة المقاومة كما اضعفها انقطاع ورود المال والسلاح

١٧

اعلان استقلال طرابلس

لم يفت استسلام الدولة للايطاليين وتوقيعها الصلح الذى ارادوه وتخليها عن البلاد واصدارها الامر الى القواد والضباط بالانسحاب فى عضد المجاهدين سواء فى طرابلس او برقة ولم يحملهم على اليأس والقنوط اذا لم نقل انه زادهم اقداما وجرأة

فى طرابلس

فقد عقد زعماء الحركة الوطنية اجتماعات فى لواء الجبل الغربى ولواء فزان وورفلة لدرس الحالة واتخاذ مايلزم من التدابير فقرروا اعلان استقلال طرابلس وانشاء حكومة وطنية برئاسة الشيخ سليمان البارونى مستندين فى ذلك الى الفرمان السلطانى الصادر بمنح البلاد الاستقلال

ونحن نثبت هنا نص المضبطة التى وقعها الزعماء بهذا الشأن وهى :

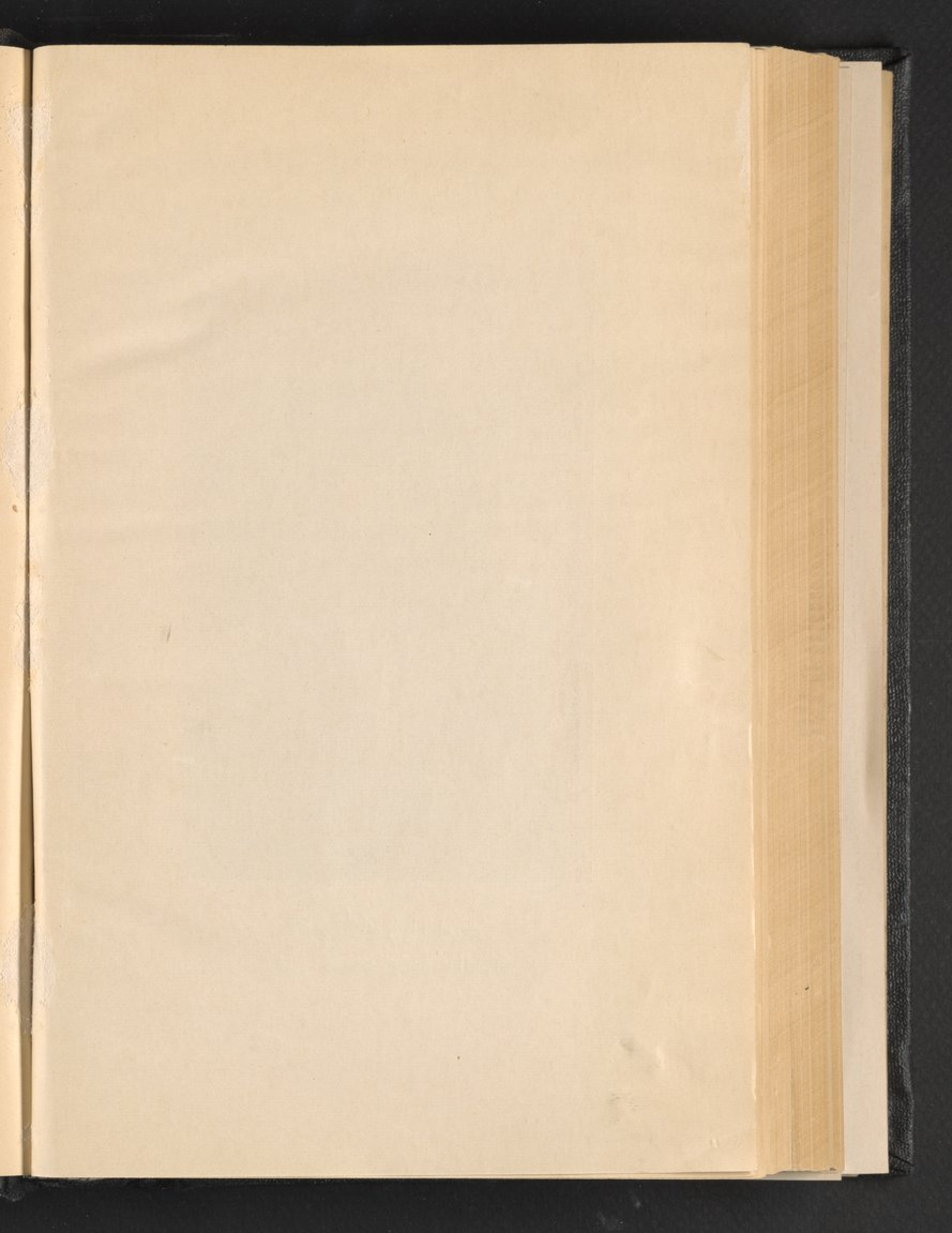
بناء على الفرمان المؤرخ فى شهر ذى القعدة الحرام سنة ١٣٣٠ القاضى بمنح بلادنا الاستقلال قد اتفقنا على الرضاء به ، وقبوله مع كمال السرور وكلفنا حضرة مبعوث الجبل سليمان بك (سليمان باشا) البارونى باعلان استقلالنا وتبليغه الى من يلزم التبليغ اليه وتشكيل حكومة تقوم بما يلزم اتخاذه من حفظ الراحة وتعميم الامن ومحافظة شرف الدين والوطن على قواعد الشرع الشريف والنظامات العمرانية مع القيام بكل ما يجب اتخاذه من وسائل المدافعة كالمال والرجال والسلاح والتوفيق من الله والنصر بيده

ذو القعدة سنة ١٣٣٠

ويلى ذلك التواقيع وقد وضعت مضابط كثيرة على هذا النمط



الشيخ سليمان باشا الباروني
رئيس الحكومة الطرابلسية المستقلة



بلاغ انشاء الحكومة

وتولى البارونى رئاسة الحكومة الجديدة وابلغ ذلك الى الدول العظمى والى الصحف الكبرى ، كما ارسل وفدا الى اوربا للسعى عند حكوماتها لنيل الاعتراف منها ونشر الدعاية لها

وعكف على تنظيم البلاد تنظيما جديدا فعين المتصرفين والقائمقامين والقضاة والمفتين والكتاب وانشأ آلايا من الدرك المشاة والفرسان والهجانة ، ونظم البريد والبرق والتلفون وفتح له مكاتب فى جميع الجهات بين اورفلة وغدامس وغات فى حدود تونس وانشأ خط حرب ازاء الايطاليين يبتدىء من ورفلة مارا امام غريان والزعترية ومنطروس وبير الخشب فى جهة العزيزية ،وامام صرمان والعجيلات والعلالقة وزوارة فى بلاد الساحل

بين البارونى ونائب السلطان

وارسل البارونى باشا الى نائب السلطان فى طرابلس يبلغه ما جرى و يطلعه على رأى المجاهدين فتلقى منه الجواب الآتى :

باسمه تعالى و بحمده والصلاة على نبيه وآله وعلى كل صفوته من خلقه

من شمس الدين باشا نائب السلطان ، عبد من عباد الله الى سليمان بك البارونى هداه الله تعالى الى ما هو خير له فى الدنيا والاخرة :

اما بعد فقد وردنى كتابكم الشريف المؤرخ فى ٥ محرم سنة ١٣٣١ واطلعت على ما اودعتموه من معان ومطالب فاجيبكم الآن مختصرا وقائلا ان الصلح قدوقع بين الدولتين وان الخليفة الاعظم حفظه الله تعالى ارسلنى الى طرابلس و بنى غازى نائبا عنه لاكون مرجعا عاليا للامور الدينية ومحافظا على المنافع العثمانية . وسيجىء قاضى القضاة من مركز الخلافة و ينتخب النواب من هنالك

وقد كنت حاملا لفرمانين شريفين صادرين من حضرة الخلافة اعزها الله تعالى فقرأتهما مرة على اهل طرابلس واخرى على اهل بنى غازى ليطلعوا على ما فيهما من

احكام تتعلق بهم ، و بعد كل قراءة خاطبت الجماعة الحاضرين خطابا فى طرابلس وخطابا فى بنى غازى اودعتهما آيات وجوامع كلم ظننت ان فيها صلاح من فى هذه البلاد من المسلمين خاصة ومن فى سائر الاقطار منهم عامة وها انا اكتبهما هنا بعباراتهما (اهملنا نشرهما لعدم الفائدة من اثباتهما) لينظر الناظر و يعتبر المعتبر

ثم ازيد فاقول اذا ذهب الامر فانما التفاضل بالقيم الشخصية والفضائل النفسية فزكوا انفسكم تفلحوا، قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ؛ وهو على كل شئ قدير . والسلام على من اسلم وجهه وهو محسن والحمد لله رب العالمين »

١٨ محرم سنة ١٣٣١ — شمس الدين [1]

---

(١) سعى الايطاليون فى تلك الفترة وقبلها لاغراء البارونى بالاتفاق معهم والتسليم بالامر الواقع فابى ونحن نثبت نص كتاب ارسله اليه الجنرال سالساتومارو وكيل الوالى يوم ١٦ يناير سنه ١٩١٢ اى قبيل صلح اوشى يدعوه فيه الى الاستسلام وهو :

لحضرة صاحب السعادة سليمان بك البارونى المبعوث المحترم

بعد تقديم واجبات الاكرام المقرونة بالتحيات والسلام فاننا بلغنا انكم من هو من هيأ ولن يزال يهيئ الوسائط لمقاومة احتلالنا ، وانكم من اعظم المعاضدين للترك والمجندين ، الا انه لا نجهل ايضا انكم متصفون بالفطانة والذكاء ، وتنفردون بالآداب والمعارف ولهذا وجهنا اليكم تحريرنا هذا فاعلموا ان جميع ملاحظات الترك وتعليقاتهم وكل المصالح التى ضمتكم اليهم الى هذا التاريخ وكل المناصب التى قلدوكم اياها هيهات ان تنسيكم ان هؤلاء الترك هم عينهم الذين افقروا بلادكم هذه واوقعوها فى البؤس والجهل المستحوذ مع الأسف على وطنكم هذا المسكين ، كما ان ترهات الترك ورطاناتهم مع مواعيدهم المتصلة ، بوصول الامدادات عن قريب لا يثق بها الا من جهل حقيقتهم الا انه من المستحيل ان تركنوا اليها انتم الذين هيهات ان يخفى على بصائركم النافذة شئ ومن الممتنع ايضا ان تصدقوا ان دولة عظيمة الشكيمة كايطاليا احتلت (بعد

ولما عجز الطليان عن اقناع المجاهدين بالاستسلام حشدوا قوات كبيرة لقتالهم فدارت معارك كانت سجالا. ورأى الشيخ البارونى ان مصادر المجاهدين المادية لا تكفى لمواصلة القتال فاقترح على الوفد الذى ارسله الى اوربا ان يعجم عود ولاة الامور الايطاليين وان يسعى لعقد صلح معهم على قاعدة منح طرابلس استقلالا اداريا داخليا تحت سيادة ايطاليا فسوّف الايطاليون وماطلوا ثم وافقوا مبدئيا على أن يرسلوا وفدا الى تونس للاجتماع بالشيخ نفسه والبحث معه فى عقد صلح

واعد الايطاليون فى طرابلس المعدات لهجوم عام فى جهات جندوبة والزعترية

التأمل التام والتهيئة اللازمة و بعد الاتفاق مع الدول المعظمة) هذه الامصار يمكنها ولو تصورا ان ترجع القهقرى وتكف عن انجاز مشروع اقدمت اليه باسم المدنية والانسانية ولكى تشرع مخرجا لدوام حياتها التى فى فيضان متصل

اما مقاصد الحكومة الايطالية فلا بد انكم اطلعتم عليها مما عملت الاعلانات التى اصدرناها الى هذا اليوم ناطقة بحسن نيتها وعلو غايتها . هذا وان الحال والواقع يغنى عن الايضاح فمن جهة نرى الدولة العثمانيـــة قد قوضت هذه البلاد واضعفتها كما سبق الكلام وهى محكوم عليها من طرف القضاء المحتوم ان تترك هذه البلاد لوهنها وعجزها ومن جهة اخرى نشاهد ان دولة ايطاليا تستطيع وتريد احياء هذه الاقطار ولها قوة برية و بحرية لاجل احتلال بدل ولاية عشرولايات

غير اننا نرى بوقت واحد ان بين الدولتين من يتحمل نتائج الحرب الوخيمة هى هذه الولاية المسكينة بسفك دم ابنائها كل يوم و بالدثور والدمار الذى تورثها ادامة الحرب فان كانت الحالة هذه فما هى واجبات من كان عربيا ذا نخوة و بصيرة مثل حضرتكم ؟ لعمرنا ان هذا ما نطلب الجواب منكم ؟ قولوا وقيتم ما الفائدة من ادامـــة سفك دماء المسلمين ؟ ومن المسئول امام البارى عزوجل وامام الناس باهراق كل هذه الدماء السائلة كل يوم سواكم ؟ انتم ورؤساء واعيان العرب الذين عوضا من ان تقوموا بواجباتكم الى ابناء دينكم المسلمين الحقيقيـــين رجحتم معاضدة الترك القليلى الدين والايمان (كذا) فى دعوى لا طائل تحتها ، وقد خسروها من زمان طويل ولهذا فاننا

ومنطروس وقبر زايد فدارت معارك عنيفة فانتصر المجاهدون فى الجناح الايسر وتقهقروا فى الجناح الايمن ثم تقدم الايطاليون فاستولوا على الجبال المطلة على مركز المجاهدين العام فى الرابطة ، وفصل ظلام الليل بين الفريقين وكانت ذخائر المجاهدين قد نضبت او كادت ومثل ذلك مؤونتهم فتراجعوا حتى يفرن فلحق بهم الايطاليون فى الغداة وضايقوهم فى انسحابهم

وتلقى البارونى فى تلك الاثناء كتابا من الوفد يقول فيه : ان ايطاليا قبلت مبدئيا اقتراحه بالاعتراف باستقلال طرابلس الداخلى لجمع الشيوخ والسراة والاعيان واطلعهم

نعرض على حضرتكم ان تنزعوا الينا لمعاضدتنا لكى تتم الحرب باقرب زمن لا سيما وانتم واقفون على احوال السياسة فى اوربا ولستم مغتشين (كذا) بما يأتيكم به الترك من خرافات فلا بد من انكم رأيتم ان الصلح قريب ، وان احوال مقدونية الوخيمة والبلبلة والعراقيل الضاربة اطنابها فى حكومة تركيا والنصرة التى نصرنا الله سبحانه وتعالى فى البحر الاحمر على بحرية الترك لا بد من ان تعجل عقد الصلح فان شاركتمونا فى رفع مقاومة العرب وازالتها اذ لا تجدى نفعا ولا طائل فيها تحوزون فضلا ومزية عظيمة فى نظر دولة ايطاليا التى تعدكم لا فقط ان تنسى كل ما اسلفتموه فى حقها الى هذا اليوم وان تمنحكم تمام العفو عن كل ذلك ، وهى مستعدة ان تكافئ خدمكم بصورة تفوق تصوركم ونحن نتكفل لكم بهذا التعهد انما خير البر عاجله كما لا يخفاكم

فاسرعوا اذا لانتهاز الفرصة المناسبة قبل ان تمر مر السحاب ولذلك تروننا منتظرين بفراغ الصبر جواب تحريرنا هذا لحضرتكم وان لم تروا من المناسب والموافق جوابنا تحريرا فليكن ذلك بواسطة شخص تعتمدون عليه وتثقون به وهذا ما لزم ودمتم سالمين

ورد البارونى على هذا الكتاب بما يأتى :

« انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم الا تعلوا على واتونى مسلمين » خاضعين للعلم العثمانى المقدس

فى ١ ربيع الاول سنة ١٣٣٠

على الجواب وسألهم رأيهم فوافقوا على الدخول فى المفاوضة لعدم امكان المقاومة لانقطاع ورود الاسلحة والذخائر بعد عقد صلح كما جفت الموارد المالية

وتم الاتفاق فى تلك الجلسة على الالتجاء الى الحدود التونسية وتبعد عن يفرن اربعة ايام ، وتلقى البارونى فى بلدة نالوت وهو فى طريقه الى تونس برقية من الكونت سفورزا يدعوه الى موافاته فى تونس للمفاوضة ، فاتصل بولاة الامور الفرنسويين فى تونس واتفق معهم على السماح بدخول المجاهدين بشرط ان ينزعوا سلاحهم

وقبل ان يصل البارونى الى تونس غادرها الكونت سفورزا عائدا الى ايطاليا ، والظاهر انه تلقى امرا من حكومته بالرجوع بعد ما تم لجيشها الاستيلاء على مراكز المجاهدين على انه عاد بعد ذلك بمدة وجيزة الى تونس وابرق الى الشيخ البارونى يدعوه الى موافاته فجاء من بنقردان فطلب منه اقتراحات اخرى للاصلاح والتوفيق بدلا من اقتراحات الاستقلال الداخلى لانه لم يبق وجه لطلبها فوضع مشروعا جديدا انطوى على منافع للطرابلسيين عموما والمحاربين بوجه خاص واقترح اصدار عفو عام عن المجاهدين فابرق الكونت الى حكومته بطلبه فجاءه الجواب برقيا بالموافقة فابلغه البارونى الى الطرابلسيين اللاجئين وابلغهم ايضا بان السلطة الفرنسوية فى تونس طلبت منه ان يحثهم على الرجوع الى اوطانهم بعد حصول العفو معتذرة بان اراضى تونس ضيقة لا تكفى الا لاهلها فعاد بعضهم وابى الآخرون ، وارتحل قسم من الذين لم يدخلوا تونس الى جهات فزان وغات بسلاحهم لمواصلة المقاومة وكان ذلك فى اواخر سنة ١٩١٣

اما الشيخ البارونى فقد رحل فى تلك البرهة الى الاستانة بطريق مرسيليا وباريس فانزله العثمانيون على الرحب والسعة وقدروا جهاده وتضحياته حق قدرها فمنحه السلطان لقب باشا وعينه عضوا فى مجلس الاعيان (الشيوخ) مدى الحياة وظل مقيما فيها حتى اعلنت الحرب العظمى فعاد ثانية الى طرابلس فاشعلها حربا ضروسا سنفصل اخبارها فى الجزء الثالث

فى ميدان بنى غازى

تولى انور بك (انور باشا) قيادة المجاهدين فى ميدان بنى غازى فنظمها تنظيما

حسنا وادارها بمهارة وكفاءة وكان يستمد نفوذه من حكومة الاستانة الاتحادية وكانت تمده بكل ما يطلبه

وكان انور اول من تلقى خبر عقد الصلح ، وكانت الحرب البلقانية قد اشتعلت فغادر ميدان القتال سرا ومن دون ان يشعر به احد وسلم القيادة العامة الى زميله فى الجهاد عزيز بك على المصرى

وابلغ القائد الايطالى عزيز بك نبأ عقد الصلح ودعاه الى التسليم فابى وقال انه لا يعترف به واعلن عزمه على مواصلة الجهاد والقتال حتى النهاية ونثبت هنا نص كتاب كتبه الى الشيخ سليمان البارونى فى هذا الصدد فهو يغنى عن الاسهاب قال :

الفيض (امام بنى غازى) ٧ تشرين ثانى سنة ١٣٢٨ (٢٠ نوفمبر سنة ٩١٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة الفاضل الشهم الشيخ سليمان البارونى بك وفقنا واياه الله على اعلاء شأن الدين والوطن آمين

كانت العرب فى الجاهلية شعبا يحارب بعضها بعضا وتتكاسر الى ان سبب الله جمعها بمحمد فما اجتمعت الا والمشرق والمغرب تحت طاعتها، ودولتا الفرس والرمان فى كفتى ميزان عدلها ، والعرب كانت حفاة والفرس كانوا سادة الشرق والرومان سادة الغرب باسره

وفق الله الدين والشرق بالعرب ونزل القرآن بلسانهم لانهم اقدر من غيرهم على المحافظة عليه وقال لهم سيدهم « اليد العليا خير من اليد السفلى » فحكموا وسادوا ثم مضى جيل او جيلان والعرب فى ارتقاء دائم الى ان داهمهم الكسل فالهاهم عن الجديات فابتدأ دور الحسد والنفاق ومنه حدث الشقاق فتفرق الشمل حتى الطرق والمذاهب تشعبت مع ان الدين واحد ومع ان النبى لم يعلم الا مذهبا واحدا وهو المذهب القرآنى ولم يزل المنتسبون للاسلام فى اضمحلال لجهلهم دينهم الى ان ظهر شبان هذا العصر فاقتربوا بما وصلوا اليه من التعليم الى الصواب وباشروا فى استنهاض الهمم ، والنصارى لا يرون لهم ذلك اذ مكسبهم هو فى اختلاف الطوائف الاسلامية فبهذا الاختلاف فتحوا

السودان بمصر ومراكش والوادى بالسنغال وغير ذلك، والمثل الذى نحن فيه هو اكبر الامثال ، فان الطليان لم تقدر حتى على اقل القبائل اهمية فى الحرب

وها قد دخلنا فى السنة الثانية من الحرب وحدود العدو لم تزل مثل الاول ودخولهم فى مصراطه لم يكن الا بواسطة ابن المنتصر فان شئنا فمن الممكن ادامة الاستقلال وهمة الانسان ليس امامها محال و بثباتنا نستجلب قلوب الامم الاسلامية واعاناتها ، وكم من امم وقعت فى شر مما نحن فيه ونجت وعلت بالثبات

فارجوكم ان تؤسسوا المخابرة بيننا ولا تيأسوا من بعض الخائنين فبعد وفاة النبى (ﷺ) ارتد اكثر المسلمين عن الدين ولكن ثبات ابى بكر اعاد الاشياء الى اصلها وزادها من التمكين

وتسليمنا للعدو حقارة عظمى للجنس العربى فيقولون ان هذا الجنس لا يصلح لان يحكم نفسه يخرج من سيد ليدخل تحت سيطرة سيد آخر والاجداد هم القائلون:

وانا لقوم لا توسط عندنا   لنا الصدر دون العالمين اوالقبر

والجاهلون يتعادون من اختلاف المذاهب ومثلكم من يفهم روح الدين ، ارجوكم منع الشقاق فالعرب كالماس لا يؤثر فيه الا جنسه وتكفينا التجارب ، حاربنا بعضا وكسرنا بعضا خدمة للاجانب واعداء الدين . وما سمعناه عنكم بعثنا قبلا على ارسال تلغرافنا المنمر اليكم واليوم نرسل هذا حرصا على الجنس والدين

وحاملها سلامى بك هو صديقنا ومعتمدنا عرفناه بكل ما يلزم ، يوفقنا الله ويهدينا الى الطريق المستقيم   قائد جيش المجاهدين وخادم المسلمين

عزيز على

على ان ظروف الحرب القاهرة اضطرت عزيزبك بعد ذلك الى مغادرة برقة الى مصر فسار ومعه فريق من الضباط والجنود الذين ظلوا فى ميدان القتال قاصدا الحدود المصرية فى صيف سنة ١٩١٣ بعد ان حارب الايطاليين فى معارك عديدة وانتصر فى معظمها

وفى يوم ١٦ يوليوسنة ١٩١٣ بلغ الاسكندرية قادما من السلوم بسفينة شراعية

ركبها من السلوم فقال لجريدة (النوفل) التى تصدر هنالك ان مقاومة العرب لايطاليا صارت عبثا وان الذخيرة والمؤونة فقدت من عنده ومن عند رجاله وبات فى حاجة شديدة الى المال ، ولولا ذلك لما انسحب

ووقع صدام بين عزيز بك وانصاره و بين السنوسيين فى اثناء ارتداده . و يظهر ان ارتدادهم كان بدون موافقة السنوسيين وقتل وجرح فى المعركة عدد من الفريقين وواصل عزيز بك الانسحاب بعدها الى السلوم فالاسكندرية

السنوسيون والغارة الايطالية

تعد الطريقة السنوسية من اعظم الطرق الصوفية فى العالم الاسلامى ومن اكثرها انتشارا و يحصى اتباعها بالملايين ومقرها الرئيسى فى واحة « الكفرة » من ارض برقة او بنى غازى وهى من المقاطعات التى شملتها الغارة الايطالية

ونهض السنوسيون نهضة رجل واحد بقيادة شيخهم سيدى احمد الشريف السنوسى حفيد مؤسس هذه الطريقة لقتال الايطاليين فى برقة وقراعهم فتسابقوا الى ميدان الجهاد والتفوا حول علم الخلافة ووالوا الترك وايدوهم ونازلوا الايطاليين فى معارك كثيرة حول بنى غازى ودرنة وطبرق وتقع هذه المدن جميعها فى منطقة السنوسيين ففازوا عليهم فى اكثرها وهزموهم واستاقوهم حتى الساحل فوقفوا تحت حماية اساطيلهم فقدرت الدولة هذا الموقف الشريف النبيل للسادة السنوسيين وشيخهم واعجب بهم العالم الاسلامى وهتف لهم ، ونظم الشعراء قصائد المدح والثناء فيهم واهدى جلالة السلطان سيفا مرصعا الى سيدى احمد الشريف رمز تقدير واعجاب وكتب اليه العظماء من جميع الانحاء يطرونه و يبدون ارتياحهم الى مواقفه و يستزيدونه نشاطا واندفاعا فى خدمة الدين والملة

وشاعت فى تلك الفترة اشاعات بان الترك ينوون عقد صلح مع ايطاليا والتخلى عن البلاد فزار وفد من شيوخ السنوسية انور بك يستوضحه الحقيقة فنفى لهم الاشاعة نفيا باتا كما تقدم فاطمأنوا وارتاحوا

وتحرج موقف انور حينما عقدت الدولة الصلح متخلية عن اولئك المجاهدين الابرار الذين رفعوا مقام العروبة والاسلام وكتبوا امجد صحيفة فى تاريخ الجهاد وابلغته بان يعود مسرعا فسافر تحت جنح الظلام.

وانتقل الامر مباشرة بعد مغادرة القواد الترك وضباطهم فى برقة كلها الى يد السنوسيين الذين اعلنوا انهم سيواصلون النضال حتى النهاية ولا يضعون السيف من ايديهم حتى يحرروا البلاد او يفنوا عن بكرة ابيهم.

وسعى الايطاليون سعيا حثيثا بعد صلحهم مع تركيا للتفاهم مع السنوسيين واقناعهم بالاخلاد الى السكينة والرضاء بما قسم واجزلوا لهم الوعود فأصروا على متابعة الحرب فوسطوا الخديوى عباس الثانى فأرسل وفدا فى سنة ١٩١٣ الى الجبل الاخضر لمقابلة الشيخ السنوسى وكان قد انتقل اليه والبحث فى امكان الاتفاق مع ايطاليا والوقوف على رأيه وحمل اليه الوفد كتابا خاصا من الخديوى.

وقد تالف الوفد من السادة المأمون والسنوسى ومصطفى انجال السيد محمد عبد المتعال الادريسى وانضم اليهم عبد الحميد بك شديد فقابلهم الشيخ مقابلة حسنة وقال ان شروطه للاتفاق مع ايطاليا هى ان تجلوا عن البلاد وليس هنالك من سبيل غير هذا السبيل للتفاهم فعاد الوفد الى القاهرة ونقل للخديوى ما سمعه وكان بذلك ختام هذه الوساطة واخفاقها فظلت المعارك مستمرة بين الفريقين حتى اعلنت الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ فعاد الترك الى التدخل ثانية فى برقة وارسلوا رسلهم الى السيد احمد الشريف فجهز حملة الى حدود مصر الغربية لقتال الانكليز وكان الترك يستعدون لمهاجمتها من الجهة الشرقية.

وسنصف هذه الاحداث الخطيرة فى الجزء الثالث ونرافق القضية الطرابلسية والبرقاوية فى تطورها وتحولها منذ الحرب العظمى حتى يوم الناس هذا ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق.

القاهرة : فى ٤ شعبان سنة ١٣٥٥ – و ٢٠ اكتوبر ١٩٣٦

امين سعيد

مصادر الكتاب

العربية

١ ـ تاريخ الحركة القومية فى مصر لعبد الرحمن الرافعى

٢ ـ تحفة الزائر فى اخبار الامير عبدالقادر للامير محمد عبد القادر

٣ ـ صفوة الاعتبار للشيخ محمد بيرم التونسى

٤ ـ مذكرات الاستاذ الثعالبى

٥ ـ تاريخ ابن خلدون

٦ ـ حاضر العالم الاسلامى

٧ ـ تاريخ سليمان باشا البارونى (لم يصدر)

٨ ـ نبذة من اعمال ايطاليا فى طرابلس الغرب للشيخ عبدالحميد محمود

٩ ـ الفظائع السود الحمر او التمدين بالنار

١٠ ـ تقارير لجنة الدفاع الطرابلسية ـ البرقاوية فى سورية

الفرنسوية

La Confèrane Algeziras par M. Tardieux

Larousse

الانسكليزية

Eneyclopidia Britanica

تقويم الكتاب

